صور من

تاريخ العراق في العصور المظلمة

بقلم

جعفر الخياط

(كاليفورنية) B. Sc. , M. Sc.

الجزء الأول

ساعدت وزارة الاعلام على نشره

الطبعة الأولى

١٩٧١

المقدّمة

كان التخريب الذي أصاب بغداد غداة داهمتها جيوش المغول والتتار . في أواسط القرن الثالث عشر[1] . قـد أنزلها من عليائها وأطفأ نور الخلافة الاسلامية منها الى الأبد . فقد ثل هذا الغزو البربري عروشها . واستباح خزائنها وكنوزها . وذبح شعراءها وتجارها . وفرّق طلابها وعلماءها وفقهاءها . فقضى على معالم الحضارة الزاهرة فيها قضاءً مبرماً . فاستحالت بذلك خلال أيامٍ معدودة من كونها قهرمانة الممالك وسيدة البلاد الى مركزٍ حقير ثانوي من مراكز الامبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف . وقد خيّم على العراق من بعد هذا ظلامٌ دامس لا تستبين العين في دياجيره الا آثار الجور المبيد . ولا يسترق السمع خلاله الا أنين حضارة سارت بذكرها الركبان . واحتضار مدنية سرعان ما أسلمت الروح فران عليها صمت الموت الرهيب . فدخلت البلاد كلها في سباتٍ عميق ظلت تغط به طوال قرون عديدة . حتى بات شأنها نسياً منسياً .

وأصبحت تلك البلاد العامرة . بعد ان كانت تزدهي بها بلاد الرافدين . وهاتيك السهول الخصبة الممرعة بعد ان كانت تزخر بالخير وتنبض بالحياة . يباباً بلقعاً ونهباً بأيدي خليط متوحش من خانات المغول وبيگات التركمان ما يلبث فيها أحدهم حتى يخرجه منها غيره . وما يستولي عليها فريق منهم حتى

---

(١) لقد استولى هولاكو على بغداد في سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ هـ) .

ينازعه فيها فريق آخر . واستمرت على حالتها هذه أجيالاً عديدة تتلاقفها الأيدي وتلعب بها الأطماع ، وبقيت أعواماً طويلة يتعاور على حكمها الايلخانيون والتيموريون والجلائريون . ويتقاتل من أجلها القره قويونلي والآق قويونلي . حتى تطوّرت بها الحال فقُدر لها أن تقع فريسةً بين أيدي دولتين شرقيتين قويتين هما : الدولة الصفوية في أيران ، والدولة العثمانية في تركية .

فقد شهدت السنين الأخيرة من القرن الخامس عشر انبعاث روح قومية جديدة في إيران . تمتزج بالتصوف والعقيدة الشيعية المتطرفة . وظهر الشاه اسماعيل على مسرح الحوادث فكوّن امبراطوريته الصفوية النامية ، وكان من الطبيعي له أن يتجه بأنظاره نحو العراق ومدنه المقدسة ، ويجهز الجيوش للاستيلاء عليه وإلحاقه بامبراطوريته المتسعة . في الوقت الذي كان يعجل فيه بنصرٍ بعد آخر . وفي أواخر سنة ١٥٠٨ سقطت بغداد بين يدي قائده لالا حسين ، وطويت صفحة أخرى من صفحاتها الحافلة بالتقلبات والأهوال . وعجّل الشاه بالمجيء لزيارة العتبات المقدسة ، والاشراف على فتح البلاد العراقية الأخرى . فكان له ما أراد ، وبعد ان ضم الموصل الى امبراطوريته في (١٥١٠ أصبح العراق كله في قبضة يده .

غير أن هذا الانبعاث القومي الديني في ايران ، وفورة التعاظم الصفوي البادىء بالشاه اسماعيل . قد اتفق وقوعهما في وقت كانت الامبراطورية العثمانية آخذةً بالتوسع والتعاظم على عهد السلطان سليم وابنه السلطان القانوني وكان لا بد لهاتين الدولتين المتعاقبتين ، وهما في أوج قوتهما وعنفوان سطوتهما . من أن تتضارب مصالحهما وتصطدم أطماعهما بطريقة أو أخرى . وكان خير ميدان يحصل فيه هذا كله . بالنسبة لتلك الظروف ، ميدان الزعامة الدينية والتناحر الطائفي الذي كثيراً ما يكون مقروناً بالتعصب الذميم علاوة على المبالغة والتهويل . وقد كان اسم بغداد ، موئل الخلافة العباسية ومجدها الزائل ، وهي « ترزح تحت كابوس الحكم الصفوي الايراني » يوحي بكل ما في هذا التناحر من دوافع للاحتكاك والتصادم . فحصل هذا بالفعل حينما تناهت الأخبار

المبالغ فيها الى استانبول أن الشاه اسماعيل وصل الى بغداد فعبث بقبور أئمة السنة وذبح جماعةً من علمائهم . ومع ان السلطان سليم لم يكن قد اضطلع بأعباء الخلافة الاسلامية أو ادعى بها وعيّن نفسه لها ، ولم يكن قد بدأ يحمل لقب الخليفة المقدس بعد ، فقد أصبح يدّعي ببطولة القضية السنية في العالم الاسلامي ازاء بطولة القضية الشيعية التي كان يعرف بها الشاه الصفوي في ايران . وعلى هذا الأساس وقع التصادم بين الدولتين المسلمتين ، بينما كان يجب ان يتم التفاهم بينهما فيعملان معاً على ما يضمن خير الاسلام وإعلاء شأنه بعد ان صحا العالم الاسلامي في عهدهما من هول الكارثة التي أصابته على أيدي المغول الوثنيين .

وبهذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من النزاع العنيف والحروب المتواصلة ما بين سلاطين آل عثمان من جهة وشاهات الأسر الحاكمة المتعاقبة على دست الحكم في ايران من جهة أخرى ، واستقام هذا النزاع ردحاً طويلاً من الزمن وظل يكتسب أشكالاً والواناً مختلفة عبر السنين والأجيال حتى قُدر للدولة العثمانية ان تزول من الوجود في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد كانت بغداد ، وما يدور في فلكها من حواضر العراق وبلدانه الأخرى ، من أهم المسارح التي ظل هذا النزاع المزمن يحتدم فيها طوال قرون أربعة . ومع ان العراق وسكانه لم يكن لهم في هذا النزاع سوى المصائب والأهوال ، ولم يكن لهم فيه لا ناقة ولا جمل ، لأن الدولتين المتناحرتين كانتا غريبتين عنهم محتلتين لبلادهم ومستأثرين بخيراتها وكنوزها ، فقد وجدوا أنفسهم متورطين فيه بالتدريج ومعنيين بكل وجه من أوجهه المتطاولة . فقد كان من سوء حظ العراق وسكانه ان يتخذ هذا النزاع على المصالح المتضاربة بين الدولتين شكلاً طائفياً مشحوناً بالكثير من العاطفة والحساسية المذهبية ، وان ينقسم سكان هذه البلاد في معتقداتهم الى فريقين كبيرين أحدهما سني والآخر شيعي ، فيكون من المنتظر أن ينبري كل فريق منهما الى مشايعة إحدى الدولتين وتحمل أوزار تلك المشايعة.

وقد كانت تأثيرات هذا التناحر وعقابيله تظهر بأجلى مظاهرها في أحوال سكان العراق ومعاملة الحكومات القائمة لهم حينما يشتد الخصام بين حين وحين

ويفضي الى الاشتباك المسلح على الأخص . فقد حصل هذا حينما استطاع السلطان سليمان القانوني ان ينتزع بغداد من أيدي الصفويين في سنة ١٥٣٤ . وحينما استردها لايران الشاه عباس الصفوي سنة ١٦٢٣ على أثر خيانة بكر الصوباشي لاسياده العثمانيين ، وعندما استطاع السلطان مراد الرابع ان يحتلها بنفسه من جديد سنة ١٦٣٨ بعد عدد من المحاولات الفاشلة التي بذلها القادة الأتراك خلال الاحتلال الايراني الثاني لها . وحصل هذا كذلك في حصارات نادرشاه الكبيرة لبغداد في أيام واليها أحمد باشا . وفي حصاره للموصل على عهد الحاج حسين باشا الجليلي واستيلائه على كركوك قبل ذلك . وفي أيام الوالي المملوك عمر باشا حين أدى سوء الحكم الذي بدر منه الى استيلاء كريم خان الزند على البصرة . وعند احتلال الايرانيين لبصرة هذا بقوات كريم خان الزند ، وفي أثناء التهديدات المستمرة والتحرشات المتواصلة التي كان يديرها الشاهزادة محمد علي مرزا من كرمنشاه على عهد الوالي داود باشا .

وقد جعل مرور الزمن من استدامة هذا النزاع المحتدم بين العثمانيين والايرانيين في العراق ، والاختلاف الحاصل بين أهالي العراق وطبقات سكانه بسبب ذلك . تقليداً قائماً ظل يتخذ أشكالاً وألواناً مختلفة عبر القرون والأجيال حتى يومنا هذا برغم زوال الدولتين وتبدل الظروف والأحوال . والحقيقة ان التناحر الطائفي الذي استطال احتدامه بين الدولتين بسبب المصالح الخاصة بهما قد جعل من الاختلاف البسيط في العقائد المذهبية بين السنة والشيعة في العراق شيئاً متأصلاً مبالغاً فيه . كان وما يزال يصعب اجتثاثه احتثاثاً كاملاً من النفوس . وقد أثرت العملية التاريخية الناجمة عن سير تلك الحروب . ووقوع الحوادث بشتى أنواعها واشكالها عبر السنين والاعوام ، تأثيراً لا تمحى في وضع العراق الحالي . وتكوينه بالشكل الذي نراه فيه اليوم . فقد أثرت على حدوده وموارده الطبيعية ، وتكوين طبقات السكان فيه . وأثرت على تقاليده ولغته الدارجة ومأثوراته الشعبية بدرجة لا يستهان بها . ولذلك يمكن ان يقال ان عراق اليوم هو حصيلة منطقية لتلك الحلقات المتتالية من الحوادث المروعه والمآسي المتكررة . التي ظلت تتفاعل فيما بينها على مر الزمن لتكون العراق الحديث.

على ان التأثيرات التركية العثمانية في تكوين العراق الحديث تزداد نسبتها ازدياداً غير يسير ، اذا ما قورنت بالتأثيرات الايرانية ، لأن العثمانيين استردوا بغداد من الايرانيين على يدي السلطان مراد الرابع في ١٦٣٨ واحتفظوا بالعراق لهم منذ ذلك الحين الى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ١٩١٧ . لكن النزاع والتناحر بين الدولتين لم تفتر حدتهما الا خلال فترات على طول هذه المدة . وقد بلغا أوجهما في حصارات نادرشاه الثلاثة لبغداد ، وحصاره للموصل من دون طائل ، وخلال احتلال كريم خان الزند للبصرة في ربيع ١٧٧٦ . وقد استطاع العثمانيون خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ان يؤثروا تأثيرات غير يسيرة على وضع العراق الحديث وطبعه بالطابع الذي لا نزال نعاني منه في كثير من الأمور .

ويقسم بعض المؤرخين فترة الاحتلال العثماني الطويلة للعراق الى عهود خمسة يكاد يعرف كل عهد منها بسمات بارزة خاصة به . وتبدأ هذه الفترة بالعهد الأول الممتد من فتح السلطان سليمان القانوني لبغداد في ١٥٣٤ الى نجاح السلطان مراد الرابع في انتزاعها من أيدي الايرانيين خلال احتلالهم الثاني لها في ١٦٣٨ . ويتميز هذا العهد باشتداد التناحر بين الصفويين والعثمانيين على امتلاك العراق والاستئثار بحكم بغداد عاصمته . ومن أبرز ما حصل خلال هذا العهد احتلال الصفويين للعراق في سنة ١٦٢٣ واحتفاظهم به الى سنة ١٦٣٨ . ويبدأ العهد العثماني الثاني بفتح السلطان مراد الرابع لبغداد وينتهي ببداية حكم المماليك فيه (١٦٣٨ — ١٧٤٩) . ويعرف بفتور حدة النزاع الايراني العثماني على العراق في بدايته ، وبسيطرة الجند الانكشاري على حكوماته ولعبهم بمقدراته ، من دون ان يتسنى للحكومة فيه ان تسيطر سيطرة معقولة على شؤونه وأحواله . كما يعرف بظهور أسرة حسن باشا الحاكمة فيه وتمهيدها لحكم المماليك من بعدها ، وبهجمات نادر شاه المتتالية على البلاد العراقية في عهد احمد باشا بن حسن باشا ، وبمحاصرته لبغداد حصاراً غير مجد ثلاث مرات متعاقبة ، فضلاً عن محاصرته الفاشلة للموصل . اما العهد الثالث فيستغرق فترة استيلاء المماليك على الحكم في العراق ما بين سنتي ١٧٤٩ و ١٨٣١ . وقد

استطاع الباشوات المماليك خلال مدة حكمهم هذه ان يوقفوا تصرفات الجند الانكشاري وعربدته في بغداد وغيرها من حاضرات العراق عند حدها . وان يستأثروا بالحكم لأنفسهم فيبعدوا عنه العناصر التركية والمحلية الأخرى في الأعم الأغلب . كما استطاعوا ان يستقلوا بالعراق عن سيطرة الباب العالي في استانبول بكثير من شؤونه وأحواله . ويتحدى بعضهم أوامر السلطان فيغتال حتى موفديه ورجاله . لكن هذا العهد عرف كذلك بتناحر أبناء الأسرة البابانية في البقاع الكردية المتاخمة لايران على الحكم وتذبذبهم في الولاء ما بين بغداد من جهة والعواصم الايرانية من جهة أخرى . وكان من الطبيعي أن يفضي هذا الأمر الى اشتداد النزاع بين ايران والعراق . ومن ورائه الدولة العثمانية . وتوريط الجانبين في مشاكل واشتباكات كان كل من الفريقين في غنىً عنها . كما عرف بتغلغل النفوذ الأجنبي . ولا سيما الانكليزي منه . في العراق ودخول شيء من التجديد فيـــه في أيام داود باشا عـــلى الأخص . ويبدأ العهد الرابع بانهيار حكم المماليك سنة ١٨٣١ ثم ينتهي بانتهاء حكم الوالي المصلح مدحت باشا فيه بتاريخ ١٨٧٢ . ويسمى هذا العهد بعهد الحكم المباشر . اي الحكم الذي كان يرجع في شؤونه الى الباب العالي في الاستانة مباشرةً . ومع ان هذا العهد قد عرف بالكثير من محاولات التجديد والاصلاح المبذولة خلاله . ولا سيما في نهايته على عهد الوالي الأشهر مدحت باشا . وبتعرف العراق على وسائل النقل والمواصلات الحديثة . فقد استفحلت فيه جميع شرور الحكم القاصي البعيد عن الرقابة المباشرة الخالي من رغبة الحكام في إسعاد الرعية . ورسم الخطط الكفيلة برقي البلاد ورفاهية سكانها . كما عرف بتعسف الولاة الحاكمين وتكالبهم في إشباع جشعهم المسنون وابتزاز الأموال بجميع الطرق والوسائل الممكنة . وباستفحال أمر « الهايته » و « الضابطيه » فيه . اما العهد العثماني الأخير فيبدأ بسنة ١٨٧٢ وينتهي باحتلال الانكليز لبغداد في ١٩١٧ في أواخر الحرب العالمية الأولى . وأهم ما يعرف به ظهور الحركة الدستورية . واعلان الدستور . واسهام الدولة العثمانية في التكتلات الدولية التي أفضت الى اشتراكها في الحرب العامة الى جانب ألمانية وانهيار الامبراطورية العثمانية على اثر ذلك .

وتبرز في تاريخ العراق خلال هذه الحقبة الطويلة من الحكم العثماني المتواصل صفات وخصائص عامة كانت تفعل فعلها في تكوين العراق وما فيه من سكان ومجتمع .

فيلاحظ المتتبع ان بلادما بين النهرين جميعها من الخليج العربي الى ماردين كانت تبين فيها خلال عهود الحكم العثماني كلها دلائل الاهمال والتسيب بأجلى مظاهرهما . ويخيّم عليها خمول قاتل وركود يقارب ركود الأموات . وكانت الحكومات تتعاقب عليها واحدة بعد أخرى ويذهب الباشوات والولاة ويأتي غيرهم بين حين وحين من دون ان تكون للأغلبية الساحقة من أهلها رأي فيهم او علم بما يحدث . وكان العراق بلاداً مضيعة ودياراً مسيّبة كأن أهلها لا وجود لهم . أو كأنهم قطعان من السائمة . وكان الوالي الذي يعين لحكمها يأتي اليها وهو يشعر في الغالب انه جاء منفياً الى بلادٍ نائية . لا رقيب فيها عليه . فيغتنم الفرصة لجمع المال بشتى الطرق ويستغل كلّ ما في سلطته من قوة ونفوذ للاستفادة والاثراء . وسرعان ما كان يكتشف أمره أحياناً بعد أن تزكم رائحة فضائحه الأنوف . فينقل أو يُعدم أو يلطّف ويكافأ في بعض الأحيان . ولم يخل الأمر من ولاة قلائل عفيفين مستقيمين حسني النية . كانوا يأتون الى هذه البلاد ويشمرون عن ساعد العمل . لكنهم سرعان ما كانوا يجدون أنفسهم خائضين في خضم متلاطم من المشاكل والصعوبات التي تنوء بها كواهل الرجال . فمن عشائر تثور . وجند انكشاري يعربد . وامكانيات محدودة . وكوارث طبيعية مخيفة . وطرق مقطوعة . الى منافس يطمح بالحكم . وموظفين منغمرين في حمأة الفساد . وحدود مهددة . وما الى ذلك . ولهذا لم يكن يتيسر الوقت ولا الفرصة لكلا النوعين من الولاة لأن ينظروا في شؤون الرعية . او يفكرون في أمور الاصلاح . وعمران البلاد . ولم يكن المسؤولون في الباب العالي بأحسن حالٍ من هؤلاء الولاة في هذا الشأن . فلم يكونوا في وضع يسمح لهم هم أيضاً بان يعملوا على إعمار ممتلكاتهم . ووضع الخطط اللازمة لاصلاح شأنها . وتحسين أحوال الرعية فيها . وحث ولاتهم على الاضطلاع بالاعمال المفيدة واستثمار مرافق البلاد . وانما كان همهم في الغالب ينصرف الى مطالبتهم بتقديم

الأتاوى والأموال ومعاقبة المقصرين منهم في هذا الشأن . وبذلك لم تكن الولايات العراقية تخرج عن كونها « بقرات حلوب » تدر على الخزانة الهمايونية بخيراتها ، وتملأ جيوب الولاة وموظفي دواوينهم ، وبعض المسؤولين في الباب العالي ، بالثروة والمال .

ولم يكن من المستغرب في ظل هذا الحكم المسيّب ، وبوجود هذه النوعية من الحاكمين ، ان يعاني العراق وسكانه أقصى ما يمكن ان تعانيه أيـة بلاد وسكانها من شرور الكوارث الطبيعية ، والحصارات المخيفة ، والحروب المدمرة ، من دون ان يكون هناك من يخفف الويلات عن الناس او يحول دون وقوع الأضرار بمقياس واسع . فقد كانت الطواعين وغيرها من الأمراض الوبائية تحصد النفوس حصداً ، وتقضي على السكان بالآلاف المؤلفة ، وكانت الفيضانات العاتية تهدم مدناً وقرى بأسرها ، وتقضي على الزرع والضرع في مسافات شاسعة من البلاد ، فتنشر الخراب والدمار بين حين وحين . وكانت المجاعات تكشر عن أنيابها وتفتك فتكاً ذريعاً بالناس فتنسيهم انسانيتهم ، وتجعلهم يبيعون الولد والنشب ، او يتساهلون بأعز ما عندهم ، لسد الرمق والحصول على بلغة من العيش . وكانت الحصارات والحروب تجر على سكان المدن العراقية وبلدانها المصائب والويلات من دون ان يكونوا هم طرفاً فيها أو تكون لهم مصلحة بها ، وتنتهي في أحيان كثيرة بالمجازر الرهيبة والتدمير المروع . وكثيراً ما كانت ارتال الجراد وأرجاله تهاجم المزارع والحقول وتعيث فساداً في الخضر والبساتين ، فتخلف وراءها الخراب والدمار ، وتنشر المجاعة والقحط .

وكان من خصائص التاريخ العراقي على عهد الاتراك العثمانيين كذلك طغيان الصبغة العشائرية فيه ، وتأثره بثوراتها وأحوالها الى حد بعيد . فقد كان العراق منذ عهد سحيق في التقدم ملجأ للقبائل العربية المندفعة اليه بفعل الأحوال الجوية في شبه الجزيرة العربية ، والعوامل المناخية المتبدلة فيها . وقد ظلت الموجات المتدفقة من هذه القبائل تدفع إحداها الأخرى عبر القرون والأجيال الى سهول ما بين النهرين وهضابها حتى تكونت منها أغلبية كبيرة من السكان ،

وبقيت العشائر الكردية قابعة في أوديتها وجبالها الوعرة. ومنعزلة عن العالم الخارجي بحيث ظلت محافظة على تقاليدها وأحوالها القبلية على كر السنين وتعاقب الدهور. وحينما قُدر للأتراك ان يحتلوا هذه البلاد. ويتولون مقاليد الأمور فيها. بقي تدفق العشائر العربية على العراق يسير في مجراه الطبيعي. وظلت القبائل الكردية محافظة على وضعها القبلي المعروف. ولذلك وجد المحتلون الجدد أن ما يزيد على سبعين بالمئة من سكان هذه البلاد كانوا في وضع عشائري واضح. وأن نسبةً غير قليلة من هذه العشائر كانت تمر في مراحل مختلفة من مراحل التوطن والاستقرار وتنصرف الى التفكير في فلاحة الأرض واستخراج معيشتها منها.

وبدلاً من ان يحاول الولاة المتعاقبون مساعدة هذه الطائفة الكبيرة من السكان المتخلفين على التوطن. ويضعون الخطط الناجحة لربطهم بالأرض وجعلهم مواطنين صالحين وأدوات منتجة للبلاد. كانوا يحاولون فرض نظم غريبة عليهم. بعيدة عن فهمهم ومصلحتهم. وكان جل ما يفكر به اولئك الحاكمون جباية الضرائب المرهقة منهم. ومشاركتهم في وسائل عيشتهم. من دون ان يقدموا لهم خدمةً خاصة في مقابلها أو ينهضون بمشروع يستفيدون منه. وقد كانوا يعمدون الى فرض كل ذلك بمنتهى ما عند الحكومة من قوة وقسوة. وظلوا يفعلون ذلك الى أواخر أيام الحكم العثماني في العراق. من دون ان يشذ عن هذه الوسيلة التقليدية حتى الولاة الصالحون منهم من مثل مدحت باشا وغيره.

ولهذا يرى المستقصي في تاريخ العراق خلال عهود الحكم العثماني المختلفة ان تأديب القبائل. في الجنوب وفي الشمال. وسوق القطعات العسكرية على هذه القبيلة أو تلك. كان يُعد قسماً مهماً من واجبات كل والٍ من الولاة المعينين في هذه البلاد. وكانت هذه الحالة كثيراً ما تستنزف الأموال والجهود وتسبب الكثير من الفوضوية والارتباك في الحكم. فضلاً عما كانت تنطوي عليه من ظلم وتعسف. وقد عرف عن بعض الباشوات أنهم كانوا يتخذون هذه الحملات العشائرية المتواصلة وسيلة للاثراء وجمع المال. وذريعةً سياسية

يتذرعون بها لاجبار المسؤولين في الباب العالي على إبقائهم في مناصبهم . ذلك لان هذه الحملات كثيراً ما كان يصحبها نهب القبيلة العاصية نهباً منتظماً تصادر فيه الآلاف المؤلفة من الحيوانات العائدة لها ، وتساق للبيع في المدن والبلدان ، كما كانت تقترن بالكثير من التدمير والتخريب . وكان يعرف مثل هذا حتى عن أبرز الولاة الحاكمين وأقدرهم في الحكم ، مثل أحمد باشا مؤسس أسرة المماليك وخصيم نادر شاه ، ومثل سليمان باشا أبي ليلة وسليمان الكبير وحتى داود باشا ، فضلاً عن الولاة الذين جاؤوا من بعد هؤلاء من مثل علي رضا ومحمد نجيب والگوز لگلي وغيرهم .

ولا ريب ان العشائر العربية والكردية كانت تعتبر قوة يحسب لها الحساب ، وكثيراً ما كانت تستخدمها الحكومة نفسها في حروبها وغزواتها وتستفيد منها في تنفيذ مآربها . وكانت تعمد من أجل هذا الى ضرب العشائر العربية بالعشائر الكردية ، أو ضرب الكردية بالعربية ، كما كانت تحرك فريقاً من القبيلة ضد فريقاً آخر منها على قاعدة « فرق تسد » المخطرة ، وتدفع الأخ ضد أخيه ، او الابن ضد أبيه أو عمه من الرؤساء. على ان الالتجاء الى مثل هذه التدابير البعيدة عن روحية الحكم الصالح المجافية لأخلاقية الاصلاح وخير البلاد ، كثيراً ما كان يؤدي الى إنقاذ الحكومة من ورطات مهلكة ويبقي على ماء وجهها ، فيجعلها مدينة لمن يمد لها يد العون والمساعدة ومضطرة لمسامحته والسكوت عن سوء تصرفه من الشيوخ والرؤساء . وقد استفاد من مثل هذه التدابير حتى مدحت باشا ، المسمى بالمصلح ، حينما استنجد بعشائر المنتفك وشمر وغيرها لاخراجه من الورطة التي ورطه بها ابن اخيه المتصرف التمتيل مع قبائل عنج وما جاورها . وقد كان الطموحون من الرؤساء والشيوخ يستغلون مثل هذا الوضع فيرخون لأطماعهم العنان ويستفيدون الاستفادة كلها على حساب المصلحة العامة ، ولا سيما بعد ان يساعدوا إحدى الشخصيات في الولاية ويقاتلون دونه فينجح مسعاهم ويرفعونه الى دست الحكم ، كما حصل في قضية عبد الرحمن بابان مع الباشا المملوك عبد الله التوتونجي ، وحمود الثامر السعدون مع سعيد باشا بن سليمان الكبير ، ومحمود بابان مع داود باشا .

وقد أدى تمادي حكومات بغداد يومذاك في الاستعانة بالقوات العشائرية الى أن يصبح هذا أشبه بالتقليد الثابت لديها بحيث صارت بعض القبائل والفئات العشائرية . مثل قبائل العُبيد والعُقيل ، أشبه بالقوات الأجيرة عندها . ومن أجل هذا أنزل قسم من هؤلاء في بعض جهات بغداد لتكون على أهبة الاستعداد للعمل السريع[1] .

ويلاحظ في تاريخ العراق على عهد العثمانيين ايضاً انحطاط نوعية الولاة المعينين لتولي الحكم في ولاياته بوجه عام . وضعف مستواهم الاداري والثقافي فضلاً عن ضعف المستوى الخلقي . فقد كان يؤتى بهم من مختلف الجهات والفئات . وكانت وظيفة الوالي تكاد تكون من الوظائف الشرفية التي ينعم بها السلطان على من يريد بصرف النظر عن المؤهلات والكفاءة . ولهذا كثيراً ما كان يؤتى اليها بالأغا الانكشاري الذي لا علم له بشؤون الحكم ولا خبرة . او بالموظف العادي في القصور الهمايونية . أو رجل المابين الذي يراد تلطيفه لأنه كان يقوم بتقديم خدمات خاصة للسلطان أو غيره . او بالمغضوب عليه المراد نفيه وإبعاده الى اماكن نائية . او بمن يتفوق على غيره بالمزاد فيتعهد بتقديم عدد أكبر من الأكياس في كل سنة الى الخزانة الملكية ، او بمن يكون ملتزماً من هذه الجهة او تلك . وليس من المستغرب والحالة هذه ان نجد بين الولاة الذين تولوا الحكم في العراق : الأمي الجاهل ، أو العاجز الفاشل ، أو الأفاق المغامر ، أو الخرافي المتزمت . او السكير المعربد . او العصبي المتهور ، أو الشاب الغر الذي لم تهذبه الخبرة والمران . او العليل الذي لا تساعده حالته الصحية على العمل . وسرعان ما كان يثبت فشل الكثيرين من هؤلاء . ويظهر سوء تصرفهم . فينقلون أو يقتلون او يسجنون . ولذلك كان قليل من الباشوات الولاة من يعمر طويلاً في وظيفته . أو يستقيم فيها وقتاً يستطيع ان يعمل جاداً

---

(١) لقد سمح في عهد المماليك الأواخر ، وفي عهد علي رضا باشا بعدهم ، لعگيل بالنزول في جانب الكرخ والتوطن فيه ، وكان قسم منهم يلتزم ايصال القوافل التجارية وغيرها ذهاباً واياباً بين الشام وبغداد . ولذلك سمي الكرخ باسم « صوب عكيل » أيضاً . كما نزل قسم غير يسير من العبيد في جهات الأعظمية .

فيه على تمشية شؤون البلاد وتصريف أمور العباد على الوجه المطلوب .

ولا ريب ان هذا من شأنه ان يزعزع نفوذ السلطة الحاكمة ، ويقطع عليها استمراريتها في الحكم ، واستقرارها في العمل المنتج ، كما يشجع الموظفين على التصرف السيء والعمل الكيفي المتحرر من الرقابة الدائمة . وكان من أهم ما يفضي اليه مثل هذا الوضع المتقلقل طمع القادة الانكشاريين ، ورجال القوات المسلحة المرابطة في قلعة بغداد عادةً ، في اغتصاب الحكم والتدخل في الشؤون الادارية التي لا علاقة لهم بها . ويلاحظ هذا على الأخص في عهود الحكم العثماني الأولى ، يوم كانت القوات الانكشارية تنتقض على هذا الوالي أو ذاك لأتفه الأسباب فتلجأ الى الاستحكام في القلعة وتشرع في تسليط نيران مدافعها على الوالي وموظفيه في السراي . ولا تكف عن ذلك الا بعد ان تُسترضى بالمال ، او بعزل الوالي بعد فراره ، أو بتسليم بعض الشخصيات اليها لقتلها ، او باجبارها على الاذعان للسلطة الحقيقية في البلد بالقوة . وكثيراً ما كان يفضي مثل هذا الخصام والعصيان الى اشتباك الطرفين في نزاع مرير تنقسم فيه حتى محلات بغداد وأطرافها على نفسها ، وينحاز قسم منها الى الانكشاريين والقسم الآخر الى الوالي ، وتستحيل فيه فسحة « الميدان » المعروفة والمنطقة الكائنة بين القلعة والسراي الى ساحة حرب مدة من الزمن . وقد استمر الانكشاريون على وضعهم المزعج هذا حتى تولى الحكم في سراي بغداد أحمد باشا بن حسن باشا (الايوبي) فاستطاع بقوته وبطشه أن يكبح جماحهم ، ويقضي على الكثيرين منهم خنقاً وشنقاً وتقتيلاً . ثم جاء سليمان باشا الكبير (المملوك) بعد مدة فأوقفهم عند حدهم كذلك وأخرج حاميتهم من القلعة فخصص لهم ثكنة خاصة في منطقة الشورجة .

على ان الولاة الذين حكموا العراق في عهود الحكم العثماني لم يعدم بينهم وجود أناس أكفاء نسبياً ، فكتب لهم النجاح في مهمتهم والبقاء في الحكم مدة طويلة من الزمن برغم العيوب التي كانوا يتصفون بها على كل حال . وأخص من يمكن ان نذكره هنا من هؤلاء حسن باشا ، وابنه أحمد باشا ، اللذين عمرا طويلاً في حكم العراق واستطاعا توجيه التاريخ فيه والتأثير على سير الأمور

في ربوعه ردحاً طويلاً من الزمن . فقد كان حسن باشا من رجال القصر الهمايوني وموظفيه ، وحينما عُين لتولي الحكم في بغداد عمل على تنظيم ديوانه ومسكنه على النمط الذي كانت تنظم بموجبه القصور والدواوين الملكية في الأستانة ، مع الفارق ، فأكثر من الحشم والخدم والمماليك وزاد في استخدامهم ثم رتبهم في درجات ونسّق أعمالهم تنسيقاً منتظماً . ولأجل ان يملأ هذا الجهاز الكبير بأناس يخلصون له ويدربهم بالتدريب الذي يريده اضطر الى استيراد المماليك من الأقوام القفقاسية بأعداد كبيرة ، واستجلابهم بالشراء وهم في حداثة سنهم ليربيهم بنفسه وينشّؤهم بالنشأة التي يريدها لهم كما كان يحصل في استانبول . ثم تبعه ابنه أحمد باشا في خطته هذه وسار على المنوال الذي كان يسير فيه أبوه ، فاستطاع باخلاص هؤلاء المماليك له أن يحكم الولايات العراقية كلها بحزم وقوة خلال مدة طويلة من الزمن ، ويقف في وجه نادرشاه وجيوشه في حصارات طويلة ثلاثة لعاصمته بغداد من دون ان يمكّنه من احتلالها .

وحينما ارتحل أحمد باشا الى دار البقاء لم يخلف أبناً من الأبناء ولا حفيداً من الأحفاد ، وانما خلف وراءه بنات ثلاثاً وعدداً كبيراً من المماليك الكرج في أصلهم ، وقد تدربوا على العمل في مختلف وظائف الولاية المهمة وقواتها المسلحة ، بعد ان كان هو سيدهم وولي أمرهم وفي مقام الوالد لهم في الوقت نفسه . وكان أبرز هؤلاء وأقواهم شكيمةً كهيته ويده اليمنى ، وختنه على ابنته الكبرى عادلة خانم ، سليمان باشا الملقب بأبي ليلة . وقد استطاع « أبو ليلة » هذا ان يخلف سيده في تولي الحكم بما بذله من مال في استانبول ، وما أبداه من قوة وعزم ، وبفضل المتانة والتصلب الباديين من عصبة المماليك جماعته ، بعد ان فشل اربعة آخرون من الباشوات عُينوا من الباب العالي في تولي المنصب ولم يستطيعوا الثبات فيه . وبذلك أصبح « أبو ليلة » أول والٍ من المماليك يحكم العراق ، وظل المماليك الآخرون يتوارثون الملك من بعده خلال فترة تناهز الثمانين سنة من دون ان يستطيع أولياء الأمر في الباب العالي تعيين أحد من غيرهم خلال المدة كلها ، برغم المحاولات التي جرت في هذا الشأن . وهكذا تكونت منهم ما يشبه الأسرة الحاكمة التي ترسخت دعائمها ،

وغارت جذورها الى الأعماق ، في عهد سليمان باشا الكبير على الأخص . وأصبح وجود المماليك كأسرة حاكمة في بغداد . بالاضافة الى وجود الأسر الحاكمة الأخرى في الانحاء العراقية مثل أسرة الجليليين في الموصل ، والبابانيين في السليمانية. والصورانيين في رواندوز ، واالبهدينانيين العباسيين في العمادية ، وسائر الـ « دره بيگيات » الاقطاعية في انحاء أخرى . مما كان يميز التاريخ العراقي على عهد العثمانيين يومذاك .

وإن كان وجود الأسر الحاكمة هذه في سائر انحاء العراق يكاد يعتبر شيئاً طبيعياً بالنسبة لمقاييس تلك الأيام . وما يقتضيه شيوع الوضع الاقطاعي في البلاد . فان وجود المماليك الأغراب كأسرة حاكمة في ولاية بغداد ليثير الكثير من التساؤل ويدعو الى شيء غير يسير من العجب والدهشة . والحقيقة أن مجيء اناس أغراب عن البلاد على شكل عبيد يُشرون بالمال ، ومماليك مستجلبين من الخارج . ونجاحهم في بلاد غربتهم نجاحاً يؤدي بهم الى تسنم الوظائف والمراكز المهمة في حكومة الولاية . وتكوين أسرة حاكمة فيها تتولى حكم البلد مدة طويلة من الزمن على مرأى من سكان البلاد الأصليين ومسمع منهم . وخلافاً لرغبة الدولة العلية وارادة السلطان المهيمن ، ليعتبر ظاهرةً غريبة من ظواهر التاريخ المليء بالعظات والعبر ، وميزةً خاصة يتميز بها التاريخ العراقي الحافل بالعجائب والغرائب . ولا بد من ان تكون لهذه الظاهرة القمينة بالدرس والتحليل عوامل وأسباب خاصة كانت تتفاعل فيما بينها ، وتستوحي خصائص الزمن الذي وجدت فيه ، لتنتج هذا النتاج المستغرب في نظر الكثيرين . ولا شك عندي ان تكوّن هذه الظاهرة كان نتاجاً طبيعياً للحكم العثماني المستضعف في العراق ، المتصف بالكثير من الاهمال والتسيب ، المتأثر بوضع العراق الجغرافي المنطوي على بعده عن مركز السلطة الحاكمة في الأستانة ، وقربه من ايران خصيمة العثمانيين ومنافستهم في الاستحواذ على العراق الذي نام أهله عنه . كما كان متأتياً لدرجةٍ كبيرة عن خنوع العراقيين ، ولا سيما سكان المدن منهم ، للفاتحين في تلك الظروف والأيام ، وضعف شعورهم بالمواطنة الحقة والعزة القومية . ولعل الظروف التي مروا بها في تلك الأعصر

المظلمة ، والأهوال والنكبات التي توالت عليهم خلال السنين الطويلة لم تترك لهم فرصة يفكرون فيها بمثل هذه الأمور . أضف الى ذلك ان سكان العراق كان معظمهم اناساً عشائريين ، يعيشون في عالمٍ خاص له خصائصه المعروفة المنطبعة بطابع البداوة قبل أي شيء آخر . ومع هذا لم تكن تلك العشائر تقصر في مقاومة الحكم الدخيل والثورة عليه في كل فرصة أو مناسبة . سواء أكان ذلك في الشمال ام في الجنوب . وقد كانت بعض الحركات العشائرية . من مثل حركة حمود الثامر السعدون شيخ المنتفك وحليفيه الحاج سليمان الشاوي وحمد الحمود شيخ الخزاعل في أيام سليمان الكبير متأثرةً بالروح العربية القومية والعصبية العراقية الى حدٍ كبير . وكان للثورات العشائرية المتواصلة تأثير منهك على دولة المماليك . بحيث كان من الممكن لها لو لم تكن منشغلة بقمعها على الدوام ان تتفرغ لأعمال أخرى قد تجعلها قادرةً على البقاء مدة أطول في دست الحكم . ومع ذلك فان الأمور منوطة بأوقاتها كما يقال . ولعجلة الزمن وتكوّن الأحداث ناموس خاص تسير بموجبه . ومهما كانت العشائر قوية الشكيمة شديدة المراس فانها لم تكن تستطيع بامكانياتها المحدودة ان تؤثر تأثيرات جوهرية على حكومة لها مواردها الخاصة وقواتها المسلحة .

ومما عرف عن حكم المماليك في العراق نزعة رجاله وولاته الى الاستقلال بالحكم عن الباب العالي بقدر الامكان . والمحافظة على الارتباط الاسمي بالسلطان بكل ما يتطلبه هذا الارتباط الواهي من مظاهر خارجية ومراسيم شكلية فقط . وقد كان يلازم ذلك الاستقلال بطبيعة الحال التوقف عن ارسال الأتاوى السنوية المقننة الى الخزانة الهمايونية . فكانت هذه النقطة بالذات سبباً في حصول الكثير من الأمور السياسية والأعمال العسكرية التي كان يؤدي بعضها الى نتائج مؤسفة . كما حصل في قضية سليمان باشا الصغير . على ان معظم الولاة المماليك قد نجحوا في اتباع هذه الخطة لأن الدولة العثمانية كانت تعتقد ان مجاورة العراق لايران يجعله في وضعٍ حساس دقيق يمنعها من الضغط على الحاكمين فيه بشدة . كما كانت تحاذر في أيام داود باشا من أن يؤدي الضغط عليه الى إقدامه على اقتفاء أثر محمد علي الخديوي في مصر وتحديه لها

تحدياً سافراً . والحقيقة ان خشية المسؤولين في الباب العالي هذه ، ومداراتهم للوضع في العراق على هذا الأساس ، هي التي أفضت الى ان يطول بقاء المماليك في الحكم ويمتد سلطانهم في العراق حتى تحدى أولئك المسؤولين داود باشا في النهاية تحدياً مهيناً موجعاً ، بقتل مبعوث السلطان اليه صادق افندي . وعند ذاك أصرّ السلطان محمود الثاني على تأديبه وإزالة مماليك العراق من الوجود ، فكان له ما أراد بعد انسار علي رضا باشا والي حلب الى بغداد فواتاه الحظ في مهمته وحالفته الأقدار المفجعة على تنفيذ ما يريد .

ويجرنا الخوض في استقلال المماليك بالحكم في بغداد عن الباب العالي الى ذكر شيء عن ظهور شيء من بادرة الحكم المحلي في أيامهم . فقد كان ميل الولاة المماليك الى هذا الاستقلال باعثاً لفكرة تكوين دولة عراقية خاصة تحكم نفسها في معزل عن الدولة العلية وسلطتها وتحتفظ بوارداتها وخيراتها في بلادها . لأن المماليك على ما يبدو باتوا يفكرون بان العراق أصبح وطنهم الثاني ، ولئن عمل كثير منهم على الاستئثار بالوظائف والمناصب فيه وحصرها بأبناء جلدتهم في الغالب ، فان بعضهم الآخر مثل سليمان باشا الصغير وسعيد باشا بن سليمان الكبير قد ذهب الى ابعد من هذا ووصل الى حد جعلت فيه حكومة بغداد حكومة عراقية لا مملوكية وصار يستفاد فيها من العناصر العراقية الأصيلة . لكن الظروف لم تسعف الواليين الشابين في اتجاهاتهما هذه ، وتطورت بهما الأحوال فلاقيا حتفهما في النهاية بطريقة مفجعة . ولعل السبب في اتجاههما العراقي هذا يعود الى نشأتهما في بغداد نفسها منذ الصغر وتأثرهما بمحيط بغداد وما فيها من عوامل ومؤثرات .

وقد كان لتدفق سيل المماليك على العراق وتمكنهم من تسلم الحكم فيه ، او التحكم بمقدراته ردحاً من الزمن ، نتائج خطيرة وتأثيرات جمة عملت على توجيه التاريخ فيه ، وطبعت طابعها البارز في الكثير من شؤونه وأحواله . وكان من أهم تلك التأثيرات شيئان : تدفق سيل من أبناء الأقوام الغريبة والفئات الطارئة على العراق والتوطن في مدنه وقراه ، وانعدام المقاييس فيه بحيث صار الكثير من نكرات هؤلاء ووضعائهم يطمعون في تولي الحكم والاستئثار به .

فقد تكونت ظروف" وحدثت تطورات في أوضاع العراق وأحوال مجتمعه يومذاك دفعت بالكثيرين من أبناء الفئات والقوميات الغريبة عنه الى ان تشد الرحال اليه وتعمل على التوطن فيه . فقد جيء باعداد كبيرة من أبناء العناصر القفقاسية كالجركس واللاظ والأباظة وما أشبه . نساءً ورجالاً . ليتخذوا خولاً وأزواجاً ومماليك لدى الولاة وكبار الموظفين ووجوه القوم وسراته . وليستخدموا في القوات المسلحة والوحدات العسكرية الأجيرة . وقصده الأتراك والألبان (الارناؤوط) في جملة من جاء اليه للعمل في دوائر ولاياته وأفواج قواته فطاب لقسم كبير منهم المقام وتيسرت لهم الظروف المؤاتية فتوطنوا فيه واندمجوا في طبقات سكانه . وجاء اليه الأرمن والأروام وبعض الأوربيين لأسباب تجارية ومعاشية في الغالب . فاتخذوه موطناً لهم بمرور الزمن وكوّنوا قسماً من أبنائه . وشد الرحال اليه الايرانيون والأفغان والهنود بموجات متتالية لاسباب دينية وتجارية ففضلوا الاقامة في مدنه والمجاورة في عتباته وأماكنه المقدسة . وتسربت اليه بين حين وحين زمر متتالية من اللر والبلوش لأسباب معاشية فوجد أفرادها ضالتهم في أزقته وأسواقه . واتخذوه موطناً ثانياً لهم . وقد أضاف كل هؤلاء عناصر جديدة من السكان الى العناصر القديمة من بقايا الفتوحات والهجرات السابقة . ودخل الجميع في البودقة الصاهرة فتكون منهم سكان العراق الحاليون . على أن عملية الهجرة العشائرية الكاسحة من الجزيرة العربية الى ربوع الرافدين وسهولها الفسيحة كانت تسير في الوقت نفسه سيرها المعتاد المعروف منذ عهد سحيق في القدم . وكانت جموع شمر وعنزة وزبيد . وربيعة وتميم وبني خالد . والموالي وطي وقشعم وكعب . والخزاعل والمنتفك وغيرها . تتقاطر على هذا الوادي الأمين . وتتدافع فيما بينها لتقتسم «الديرات» والمراعي المخصبة . حتى استقرت في أماكنها الحالية ورسمت الخارطة العشائرية التي نعرفها اليوم . بعد أن كانت وما تزال نسبة كبيرة من أبنائها تتسرب الى البلدان والمدن لتسكن فيها وتندمج بسكانها . وبذلك أصبح العنصر العربي يكوّن الأغلبية الكبيرة في البلاد . الى جانب العنصرين الكردي والتركي اللذين يتبعانه بالتالي .

وقد أغرى نجاح المماليك في الارتقاء الى سدة الحكم والسلطة في العراق اناساً كثيرين من الواردين اليه والطارئين عليه بالعمل على تسلم السلطة. وركوب متن المغامرة لهذا الغرض. إذ انعدمت المقاييس وصار الوضيع وغير الوضيع من هؤلاء تحدثه نفسه بالوثوب على رجال الحكم في البلاد لتنحيتهم عن مكانهم والحلول في محلهم. وكثرت الاغتيالات والتكتلات المريبة هنا وهناك حول هذا الطامع او ذاك. ولذلك اضطرب حبل الأمن في كل وقت وانعدم الاستقرار في الريف والمدينة. ولم تكن تخلو كل فترة من حدوث حادث او وقوع ثورة من هذا القبيل. فوقعت حركات محمد أحمد الطويل. وعجم محمد. ومحمد أغا الكهية. وحصلت ثورة أحمد اغا ينيچري أغاسي. وحركة مدد بك. وثورة صادق بك. وما أشبه. لكن أغرب حركة ثورية من هذا القبيل. وأكثرها امتلاءً بالعظات والعبر. حركة عجم محمد ذلك المتشرد الايراني الأفاق الذي قدم مع أمه وأخواته الى البلاد وهو لا يملك شروى نقير. فاستطاع بأساليبه الدنيئة الخاصة وخدماته الخسيسة. التي صار يقدمها للمسؤولين وأصحاب النفوذ. ان يشق طريقه في المجتمع فيصبح من الشخصيات المرموقة. ويتعين مهرداراً ثم كهيةً في الولاية. وتحدثه نفسه بعد ذلك في تبوء منصب الوزارة. فيفرق الناس ويكتلهم ويقاتل الولاة المعينين من الاستانة طوال سنين عديدة أو يثور عليهم. الى ان تم تعيين سليمان باشا الكبير فاستطاع ملاحقته والقضاء عليه.

على ان حركات ثورية أخرى ذات طابع قومي أصيل كانت تقع بين حين وحين في الوقت نفسه. وكان رائدها تحدي الظلم والحكم الكيفي. والوقوف في وجه الولاة المتعسفين. وكان أكثرها يتصف بالطابع العشائري بلا شك. لأن العشائر يومذاك كانت القوة الوحيدة في البلاد التي يمكن ان تثور على الحكومة وتمتشق الحسام في وجهها. وأهم ما عرف من هذا القبيل ثورة الحاج سليمان بك الشاوي على سليمان باشا الكبير. وانضمامه بعد ذلك الى حمود الثامر السعدون في المنتفك وحمد الحمود شيخ الخزاعل في الديوانية. في ثورة عارمة استطاع فيها الثوار ان يستولوا على البصرة وجنوب العراق فيهددوا مركز

سليمان الكبير في بغداد نفسها لأنه تطرف في تعصبه للمماليك وبالغ في تسليم الأمور اليهم . ولذلك سار سليمان الكبير الى الثائرين بنفسه وجرّد لهم خيرة قواته ورجاله . وخاض المعامع بسيفه هو بالذات حتى كتب له النصر على الثورة بسلاحه من جهة . وبدهائه الذي استطاع تفريق العرب به من جهة أخرى . ويشبه هذه الحركة في دوافعها ومراميها الثورة الجريئة التي أعلنها مفتي بغداد عبد الغني جميل على علي رضا باشا اللاظ في ١٨٣٢ . وتبعته فيها محلات بغداد جميعها . فقد هبّ هذا العربي الماجد يومذاك منتصراً للبغداديين الذين أخذ جلاوزة الباشا المذكور يشددون النكير عليهم ويسومونهم أنواع الظلم لابتزاز أموالهم وسلب ما يملكون .

اما من الناحية الاقتصادية . فقد ظلت البلاد العراقية خلال عهود الحكم العثماني معظمه تتصف أحوالها باقتصاديات محدودة تعتمد على المنتجات الزراعية في الأعم الأغلب . وكانت الزراعة فيها تمارس بأساليب بدائية وطرائق بسيطة لا يمكن أن تحصل منها الا على ما يسد الرمق من الحاصلات . وقد كان ذلك شيئاً طبيعياً بالنسبة لما كان يسود البلاد وحكومتها من إهمال وتسيب . إذ كانت الطبقة المنتجة التي تفلح الأرض وتزرعها . وهي العشائر غالباً . في حالة من الجهل والتأخر لا تسمح لها بتحسين أساليبها الزراعية أو رفع مستوى الانتاج في أراضيها . ولم تكن هناك حكومة تفكر في شؤونها . الا بمقدار جباية الضرائب الباهظة منها وقمع ثوراتها المتكررة . او تأخذ بيدها وتعمل على تحسين أحوالها المعاشية وغيرها . ولذلك بقيت البلاد بفقدان الموارد الأخرى محافظة على وضع اقتصادي قليل النشاط يستمد حركته البطيئة . النشطة في بعض الأحيان . من موقعها المناسب وكونها وسيلة لتبادل التجاري وحلقة وصل بين الشرق والغرب . واقعة في ملتقى الطرق .

غير ان الحركة التجارية التي نشطت في العهود الثلاثة الأخيرة من عهود الحكم العثماني في العراق صارت تتولاها بالتدريج عناصر غير عراقية استوطن قسم منها في البلاد فاصبح في عداد أبنائها . ومع أن موقع العراق كان مصدر خير ومنفعة له من الناحية التجارية . وسبباً لاتصاله بالخارج . فقد كان مصدر

شر ونقمة عليه في الوقت نفسه . إذ كان سبباً لطمع الأجانب به ووسيلةً لتغلغل النفوذ الأجنبي بين ظهرانيه . فصارت الدول الاستعمارية الحديثة تتنافس عليه . وتتقاتل من أجله لتفوز بما يمكن ان تجنيه من الاستيلاء على موقعه او نشر نفوذها فيه . وقد استطاع الانكليز في النهاية ان يتغلبوا على غيرهم من الأوربيين في الفوز به . وان يثبتوا أقدامهم في ربوعه ويمدوا رواق سيطرتهم عليه. وكانوا قد بدأوا بذلك منذ أن أصبحوا يتطلعون نحو الشرق في تجارتهم . ثم أخذوا يتركزون فيه خلال عهد المماليك ابتداءً من أيام صديقهم الحميم سليمان باشا الكبير . واستمروا في ذلك خلال العهدين العثمانيين الأخيرين. وصارت مصالحهم تكتسب اشكالاً شتى تبعاً لتبدل الظروف والأحوال . حتى نشبت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ فاستطاعوا الاستيلاء عليه في النهاية . فقُدر لهم بعد ذلك ان يستفيدوا من خيراته . ويلعبوا دوراً رئيساً في التحكم بمقدراته وتكوينه الحديث .

وهكذا مر العراق خلال هذه الأعصر المظلمة وهو يخضع لحكم بغيض غريب عنه، من دون ان يستفيد منه. او تتطور أحواله تطوراً مفيداً، برغم بوادر النهضة الحديثة التي ظهرت خلال العهود الثلاثة الأخيرة من عهوده . وقد وقعت في البلاد خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن حوادث مروعة . وأحداث خطيرة . تركت تأثيرها في كثير من شؤونه وأحواله . وحكم فيه خليط متنافر من رجال وشخصيات غريبة قلما يبتلي بهم بلدٌ من البلاد في تاريخه على وجه المعمورة . وقد حاولت في الصور التي أوردتها في هذا الكتاب أن ألقي ضوءاً كافياً على هذه الشخصيات والأحداث لأشير بها الى واقعنا التاريخي السابق واللاحق في هذه البلاد . لعلنا نتعظ به ونستمد العبر الغالية منه فنتخذها نبراساً نهتدي به في نهضتنا الحديثة .

وهذه الصور وان كانت لا تدخل في صلب التاريخ التقليدي أحياناً فانها تبين لنا النواحي الاجتماعية التي يتأثر بها التاريخ . وتساعد على توجيهه وسير الأحداث فيه في كثير من الأحيان . كما أنها تميط اللثام عما يهمل في زواياه وخباياه من وقائع طريفة وأحداث جديرة بالمعرفة والالتفات . وقد كنت وما

أزال مولعاً بها ، فجمعتها من مظان ومراجع كثيرة ونشرت قسماً منها في الصحف والمجلات ، كما أذعت كثيراً منها على موجات وأجنحة الأثير .

واني ، إذ أقدمها للقارىء الكريم باعتبارها جهداً هادفاً متواضعاً ، أرجو ان يجد فيها المتعة المطلوبة والفائدة المرجوة ومن الله التوفيق .

جعفر الخياط

بغداد — ٢١ أيلول ١٩٧١ م
غرة شعبان ١٣٩١ هـ

سعدون باشا السعدون (ولد في ١٨٥٠)
وابناه عجمي وثامر

١

مشيخة آل السعدون[1]

لم تظهر على مسرح الحوادث في تاريخ العراق الحديث أسرة نبيلة تولت الامارة . وتحكمت في مقدرات العراق ومصائره دهراً طويلاً من الزمن . مثل أسرة آل السعدون المعروفة . فقد بسطت نفوذها على القسم الأعظم من العراق الجنوبي مدةً تناهز الأربع مئة سنة . وتولى مشيخةَ قبائل المنتفك وامارتها ما يزيد على العشرين شيخاً من أبنائها البارزين .

وقد كانت هذه الأسرة العربية الكريمة أولَ من بعث الفكرةَ العربية من مرقدها في العراق الحديث . وحمل راية النضال من أجلها بالدم والحديد في وجه الأتراك والايرانيين ، بعد ان دُثرت وانطمست مآثرُها على أيدي المغول الأثيمة . والحق ان تاريخ العثمانيين في العراق ، خلال الحقبة الطويلة التي حكموا فيها ، كان تأريخاً حافلاً بالغزوات والحملات التي كان يجردها الباشوات المتعاقبون في بغداد لتأديب الثائرين من آل السعدون في الجنوب والمتمردين من آل بابان في الشمال . وان دل هذا على شيء فانه يدل على ان العنصرين الكبيرين اللذين يتألف منهما العراق في يومنا هذا كانا يقفان أبداً ودوماً في وجه الحكم الأجنبي والتسلط الغريب . وقد كان العثمانيون يشعرون بثقل العبء الملقى على عاتقهم في هذا الشأن . ولذلك كانت تصرفاتهم وخططهم التي رسمت خلال مدة حكمهم كلها . ولا سيما في عهودهم الأخيرة ، تستهدف ضعضعة الأسرة السعدونية القوية والقضاء عليها بالحركات العسكرية والتدابير الادارية . وبالعمل على انقسامها فيما بينها والتزام البعض من أبنائها

(١) المراجع : ذكرى السعدون لعلي الشرقي ، مباحث عراقية ، أربعة قرون من ..

ضد البعض الآخر . فتم لهم ما أرادوا في الأخير وتوفقوا في عملهم التهديمي هذا ، ولكن بعد ان استنفدوا الكثيرَ من الجهود والقوى واستنزفوا المبـــالغ والأموال الطائلة لذلك .

ومع كل التوفيق الذي حالفهم في هذا السبيل ، والنتائج العملية التي توصلوا اليها ، فقد بقي العراق عربيَ النجار يعربيَ العقيدة في الغالب وظلت العروبةُ مرفوعةَ الرأس ناصعةَ الجبين في القسم الاعظم من أرجائه . ويرجع شيء من الفضل في ذلك الى جهود الأسرة السعدونية ، وكفاح أبنائها البارزين من أمثال مانع ومحمد وثامر وحمود وثويني العبد الله وسعدون وعجيل وناصر ومنصور وغيرهم .

ولكن كيف نشأت هذه الأسرة النبيلة ، ومن أين أتت ، وكيف حكمت وتأمرت يا ترى ؟ لقد كان أصلُ هذه الأسرة ومنبتها مهبطَ الوحي ، وموطن النبي العربي ، الذي خرجت جحافل العروبةِ من أرجائه وانتشرت في أنحاء المعمورة فبددت ظلماتها بنور الاسلام . وهي أسرةٌ علويةٌ حسنية هاشمية نزحت من الحجاز وهبطت العراق في أوائل القرن التاسع للهجرة . وتدل الكثير من الدلائل على ان نزوحها الأول كان من مدينة الرسول الأعظم . ولذلك نجد اليوم ان الوسمَ الذي يسم به آل السعدون أبلهم ، ويطلقون عليه اسمَ «الشبيبية» يقرب من الوسم المعروف عند أشراف المدينة . والثابت في نسبهم انهم يتحدرون من سلالة الشريف عمار بن مجالد من آل ثعلبة بن مطاعن . والشريف مجالد هو الأخ الأصغر للأمير قتادة بن أدريس الذي فتح مكة سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمس مئة للهجرة . ولذلك لم يكن من المستغرب ان تحتفي قبائل المنتفق بهذا البيت النبيل وتتشرف بمصاهرته ، الأمر الذي أدى به الى ترأسه عليها ولملمة شملها في جمهرة عشائرية كبيرة واحدة ، وامارةٍ قويةٍ الشكيمة منيعةِ الجانب .

وتجمع الكثير من الروايات على ان أولَ من نزح من هذه الأسرة هو الشريف حسن . ففي بداية القرن التاسع للهجرة كان من جملة أشراف الحجاز أخوةٌ أربعة : حسن ومهنا وبركات ومسرور ، وقد شاءت الظروف والأقدار

ان يختلف هؤلاء فيما بينهم لان الشريف حسن كان له ابن يسمى (شبيباً) وبنتٌ تدعى (نورة) . وفي يومٍ من الأيام خطب مسرور ابنةَ أخيه نورة لولده عوف . غير ان أباها الشريف حسن لم يشأ تزويج مدللته من ابن عمها لأن أولاد أخيه مسرور كانوا أبناء أمه . فأدى ذلك الى حصول اختلافٍ شديد بين الأخوة . فانفرط عقدُهم وتفرّق شملُهم . فغادر مهنا الحجاز الى تونس . وهاجر بركات الى خوزستان فأقام بين أبناء عمه رؤساء المشعشعين . وبقي مسرور في مكة . أما الشريف حسن جد آل السعدون فقد شد الرحال مع أهله الى المدينة المنورة . ومنها انتقل الى نجد وأنشأ على مسافةٍ غير قريبة من عنيزة (١٢ ساعة للهجانة) قريةً سماها «الشبيبية» باسم ابنه الوحيد . وأقام فيها . غير ان عوادي الزمن ظلت تلاحق هذا الشريف النازح . فتوفي ابنُه شبيب وتوفيت ابنتُه نورة كذلك فجزع لذلك أشد الجزع . ولا يزال نُعارُ آل السعدون ونخوتُهم عند الشدة حتى اليوم «أخو نورة» .

ولهذا لم تطب الاقامة للشريف حسن في نجد فهجرها الى بوادي الشامية . ونزل الباطن منزل بني مالك احدى قبائل المنتفق . وهناك استجار برئيس القبيلة شيحان بن حصيفة فأجاره وأكرمه ردحاً من الزمن . وسعى في تزويجه من «طليعة» بنت عبد الله شيخ بني خالد المعروفين . وهم رهط من بني مالك . وبذلك بدأت جذورُه بالتأصل في التربة العراقية . فقد أنجب بعد زواجه هذا أولاداً ثلاثة هم عبد الله ومحمد وشبيب . وحينما شب هؤلاء الأولاد وأخذوا يحملون السلاح صار يتجمل بهم . وتشاء الصدف ان تنغص عيش الشريف حسن من جديد وتنكبه بنكبةٍ لم يستطع نسيانها بسهولة . فقد قتل ابنُه الصغير عبدُ الله في معركةٍ نشبت بين بني مالك أخوال الأولاد وآل أجود من قبائل المنتفق كذلك . وبعد ان وضعت المعارك أوزارها ورغب آل أجود في مصالحة بني مالك امتنع رئيسُها عن عقد الصلح رعايةً لذمام جاره الشريف الذي فقد في المعركة ابنَه وفلذةَ كبده . واشترط عليهم ترضيته مهما كلف الأمر .
فلم يكن من آل أجود الا ان يرضخوا لهذا الطلب وينبروا لمفاوضة الشريف حسن وترضيته بالغالي والرخيص . غير انه ظل يمتنع عن تكليفهم بشيء . ورد

على سَراتهم وكبرائهم الذين مشوا اليه بأنه يتنازل عن حقوقه كلها كرامةً لمجيئهم اليه وجلوسهم في مضيفه . لكنهم لم يقتنعوا بذلك لأنهم كانوا يخشون ان تتلوث سمعتُهم بين العرب . ويصبحون مضغةً في أفواههم . وقالوا له (انك نزيلُنا وجارُنا ومن المحتّم علينا في شرعة الذمام ان نجزل اليك ونقدم أكبر دية عن قتيلك مع ترضيةٍ فيها حشمة وهي عشرون بنتاً من كرام بناتنا [1] ..) على ان الشريف كان بعيدَ النظر كثير الطموح على ما يبدو . فاستغل ضعف اولئك البسطاء ورأى ان يشتط في الطلب ويشدد النكير . فقد فاجأهم بقوله ان الشرفاء لا يقبلون الدية عن دمائهم الكريمة وليس هناك ما يمكن ترضيتُه به . وحينما أيقن انهم أصبحوا على استعداد للتسليم بكل ما يريد طلب منهم الاعتراف بالامتيازات التالية له :

١ — ان لا ينهض احتراماً لكل من يرد عليه منهم
٢ — ان يقوموا بتقبيل يده حينما يقبلون عليه
٣ — ان يجبوا له في ربيع كل سنة شاتين من كل بيت . منيحة وذبيحة
٤ — ان يعترف بهذه الامتيازات له بنو مالك وآل أجود معاً
٥ — ان تكون هذه الامتيازات له ولأولاده وأحفاده من بعده

ومع ان المفاوضين البسطاء قد استثقلوا هذه المطاليب القاسية المبهضة بادىء ذي بدء فقد اضطروا لقبولها بعد ذلك والرضوخ لها كرامةً لحقوق الجار ورعايةً لحفظ الذمام . وبذلك ضحوا بزعامتهم لأنفسهم بسبب وفائهم لتقاليدهم وجهلهم بعواقب الأمور . وهكذا أصبح آلُ السعدون أسيادَ قبائل المنتفق . وما فتئوا يتوارثون هذه السيادة الى ما قبل سنوات معدودة . على ان أحفادَ الشريف حسن ظلوا يتسمون باسم آل شبيب انتساباً لجدهم شبيب الأول ابنه حتى توفي محمد بن مانع سنة إحدى وخمسين وألف للهجرة . فانقسمت الأسرة الى اثنتين فبقيت إحداهما تتسمى بالاسم الأول وتسمت الأخرى باسم سعدون بن محمد . وطغى هذا الاسم على غيره .

---

(١) ذكرى السعدون ، علي الشرقي .

٢

كيف بيعت باشوية البصرة ؟

كانت البصرة في الثلث الأول من القرن السادس عشر للميلاد ، على ما يصفها الرحالة الأجانب ، بلدة صغيرة محاطة بسورٍ من الرهص لم يرمم ترميماً متقناً . وكانت ضاحيتها المطلة على شطّ العرب ، وهي موقع العشار الحالي ، ليس فيها سوى عدد قليل من البيوت فقط . وكان ذلك السور يضم في داخله عشرة آلاف دار ، أغلبها أكواخ من القصب يعيش فيها أصحابها عيشةً ذات صلة واهية بالمدنية لكن عدداً من الأبنية العامرة كانت تواجه النهر وتبعد بمسافة ميلين عن شط العرب[1] .

ولم تكن البصرة في ذلك الوقت خاضعةً لايران ولا للعثمانيين ، بل كانت تتمتع بحكمٍ عربي محلي تتناوب عليه الامارات العربية المختلفة التي كانت تحيط بها من الشرق والغرب والشمال . فالى الشرق منها كانت تقوم امارة آل المشعشع العربية ، التي ظلت تحكم الحويزة والأهواز وقسماً كبيراً من عربستان ردحاً طويلاً من الزمن يناهز القرنين ، وكان أمراؤها يدينون بنوعٍ من التابعية للملوك الصفويين في ايران . والى الشمال الشرقي حتى القرنة والمُدَينة ، وما يحيط بهما من برٍ وأهوار ، كانت تمتد ديرة آل عليّان حكام الجزائر الذين ينتمون الى قبيلة طي المعروفة ، وأتباعهم من القبائل العربية الأخرى التي كانت تتمتع في ظلهم بنوع من الحكم الذاتي وأهمها قبائل قشعم . وكثيراً ما كانت سلطة الحكام من آل عليان تمتد الى أنحاء واسط فتهدد الحكومات المتربعة على دست الحكم في بغداد نفسها .

---

(١) الرحالة الانكليزي التاجر رالف فيتش .

البصرة من جهة صدر العشار

من رحلة مِنْ Mignan في اوائل القرن التاسع عشر

والى غرب البصرة الفيحاء وشماليها الغربي كانت تمتد باتساع الى ما يقرب من موقع الديوانية اليوم ، وتتوغل في بادية الشام والأهوار معاً ، ديرة المنتفق المستظلة بظل امرائها الشرفاء من آل شبيب . اما الخليج وما وراءه من اليم فقد كان البرتغاليون يسيطرون فيه سيطرةً بحرية تامة على الموانىء المهمة الموجودة فيه ، ويمسكون بأيديهم زمام التجارة الناشطة في تلك الأصقاع . ولا سيما بعد ان قام دي البوكرك بتأسيس قلعة هرمز وعدد من المراكز التجارية في أرجائه .

وقد كان يحكم البصرة في هذه الحقبة من الزمن أميرٌ مستقل من أمراء المنتفق ، هو الأمير راشد بن مغامس الذي كانت تسك السكة باسمه . وتتلى له الخطبة في المساجد . وقد ظل على شأنه هذا . وهو يجبي الضرائب من الناس ويسيّر الأمور بكل حرية واستقلال . حتى تهيّأ للسلطان سليمان القانوني ان يفتح بغداد في ١٥٣٤ وينتزعها من الايرانيين .

ولأجل أن يداري الأمير راشد أيامه . ويحافظ على وضعه المستقل . عقد النية على الاتصال بالسلطان العثماني . وتقديم الطاعة الظاهرية له . فأوفد الى استانبول في ١٥٣٩ مانعاً ابنَه وفي معيته وزيره الأمير محمد . ومثلا بين يديه فقدما له الهدايا المناسبة ومفاتيح الامارة . فما كان من السلطان القانوني الا ان يشملهما بمزيد من اللطف ويلتفت اليهما التفاتاً خاصاً[1] . ثم أقر راشداً على حكم البصرة بشرط ان تسك العملة . وتلقى خطبة الجمعة . باسم السلطان . وان يعمل بمقتضى الأوامر التي تصدر اليه من ولاة بغداد .

غير ان الحكومة التي صادق السلطان على إبقائها في يد الأمير راشد المغامس لم تستقم أكثر من عشر سنوات . كانت علاقته خلالها بزملائه باشوات بغداد المتبدلين دوماً علاقة مداراة وتمشية حال . لكن الاتصال كان قد تم بالتدريج . فانتج التعرف التام على حكم السلطان استخفاف العرب به ونفورهم منه . ولذلك صار الهاربون من أواسط العراق يجدون في الثغر النائي ترحيباً ومأوى . وكان طلب الباشا الحاكم لهم لا يقابل الا بالسكوت وعدم الاكتراث[2] .

---

(١) كلشن خلفا. كان السلطان يومذاك قد خرج الى أدرنة لتأديب حاكمها بيدرو ، فخيم في خارجها وهناك تمت المقابلة.

(٢) لونكريك ، الص ٤٧ من الطبعة الرابعة للترجمة العربية .

وفي هذه المرحلة أدركت الدولة العثمانية أن الوضع أصبح يستدعي الحاق البصرة إلحاقاً جدياً بالامبراطورية . فبدأت بسلسلة متعاقبة من الحملات التأديبية لفرض الحكم التركي الأجنبي بالقوة على بلاد نائية تنتشر فيها قبائل عربية قوية الشكيمة صعبة المراس . وبدأت مقاومة البصرة والعشائر المحيطة بها لهذا الحكم الغريب عنها بكل ما أوتيت من قوةٍ وبأس .

فقد أمر السلطان في ١٥٤٦ بتجريد حملة تأديبية يقودها والي بغداد أياس باشا . فسارت أرتال جيشه في طريق دجلة . وسارت معه في النهر ثلاث مئة سفينة شراعية لنقل الذخائر والمؤن . وتقدم الأمير راشد المغامس شمالاً الى منطقة القرنة والجزائر ليرد الجيش الغازي عن حماه . لكن كثرة أفراد الجيش التركي وعدده الحديثة قضت على مقاومة العرب المستبسلة فاندحر راشد وتفرق أتباعه . وعند ذاك دخل أياس باشا البصرة وبقي حاكماً فيها [1] .

على أن فترة الهدوء التي أعقبت ذلك لم تكن الا فترة قصيرة الأمد . فقد قطعت القبائل الضاربة في الأهوار من آل عليان وغيرهم جميع الطرق المؤدية الى البلدة . فحاصرتها وضيقت الخناق عليها فأدى ذلك الى فشل الباشا في حكم البصرة وتجريد حملة جديدة بأمرٍ من السلطان . يقودها علي باشا تمرد قائد الحامية الانكشارية في بغداد . فسار اليها ووقف في طريقه بالغراف . وبعد ان انضم اليه السنجق بكّي علي بك وقواته الموجودة هناك نزل الجيش الموحد في الفرات نفسه . واتجه منه الى المُدينة مقر الأمير عليان في الأهوار فهاجمها وضيق الخناق عليها . وبعد ثلاثة أيام من المقاومة العنيفة التي استبسلت فيها العشائر العربية احتل الجيش التركي المدينة نفسها . وهرب عليان فتفرق أتباعه . غير أنهم لم يتخلوا عن المقاومة وتمادوا في الغزو وقطع الطرق . وأخيراً تمت عملية التهدئة ولكن بشكلٍ اسمي موقت وعاد الجيش الى بغداد .

وحينما زار الأميرال التركي المشهور سيدي علي الريس البصرة في سنة

(١) المرجع الأخير ، النص ٤٧ . وكانت قبائل قشعم من قاوم الجيش المتقدم ، واستبسلت في القتال حتى قتل شيخها فيه .

١٥٥٤ وجدها هادئة هدوءاً موقتاً . وفيها وال تركي اسمه مصطفى باشا . لكن هذا الباشا كان يجابه يومذاك خطرين في آن واحد : خطر المشعشعين وأتباعهم من قبائل الحويزة . وخطر ابن عليان في المدينة ايضاً . فقرر ان يهاجم الحويزة بنفسه . ويكلف سيدي علي بمهاجمة آل عليان بالسفن الحربية التي جاء يقودها الى البصرة . لكن آل عليان كسروا سيدي علي شر كسرة . وكبدوه أكثر من مئة قتيل [1] .

وفي ١٥٦٧ كُلف والي بغداد الجركسي اسكندر باشا بتجريد حملة جديدة على آل عليان وقد ثاروا من جديد لأن حاكم البصرة التركي كان يقسو مع العشائر من أتباعهم . وكانت الحملة تتألف في هذه المرة من ألفي انكشاري وعدد كبير من المدافع . وكان بصحبة الباشا كذلك والي الشهريزور بالاضافة الى والي البصرة وبعض أمراء الأكراد . فضلاً عن مئات السفن التي جيء بها من بغداد والأناضول عن طريق الفرات [2] . وبعد خسائر فادحة تكبدها الطرفان في الأموال والأنفس والممتلكات . خلال مدة تزيد على الشهرين ، خضع آل عليان وقدموا الطاعة والرهائن من أبناء الشيوخ .

ومع كل هذا فقد ظل باشوات البصرة بعيدين عن السيطرة التامة في داخل المدينة وخارجها . وبقيت الحكومة موضعاً للتحدي في كل فرصة أو مناسبة . فلم يكن حكمها يتعدى خندق المدينة الا قليلاً . ولم يكن أمر المحافظة على حالة الهدوء والسلم في الداخل شيئاً سهلاً بالنسبة اليهم . لأنهم كانوا يجابهون في هذه الجهات أكثر من غيرهم في جهات البلاد الأخرى بشيء غير قليل من الشعور القومي العربي. ومع ان تجار المدينة لم يكونوا يعارضون أية حكومة تستطيع توطيد السلم ونشر لواء الأمن والهدوء في البلاد فقد كانت جماهيرها وبعض العناصر الدينية المتزعمة فيها تعارض الأتراك بكل الوسائل الممكنة باعتبارهم

---

(١) المرجع الأخير ، الص ٤٨ .

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الرابع الص ١٠٧ . وكانت هذه الحملة تتألف من ٥٠٠ سفينة ، ومئتي مدفع ، وألفي أنكشاري ، وستة آلاف مقاتل من العرب و الأكراد .

اغراباً مؤمرين عليهم بالقوة . ومع جميع ما كان يبذل من محاولات للتوفيق بين الفريقين ، وما كان يمنح من الامتيازات لبعض العناصر والفئات . وبرغم جميع العقوبات التي كانت تفرض بصرامة ، ظلت هذه التأثيرات المحلية تعمل عملها باستمرار حتى تسنى لها في الأخير القضاء على الحكومة التركية يومذاك بعد حياة مرتعشة قصيرة .

وهكذا ظل الحكم التركي الواهي قلقاً غير مستقر في البصرة الى ان انتهى القرن السادس عشر أو كاد ، حين تدنت الحالة فيها بحيث فقدت الحكومة سيطرتها في الخارج واضطرت الى عقد اتفاق رسمي مع القبائل العربية منحت لهم فيه حرية التنقل والعمل في الخارج الى قيد فرسخ واحد من حدود البلد فقط ، على ان تبقى البلدة وحدها للترك . لكن الباشوات الأتراك مع هذا لم يستطيعوا العيش بهدوء وأمان حتى في داخل البلدة نفسها التي كانت تضم بين سكانها عدداً غير يسير من الأسر النبيلة ورؤساء القبائل الأشداء . فقد كان السكان العرب في نزاع مستمر فيما بينهم ، وكثيراً ما كان يؤدي هذا النزاع الى الاصطدام بأفراد الحامية الأتراك . ويخف إذ ذاك العرب من الخارج الى نجدة الأهالي في داخل البلدة واسعافهم ، فيعمدون أحياناً الى محاصرة الباشا في قلعته التي كانت تُعرف حينذاك بحوش الباشا [1] .

وقد تطورت هذه الأحوال الى الحد الذي عمد فيه البصريون الى مقاطعة الباشا القابع في « حوشه » ومقاطعة موظفيه مقاطعةً مدنية تامة ، وامتنعوا عن تنفيذ الأنظمة والقوانين الحكومية بحيث لم تبق للحكومة التركية أية حرمة . وتضاءل تأثير الوالي حتى لم يعد لوجوده أية قيمة ، ثم قلت مداخله فعجز حتى عن تدبير أرزاق الجند المحافظ معه .

ولذلك مل الوالي علي باشا من وضعه الضعيف المزري هذا ، وسئم العمل أو البقاء في مثل تلك الظروف والأحوال ، بعد ان أرهقته كثرة المنازعات والثورات .

---

(١) العراق في القرن السابع عشر ، من رحلة الرحالة الفرنسي تافيرنييه ، النص ٩٦ من الترجمة العربية التي اضطلع بها الاستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد . بغداد ١٩٤٤ .

فقرر التخلص من هذا كله . وأقدم في ١٥٩٦ على بيع « باشوية البصرة » بأجمعها الى رجل مثرٍ من سكنة البلاد . كان كاتباً للجند المحافظ في المدينة . بثمانية أكياس رومية . يساوي الكيس الواحد منها ثلاثة آلاف محمدي . على أن لا يقطع الخطبة باسم السلطان . وقد تمت الصفقة ورحل علي باشا عن البصرة لا يلوي على شيء . ثم توجه الى استانبول فشنق في ساعة وصوله اليها [1] .

وكان المشتري يسمى أفراسياب الديري . وهو من أبٍ سلجوقي وأمٍ عربية من أهالي الدير . الموضع الكائن على مقربةٍ من شمالي البصرة . وقد استطاع بعد هذا الحادث أن يجند عدداً كافياً من الجند ويضبط شؤون البلاد فيؤسس سلالةً بصرية تسنى لها ان تحكم البلاد زهاء ثمانين عاماً . وأطلق على نفسه اسم « أمير البصرة » [2] .

---

(١) زاد المسافر ولكنه المقيم والحاضر ، للشيخ فتح الله الكعبي ، بغداد ١٩٢٤ .

(٢) لونكريك ، الص ١٢٧ ، ط ٤ . وقد جاء في (السيرة المرضية في شرح الفرضية) للشيخ عبد علي بن رحمة الكعبي شاعر الأسرة الافراسيابية ان افراسياب هذا هو ابن أحمد بك ، بن حسين جلبي ، بن فرحشاد ، بن أفراسياب ، بن سنادست التركي السلجوقي .

٣
فقي أحمد

كانت الأسرة البابانية وما تزال من أعرق الأسر الكردية في العراق وأبعدها صيتاً وشهرة . فقد قُدر لعدد كبير من أبنائها ان يتولى الامارة في الأنحـاء الشمالية من البلاد . ويتحكموا بحدودها ومصائرها ردحاً طويلاً من الزمن . واستطاع البعض منهم ان يذهب الى أبعد من ذلك فيؤثر تأثيراً خطيراً في باشوية بغداد وسياستها خلال الفترة الطويلة التي تسلم فيها المماليك زمام الحكم والسيطرة في العراق كله .

وكانت هذه الأسرة الكريمة قد نشأت نشأةً يحيط بها الكثير من القصص الرومانتيكي الطريف . والروايات الممتعة . لكن المعروف أنها تشعبت في الأصل من بين عشائر البلباس الشهيرة . واستطاعت بمساعدةٍ من أمراء السورانيين ان تحكم من حاضرة ملكها (داريشمانة) منطقة پشدر كلها وتسيطر على المناطق الجبلية وقممها الموحشة منذ أوائل القرن السابع عشر للميلاد .

على ان التاريخ الحقيقي لأمجاد هذه الأسرة ومآثرها يبدأ برجلٍ من أبرز أبنائها يدعى فقي أحمد . وكان فقي أحمد هذا حفيداً للأمير (بوداق بك) من ابنه المدعو (كاكه شيخ) الذي كان يبسط نفوذه في منطقة مرگة . وقد أدت الأطماع والاختلافات العائلية المقيتة الى ان يقدم أخوه (بابا مير) على قتله غيلةً ليستأثر بالنفوذ والسلطان لوحده . ففرت زوجة كاكه شيخ الى قرية خضران وأخذت تُعنى في ملجأها هذا بتربية ابنها الطفل وتنشئته برعاية أتباع أبيه وأنصاره . وحينما ترعرع فقي أحمد واشتد ساعده صار يفكر بالثأر لأبيه من عمه القاتل . واستطاع ببسالته وفطنته ان يجمع حوله نفراً من الاتباع الأشداء ويباغت بهم عمه في ليلةٍ من الليالي السود فيقضي عليه ويحل في مكانه . وبذلك

تبدأ سيرته الحافلة بجلائل الأعمال .

ويكاد الكثير مما يروى عن فقي أحمد خلال القسم الأعظم من أيامه شيئاً يشبه الأساطير . ومن أشهر ما يروى في هذا الشأن قصة رومانتيكية طريفة أوردها الرحالة الانكليزي المعروف كلوديوس ريج[1] في رحلته التي شد الرحال فيها الى السليمانية . حينما كان قنصلاً للحكومة البريطانية في بغداد سنة ١٨٢٠ .

وتبدأ القصة بالاشارة الى ان فقي أحمد نشأ مع أخيه خضر في داريشمانة مركز البابانيين ومنبتهم العريق . وحينما تقدمت بهما السن وصار لهما شأنٌ يذكر في منطقة بشدر كلنا أخذا يقاسيان الكثير من اعتداء البلباسيين عليهما وتجاوزهم على أسرتهما . ونظراً للانفة والاباء اللذين كان يتصف بهما فقي أحمد فانه لم يستطع الصبر على ما كان يصيبه من اعتداء البلباس وجورهم . فهجر داريشمانه ومنطقتها مطوحاً في الجبال والوديان . وأقسم ان لا يعود اليها إلا وهو صاحب الصولة والمنعة فيها . وبعد الكثير من الحل والترحال وصل الى استانبول دار السعادة . وهناك انخرط في سلك الجندية واشترك في الكثير من المعامع والحروب .

وقد اشتبك السلطان في يومٍ من الأيام بقتالٍ مرير مع الافرنج . وصار الأبطال من الطرفين يجندلون في حومة الوغى باعدادٍ كبيرة ومبارزات مثيرة . فبرز للميدان من بين الافرنج فارس مغوار لا يشق له غبار . وصار ينازل الفرسان الأتراك فيصرعهم واحداً بعد آخر . وظل يصول ويجول في حومة الوغى خلال خمسة أيام متتالية من أيام الحرب . حتى ضج منه الأتراك وأوشكت صفوفهم على التصدع . ولما وصل الأمر الى هذا الحد حتى ثارت النخوة في فقي أحمد . وتصدى لفارس الافرنج . وأخذ يصاوله ويجالده . حتى كرّ عليه كرةً أطاحت به الى الأرض. وحينما نزل ليجهز على عدوه وعدو المسلمين بخنجره

---

(١) لقد أورد موجز القصة كذلك نقلا عن ريج هذا المرحوم محمد أمين زكي في كتابه (تاريخ السليمانية وانحائها) ، بغداد ١٩٥١ ، النص ٥٥ — ٥٩ . هذا وقد ترجم رحلة ريج أمير اللواء بهاء الدين نوري بعنوان (رحلة ريج في العراق عام ١٩٢٠) ونشر الجزء الأول منها سنة ١٩٥١ مطبوعاً في مطبعة السكك ببغداد ، (تراجع النص ٢٠٨ منه) .

فيقضي عليه تبيّن له ان فارس الافرنج المصروع لم يكن الا فتاة رائعة الجمال قوية الشكيمة . وما ان جثى على صدرها ليحتز رأسها حتى أخذت تستعطفه وتتوسل اليه بان لا يقتلها . ووعدته في مقابل ذلك ان يأخذها زوجةً له . فكف عنها واقتادها الى معسكر الأتراك رمزاً لانتصاره . وعندما مثل بين يدي السلطان ليجازيه على فعلته ويكافئه على بطولته . طلب منه ان يؤمره على قريته داريشمانة . ويقطعه أراضيها الى الأبد .

فتم له ذلك وعاد الى وطنه مع قرينته المقدامة (كيخان) قرير العين مرفوع الرأس . وقد رزقه الله منها بطفلين جميلين هما (بابا سليمان) و (بوداق كيخان) . وعند ذاك راح ينازع خصومه البلباس وينافسهم حتى انتزع منهم السلطة وتفوق عليهم . غير انهم ظلوا يتربصون به الفرص حتى داهموا داريشمانه في يوم من الأيام وهو غائب عنها ، وقتلوا الكثيرين من أبنائها . فلم ترَ زوجته كيخان خاتون . وقد رضعت لبان الفروسية والقتال منذ نعومة أظفارها . بداً من أن تمتطي صهوة جوادها وتنازل المغيرين من فوقه حتى جندلت منهم مئات القتلى والجرحى فولوا الأدبار .

على انها دعت بعد موقفها هذا سكان داريشمانة . وأخبرتهم بأنها قد استطاعت في هذه المعمعة ان ترد الجميل لزوجها فتي أحمد الذي وهبها الحياة حينما تغلب عليها في قتال الافرنج . وانها كانت تنتظر مثل هذا اليوم بفارغ الصبر . ثم طلبت اليهم ان يخبروه بالأمر حينما يعود ويبلغوه برحيلها عنهم ، وبرجائها اليه بان لا يلحق بها . لأن ذلك سوف لا يجديه نفعاً ولا يغنيه فتيلاً . ثم لوت عنان جوادها فهمزته واختفت عن الأنظار .

وحينما عاد فتي أحمد بعد أيام الى قريته استغرب مما حدث أشد الاستغراب . وحزن حزناً ما بعده من مزيد . لكنه سرعان ما قرر اللحاق بها على الرغم من منعها له . فأدركها في وادٍ موحش من وديان پشدر يدعى (خوران) وظل يتوسل اليها بان تعود الى عش الزوجية ، ولكنها امتنعت عن ذلك وهي تقول « هيهات أن أفعل ذلك . فأنت مسلم وأنا افرنجية » . ثم حذرته من ان يدنو منها والا أصابه منها الأذى المحتم ، لكن الزوج المتيم لم يقتنع بكل ذلك فتبعها

وألح في ملاحقتها حتى اضطرت الى مخاشنته وعمدت الى طعنه بالرمح في كتفه فسقط مغشياً عليه وولت الأدبار . غير انها لم تبتعد كثيراً عنه حتى شعرت بأنها قد أساءت اليه ، وعاملته بقسوة في غير محلها ، وهو الذي وهبها الحياة في يوم المعركة المعهود . ثم تذكرت أنه وان كان مسلماً من غير دينها فانه أبو ابنيها العزيزين على كل حال ، فرجعت اليه وضمدت جراحه حتى استقر وطابت نفسه . لكنها عادت فتركته ثانية وسارت في طريقها ، وظل هو برغم كل ما أصابه على رأيه في متابعتها وملاحقتها لعله يثنيها عن رأيها . وتمادى في مطاردتها حتى وصل الى بلاد الافرنج ، وألقى عصا الترحال ذات مساء في مدينة من المدن الكبيرة . وقد لاحظ فيها انها كانت في هرج ومرج ، وكانت تسمع فيهـــا الموسيقى في كل مكان وتشتعل في شوارعها المشاعل . فاستدل من تلك المظاهر على ان تلك الليلة كانت من الليالي التي عمدت المدينة الى احيائها احتفاءً بعرس شخصية من الشخصيات المرموقة فيها .

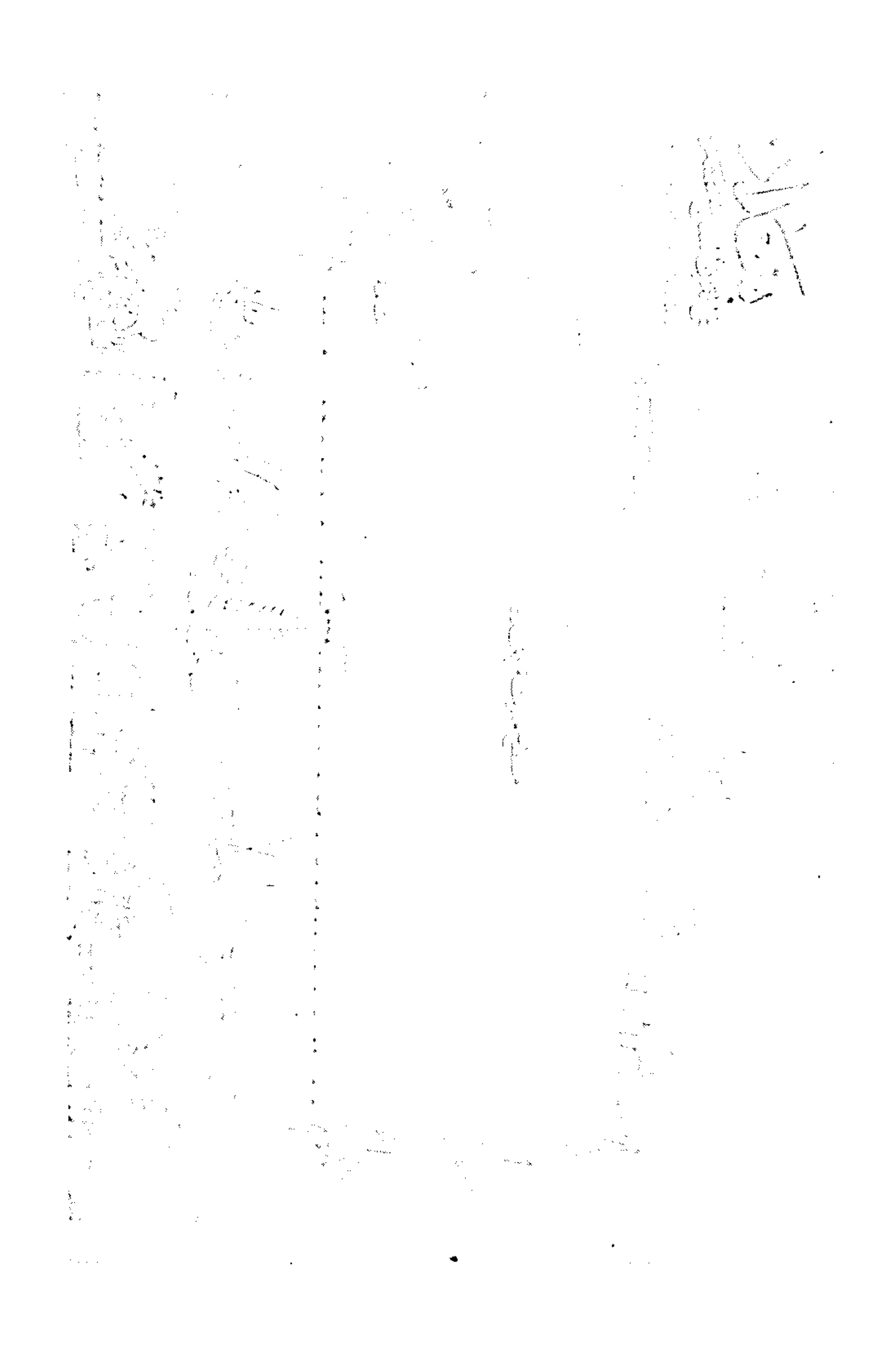
وقد ظل حائراً في أمره ، لكنه اطلق لفرسه العنان حتى وقفت في باب امرأة عجوز قابلته بلطف واحسان . وبعد ان قامت بواجب الضيافة تجاهه قصت عليه قصة الأفراح التي كانت تقيمها المدينة في تلك الليلة . فعرف منها ان ابنة الملك كانت قد ذهبت قبل سنوات لقتال المسلمين ولم تعد الا قبل أيام ، وأنها ستتزوج من ابن عمها في هذه الليلة بالذات . فأثار ذلك فضوله وأقنع الامرأة العجوز بان تساعده في الدخول الى حفلة الزواج في بيت الأمير . فتمكنت من إدخاله الى هناك متنكراً بزي النساء . واستطاع بعد ذلك ان يقف على مقربة من المكان الذي يتقابل به الزوجان لأول مرة . وهناك تبين له ان ابنة الملك لم تكن سوى زوجته كيخان الجميلة بعينها .

غير انه سرعان ما لاحظ ان العريس قابلها بشدة غير معهودة وفظاظة مستغربة ، فقد صفعها صفعة قوية وهو يقول لها « كيف تجرأين على الظهور أمامي ، بعد ان كنت أسيرةً عند المسلمين ، وبعد ان تدنس شرفك بـــين ظهرانيهم ؟ » فما كان منها الا ان تصرخ من غير شعور ، وتصيح قائلة بالكردية التي كانت قد اتقنتها « آه فتي ، اين أنت يا فتي ؟ » . فاندفع اليها

ابن الجبال وخف الى نجدتها وهو لا يلوي على شيء وقتل العريس . ثم أخذها وهرب بها عائداً الى استانبول حيث أكرمه السلطان من جديد .

وحينما عاد فقي أحمد وعروسه الى پشدر عاش فيها عيشةً سعيدة خلال السنين التي بقيت من عمره . واستولى على مناطق بشدر ومركه وماوت . وبعد وفاته خلفه نجله الأكبر بابا سليمان . ومنه تحدرت الأسرة البابانية وحملت اسمها المعروف .

وتروى في الأوساط البشدرية قصة أخرى في هذا الشأن . قد تكون أقرب الى الواقع والتصديق . وهي ان فقي أحمد حينما أخذ بثأر أبيه من عمه ازداد شأنه وعظمت منزلته . فاستنجدت به الحكومة العثمانية في بعض حروبها مع الروس . فلبى الدعوة وقاد قوةً من رجاله الأشداء وانضم الى العثمانيين في محاربة ذلك الخصم العنيد . واستطاع في إحدى المعارك أن يأسر ابنة القائد الروسي . وكان اسمها كيخان . فيأتي بها الى بلاده ويعقد عليها النكاح . وقد كافأه السلطان على ذلك . فخلع عليه الخلع وأقطعه أنحاء بشدر كلها . ثم رُزق من امرأته الروسية ابنه (خان بوداق) فخلفه في الحكم من بعده . وكانت سيطرته تمتد الى أنحاء بشدر ومركه وسردشت وماوت كلها . ومن خان بوداق هذا تحدر بابا سليمان جد الأسرة البابانية .



٤

ثورة ابن الطويل

كانت بغداد في أوائل القرن السابع عشر للميلاد زاوية نائية من زوايا الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف . وكان بُعدها عن الباب العالي في استانبول يؤثر تأثيراً سيئاً في حكومتها ، ويغري الكثيرين من المغامرين بالانتقاض على الدولة العلية فيها واغتصاب السلطة في الكثير من أرجائها .

وقد وافى هذا القرن والامبراطورية العثمانية في وضع لم تكن تحسد عليه لأنها كانت قد خرجت بصلح سيتفاتورك وهي منهكة القوى ، مثقلة الكاهل بما كانت تنوء به من مشاكل والتزامات ، وما كانت تعانية من أحوالها الداخلية المرتبكة التي تعقدت وتفاقم شرها بثورة عبد الحليم قره يازجي التي نشبت في الاناضول فأفزعت أرجاء الامبراطورية كلها .

وفي غمرة من هذه المشاكل والصعاب ، وفي ظروف غامضة من ظروف تلك الأيام الخوالي شغر كرسي الباشوية في بغداد ، فاستأثر بالسلطة العليا فيها سنة سبع وست مئة وألف ضابطٌ من ضباط الحامية الانكشارية في القلعة يدعى محمد بن أحمد الطويل ، وأعلن نفسه والياً في السراي بعد أن أبرز مرسوماً مزيفاً [١] للناس والموظفين . فانضمت اليه قطعات الجيش المحلي في بغداد وما جاورها ، وخضعت لسيطرته المدينة بأجمعها . وقد كان أحمد الطويل والد الباشا الدعي هذا « بلوك باشي [٢] » الخيالة في الحامية مدةً طويلة من الزمن ، وحينما ارتحل عن هذه الدنيا الفانية الى دار البقاء تولى منصبه بالذات ابنه الطموح محمد . فبانت مواهبه في الحال ، واستطاع بعد مناورات ودسائس

---

(١) لونكريك – اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ط ٤ من الترجمة ص ٥٢ .
(٢) أي آمر كتيبة الخيالة .

أن يستغل تدني أحوال الحكم في بغداد ، وانشغال الدولة العلية عن شؤونها . فيستولي على السراي ويعلن نفسه والياً فيها .

ومع جميع ما صحب هذا الحادث من عنف وتقلبات فان الجهات المختصة في الباب العالي لم تحط علماً به . ولم يتناه اليها شيء من أخباره الا عن طريق الصدفة [1] . فقد ارتأى مراد باشا الصدر الأعظم في استانبول ان يعهد بولاية بغداد الممتازة الى نصوح باشا والي ديار بكر . فسار متوجهاً اليها بموكبه الفخم . وآماله المعسولة . حتى وصل الى منزل من منازل السفر الكائنة على الفرات . وهناك التقى بباشا البصرة المعزول پيالة باشا . فأخبره هذا بقصة ابن الطويل وعصيانه ببغداد . فلم يجد نصوح باشا بداً من التوجه الى نصيبين وإشعار الجهات المختصة في الباب العالي بجلية الأمر .

وقد كان من الطبيعي لأولي الأمر في استانبول ان يصدروا الأوامر السريعة لنصوح باشا بتجنيد القوات الكافية من الجهات التي كان موجوداً فيها . والزحف على رأسها لانتزاع بغداد من الانكشاري الثائر بالقوة . فاتصل بالمير شرف الكردي حاكم جزيرة ابن عمر . واستمال بواسطته أمراء الأكراد ورؤساءهم في تلك الجهات ومنهم سيد خان . وعدد من أمراء صوران . وكذلك استمال اليه أمير العربان أحمد بن أبي ريشة . فخلع عليهم الخلع كلهم ومنحهم المنح . ثم اتفق معهم على موعد تجمع القوات كلها في الموصل وحوالي بغداد .

وحينما وصل نصوح الى الموصل بعد هذا في طريقه الى عاصمة ولايته المغتصبة مكث فيها أربعين يوماً من دون ان يلتحق به العدد المطلوب من القوات المتفق عليها . فوقع في حيرة من أمره . وبينما كان يضرب أخماساً بأسداس في هذه الورطة جيء اليه بكتاب من سيد خان موجه الى ابن الطويل العاصي في بغداد يحثه فيه على الصمود ويعده بالعون والمساعدة . فانجلى له الموقف وأيقن بخيانة الرؤساء الذين اتفق معهم . لكنه تلقى أوامر حاسمة من أولي الأمر في

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

الباب العالي بان يسير الى بغداد مهما كلف الأمر . فلم يجد بداً من الامتثال والطاعة .

فسار اليها وفي معيته المير شرف . وأمير امراء شهريزور ولي باشا ، وهو يمنّي النفس بأن يوافيه على الأقل أمير العربان أبو ريشة بقواته العشائرية حول اسوارها تنفيذاً للاتفاق الذي كان قد تم معه بادىء ذي بدء . ثم راسل أمراء صوران وسيد خان من أربيل . غير أنهم لم يلتفتوا اليه . وحينما وافى ضواحي بغداد في التاريخ المتفق عليه (٣ شعبان ١٠١٥ هـ) لم يجد له ولا لقواته أثراً .

اما ابن الطويل في بغداد . فقد تقاطر عليه المدد من كل حدبٍ وصوب وخفت اليه قوات الأكراد والعربان جميعها فدخلت الى المدينة وتحصنت في اسوارها . ولم يكتف بذلك فقط . بل عمد الى الدس والوقيعة أيضاً وبعث من يرشو[1] الصكبانية الذين كانوا في جيش نصوح باشا بمبالغ طائلة من المـــال لينقلبوا عليه في الوقت المناسب . فتم له ذلك واستمالهم الى جانبه .

وبعد أيامٍ من الحصار الذي ضربه نصوح باشا على بغداد من جميع الجهات خرجت اليه في يومٍ من الأيام قوات ابن الطويل فالتحمت مع القوات الهمايونية في قتالٍ مرير لم يدم طويلاً حتى انتهى باندحار نصوح وتفوق مناوئيه . فقد عملت الرشوة عملها في الصكبانيين وبان تأثيرها فيهم حينما انحاز قسم كبير منهم الى جانب ابن الطويل في عز القتال ، وتفرق الباقون لائذين بأذيال الفرار . على ان الأمراء وعدداً غير يسير من اتباعهم ثبتوا في القتال . وكافحوا كفاح الأبطال حتى استشهد ولي باشا أمير الشهريزور وجرح نصوح باشا نفسه

---

(١) يذكر العزاوي في (العراق بين احتلالين ج ٤) ان ابن الطويل تمكن من ارسال ثلاثين الفاً من الدنانير الى الصكبانية ليكونوا معه ، ولا أدري اذا كانت عملة الدنانير موجودة في تلك الأيام ، وعملة من كانت يا ترى ! !

(٢) وكان نصوح باشا رجلا من جهات كوملنجة في الأصل ، استطاع ان يلتحق بالحرم الهمايوني فيعمل بلطجياً فيه . ومن ثم خدم ندماء السلطان ، فتعين في ادارة الأنحاء الامبراطورية . فقد=

بجرحين . وعلى هذا لم يجد نصوح[1] باشا بدأ من الانسحاب عن بغداد والعودة الى جزيرة ابن عمر مع المير شرف ، وهو يجرر أذيال الخيبة والفشل .

وبذلك خلصت بغداد للانكشاري المغتصب محمد ابن الطويل . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فلم يستقم ابن الطويل في الحكم زمناً طويلاً يشفي به غليله ويطفىء ظمأه الشديد للسلطة حتى قتل غيلة بتدبير من محمد چلبي كاتب ديوانه وموضع اسراره ، وباني التكية المولوية المعروفة في بغداد ، وكان قتله على يد زوجته هو ، فمن مأمنه يؤتى الحذر .

وقد تولى الحكم بعده أخوه الصغير مصطفى واستقام فيه مدة من الزمن ، حتى انتدب الباب العالي لتنحيته عنه محمود باشا جيغا لزادة باني بلدة المحمودية القريبة من بغداد . ومحمود هذا من أنجال سنان باشا جيغا لزادة منشىء خان جغان الذي كان معروفاً في بغداد الى ما قبل عدة سنوات . على ان مهمة تنحية مصطفى بك ابن الطويل لم تبرهن الوقائع على كونها شيئاً سهلاً . فمع جميع ما بذله محمود باشا من الحنكة والدهاء في استمالة أتباع العاصي الوريث ، وما جادت به أكفه من المال لهذا الغرض . فقد استطاع مصطفى بك ان يقاوم في القلعة الداخلية مقاومة عنيفة وينازل خصومه منازلة مجدية في الموقعة التي جرت في رأس السراجخانة القريبة من القلعة . ولم يستسلم الا بعد ان تم الاتفاق بين الطرفين على تقليده باشوية الحلة . وبعد ان حكم فيها مدة من الزمن فر الى بلاد العجم وبقي فيها حتى قضى نحبه[1] .

= عين و بوسنة في أيالة زيلع بأفريقية ، ومير ميران في حلب ، وأصبح سرداراً للجيش الذي سيق لقتال الجلالية الثائرين فلم يبرهن على قابلية فيها ، ونقل الى ديار بكر ثم أنيطت به مهمة بغداد هذه . وقد رجع في الأخير الى دار السلطنة وتشرف بمصاهرة السلطان فاستقام مدة في الوظائف الكبيرة الأخرى حتى قتل في رمضان ١٠٢٣ هـ . وكان مرتشياً سفاكاً قاسي القلب (العراق بين احتلالين ، نقلا عن تاريخ جامع الدول).

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ، نقلا عن كولشن خلفا.

٥

نماذج من باشوات بغداد

كان الحكم العثماني الذي خضع له العراق أربعة قرون طويلة غريباً في كثير من أحواله وأطواره . وكان الباشوات الذين يعينون من الباب العالي للحكم فيه يؤلفون مجموعة متنافرة يختلف أفرادها اختلافاً بيّناً في سوياتهم ومداركهم . وفي عاداتهم وأحوالهم . بحيث يستطيع المرء أن يؤلف مجموعة طريفة من أحوالهم الشاذة وأطوارهم الغريبة .

فقد تولى الحكم في أيالة بغداد سنة سبع وتسعين وخمس مئة وألف للميلاد حسن باشا الوزير . وعهد اليه السلطان بتأديب السيد مبارك أمير المشعشعين [١]

---

(١) ينتمي المشعشعون ، أو آل المشعشع ، الى أسرة عربية هاشمية حكمت في منطقة الحويزة وخوزستان ردحاً طويلا من الزمن . وقد نشأت امارتهم على عهد المغول في العراق سنة ٨٤٤ للهجرة ، وكانت قاعدتها الحويزة ، فامتد نفوذها الى الكثير من البلاد الايرانية على عهد المولى علي المشعشعي واستولى لفترات متقطعة على البصرة والجزائر (أي جهات القرنة والجبايش وما الى ذلك) ، ثم حاولت الاستيلاء على أجزاء أخرى من العراق فوصلت الى أسوار بغداد بعد ان تعرضت لمواقع المغول الأيلخانيين في واسط والنجف والحلة . ومع ان وجود هذه الامارة قد استقام الى ما يقرب من نهاية القرن الثالث عشر للهجرة فقد ضعفت دولتها وزال استقلالها وأصبحت تابعة الى الدولة الصفوية من بعد .

أما الاسم فقد اقتبس من اللقب الذي لقب به مؤسس الأسرة محمد بن فلاح ، الذي كان يلقب بالمهدي أيضاً . وقد لقب بهذا اللقب لانه عندما كان يطالع العلوم الغريبة التي اقتبسها من أحمد بن فهد الحلي أستاذه يتشعشع بدنه ويهتز طرباً . ويلقب كل فرد من أفراد هذه الأسرة بلقب « مولى » كذلك فيقال المولى علي والمولى مبارك وما أشبه ، كما يطلق عليهم كلهم « الموالي » ايضاً ، وذلك نسبة الى (علي بن محمد) وهو أول من لقب بهذا اللقب من المشعشعين ، وبعد ذلك استعمل في تسمية الجميع وعرفوا به .

وكان المولى مبارك هذا من أبرز المشعشعين وأكثرهم نشاطاً وتحركاً ، وقد حكم من سنة ٩٩٨ الى سنة ١٠٢٥ هـ (تاريخ المشعشعين وتراجم اعلامهم ، جاسم شبر) .

في الحويزة الذي تجاوز على جهات البصرة وعاث فساداً فيها على ما يقول المؤرخون [1] الأتراك . وكان انتدابه لهذه المهمة من قبيل الاعتماد عليه لأنه كان على ما يروى « چلبيا » شجاعاً .

على أن أبرز ما يعرف عنه انه كان مغروراً كثير الاعجاب بنفسه ، ميالاً الى الكثير من الأبهة والفخفخة . ولذلك كان يحيط نفسه بعدد كبير من الحشم والأعوان ، وبالكثير من رجال الحاشية على اختلاف طبقاتهم وأزيائهم ، مضارعاً بذلك الملوك والسلاطين . حتى أنه صنع له ، حينما تربع على دست الحكم في سراي بغداد ، سريراً فخماً كبير الحجم ، بلغت تكالفته خمسين ألف قرش . لأنه زينه بزينة الأزهار والأثمار ، وصاغها من الفضة الخالصة . وقد أطلق على هذا الـ « پاي تخت » اسم « كاخ بهشت » . فظل بسلوكه هذا موضع تعجب الناس وتندرهم فترةً طويلة من الزمن . وهذا الباشا هو الذي أنشأ جامع الوزير المعروف في بغداد . وقد صرف عليه من أموال تعود لتجار بغداد كان الاعراب قد استولوا عليها حينما كانت محملةً في سفنٍ قادمة من البصرة في دجلة . وقد استعيدت منهم فاختلط بعضها ببعض بحيث صار يصعب معرفة أصحابها ، فاقترح التجار أنفسهم على الوالي الوزير ان ينشيء جامعاً بأقيامها [2] .

وفي سنة أربعٍ وخمسين وست مئة والف أعلن حسين باشا أفراسياب أمير البصرة عصيانه فيها ، وانشق عن الدولة العثمانية . فسار لتأديبه على رأس جيش عرمرم مرتضى باشا والي بغداد . لكنه خاب في مهمته ، لأنه تنازع مع قادة جيشه ، فأدى هذا النزاع الى تخلي الجيش عنه ورجوعه الى بغداد . وحينما

---

(١) ومن جملة ذلك ما يذكره (تاريخ العراق بين احتلالين نقلا عن جامع الدول) حيث يقول : وفي سنة ١٠٠٦ هـ (١٥٩٧ م) خرج خارجي من جانب البصرة يقال له السيد مبارك فاجتمع عليه جمع عظيم من أوباش العرب والعجم فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها ، ولما عرض ذلك الى الباب العالي وجه أيالة بغداد الى الوزير حسن باشا بن محمد باشا الطويل (الطوبال) وأمر بدفع غائلة الخارجي ..

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، الص ١٤٣ .

لحق الباشا بجيشه مع عددٍ قليلٍ من أعوانه وجد أبواب بغداد مغلقة في وجهه ، وأعقب ذلك حصول تطوراتٍ غريبة أدت الى عزله .

ولقد قدر لمرتضى باشا هذا ان يعود الى الحكم في بغداد مرتين أخريين غير متتاليتين بعد ذلك ، ويبدي خلالهما شيئاً أكثر من الشذوذ وغرابة الأطوار . إذ تعرف عنه خصال ثلاث ، تبدو غريبة وتتصف بشيء غير يسير من الشذوذ بالنسبة للكثير من مقاييس الحكم المعتاد . فقد كان يجامل العوام ويتقرب اليهم بصورة غير اعتيادية في شتى الأحوال والمناسبات ، ولذلك كان محبوباً في أوساطهم . وكانت بابه تبقى مفتوحةً للجميع في الليل والنهار ، ولم يكن يحجز بينه وبين الناس أي حاجب . حتى روي عنه أنه دخل عليه في يوم من الأيام أحد المراجعين في البيت بعد ان انفض عنه خدامه ، وكان قد أخلد الى الراحة ونام ، فأيقظه من نومه وقدم اليه عريضةً كانت بيده . ولما لم يجد حوله من يناوله المحبرة والقلم طلب الى صاحب العريضة نفسه أن يأتي له بهما ، وأصدر الأمر اللازم له على العريضة نفسها جبراً لخاطره [1] .

وكثيراً ما كان يشاهد وهو يتجول بالقرب من رأس الجسر أو في الأسواق والشوارع لوحده . ويلتجيء الى المقاهي فيستريح فيها . وهناك كل يفصل في القضايا التي تعرض عليه من الناس ، ويبت في أنواع شتى من الدعاوى أو يحسم الخصومات .

وكان علاوةً على ذلك فوّالاً يرجم بالغيب على ما يحكى ، فيقرأ ما في أفكار الناس ويتنبأ بقدوم القادمين ، ولذلك كان العوام يستبختون به ويستمدون من سعده . ومما يرويه عنه في هذا الشأن مؤرخ بغداد وأديبها في تلك الأيام مرتضى نظمي ان سماكاً من السماكين رمى بشبكته في النهر ، حينما مر مرتضى باشا من جنبه ، فاصطاد عشرين سمكةً في الحال لأنه ذكر اسمه حينما رماها . ويروى كذلك أن أحد الملاحين دخل عليه في أحد الأيام فقدم له شمعةً كانت بيده ، وأخبره بأنه كان قد نذرها له حينما صادفت سفينته عاصفةً هوجاء

---

(١) كلشن خلفا

كادت تغرقها في النهر لولا أن يستمد لها من سعده ويندبه في ملمته .

على ان مرتضى باشا مع هذا كله كان مفرطاً في اللهو ، ميالاً جد الميل الى معاشرة النساء والتقصف معهن في الداخل والخارج . فكثيراً ما كان يحيي الحفلات الداعرة في بيته الكائن داخل المدينة ، أو في المخيمات التي كانت تقام له خارجاً في العراء ، فيقيم فيها الضيافات التي يباح الحضور فيها للجميع ويؤتى بالراقصات والمغنيات اليها على ملأ من الناس . وبذلك أصبح مثلاً سيئاً لموظفيه وقدوةً غير حسنة للكثيرين من الناس .

وحينما تقرر عزله من بغـــداد (سنة ١٦٢٢) بعد ان حكم فيها للمرة الثالثة ، ارتوؤي ان يعهد اليه بمهمة خاصة في جهة من جهات الأناضول . ثم كُلف وهو هناك بان يعمل في جزيرة كريت التي كانت تتبع للدولة العثمانية يومذاك . لكنه أوجس خيفةً من هذا النقل وذهبت به الهواجس ، وكان يعرف بها على الدوام ، مذاهب شتى فظن ان الدولة كانت تريد به شراً ، وانه سوف يُسجن أو يُقتل حالما يصل اليها . وعند ذاك استمع الى مشورة السوء ، فهرب من وجه الحكومة الى الجبال . والتجأ فيها الى حاكم العمادية يوسف بن سيدي خان مع عدد غير يسير من أعوانه ورجاله ، ومعه جميع ما كان قد ادخره وجمعه لنفسه خلال الوظيفة من أموال وأمتعة . وهناك أدت به أحواله الشاذة الى ان يختلف مع أعوانه ومريديه من جديد ، فتخلى عنه أقرب المقربين اليه . وانفض عنه معظم أعوانه واتباعه . فأصبح فريسةً سهلة لأكراد تلك الجهات فقبضوا عليه واستولوا على متاعه وأمواله . وقد صدرت الأوامر في هذه الأثناء الى محمد باشا الكرجي والي ديار بكر ، بفرمان همايوني ، بتسلمه وقتله فصدع الباشا الكرجي لذلك وقتله مع عدد من أعوانه وأرسل برؤوسهم الى دار السعادة .

وكان من الطبيعي ان ينتخب للباشوية الشاغرة في بغداد رجلٌ عركته الأيام ، قادر على تمشية الأمور فيها بالتي هي أحسن . فعُين لها سنة إحدى وستين وست مئة وألف شيخٌ أحدب يسمى مصطفى باشا قنبور . وكان هذا شيخاً وقوراً من أغوات الانكشارية القدماء ، المطلعين على أحوال بغداد وحكومتها . فقد أشغل

منصب الچوربچي فيها على عهد السلطان مراد، وأصبح بعد مدة من الزمن أغا للانكشاريين في حاميتها (آمر الحامية) .

ومن خير ما فعله هذا الباشا الأحدب انه ألغى الأوزار المالية والضرائب الغريبة التي كانت تفرض على الناس تعسفاً واعتباطاً بين حينٍ وآخر . فقد كانت تفرض على البيوت ضريبة « البيتية » او ما كان يسمى « خانة » ، أو تستوفى من الناس مصاريف « الضيافة » و « الغلامية » وما أشبه . وكانت هذه ضرائب كيفية يكلف بجبايتها الكهيات ، أو المختارون ، او المتنفذون في المحلات والحواري . وكثيراً ما كان يرافق هذه الجباية سوء التصرف المتفشي في كل مكان بحيث تصبح مورداً ثراً يرتزق به المكلفون بجمعها . فكانت تزداد أو تنقص بصورةٍ كيفية أو تجبى من دون قيد أو حدود ، وكانت تستعمل في جبايتها مختلفٍ وسائل الظلم والاعتداء الذي كان يمجه ويضيق ذرعاً به الخواص والعوام على حدٍ سواء . ومن وضع مثل هذا نشأ المثل الذي كان يضربه الناس في بغداد في بعض المناسبات ، فيقولون « يموت ولا يؤدي الخانة[1] » .

ومع جميع ما كان يتمتع به مصطفى قنبور من مزايا ادارية ، ويتصف به من حسن نية ، فقد كان « حشاشاً » مبتلى بتعاطي الأفيون والبرش[2] . ولذلك كان يبدو عليه الشذوذ في أحيانٍ كثيرة . وكان يشتد في خلقه بحيث تنتابه سورات من الغضب الفظيع ، فيهدد ويرعد ويزبد ، ويقوم بأعمال لا مبرر لها ولا مسوغ . وقد يتحرك بحركات يعتدي فيها على أعوانه ومقربيه . فاضطر بسبب هذا الى أن يعهد بمعظم أعماله الى كهيته ، غير ان هذا الكهية المسكين صار يتحمل وحده شذوذ الوالي وشراسة خلقه . وأخذ يتعرض الى إهانات لم يعد بوسعه السكوت عليها ، فترك منصبه وجميع ما يملك وفر الى جهةٍ مجهولة[3] ، خوفاً من أن تتطور به الأحوال فتسوء عاقبته .

---

(١) تاريخ الضرائب العراقية للعزاوي.
(٢) البرش خليط من الأفيون المعجون بمواد أخرى، وكان يستعمل للتخدير وإثارة الخيال .
(٣) كلشن خلفا.

وفي ربيع سنة أربع وستين وسبع مئة وألف نجح عمر باشا المملوك ، صهر أحمد باشا ، في اغتيال الوالي علي باشا بمؤامرة لعبت فيها عادلة خانم دوراً كبيراً . فتسلم زمام الباشوية وهو أضعف من ان يستطيع تحمل أعبائها الثقيلة . وظل يتخبط في حكمها عشر سنوات كانت سلطته خلالها تأخذ بالتضاؤل يوماً بعد يوم . فقد كان أبرز ما عُرف عنه تهوره في معالجة الأمور ، وعدم تبصره بالعواقب ، ولا سيما في شؤون الدولة الحساسة . فقد أساء التصرف في سلوكه مع ايران التي كانت تتربص بالعراق الفرص أبداً ودوماً . برغم ما كانت تعانيه من اضطراب في الأحوال وارتباك في الأمور على عهد كريم خان الزند[1] . فأدى ذلك الى أن يسوق العاهل الايراني ثلاثة جيوش على العراق من الشمال والجنوب في وقت واحد . فاحتلت البصرة سنة ١٧٧٦ وأسر متسلمها سليمان أغا بعد ان ظلت تقاوم ببسالة مدة أربعة أشهر ، في انتظار المدد الذي حالت الخيانة المزرية دون وصوله في الوقت المناسب . وكان سليمان أغا هو الذي أصبح بعد ذلك والي بغداد المشهور سليمان باشا الكبير .

ومما كان يمت الى هذه الخيانة بصلة قوية ان عمر باشا انهمك في سنوات حكمه الأخيرة بالملاهي والملذات . فاستولى عليه عن هذا الطريق رجل من أصل ايراني حقير يدعى « عجم محمد[2] » استيلاء كلياً وصار يلعب به ويصرف نفسيته بأخس العواطف . وعلى هذه الشاكلة استطاع ان يتحكم في شؤون الباشوية الى حد بعيد ، ويلعب بمقدراتها بموجب ما يريد ويهوى . فزين لعمر باشا التماهل في أنجاد البصرة بأحرج الأوقات والتقاعس عن امدادها بالعون الملح [3] .

---

(١) ورد في (تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦) نص منقول عن كتاب (تحفة عالم) يقول فيه بالمناسبة : ان والي بغداد اتخذ سلوكاً رديئاً نحو سكان العراق ولا سيما زوار العتبات المقدسة وساكنيها . وكان يأخذ منهم الأموال الوافرة بحجة ان هذه تعود الى موتى الطاعون ، ويصادر بعض أموالهم بداعي أنهم استولوا على متروكات الموتى فوصل خبر ذلك الى الشاه فتأثر ... واستمر في ظلمه وقسوته أكثر بحيث أنه قبض على جماعة من سكان الكاظمية وعذبهم بالعصي (!) فأدى ذلك الى وفاة واحد منهم . ولما جاء هذا الخبر الى الشاه لم يهدأ له بال ولا قر له قرار فأرسل أخاه محمد صادق خان وابن عمه نظر علي خان.. ففوض اليهما الاستيلاء على البصرة .

(٢) سنأتي على قصة عجم محمد في صفحات قادمة .

(٣) مختصر مطالع السعود ولونكريك .

ولم يؤد التهور والخرق اللذان كان يتصف بهما عمر باشا الى مثل هذا فقط ، بل أديا به أيضاً الى مشاكل أخرى مع سراة الناس ورؤساء القبائل . فقد ثار عبد الله السعدون شيخ مشايخ المنتفق سنة ثمان وستين وسبع مئة وألف على سليمان أغا متسلم البصرة فاضطرب حبل الأمن . ولأجل أن يقضي المتسلم على هذه الفتنة بالتي هي أحسن اقترح على الوالي في بغداد ان ينتدب عبد الله بك الشاوي لهذه المهمة فيقدم النصح للسعدوني الثائر . وقد قام الشاوي بما كُلف به خير قيام وجمع الطرفين في بلدة الزبير حتى انتهى المشكل ، ثم عاد الى بغداد . لكن الشيخ والمتسلم ما كادا يفترقان حتى دب[1] دبيب الخلاف بينهما من جديد نظراً للعناد الذي كان يتصف به الأول ، والحدة التي كان يُعرف بها الثاني . فاشتدت الخصومة بين الطرفين بحيث انزعج عمر باشا من الوضع كله وقرر ان يتولى هو نفسه حسم الخلاف بالقوة ، فتم له ذلك . غير أنه ذهب الى أبعد من هذا فتصور ان عبد الله بك الشاوي لم تكن وساطته تخلو من خيانة ، وأنه أثار حقد الشيخ السعدوني أكثر مما محضه النصح . والمرجح أن اندفاعه في هذا التفكير كان ناتجاً عن تحريض سليمان أغا متسلم البصرة له ، لأن المتسلم كان يطمع في باشوية بغداد نفسها وكان يسرد ان تخلق المشاكل لعمر باشا في جميع الأوقات . فلم يكن من الباشا الأخرق الا أن يبعث على عبد الله بك الشاوي من دون تبصر أو روية ويأتي به من بغداد الى « أم الحنطة » وهو المكان الذي وصل اليه قرب البصرة في حملته ، فيعدمه في الحال .

وكان من الطبيعي ان يخلق له هذا السلوك الأهوج مشاكل وصعوبات جديدة . فما ان سمع الحاج سليمان وسلطان . إبنا الشاوي القتيل بخبر والدهما وهما في بغداد حتى تحركا مع حشد كبير من عشيرة العبيد قبيلتهما ، وثارا في وجه الحكومة . وبعد ان تحشدوا في منطقة الدجيل أخذوا يقطعون الطرق ويعيثون بالأمن بحيث صار من الممكن ان تتسع الحركة فيتسع الخرق على الراتق . فاضطر عمر باشا ان يعجل بالعودة من منطقة البصرة ليقضي على غائلة أخرى

---

(١) دوحة الوزراء

لم تكن الا من صنع يده . وفي أول اشتباك وقع بين الفريقين تشتت شمل الثائرين ، واستطاع الحاج سليمان الشاوي ان ينجو بنفسه ويفر من ساحة المعركة ، لكن أخاه سلطاناً لم يتمكن من الفرار فأُلقي القبض عليه . وحينما جيء به الى الباشا المعتدي أبى أن يمثل بين يديه فانتحر بخنجره [1] ، وذهب ضحيةً أخرى لخرق الباشا وسوء تدبيره .

ولقد عُرف الحاج علي رضا باشا اللاظ بما أحرزه من موفقية في فتح بغداد سنة إحدى وثلاثين وثمان مئة وألف للميلاد ، وبقضائه على المماليك فيها بأمر من الباب العالي ، بعد النكبات التي أصابتها من الطاعون والغرق . غير انه مع جميع ما كان عنده من ثقافة أو اخلاص للدولة ، ومع ما كان يتصف به من خلق كريم وما تهيأ له من سلطة وصلاحيات ، لم يكن من الناجحين في شؤون الحكم . فقد كان يتصف بخصال وصفات تنأى به عن النجاح في ولاية كثيرة المشاكل مثل ولاية بغداد ، وفي ظروف تحتاج الى العمل الدائب والتدبير الصائب مثل الظروف التي وُجد فيها حينما تربع على دست الحكم في العاصمة العتيدة .

فقد عُرف خلال السنوات الاحدى عشرة ، التي حكم فيها ولاية بغداد ، بضعفه وخموله . ولعل ذلك كان ناشئاً عن بدانته وثقل وزنه ، وعن تجنبه للحركة والعمل الدؤوب عند الحاجة ، فأثر ذلك تأثيراً سيئاً في تكوين شخصيته ولياقته للمنصب الذي كان يشغله . ولذلك وصفه سائح انكليزي [2] بعد ان زاره في بيته بقوله : اما عقله فليس أكثر جاذبيةً من الوعاء الذي يحل فيه . فهو ضعيف الرأي ، واهن العزيمة ، متردد في العمل ، فظ في قابلياته وشهواته ، أناني جشع .. انتهى .

فكان هذا مدعاة لأن يسيطر عليه في العمل أعوانه وخدامه ، وقد كانوا اناساً من شرار الناس وأوباشهم . ولهذا اشتد الظلم والتعسف في أيامه ، وتفشت

---

(١) المرجع الأخير .

(٢) فريزر ، جيمس بيلي . راجع (رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤) ترجمة كاتب هذه السطور .

الرشوة وكثرت المصادرة والابتزاز حتى بلغت أقصى الحدود . فأدى ذلك كله الى سوء الحكم وخراب البلاد . وهذا ما يقصده السائح الانكليزي المذكور قبلاً حين يقول : والمقول عنه أنه غير ميال في طبيعته الى القسوة أو الظلم . ولكنه يكره ازعاج نفسه بالاجهاد من أي نوع كان بحيث انه يفضل تعذيب الآخرين من دون رحمة على الخضوع لمثل هذا الازعاج ولو أدى به الأمر الى ارتكاب أفظع الجرائم ، فاستغل خدامه نقطة ضعفه هذه . والطمع الذي يساوره ، في الجور على الناس لأنهم مطمئنون بانه لا يمكن ان يؤنب أحداً يأتي له بالمال ..

وكان يقابل ذلك لدى علي رضا باشا أفراط متناه في الجود والكرم الى حد الاسراف . وتطرف في السخاء الى حد التبذير . ولا تزال تروى في بعض أوساط بغداد اليوم قصص تشير الى سخائه المفرط هذا . كما دونت بعض المراجع[1] التاريخية عدداً منها . فيروى أنه وهب يوماً الكرك (الفرو) الذي كان يلبسه الى أحد قاصديه وظل من دونه حتى ألحه البرد . كما يروى انه طالب كهيته في أحد الأيام بشيء من المال ليهديه الى بعض المرتزقة الذين كانوا يقصدون نواله فأخبره ان هناك كيساً وراء الوسادة يمكنه الاستفادة منه . لكنه أجابه بأنه كان قد عرف به فأنفقه من قبل[2] .

فاذا أضيف الى هذا الاسراف والتبذير ما كانت تلح عليه الخزانة الهمايونية في الباب العالي وتطلبه من الأموال والهدايا السنوية . وما كانت تطالب به علي رضا باشا من تركات المماليك الزائلين وخزائنهم الموهومة . يمكننا أن ندرك مقدار الجشع الذي كان يبدو منه ونتبين أسباب سكوته على الجرائم الفظيعة التي كان يقترفها أعوانه وأتباعه . مثل عبد القادر الكمركجي وملا علي الخصي وغيرهما . من أجل جمع المال بكل وسيلة ممكنة . فقد كانت استانبول تتسلم في عهد داود باشا ألفي كيس كل سنة . ومقداراً يعادلها من الهدايا والهبات . لكنه منذ ان تسلم زمام الولاية من بعد داود لم يستطع تقديم ذلك

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين

(٢) حديقة الورود

مطلقاً فراح يسلط جلاوزته على رقاب الناس وأموالهم ، ويبتدع مختلف الوسائل لابتزاز الدراهم والممتلكات . فعمد حتى الى السيمياء [1] ، أي الكيمياء القديمة ، لعل محترفيها أو دجاليها يستطيعون الاهتداء الى الأكسير الذي يحيل له المعادن الخسيسة الى سبائك من الذهب الأبريز . وصرف الكثير من المال في هذا المسعى . كما لعب العديد من محترفي السيمياء الخبثاء بعقله ولبه لهذا الغرض ، ولكن من دون طائل .

ولم يكن علي رضا باشا ، فوق ذلك كله ، يسلم من شر أم الخبائث كذلك . فقد كان سكيراً قانصاً للذات ، فتساهل في أمرها حتى تفشت معاقرتها العلنية في مجتمع بغداد على أيامه . وفي هذا يقول الرحالة فريزر : ولم تصبح رذيلة السكر شيئاً اعتيادياً في بغداد فقط ، بل أصبحت شيئاً عاماً تقريباً . فقد كانت على أيام داود باشا شيئاً مخفياً يتكتّم به الناس على الأقل ، غير أن الباشا الآن يقود طبقة السكارى بنفسه ، ويُرى عادةً وهو لا يكاد يقدر على السير حينما يعود مساءً من حفلاته الداعرة في البساتين .

وعلى نقيض الحاج علي رضا باشا كان خلفه نجيب باشا . فقد كانت لنجيب شخصية قوية نفاذة ، وقدرة ادارية فائقة تجعله يستطيع تنفيذ ما يريد من دون تردد أو تخاذل . ومع جميع المآثر التي خلفها في بغداد فقد كان مثال التركي الصارم [2] المتعصب الذي لا يتورع عن ارتكاب أي نوعٍ من الظلم والتعسف أو الانتهاك لتنفيذ غاياته ومآربه . كما كان شديد الحرص على المال والثروة ،

---

(١) رحلة فريزر .

(٢) يقول المرحوم سليمان فائق بك في مرآة الزوراء (الص ١٦٥ من الترجمة العربية) : تولى الولاية في بغداد والي الشام محمد نجيب باشا فراح يفرض أوامره بالقوة والتهديد ، وأذاق أهل البلاد شتى أنواع الظلم فاضطرهم الى رفع الشكوى ضده ... ثم يقول في موضع آخر (الص ١٧٣) : وفي زمن الوالي نجيب باشا ، وان كان قد أرسل الى خزينة الدولة عشرين ألف بدرة من النقود ، ولكن البلاد خسرت في مقابلها ما يقرب من خمس مئة الف بدرة ، وما يساوي ايرادات الاثنتين وثلاثين سنة المنصرمة من الأغنام والمواشي ، وحوالي الستين ألف من المواطنين الذين اضطروا الى الهجرة من العراق ، وتخلوا عن الجنسية والتبعية بسبب الجور والظلم والاعتداءات . هذا عدا الأضرار والخسائر التي حلت بالبلاد ، وجعلتها قاعاً جرداء لا يمكن الانتفاع منها .

ولذلك استغل فرصة وجوده في العراق ـ البقرة الحلوب ـ فجمع ثروة ً طائلة ، وامتلك عقارات وأملاكاً خلد اسمه بها الى يومنا هذا في بغداد .

وقد كان من ألوان التعصب الذي عرف به تمسكه الشديد بالطريقة القادرية [1] ، وانحيازه الى أهلها انحيازاً تاماً كان يلهيه عن شؤون الدولة في كثير من الأحيان . ولهذا ازداد اختلاطه بالسيد علي الكيلاني نقيب الأشراف يومذاك وكثر تعلقه به . فساعد ذلك على تنظيم شؤون الأملاك القادرية في كل الجهات ولا سيما في بغداد ولواء ديالى .

ولعل القسوة المتناهية ، وانتهاك الحرمات الفظيع ، اللذين صدرا من نجيب باشا فيما سُمي بـ « وقعة كربلا » كانا من أسوأ ما يدل على نفسيته السادية المجبولة على الظلم والتعسف وعلى ما تعتلج به من تعصب ٍ ممقوت . فقد أمر جيوشه [2] بمحاصرة المدينة المقدسة وتضييق الخناق عليها مدة تزيد على العشرين يوماً ، وظل يقصفها بمدافعه حتى استسلمت في يوم ٍ من أيام الجمع المصادف لليوم الثاني من العيد الأضحى المبارك لسنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢) . فتدفقت قواته على بلد الامام الشهيد الذي أبيح للجند طوال اليوم ، وراحوا يمعنون في تقتيل الناس والفتك بهم حتى بلغ عدد المقتولين ما يزيد على أربعة آلاف نسمة . ولم يسلم من هذا المصير المؤلم حتى الذين التجأوا الى حضرة الامام العباس ولاذوا بقبره المطهر ، بينما سلم الذين التجأوا الى دار السيد الرشتي ، كبير الكشفية ، وأنقذت أرواحهم . ثم سيق عدد من رجال كربلا ووجهائها مكبلين الى بغداد ومنها نفوا الى كركوك وغيرها من جهات العراق . ولم يكتف ِ بذلك فقط بل أمعن في انتهاك الحرمات ، وتعمد ان يدخل الى صحن العباس ممتطياً صهوة جواده [3] .

---

(١) العراق بين احتلالين .

(٢) وكـان يقودها سعد الله باشا والي الفترة الفاشل سابقاً والقائد المخذول في قتاله مع عشائر الهندية قبل هذه الوقعة .

(٣) تاريخ العراق بين احتلالين .

وقد تولى الوالي محمد وجيه باشا (وجيهي باشا) زمام الحكم في بغداد في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠) ، فكانت العشائر العربية في العراق الأوسط والجنوبي في حالة فوران وتحرك دائم . وكان مرد ذلك السياسة الخرقاء التي أخذ يتبعها الولاة الأتراك تجاهها منذ أيام علي رضا ونجيب ، وهي سياسة العنف والقوة لتفكيك الوحدات العشائرية الكبيرة ، بضرب الواحدة بالأخرى ، وبذر بذور التفرقة بين رؤساء القبيلة الواحدة ، فضلاً عن انزال ضربات موجعة بهم بين فينة وأخرى . ولم يكن يرافق هذه الخطة أي مقدار من التعقل الذي يجب ان يتمسك به الاداريون في العراق قبل أي شيء آخر ، ولا أي نوع من أنواع التفكير العمراني الذي يستهدف إعداد خطة محكمة لتوطين القبائل وربطها بالأرض ، مع مساعدتها بجميع الوسائل الممكنة على استغلالها والاستفادة منها ، ثم تأمينها على امتلاكها .

وحينما حاول وجيه باشا ان يفعل شيئاً من ذلك ، وان يسوس القبـــائل بالحسنى ، اصطدم بالمشير نامق باشا قائد الفيلق السادس في بغداد الذي كان من رأيه ان يؤدبهم بالقوة ، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر على ما تقول بعض مراجع [1] ذلك الوقت . وقد احتكم الفريقان الى المراجع المختصة في استانبول فأيدت المشير القائد في رأيه ، وبادرت الى تسليم الولاية اليه وإبعاد وجيهي باشا عنها .

ولقد قُدّر لمحمد نامق باشا الكبير ، كما يسمى في المراجع التاريخية ، ان يحكم الولايات العراقية مرتين : إحداهما في هذه المناسبة ، أي في سنة إحدى وخمسين وثمان مئة والف ، والأخرى بعد عشر سنوات منها . ومع ان هذا الوالي كان من الولاة المجربين المثقفين ، حيث انه كان يجيد الفرنسية والانكليزية الى جانب العربية والتركية ، فقد كان عسكرياً فظاً يؤمن باتخاذ القوة والعنف وسيلة فضلى من وسائل الحكم ، وعنوداً معتداً برأيه من دون أن يعبأ برأي أي شخص آخر غيره .

---

(١) تاريخ الشاوي الذي نقل عنه تاريخ العراق بين احتلالين

وكان من الطبيعي ان ينعكس هذا كله في أعماله وتصرفاته ، ولذلك كانت باكورة عمله أنه أبعد عن العراق عدداً من شيوخ العشائر العربية ، وسيّرهم مكبلين بالقيود الى استانبول في نفس القافلة التي سافر فيها سلفه وجيهي باشا اليها . وهؤلاء هم ظاهر[1] المحمود شيخ زوبع ، وكريدي شيخ الخزاعل ، وستة آخرون من رؤساء الخزاعل في الديوانية . وأعقب ذلك بعد شهرين بنفي مئة شخص الى البصرة ، كان قسمٌ منهم قد زُجّ في سجن بغداد لأتفه الأسباب.

ثم أخذ يبطش برؤساء القبائل واحدة بعد أخرى ، ويسلك طريق الشدة معهم ، حتى كرهه الناس في جميع الجهات . فحاول تأديب بني حسن والخزاعل وزوبع وزبيد وشمر بهذه الطريقة ، ثم تدخل في النزاع الذي كان محتدماً بين رؤساء السعدون في المنتفق فأضاف الى النار المشتعلة هناك حطباً من عنده . ومع كل ما بذله من جهد وشدة فانه لم يحقق ما كان يصبو اليه من استقرار في أحوال البلاد . فقد أنهكه العمل المتواصل في جو العراق المعروف فأثرّ تأثيراً سيئاً في صحته ، وبينما كان ينصرف الى العناية بنفسه وينشغل بالتداوي والاخلاد الى الراحه والهدوء لفترةٍ ما على ما تذكر بعض المراجع[2] اضطرب حبل الأمن من جديد ، وأخذ وادي الشفلح شيخ زبيد يسيطر بعشيرته على ما بين الحلة وبغداد ، ويشن غاراته على الطرق والمراكز الحكومية في البر والنهر ، وراح يهدد طريق دجلة كذلك فتوقف سير السفن المحملة بأموال التجار فيها . ثم أردف هذا بالاستيلاء على المسيب[3] نفسها فنهبها واستولى على جميع ما كان مودعاً في مخازنها من أطعمة وأموال . وبذلك انقطعت الطرق ، وتوقف الزُراع عن حصد الحاصلات في حقولهم فارتفعت أسعار الطعام في الفرات الأوسط .

وحينما علمت المراجع المختصة في الباب العالي بالأمر بادرت الى عزله ،

---

(١) أي والد الشيخ ضاري ، قاتل الكولونيل ليجمن في خان النقطة خلال الثورة العراقية الكبرى (١٩٢٠) .

(٢) مرآة الزوراء (تاريخ بغداد) الص ١٦٥ .

(٣) تاريخ العراق بين احتلالين .

بعد ان لم تكن قد مرت عليه سوى عشرة أشهر في الحكم . وقد عاد الى العراق مرةً ثانية . وتولى ولاية بغداد في سنة إحدى وستين وثمان مئة وألف . وبقي فيها حتى استدعي الى استانبول ليتقلد وزارة الحربية بعد ست سنوات . وبعودته هذه عاد الى سياسة العنف والشدة . ولا سيما مع العشائر ورؤسائها . وقد خطب في أهل بغداد بعد قراءة الفرمان مباشرةً بهذا المآل . وأعلن انه سيتبع هــذه السياسة[1] . وكان من جملة ما عمله خلال الأيام الثلاثة الاولى من حكمه أنه عزل التفنكجي باشي الحاج أحمد أغا . الذي لا يزال يضرب المثل بقسوته وتصرفه الكيفي في بغداد . وعين في مكانه الحاج علي أغا الذي جاء به من استانبول في معيته .

ويبدو مما قام به من أعمال ومآثر في بغداد خلال الفترتين أنه كان يجمع في شخصيته المجبولة على الصرامة والعنف شيئاً غير يسير من التناقض . فقد حصر اهتمامه خلال باشويته الثانية . في شؤون الولاية المالية على الأغلب وراح ينظمها ويرتب أمورها بحيث أخذت تدر عليه آلاف البدر والأكياس . فصار يستطيع في كل شهر تحميل قافلة من البغال[2] بالمبالغ الطائلة الى استانبول . فأثلج بذلك صدر السلطان . الذي أمر بتشييد قصر ملكي خاص له من هذه المبالغ . وربما كان هذا هو السبب الذي أوصله الى كرسي وزارة الحربية في استانبول . وقد ساعده في كل هذا ما كان يعرف به من بخل وتقتير في معظم أعمالــه وتصرفاته . ومن طريف ما يروى في هذا الشأن انه كان يتابع تكدس الأموال في الخزانة الحكومية بنفسه . ويذهب اليها في كل صباح ومساء فيتلو عندها دعاءً يطلب فيه من الله سبحانه وتعالى ان يديمها . ويطرح البركة فيها . ويحفظها من عبث العابثين . واستطاع بهذا الحرص والبخل أن يجمع لنفسه كذلك مبالغ كبيرة . وثروة طائلة . صار يعد بفضلها في عداد الأثرياء .

وبينما كان نامق باشا في بداية عهده بالحكم معروفاً بكونه « متفرنجاً » وميالاً الى التساهل والتجديد في أشياء كثيرة . فقد أصبح في أيامه الأخيرة هذه كثير التقرب من مشايخ الخلوتية ودراويشها آخذاً بطريقتهم في التدين والتصوف . وذهب الى أبعد ما يمكن في هذا الطريق فالتزم بالزهد والتعبد وسلك سبيل الغلاة[3] .

---

(١) و (٢) المرجع نفسه

(٣) تاريخ جودت باشا



السلطان مراد الرابع بملابسه العسكرية

٦

جيل من الفوضى والتقلبات

في شتاء سنة ثمان وثلاثين وست مئة وألف للميلاد تسنى للعثمانيين أن ينتزعوا بغداد من أيدي الايرانيين . وكانت الحملة الموفقة التي استردت مدينة الخلفاء الحائرة بين الفريقين سادس حملة يجردها العثمانيون الأتراك للتغلب على خصومهم . ملوك ايران الصفويين . في هذه البقعة التاريخية التي سارت بذكرها الركبان . ولم يكتب الفوز لآل عثمان في هذه المهمة الخطيرة الا بعد جهود شاقة مضنية . وتضحيات باهظة في الأرواح والأنفس وصلت الى حد المئة الف نفس[1] .

وقد كان الفضل في هذا النصر المدوي والظفر اللامع يعود الى السلطان مراد الرابع . الذي زحف بنفسه على رأس جيوشه الجرارة وحاصر بغداد حصاراً عنيفاً استدام أربعين يوماً . ولذلك كان دخوله اليها دخولاً دراماتيكياً تعمد فيه ان يكون شبيهاً بدخول اسكندر المقدوني الأكبر الى مدينة بابل الحصينة . فقد دخل اليها وهو يحمل بيده حزمةً كبيرة من الأسلحة . وفوق كتفيه جلدٌ من جلود النمور . وبين يديه خمسون قائداً من القواد الايرانيين الخانات مكبلون بالحديد ومصفدون بالأغلال . وقد كان يرتدي جبةً حمراء تضاهيها في لونها الصارخ عمةٌ تقليدية كبيرة .

غير ان هذا الدخول الدراماتيكي لم يكن . بكل ما رافقه من صيت وشهرة . يتناسب مع ما أعقبه في ولايات العراق الثلاث من ضروب الفوضوية الشاملة

---

(١) لونكريك – اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، وكولشن خنفأ .



ودلائل الاضطراب والتقلبات . فقد غادر الپاد شاه المظفر من باب الطلسم . وأغلقت من بعـــده الى الأبد تخليداً لذكرى مجيئه التاريخي هذا . وترك بغداد وديعةً بين يدي واليها الأول كوچوك حسن باشا . وكان هذا رجلاً خيّراً انصرف الى تضميد الجروح وإشاعة العمران [1] في البلاد ونشر العدل والطمأنينة في أرجائها . لكن السلطان مراد الذي عينه في منصبه الخطير هذا ما ان وصل الى « دار السعادة » عاصمة ملكه حتى توفي وانتقل الى الدار الآخرة . فتسنم العرش العثماني في مكانه أخوه السلطان ابراهيم خان الأول . وكان هذا السلطان ناقماً على كوچوك حسن باشا والفئة التي ينتمي اليها في استانبول . كما كان الصدر الأعظم قره مصطفى باشا يرى فيه غير الشخصية القاسية التي تحتاج اليها مثل هذه الولاية . فصدر الفرمان بفصله وتنحيته عن العراق وبتعيين درويش محمد باشا في مكانه .

وكان هذا الباشا الألباني [2] الشجاع . بقامته المديدة الخارقة وشاربيه العظيمين المتدليين الى ما يقارب المحزم . والياً شديد البأس قوي المراس قبض على شؤون الولاية بأيدٍ من حديد . لكنه ظلم الناس وسامهم الخسف والهوان . وتطرف في اشباع رغباته في الترف باختلاس الأموال والمضاربة في بيع [2] الحبوب والحيوانات بمقياس واسع حتى ضجت منه جميع الجهات . وقامت قبائل الخزاعل في الفرات الأوسط ثائرةً في وجهه بقيادة رئيسها المقدام الشيخ مهنا . فسرت الثورة بين القبائل سريان النار في الهشيم حتى وصلت الى منطقة الجزائر في الجنوب . وانتشرت الفوضى في كل مكان . غير ان الباشا العملاق عاجلها

---

(١) يقول المستر لونكريك (الص ١٠٧ من الط ؛ الترجمة العربية) انه رمم العتبات والأبنية الحكومية ، وعمل على اجتذاب السكان الى بغداد بعد أن غادروها خوفاً من الحرب والحصار الى الخارج ، واعتنى ببساتين القصر ومرافق الأنس فيه .

(٢) لونكريك ، لكن كاتب العراق بين احتلالين (ج ٥) يذكر انه جركسي الأصل ، وانه بعد ان كان في خدمة ضابط الحرم الهمايوني مصطفى أغا في عهد السلطان أحمد تقلب في وظائف كبيرة عدة في مصر والشام وغيرها . واشترك كذلك في حملة الفتح التي قادها السلطان مراد فاستولى بها على بغداد ، وقد ابدى بسالة خلال الحملة وصار يحبه السلطان من أجل ذلك . كما يذكر انه ولي الصدارة العظمى فيما بعد فأصيب بالفالج واعتزل الخدمة فتوفي سنة ١٦٥٤ م .

بكل ما أوتي من قسوة . فساق اليها قوة كبيرة يرأسها كهيته علي أغا . واستطاع هذا ان يفرق جموع الثائرين . ويقتل خلقاً كثيراً منهم . وان يتحف واليه في بغداد بست مئة رأس من رؤوسهم . وبعد سنوات ثلاث مفجعة بمثل هذه الحركات والحوادث عزل درويش محمد باشا . وأعيد الى ولاية بغداد كوجوك حسن باشا مرةً ثانية .

ثم تبعه في الحكم رفيقٌ مرح . غريب الأطوار . من رفقاء السلطان مراد يدعى دلي حسين باشا . وقد أطلقت عليه كلمة « دلي » اي « المجنون » لشذوذ طباعه وغرابة أطواره . ومما استبان من شذوذه في بغداد خلال مدة حكمه القصير الممتد الى خمسة أشهر فقط أنه كان يخرج متنكراً في جولات ليلية يرتاد فيها ازقة بغداد وأسواقها . للتجسس على الناس والاطلاع على أحوالهم . وليعاقب كل عابث أو مخالف بنفسه . ولذلك انتشر الرعب بين طبقات السكان في أيامه[1] . وحينما عزل حسين باشا هذا تولى في مكانه محمد باشا آل حيدر أغا . وعزل بعد سنة فتعين عوضاً عنه كوجوك موسى باشا . ولم يستقم الباشا «الصغير» هذا في الحكم سوى سنة واحدة كذلك. فنقل الى مكانٍ آخر وعيِّن في مكانه ابراهيم باشا خزنه دار الصدر الأعظم صالح باشا .

وقد كانت الأحوال . خلال السنوات الثمان التي تولى الحكم فيها اولئك الباشوات السبعة . غير مستقرة في ولايات العراق كلها . وحينما تربع على دست المسؤولية فيها ابراهيم باشا هذا ازدادت الأحوال سوءاً على سوء وتفاقمت المشاكل . لأن الأمور اضطربت في بغداد أيضاً . حيث انه كان شاباً غراً يتصف بالكبرياء والتجبر وتعوزه الخبرة العسكرية والدراية في الشؤون الادارية . ولذلك لم يستطع السير بوئام مع رجال الحامية الانكشارية في بغداد وأغواتها . وأخذ يعمل بكل ما أوتي من عزمٍ وقوة في تكتيل الفئات والأحزاب من حوله . ويستعد للانقضاض على خصومه ومناوئيه في الوقت المناسب . وقد

---

(١) لونكريك . هذا وقد عرف دلي حسين باشا بتجديده لبناء جامع قمرية التاريخي المعروف في جانب الكرخ بعد ان تهدم في معارك فتح بغداد .

شاءت الظروف ان ينفجر هذا الوضع المتأزم بقتل صالح باشا الصدر الأعظم في استانبول . وصدور الفرمان الهمايوني بعزل ابراهيم باشا لأنه كان ينتمي الى الصدر القتيل .

فقد أنيطت ولاية بغداد بخصي من خصيان البلاط الهمايوني الأمناء يدعى موسى باشا السمين (سمبز موسى باشا) . من دون ان يكون راغباً فيها . فحاول التملص من وظيفته هذه وتمارض فبقي في استانبول . وانتدب وكيلاً عنه فأوفده لتسلم الولاية باسمه . لكنه ما وصل بغداد حتى وجد إعراضاً عنه . فطرده ابراهيم باشا وأعلن انتقاضه على الدولة العلية . وقد انحازت اليه في عمله هذا تلة كبيرة من القوات المسلحة . لا سيما القطعات المحلية التي عمل على تكتيلها من حوله قبل وقوع الحادث . غير ان الجهات المسؤولة في الباب العالي علمت بتمرده فانتدبت المير آخور الصغير العائد للسلطان لمعالجة المشكل . ووصل الى بغداد فاستطاع ان يقبض على الباشا المتمرد ويقتله . وقد قتل معه جماعة من رجاله . وعلى رأسهم معتمده الكهية . وحبس البعض من أعيان بغداد فصودرت أملاكهم .

ووصل على إثر ذلك موسى باشا السمين [1] . وتسلم زمام الولاية في سرايها وهي في وضع ٍ مضطرب . غير انه مع جميع ما كان يتمتع به من سمعة ومنزلة كبيرة في استانبول فان مجيئه لم يؤد الى تهدئه الحال واستقرار الأمور في بغداد . بل عقدها تعقيداً غير يسير . فقد تبين ان موسى باشا كان عصبي المزاج حاد الطبع . وان بدانته المفرطة كانت تعيقه عن النشاط والحركة الدائبة . ولذلك اضطر الى ان يسلم الأمور في أيدي الانكشاريين العربيدين من خصوم سلفه الباشا القتيل . والى ان يشتط في ظلمه وقسوته مع الناس . فأعمل السيف في انصار سلفه ابراهيم باشا حتى بلغ عدد من قتل أكثر من مئتي شخص من أهالي بغداد [2] . وقد اتهمهم بتهم مختلفة . وصادر أموالهم . حتى اضطر عدد غير قليل من الناس الى ان يهربوا الى ايران . وحينما وصلت أخبار هذه المظالم

(١) العراق بين احتلالين ، وأربعة قرون . .   (٢) كولشن خلفا والفون هامر

والأعمال الوحشية الى أولياء الأمر في الباب العالي ، انتدبت لجنة خاصة من باشوات ثلاثة للتحقيق في أمره . فأدانته وصدر الفرمان بعزله وقتله . وقد تم ذلك عندما تسلم خصمه القديم مراد باشا منصب الصدارة العظمى في استانبول .

وعند ذاك عُين في ولاية بغداد ملك احمد باشا الأباظي ، فكان رجلاً نقي السريرة ، طيب القلب ، محباً للفقراء بحيث اطلق عليه لقب « الملاك » فاستولت عليه طغمة الانكشاريين كذلك ، وشجعتهم بساطته على العربدة والتمادي في أعمال العنف والفوضوية . فأدى هذا الى نقله الى جهة أخرى من جهات الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف ، في سنة خمسين وست مئة وألف للميلاد .

وقد ظل الولاة يتعاقبون من بعد هذا الوالي على الحكم في بغداد ردحاً طويلاً من الزمن ، لم تستقر فيها الأحوال ، وظلت البلاد في أثنائه تغط في موجات متتالية من الغوائل والانحطاط بسبب استبداد الولاة وعدم لياقتهم للحكم ، وانعدام القانون ، وبعد الولاية عن العاصمة الهمايونية . وبقيت الحاميات الانكشارية متمادية في غيها وخروجها الدائم عن الحدود المرسومة لها . وكثيراً ما كانت تؤدي تلك الحال الى اصطدام الانكشاريين حتى بأهالي بغداد أنفسهم في مختلف المحلات والأزقة، فتراق الدماء وينتشر الظلم والجور.

اما في خارج المدن ، فقد كانت الطرق غير آمنة ، والقوافل مهددة ، والحكم في كل ذلك للعشائر الخارجة عن الطوق ، الثائرة على الحكومة بين حينٍ وحين . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى تولى الحكم في بغداد الوزير الخطير والوالي القدير الحاج حسن باشا الأيوبي ، فأصلح الحال في الحال وأعاد الأمور الى نصابها فيها. وبذلك يدخل التاريخ العراقي الحديث في عهدٍ جديد .

٧

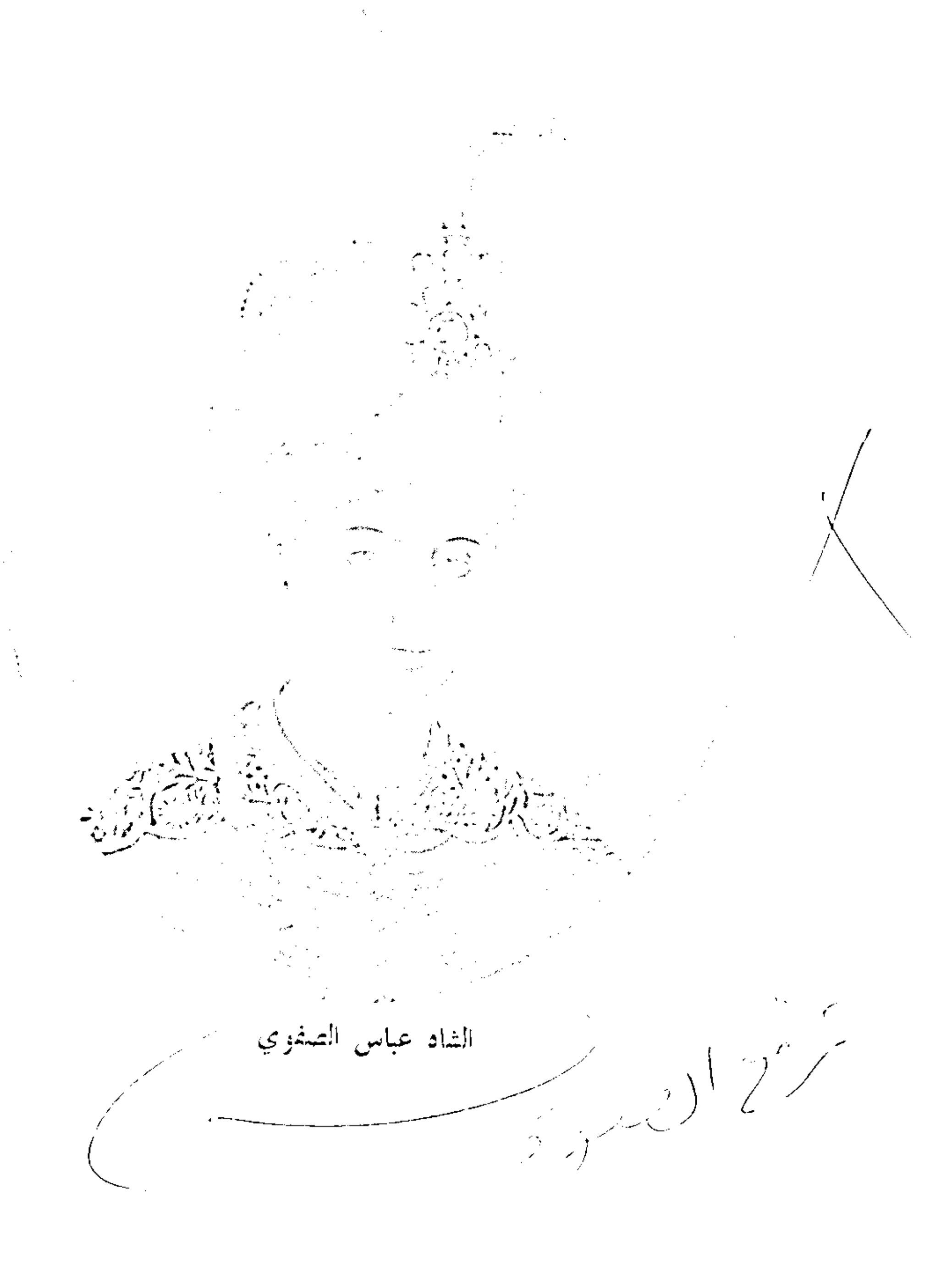
كنج عثمان[1]

في الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ثلاث وعشرين وست مئة وألف استولى الشاه عباس الصفوي على بغداد ، بعد الخيانة الفريدة التي صدرت من بكر الصوباشي . فخضعت بذلك إلى حكم جثم كابوسه على صدرها مدةً تناهز الخمس عشرة سنة ، فكان حكماً بغيضاً لسكانها .

وظلت بغداد تعاني ما تعاني من هول هذا الاحتلال ، وتئن رازحةً تحت هذا الكابوس الثقيل ، وأكثرية سكانها ينتظرون الخلاص على أيدي العثمانيين الذين أضاعوها من أيديهم بأهمالهم وسوء تصرفهم في الحكم . وكان طموح البلاط العثماني ملحاً في استعادتها منذ اللحظة التي أضيعت فيها . ولذلك عُهد عام ١٦٢٥ إلى الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا بأن يتولى هذه المهمة ، ويتأهب للزحف على بغداد المضاعة فيستردها من الصفويين . فجهز جيوشاً جرارة لهذا الغرض ، وسار على رأسها حتى نزل بها في كركوك . وكان قبل أن يصل اليها قد انتدب مراد باشا والي ديار بكر ليتوجه قبله بقوة خمسة عشر ألف مقاتل فتكون مقدمةً للجيش الزاحف ، وتقوم بقطع طريق العودة على قسمٍ كبير من أفراد الجيش الايراني ، المرابط فيها ، حينما يخرجون إلى النجف بمناسبة إحدى الزيارات المهمة . غير أن مراد باشا لم يستطع القيام بهذه المهمة على الوجه المطلوب لأن حوالي ثمانية الآف أيراني تمكنوا من العودة إلى بغداد مع القائدين صاروخان وميرفتاح . وحينما تمت المذاكرة في هذه النتيجة مع قادة الجيش الزاحف وأمرائه في كركوك ، أصرّت قطعات الأنكشارية على الزحف

---

(١) المراجع : مجلة لغة العرب (المجلد الرابع) ، تاريخ العراق بين احتلالين ، أربعة قرون ..



الشاه عباس الصفوي

إلى بغداد مباشرةً من دون أن تلتفت إلى رأي القائد العام (السردار) الذي كان يريد أن يبدأ بالزحف على درنه ودرتنك لغلق الحدود فيهما والحيلولة دون وصول الامدادات إلى القوة المرابطة في بغداد . ومع أن الجيوش الزاحفة لم تكن مستعدة تمام الاستعداد لهذا الزحف الطويل الخطير فقد سارت أرتالها وقطعاتها إلى بغداد حتى وصلت إلى منطقة الأعظمية فخيمت في شمالها . وعند ذاك تقرر أن تبادر هذه الجيوش إلى محاصرة بغداد في الحال ، وأن تضرب طوقاً محكماً حولها قبل أن تصل اليها النجدة من أيران . فتوزعت القطعات حول السور ، وأقيمت المتاريس والطوابي ، ثم نصبت المدافع ، وقطعت الآلاف من أشجار النخيل فرميت مع التراب في الخندق المحيط بالسور لدفنه . ولأحكام الحصار من جميع الجهات نصب جسرٌ على دجلة فعبرت القوات التركية عليه إلى جانب الكرخ . وقد استغرق ذلك كله مدة شهرين بالعمل المتواصل ، تم خلالهما الاستيلاء على الحلة وكربلاء .

وفي اليوم الثاني والسبعين من مدة الحصار تقرر شن هجوم كاسح على السور فكان هجوماً غير موفق ، تكبد فيه المهاجمون خسائر جسيمة في الأرواح . لأن الجيش المهاجم وضع تحت السور اثنين وخمسين لغماً من جميع الجهات ففطن اليها الايرانيون وأبطلوا عملها بالماء كلها خلا واحداً ، فلم يمكن إحداث ثغرات فيه للدخول منها . كما لم تكن المدفعية بالمقدار الكافي ولا بالعيار الثقيل المؤثر . وحينما كتب إلى استانبول ونواحي العراق عن إرسال مدد بالمدفعية لم يصل المدد في الوقت المناسب ، لكن القائد تسلم خبراً من البصرة يفيد بأنها ستمده بمدافع تطلق أحجاراً زنة الواحد منها ٤٩ أوقية ! !

وقد استطالت مدة الحصار بعد ذلك فامتدت إلى تسعة أشهر من دون أن يستطيع الأتراك اقتحام الأسوار خلالها . وكان الشاه خلال هذه المدة قد وصل بنفسه على رأس جيشٍ لجب لأمداد المحصورين ، ومنازلة الجيش المهاجم ، فجرت بين الفريقين مناوشات ومعارك عديدة غير حاسمة . وقد طلب الصدر الأعظم ، في ساعةٍ من ساعات حرجه خلال هذه المعارك ، من الشاه أن ينزل إلى الميدان للمبارزة فرد عليه الشاه يقول : ان البازي المفترس لا يصغي لصوت

الزاغ ، ومن كان همه صيد الأسود لا يبالي ببنات آوى . كما جرت اتصالات بين الطرفين من أجل الصلح ، عرض فيها الشاه على الأتراك وجوب فصل بغداد عن السلطنة العثمانية ليجعل منها ولايةً خاصة لولي عهده ، فلم تكن اتصالات مثمرة وانما أدى أحدها إلى شغب الأنكشارية ومهاجمتهم لخيمة الصدر الأعظم ، وعلى مرأىً من السفير الايراني الذي جاء للمفاوضة سُجن في قبة الامام أبي حنيفة .

ومع أن الحالة في داخل بغداد المحصورة كانت على أسوأ ما يكون ، وبرغم الجوع الذي أخذ من سكانها ومقاتليها مأخذه ، فقد كانت الحالة التي أصبح الجيش العثماني عليها وهو يحيط بأسوار بغداد حالة لا تطاق لأن جيش الشاه الذي كان يطوقه من الخارج بدوره قد قطع عنه الامدادات في الأرزاق والاعتدة . فتقرر الانسحاب إلى الشمال ، وتم ذلك في غفلةٍ من قوات الشاه ودورياته . وقد توجه حافظ أحمد إلى مقره الشتوي في حلب ، ثم قبلت وفادته إلى الاستانة وكافأه سيده السلطان بخلعة الشرف جزاءً له على إخلاصه . غير أن فشله في الاستيلاء على بغداد جعل من الممكن لخصومه وحسّاده أن يتمادوا في الكيد له والدس عليه حتّى اضطر السلطان إلى تنحيته عن الصدارة العظمى .

وفي سنة ١٦٢٩ عهد بمهمة استعادة بغــداد للعثمانيين مرة أخرى إلى الصدر الأعظم خسرو باشا . وكان خسرو هذا بشناقياً صارماً رفعته قابلياته ونشاطه المتأجج من مصاف الجنود الأغمار إلى هذا المنصب السامي . فبدأ بزحفه على عاصمة الخلفاء العتيدة في شهر أيار ، وحينما عبر الفرات في بيرهجك دبر شحن التجهيزات والاعتدة والمدافع بالشختاتير إلى الفلوجة ، وفعل الشيء نفسه في الموصل . وبعد حملات عديدة في بلاد الأكراد وتوغلات غير قليلة في داخل أيران وصل إلى أسوار بغداد في خريف ١٦٣١ . ولم يبدأ بهجومه الأول على المدينة الحصينة الا في أوائل تشرين الثاني . لكن هذا الهجوم كان من المقدر له أن يفشل كذلك ، برغم ما بذل فيه من أرواح وقنابل وعتاد . وتلى ذلك كفاح مرير بين الفريقين استدام أربعين يوماً كانت تتناقص خلالها كميات المؤونة والعتاد والبارود عند العثمانيين ، فضلاً عن تزايد الضحايا في الأنفس ،

من دون أن يتسلهم أي مدد للتعويض . ولذلك كان لا بد للسردار خسرو باشا من أن يفكر جدياً بالانسحاب والنكوص ، لكن الايرانيين في الداخل كان قد وصل بهم الأمر كذلك إلى أدنى المستويات ؛ لا سيما وقد أصبحوا منقطعين عن المدد لأن الأحوال في ايران كانت قد تبدلت وارتبكت فيها الأمور بعد وفاة الشاه عباس . ولو كان بوسع خسرو باشا أن ينتظر كما انتظر زميله حافظ أحمد باشا من قبل لكان من الممكن له أن ينتصر فينجح في مهمته .

وهكذا بقيت الحالة على ما كانت عليه حتى قيّض الله لهذه المدينة التي سارت بذكرها الركبان ، وتقاتل من أجلها ذوو العروش والتيجان ، أن يفتحها من جديد الپادشاه المخيف مراد الرابع بعد أن زحف عليها بنفسه مع خيرة القوات الامبراطورية . وقد كان لهذا الحادث المدوي وقعٌ كبير في نفوس البغداديين الذين صاروا يشعرون بأنهم قد أعيدت لهم حريتهم ، وردت اليهم كرامتهم ، برغم ما كان ينطوي عليه الفتح من سيطرة وعبودية . لأن بغداد في الحقيقة لم تحصل على حريتها ، وأنما ودعت فاتحاً غريباً واستقبلت فاتحاً غريباً آخر . ومع هذا فقد حيك حول حادث « التحرر » هذا شيء غير يسير من الأساطير والقصص الخيالية ، وأحيط أبطال الفتح بهالة من الاكبار والتقديس ظل الناس يتداولون حديثها في بغداد جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا . وكان مدار هذه الأساطير ، المنطبعة بطابع التهويل والتقديس في الغالب : السلطان مراد الرابع [١] وعدد من رجاله وقواده وحتى مدافعه ؛ مثل « طوب أبو خزامه » .

فمما يروى في هذا الشأن أن أحد قواد السلطان مراد دخل المعركة بسيفين حينما حمي وطيس القتال بين العثمانيين والايرانيين خلال عملية الفتح ودخول الجيش العثماني إلى داخل السور . وأخذ يفتك بالأعداء ويمعن فيهم طعناً وتقتيلاً حتى بعد أن قطع رأسه بسيف من سيوف العدو المرهفة . غير أن امرأةً كانت تطل على ميدان المعركة من أحد البيوت صرخت مندهشةً من هول المنظر ،

---

(١) لقد كان الأتراك قبل غيرهم فرحين باحتلال بغداد ، على يد السلطان مراد ، فرحاً لا مزيد عليه وقد خلدوا هذا الحادث بجميع الوسائل . فقد أنشأ السلطان مراد نفسه عند عودته الى استانبول كشكاً خاصاً ما زال موجوداً حتى اليوم ، فأطلق عليه اسم « كشكي بغداد » . وفي متحف استانبول اليوم الكائن في سراي طوب قبو خزانة خاصة تحوي سلاح السلطان الذي كان يحمله يوم الفتح ، والملابس التي كان يلبسها فيه .

وأبدت هلعها وتعجبها من رجلٍ يقاتل بسيفين وهو مقطوع الرأس . وما فعلت ذلك حتى سقط ذلك القائد وخر صريعاً على الأرض ، فدفن بعد انتهاء المعركة وإحراز النصر في الموضع الذي صرع فيه ، وهو يقع في المحلة التي ما تزال تعرف باسمه في يومنا هذا . محلة ابي سيفين .

على أن أشهر من تخلده هذه الأساطير مقاتل تركي حدث يدعى كَنج عثمان . فقد كان كَنج عثمان هذا فتىً يافعاً ذكي الفؤاد ، خفيف الظل ، لم يكن والده يقدر على مفارقته ، وحينما دعاه الواجب إلى السير في حملة السلطان مراد على بغداد اضطر إلى أن يستصحبه معه برغم التعليمات المشددة التي أصدرها السلطان المخيف إلى قواده بعدم استصحاب الأولاد عند المسير إلى الحرب . ولأجل أن يتكتم الوالد في أمر ابنه الذي جاء به برغم تلك التعليمات وضعه في صندوق خاص فتحت فيه منافذ مخفية للتنفس ، وحمل مع أحمال الجيش . وكان لا يفتح هذا الصندوق يومياً الا بعد أن يخيّم ظلام الليل ويتوقف الجيش عن المسير . وحينما وصل الجيش الامبراطوري اللجب إلى سامراء أمر السلطان بالتوقف عن الزحف ليعد العدة لمرحلته الأخيرة إلى بغداد . وأخذ في خلال هذه الفترة يمتحن معنويات قواده وبعض جنوده يومياً بأسئلة محرجة ، فيقتل كل من لا يجيب منهم بالجواب الذي يرضيه . وقد قتل عدداً منهم لأنهم لم يجيبوا بالجواب المناسب حين سألهم عن موقع بغداد وبعدها عن مكان الجيش . وفي ليلة من تلك الليالي أخرج الوالد ابنه كنج عثمان من الصندوق ، وصار الابن يتجاذب أطراف الحديث مع والده كالعادة فألفاه مهموماً مغموماً . غير ان الابن اليافع ألحّ على والده بأن يخبره بما دهاه ويشرح له جلية الأمر ، فأخبره الوالد بأن دوره في الاستجواب سيأتي في صبيحة اليوم الثاني وأنه يخشى أن لا يروق جوابه للسلطان فيلحقه بالذين قتلهم من زملائه القواد . على أن كَنج عثمان أدرك بذكائه نوع الجواب الذي كان يريده السلطان البادشاه من قواده ، فأشار على والده بأن يجيب السلطان بقوله « ان بغداد تقع تحت حافر هذا الجواد ، أي جواد السلطان » . ففعل الوالد ذلك في اليوم الثاني ، واستحسن السلطان هذا الجواب اللبق منه ، لكنه طلب منه أن يخبره بكيفية توصله اليه . فلم يجد القائد بداً من الاعتراف بين يدي البادشاه بأن ابنه الحدث هو الذي أشار عليه بذلك ، وأنه كان مضطراً إلى أن يأتي به في الحملة . وعند ذاك جيء بكنج عثمان بين

يدي السلطان مراد ، وأخذ يحدثه ويختبره فأعجب بفطنته وذكائه وسُر بحسن تصرفه . وسرعان ما قلده رتبة عسكرية مناسبة ، وجعله في عداد قواده .

وحينما زحف السلطان مراد زحفه الأخير على بغداد كان كنج عثمان في المقدمة . وقد أبدى نشاطاً ملحوظاً في الحصار الذي استغرق مدةً تزيد على الشهر . وتقول الأسطورة أن الشيخ الغوث عبد القادر الكيلاني جاءه في الحلم ذات ليلة ، بعد أن طال أمد الحصار واستعصى الفتح على الپادشاه ، وأشار عليه بأن يبلغ السلطان بأن يبادر إلى صنع مدفع خاص بأوصاف معينة ويصبه من حديد أنعل الخيل وسلاسلها . ففعل ذلك وصنع طوب أبي خزامة .

وعند ذاك تسنى للجيش العثماني المهاجم أن يفتح ثغرة كبيرة في سور بغداد بقذائف هذا المدفع العجيب . وحينما دخل كنج عثمان مع الجيش إلى بغداد كان يحمل لواء الجيش بيده ويسير في المقدمة ، فأبلى بلاءً حسناً في القتال الذي استمر ثمان وأربعين ساعة . وقد قطعت يداه في أثناء هذا وبقي العلم يمشي أمامه بلا حامل يحمله ولا ماسك يمسكه ، حتى رآه أحد الناس فدهش به وعند ذاك هوت الراية إلى الأرض وقتل كنج عثمان في الحال ، فدفن في الموضع الذي سقط فيه بعد أن تم الفتح وأقيمت فوقه قبة وسقاية (سبيل) تكريماً له وتخليداً لبطولته . وكان الموقع في وسط الساحة التي تقع بين يدي باب السراي الحالية في يومنا هذا .

ولا ريب أن عنصر الحقيقة ضئيل جداً في هذه الأسطورة ، فان المعروف في المراجع المتيسرة أن كنج عثمان كان من ضباط الجيش العثماني الشجعان وقد أبدى شجاعة وبطولة في القتال مع القائد المشهور أباظة پاشا . لكنه لم يشترك في حملة السلطان مراد على بغداد . وانما مهّد لحملة الصدر الأعظم خسرو پاشا ، الذي زحف ليستّرد بغداد من الايرانيين قبل زحف السلطان مراد (١٦٣٠) فلم يكتب له التوفيق . فقد كُلف كنج عثمان بأن يقود رتلاً خاصاً نزل به من شمال الفرات إلى الفلوجة ، وسار منها إلى الحلة فاستولى عليها . ومن هناك احتل كربلا والنجف والرماحية ، وظل مقيماً في كربلا يشرف على حكومة المنطقة منها مدة من الزمن . وأبدى بطولة فائقة في حروبه هذه على ما يبدو ، فقتل عدداً كبيراً من الايرانيين (القزلباش) خلالها ، ثم توفي شهيداً سنة ١٦٣٠ (١٠٤٠ هـ) فنقلت جثته إلى بغداد ودفنت في الموضع المذكور .

طوب أبو خزامه في مكانه القديم بباب القلعة الجنوبية

٨

طوب أبو خزامة[1]

في يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨ تقبل السلطان مراد الرابع خضوع بغداد اليه ، وتم استردادها للعثمانيين من الايرانيين الصفويين بعد أن ظلت بأيديهم مدة تناهز الخمس عشرة سنة . وبعد أن أعيدت الأمور إلى نصابها ، وعادت المياه إلى مجاريها الطبيعية ، وضعت حامية قوية فيها بقيادة بكتاش أغا وغادرها السلطان إلى تبريز في اليوم السابع عشر من شباط ١٦٣٩ . وقد خرج مع جيشه من باب الطلسم وأمر بأغلاقه فبنيت فتحته ، وبقي على حاله هذا حتى نسفه الأتراك عشية انسحابهم من بغداد في أواخر الحرب العالمية الأولى[2] .

وكان سير السلطان مراد إلى بغداد بجيشه الجرار ، وانتصاره اللامع في انتزاعها من أيدي الصفويين . حدثاً تاريخياً كان له تأثيره البيّن في تاريخ العراق الحديث . فقد أدى هذا النصر المظفر إلى دفع الايرانيين عن حكم العراق إلى الأبد . وأبقى هذه البلاد في أيدي الأتراك العثمانيين إلى أن أُخرجوا منها على إثر اندحارهم في الحرب العامة سنة ١٩١٧ . على أن هذا النصر كان يعتبره العراقيون ، والبغداديون منهم على الأخص ، برغم ما فيه من خضوع وعبودية للغير ، فتحاً مقدساً جادت به القدرة الألهية على السلطان مراد لينقذهم به من الحكم الايراني الذي ذاقوا الأمرين منه . ولذلك أُحيط بالكثير من التقديس والتقدير ، ونسجت حوله خرافات وأساطير[3] كثيرة ظل يرويها العراقيون جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا . وكان قسمٌ غير يسير من هذه الأساطير يدور حول

(١) مجلة لغة العرب عدد شباط ١٩١٤

(٢) تم ذلك في ليلة ١١ آذار ١٩١٧ قبيل الفجر

(٣) الظاهر أن بعض هذه الأساطير صار يعتقد به يهود العراق أيضاً . فقد ظلوا ، على ما يروى ، الى ما قبل سنوات يحتفلون في كل سنة بما كانوا يطلقون عليه « عيد الفتح » .

السلطان مراد نفسه قبل أي شخص آخر .

فيروى في هذا الشأن أن هذا السلطان المخيف وقف بجيشه في جهات سامراء ، قبيل أن يصل إلى بغداد ، وعزم على دراسة وضعها بنفسه واختبار قوتها قبل أن يهاجمها بقواته . فتنكر ذات يوم بزي درويش من دراويش أيران ، وذهب يمشي على رجليه اليها . فأدركه الليل في الطارمية ، ونزل عند امرأة تربي الغنم وتعتاش بوارداتها فأحسنت اليه وأكرمت وفادته . ولذلك كشف لها عن هويته في اليوم الثاني ووعدها بأن يرد لها الجميل بعد أن يمن الله عليه بالنصر ، فطلبت اليه أن يسمح لها بأن ترعى غنمها في منطقة تمتد « من حسحوس إلى دوب السوس » [1] .

واستطاع بعد ذلك أن يدخل بغداد ، فراح يتجول فيها وهو ينشد المدائح النبوية ويتلو القصائد الدينية ، وحينما وصل إلى السراي وهو يفعل هذا أعجب الشاه بمدائحه وأخذ يحادثه . فتطرق الحديث بينهما إلى ذكر الشطرنج وأحب الشاه أن يجرب حظه في لعبة منه وهو مقدم في تلك الظروف على الاشتباك في حرب ضروس مع السلطان . لكن الدرويش كان أبرع منه في اللعب وتغلب عليه في لعبات عدة . وحينما غادر السراي وتوغل في أزقة بغداد ودرابينها فاختفى فيها لجأ إلى دار منعزلة تعود إلى عجوز من العجائز . فآوته وتصدقت عليه . لكنه كلفها بأن تشتري له شاةً ، فذبحها ووضع دمها في طشت . ثم ذهب إلى بئر الدار فغطى فوهتها بحجر الرحى وجلس فوقه وأخذ طشت الدم فوضعه فوق رأسه ، وظل على وضعه هذا مدةً من الزمن عاد بعدها إلى معسكره فزحف زحفه الأخير على بغداد وهو على يقينٍ من أن الله سيفتح عليه باب الخير في مهمته . وقد بقي الشاه حينما تركه الدرويش يفكر فيه ، ويرتاب في أمره لا سيما بعد أن تذكر أنه ظل يكرر له « مات الشاه » في اللعب ، فحدثته نفسه بأنه لم يكن

---

(١) ان قصة وعد السلطان مراد لهذه المرأة كانت مشهورة في أوائل هذا القرن عند أغلب العشائر العربية النازلة غربي بغداد وجنوبيها . وحسحوس أرض تقع على عدوة دجلة اليمنى فيها قلعة الطارمية ، وتقابلها المنصورية في الجانب الشرقي ، أما دوب السوس فهي في شرق حسحوس في أرض تسمى الحصيوة بقرب شريعة الطارمية ، وهي من منازل المشاهدة . ومعنى الدوب الأرض المنخفضة .

درويشاً عادياً وأوحت اليه بأنه لا بد من أن يكون خصمه السلطان مراد لا غير . وتمنى لو أنه بادر إلى إلقاء القبض عليه ، ولكن كيف يهتدي اليه ، وماذا يفعل للعثور عليه ؟ وقد جيء اليه بمنجم يستطلع أمره ويهتدي إلى مخبئه، فضرب بالرمل مرةً وأخرى حتى وجده « جالساً فوق جبل بين بحرين ، بحرٌ من الدم وبحرٌ من الماء » ، أي بين البئر وطشت الدم . فتشاءم الشاه من ذلك وفوّض أمره إلى الله .

وقد كان للمدفعية الضخمة التي جاء بها السلطان مراد معه ، وحمّل قسماً كبيراً منها بالأكلاك من الموصل ، فضلٌ كبير في الفتح الميمون الذي تم على يديه . فقد استطاعت المدفعية العثمانية الثقيلة ، بعد حصارٍ دام مدة تناهز الأربعين يوماً ، أن تفتح ثغرات واسعة في أسوار بغداد المنيعة ، وتسنى بذلك للجيوش الجرارة أن تنفذ إلى المدينة وتستولي عليها بعد مجزرةٍ رهيبة . وحينما غادر البادشاه بغداد بعد أن أنهى مهمته « المقدسة » ترك المدافع التي جاء بها من استانبول وغيرها ، والمدافع التي غنمها من الجيش الايراني، في قلعة « الطوبخانة » [1] لتخف أحماله وتسهل عودته خلال الطريق الطويل الذي استغرق الجيش في قطعه عند المجيء مئة وعشر مراحل .

وكان من بين المدافع التي خلفها الركاب الهمايوني وراءه في بغداد مدفع ضخم كبير الحجم والأبعاد ، كان أبناء جيلنا هذا يشاهدونه إلى ما قبل أعوام ممدوداً بطوله في باب الطوبخانة من أبواب القلعة وبين يديه أربع «گلل» أو قنابل مدوّرة . والظاهر أن هذا المدفع كان قد أبلى بلاءً حسناً في عملية الفتح ، وقد تكون قنابله هي التي أدت بقوتها إلى فتح الثغرة في الأسوار المنيعة . ولذلك نسجت حوله قصص وأساطير كثيرة كذلك ، وهي ما تزال تروى بين الناس ، ويعرفها البغداديون القدامى على الأخص . وينطبع كل ما يروى من هذا القبيل بطابع الاكبار والتعظيم في الغالب ، ويدل بطبيعة الحال على مقدار ما ألم بأهالي

(١) قلعة الطوبخانة هي القسم الجنوبي من القلعة الكبيرة التي تشغلها وزارة الدفاع اليوم . وباب الطوبخانة التي كان ينصب طوب ابو خزامة الى يمين الداخل اليها هي الباب الجنوبية الصغيرة من أبواب القلعة ، وتجاور مبنى دائرة إسالة الماء .

بغداد من فرح وابتهاج حينما تسنى للجيوش العثمانية أن تزيل عنهم كابوس الحكم الايراني الثقيل في تلك العهود الغابرة .

وقد بلغ من إكبار العامة في بغداد لهذا المدفع أنهم أطلقوا عليه اسم (طوب أبو خزامة) ، وصاروا يعتقدون بأنه ولي من أولياء الله لا يخيب قاصداً قط . ولذلك كانوا يزورونه للتبرك به وطلب « المراد » منه . ويشدون الخرق البالية بالسلاسل المحيطة به والعروتين البارزتين من أعلاه . وكان البعض من هؤلاء ، لا سيما النساء ، ينذر له النذور ويسرج حوله الشموع في كل ليلة من ليالي الجمع . كما كان النسوة العوام يأتين بأطفالهن المرضى أو « المخروعين » و « الفازّين » فيعلقن بهم حول المدفع أو يحاولن إدخال رؤوسهم وإخراجها من فوهته دفعاً للشر عنهم . وتقصده منهن كذلك المرأة العقيمة فتمرر أحشاءها عليه كي يعطيها ولداً . والمقلات اللواتي لا يعيش لهن ولد يأتين اليه بالمولود وهو ابن سبعة أيام وتدخله أمه في فوهة المدفع وتخرجه ثلاث مرات . ثم تتوسل إلى الله أن يطيل عمر ولدها وتنذر له النذور فاذا حصل مرادها تفي بنذرها . وكذلك تذهب اليه من في عينها رمد منهن ، فتأتيه للاستشفاء ببركته وتدخل رأسها في الفوهة وتخرجه ثلاث مرات ثم تغسل شيئاً منه أو من السلاسل بالماء فتأخذه للتداوي به . وتنذر نذراً لزوال الرمد فتفي به عند حصول المراد .

على أن أطرف ما يشيع من هذه الأساطير يدور حول كيفية صنعه ومعجزاته يوم الفتح . فيروى أن الفتح حينما استعصى على السلطان ، واستطالت مدته . ساوره الهم واستولى القلق على رجاله وقادته ومن جملتهم القائد الحدث كنج عثمان الذي يعتبر هو الآخر من الشخصيات الاسطورية كذلك . وفي ليلةٍ من تلك الليالي السود الكالحة طاف الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره على كنج عثمان في المنام وسأله عن أسباب قلق السلطان واضطراب قادته ، فقال له كنج عثمان « لقد أعيانا فتح بغداد واستعصت علينا أسوارها وأبوابها » فرد عليه الشيخ يقول : اذا كان الغد إذهب إلى السلطان مراد وخبّره بأن يصنع[1]

---

(١) كان طوب ابو خزامة قد صنع من النحاس الأصفر (برنج) والحديد . وقد لاحظنا ان الاستاذ المرحوم كاظم الدجيلي قد ذكر الوصف التالي له في مقاله الذي رجعنا اليه مع المقاييس : =

مدفعاً كبيراً يقذف به السور . ولما بزغت الشمس ذهب القائد اليافع إلى السلطان وأخبره بالخبر ، لكنه رد عليه يقول من أين لنا أن نأتي بالحديد لصنع ذلك المدفع ؟ وفي الليلة الثانية طاف الشيخ الكَيلاني على كَنج عثمان من جديد وأخبره بأن يصنعوا المدفع من حديد أنعل الخيل والسلاسل التي تربط بها . وحينما نقل كَنج عثمان هذا الخبر في اليوم التالي إلى السلطان تساءل من جديد عن كيفية صب ذلك المدفع والطريقة التي يذوّب بها الحديد وليس مع الجيش من له إلمام بهذه الصناعة . وفي الليلة الثالثة ظهر الشيخ الكيلاني لكَنج عثمان في المنام مرةً أخرى فأشار عليه بأن يصنعوا المدفع بموجب قالبٍ خاص وصفه له ، وطريقة خاصة شرحها أمامه . وحينما تم صنع المدفع بتلك التواصيف نشأت مشكلة جديدة وهي أن الجيش لم يكن معه البارود والقنابل المناسبة لمدفع ضخم مثل هذا فباتوا في همٍ واضطراب ، وفي تلك الليلة وهي الرابعة طاف الشيخ على كَنج عثمان أيضاً وقال له لا يهمكم نفاد البارود والعتاد ويمكنكم أن تجعلوا بدل البارود التراب وبدل القنابل الأحجار وقطع الصخور ، فأنها ستكون أشد وقعاً من البارود على الأعداء . واذا ما تعسّر عليكم الفتح ولم تستطيعوا أن تفتحوا ثغرة مناسبة في السور فسأقف لكم غداً فوق قمة قبتي على هيئة باز أشهب ،

= ... و يبلغ طول الطوب ٤ م و ٤٤ س ، ومحيطه من مؤخرد مترين و ٤ س ، ومحيطه مما يلي فوهته متراً و ٤٤ س ، وقطر فوهته ٤٨ س ، ومكتوب على ظهره مما يلي فوهته بالحرف المركب البارز ما نصه : « مما عمل برسم السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان » ، و وراء الكتابة المذكورة ٤ سمكات صغار وأربعة أنجم ، و وراءها في الوسط عروتان متوسطتان محيط كل منها ٥٠ سم فيها خرق مشدودة — ترمز الى ما يطلبه الزائرون من الأماني — وفي جنبه الأيسر مما يلي العروة انخفاض محيطه ٢٨ سم وغوره نحو ٣ س ، و وراء العروتين أربع سمكات ، وكذلك خمسة نجوم وهلالان صغيران ، و وراء الأسماك والنجوم والأهلة على ظهر الطوب مما يلي مؤخره مكتوب بالتركية البارزة ما نصه (عمل علي كتخداي جنود بردركاه عالي سنة ١٠٤٧) اي (عمل علي رئيس الجنود في الباب العالي) . وفي مؤخره شبه ذنب ينتهي بكتلة مخروطية الشكل ، وفي فوهته مما يلي داخله صدع غير سوي ...

لكننا نعتقد ان هذه المقاييس تكاد لا تنطبق على المدفع الذي نصبته أمانه العاصمة قبل سنوات في ساحة الميدان وقرب وزارة الدفاع ، فهي مقاييس يمكن ان تشير الى مدفع أكبر وأكثر ضخامة ، مع ان سائر الأوصاف تنطبق عليه . اما كيفية حصول الاختلافات فأتركه الى تقدير القارىء الكريم والى الظروف التي مرت على « الطوب » منذ خاض معركة الفتح حتى اليوم .

وحينما تروني صوّبوا المدفع إليّ واقذفوني بما فيه . ثم اقذفوا السور بقذيفة أخرى منه فينثلم وتفتح ثغرة واسعة فيه ، وحينذاك لا بد من أن تدخلوا منها إلى المدينة بالقوة . وحينمـــا أسفر الصبح عن وجهه أسرع كَنج عثمان إلى السلطان وقص عليه ما سمعه من الشيخ الولي . وما أن سمعوا منه ذلك حتى باشروا بالعمل ورموا السور بالقنابل الحجرية والبارود الترابي فتصدع تصدعاً كبيراً وانهدم جانب كبير منه . وعند ذاك تدفقت أفواج الجيش من الثغرة [1] إلى الداخل فوقعت مجزرة رهيبة تم الفتح بعدها للسلطان بعد أن أضاع وزيره وقائده طيار محمد باشا .

وكان العامة من أهالي بغداد يزعمون أن الانخفاض الموجود على ظهر المدفع ، أو الرصعة الكبيرة التي تلاحظ فيه ، هي من ضربة «جـمـع» ضربه بها السلطان مراد نفسه حينما حرن وتوقف عن السير في يوم الفتح . كما يعتقدون بأن الصدع ، أو الشق ، الموجود داخل فوهة أبي خزامة هو المكان الذي كانت تعلق فيه خزامة المدفع . فأنه حينما امتنع عن السير نتله السلطان . وكان يركب فوقه ، من هذه الخزامة بقوة فخرم أنفه ، وبقي الشرم أو الخرم فيه حتى هذا اليوم .

ويروى كذلك عن السمكات التسع المرسومة على ظهر أبي خزامة أن السلطان حينما خرم أنف المدفع في ساعة الضيق والشدة غضب المدفع فرمى بنفسه في دجلة . ولم ير السلطان بدأ من أن يخوض النهر وراءه فيخرجه ويسترضيه . وبعد أن أُخرج من النهر على هذه الشاكلة شوهدت هذه السمكات نابتة فوق ظهره لتدل على أنه كان قد القى بنفسه في دجلة . وتقول الأسطورة كذلك أن أبا خزامة بعد أن هدأ روعه وسكن غضبه رضي عن سيده السلطان مراد فأخذ السلطان ينثر له الدخن في طريقه على الأرض ليسهل سيره عليها وهو ينساب الهوينا . وقد حدث في أثناء الحرب ان نفـــد ما كان عند الجند من بارود ورصاص وقنابل ، بينما كانت المعركة ما تزال حامية الوطيس ، فأخذ أبو خزامة

---

(١) كانت الثغرة التي فتحت في السور من جهة الباب الوسطاني ، الواقعة في الضلع الشرقي من اضلاع السور .

يلهم التّراب والحجارة من طريقه ويقذف بها العدو فيكون وقعها عليه أشد من وقع التنابل الحقيقية والبارود الأصيل؛وما زال هذا دأبه حتى فتح الله عليه وعلى السلطان .

هذا والظاهر أن إخراج « أبي خزامة » من مخبئه في متحف الأسلحة مؤخراً . ونصبه في ساحة الميدان ببغداد . قد أحيا اهتمام البغداديين به وصار يرد على خواطرهم في الفرص والمناسبات . فقد ضاقت الدنيا في عين أحد الشعراء الشعبيين حينما حصلت « نكسة حزيران » في فلسطين سنة ١٩٦٧ . وتألم من واقعنا الأليم تجاه الدسائس والمؤامرات الاستعمارية فنظم الأبيات الشعبية التالية يداعب فيها طوب أبي خزامة.ويشير إلى كونه رمزاً لأيام الاحتلال التركي البغيض ؛ الذي لم يكن أقل شراً من الاحتلال الانكليزي . فهو يقول :

هله بطوب أبو الخزّامـــه　　البطك من وره وجدّامـــه
هله بخُلفة مراد الديـــن　　عدنه وذخـــر أيتامـــــه
هلـــه بالريحته تركـــــي　　مثل ريحـــة الشمامـــــة
هله بمود الرجـــع لينـــــه　　جديد وچشّف إلثامـــــه
هلـــه بالعابـــد الزاهـــد　　العايـــز جبـــة واعمامـــه
هله باللـي هـــــداه الله　　او طلع موطوب علاّمـــه
هلـــه باليشفي مرضانـــه　　طبيب اتگـــول فهّامـــه
سمـــع بأخبـــار نكستنه　　ومصايـــب جـــون وآثامه
فزع بعد أهلي مـــا قصّر　　تنخّـــه و گطّـــع حزامه
تمـــدد فوگ قاعدتـــه　　الرهيب اشكثر هندامـــه
حشرها الدانته　　أو يخازر گـــام جدّامه
حيـــل وياهـــه لسرائيـــل　　خلهه اتضوگ الآمـــــه
خلهه اتشوف يـــوم أسود　　اذا فلتـــت الصُمّامـــه
خل يـــا كلهه ابن ديّـــان　　خاب وضاعت أحلامـــه
بهذا الطوب　　يريد ايرضرض عظامـــه
ياه ويای خـــل ندخـــل　　على الطوب أبو الخزامـــه

٩

الباشا السمين

كان الصدر الأعظم العثماني صالح باشا قد عمد ، حينما تولى مسؤولية الحكم في الباب العالي ، إلى إقصاء خصومه السياسيين عن المناصب الكبيرة في أنحاء الامبراطورية وإحلال عدد غير يسير من أتباعه فيها . وكان من بين الذين فازوا بمنصب من هذه المناصب خازنداره الشاب ابراهيم باشا ، الذي أنعم عليه بولاية بغداد الممتازة وپاشويتها المرموقة .

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الأحوال أن تدوم الپاشوية لهذا الوالي الشاب بدوام سيده الصدر الأعظم فقط ، وتنتهي بمجرد تنحيه عن الحكم . فما مرت عليه سنة واحدة في بغداد حتى قتل الصدر الأعظم ، وسرعان ما صدرت الفرامين الهمايونية بعزل الكثيرين من أتباعه عن مناصبهم أو قتلهم من دون رحمة أو تورع . وحينما صدر الفرمان بعزل أبراهيم پاشا عن منصبه تمرد على سيده الپادشاه وقبض على حكومة بغداد بيد من حديد ، ثم كتّل من حوله قطعات الجيش المحلي فأعلن العصيان فيها . وكان ذلك في غضون سنة سبع وأربعين وست مئة ألف .

وبدلاً من أن تبادر الجهات المسؤولة في استانبول إلى انتقاء رجل كفء يحل في محله ، وينتشل بغداد من الفوضوية التي زُجت فيها ، وقع اختيارها على خصي من خصيان البلاط الأمناء [1] يدعى « سميز موسى پاشا » أي موسى پاشا السمين . وكان موسى پاشا هذا معروفاً ببدانته المفرطة ، وعجزه عن السير والحركة ، كما كان مشتهراً بطبعه العصبي ومزاجه الحاد . وقد كان السلطان ابراهيم يبتغي من تعيينه في هذا المنصب أن يرفع الكلفة عنه ، ويخفف أعباء الحياة عن كاهله ، لأن الاشتغال في مثل هذا المنصب الخطير قد كان في

(١) لونكريك — أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث .

نظره على ما يبدو عملاً ترفيهياً لا يتطلب غير قليل من الجهد وشيئاً لا يؤبه به من التفكير ، أو هدية ثمينة يتحف بها من يريد تلطيفه وتقديره ! !

غير أن الپاشا السمين ، مع وضعه هذا ، كان على ما يظهر رجلاً مهماً وشخصيةً مرموقة لها مركز حزبي ممتاز . فقد وصل إلى رتبة السلحدار في الباب العالي . ثم رُقّي فعهد اليه بمنصب الپاشوية في روم أيلي . وعاد إلى استانبول فأشغل أمانة العاصمة فيها ، واشتهر بانتسابه إلى جماعة « شكرپاره » . وعُين من بعد ذلك لقيادة الحامية الانكشارية برتبة وزير ، وانتقل منها فأصبح دفترداراً في استانبول ، ثم حصل على القپودانية وأشغلها مدةً من الزمن حتى تولى صالح پاشا الصدارة العظمى ، فعزله عن منصبه المذكور [1] . وحينما استطاعت جماعة شكرپارة تنحية خصمها الصدر الأعظم عن منصبه بقتله ، أُعيد الپاشا السمين إلى الوظيفة فأنعم عليه بولاية بغداد .

على أن سميز موسى پاشا ، مع جميع ما قوبل به من تقدير وإنعام ، لم يرق له المنصب الكبير في بغداد ، فأوعز اليه من بعض الشخصيات التي كان ينتمي اليها ، ومنهم أحمد پاشا هزارپاره ، بأن يتلكأ في الالتحاق بمنصبه الجديد ويتأخر في استانبول . ففعل بما أشار عليه به أصحابه ، لكنه آثر أن يبعث إلى بغداد متسلماً خاصاً يتسلم شؤون الولاية بالنيابة عنه ، حتى يستقر هو على رأي نهائي في الموضوع [2] . وحينما وصل المتسلم إلى بغداد وجد القوات العسكرية فيها منشقة على نفسها . فقد كانت قطعات الجيش المحلي ، وبعض محلات بغداد ، منحازةً إلى الوالي المعزول ابراهيم پاشا ومعتصمةً في محلة باب الشيخ وما حولها . بينما كانت الحامية الانكشارية في القلعة تناوؤه وتقف بجانب تنفيذ أوامر السلطان . ولذلك انحاز المتسلم إلى جانب الانكشاريين ، لكنه لم يستطع البقاء في بغداد وأعيد من حيث أتى .

وقد بقيت الحال في بغداد على هذا المنوال مدةً تزيد على الشهرين ، حتى صدرت الأوامر الهمايونية بقتل الپاشا المتمرد . ووصل إلى بغداد بعد مدة ، في ليلةٍ من الليالي السود ، الپاشا السمين نفسه على ظهر سفينةٍ من السفن الصغيرة

---

(١) العراق بين احتلالين ، ج ٥ .
(٢) المرجع الأخير .

في دجلة ، وفي معيته من يحمل الأمر السلطاني بقتل سلفه المعزول أبراهيم . وما أسفر الصباح عن وجهه حتى نُفذ أمر القتل فيه فانتهى الأمر ، وتسلم الزمام موسى باشا السمين .

غير أن الباشا الجديد جاء إلى بغداد وفي نيته أن يكون حاكماً بأمره ، كما يمكن أن ينتظر من رجلٍ مثله نشأ تلك النشأة الارستقراطية وسلك المسالك المعروف في وظائف الحكومة يومذاك . فقد برهن خلال مدة حكمه على استهتاره المتناهي بالقوانين والقيم كلها ، وأثبت استهانته بالأرواح والأنفس . فكأن أعماله كانت تأبى الا أن تكون معبّرةً عما كان ينطوي في تضاعيف جسمه الثقيل المترهل من إمارات مركب النقص بشتى أنواعه وألوانه . فقد كان من الطبيعي له ، وهو العاجز عن السير والحركة ، أن يفوّض أموره إلى أسوأ المشاورين ويمنح الانكشارية الصخابين من خصوم سلفه المعزول مطلق الحرية في الاعتداء على الناس ، والتجاوز على الوجوه وأرباب الثروة . وكانت الأهوال والحوادث التي وقعت في بغداد قبل وصوله اليها خير ذريعة يتذرع بها في مراعاة القسوة والتزام جانب الشدة مع الجميع . ولذلك أزهقت أرواح وأنفس كثيرة ، وقتل كثيرون من الذين كانوا ينتمون إلى الجيش المحلي من أصحاب الوالي السابق . وقد فر عددٌ غير يسير من هؤلاء إلى الخارج لينجوا بأنفسهم ، واختفى غيرهم في البيوت والمخابىء ، فجهز الباشا قوةً خاصة من الجيش لتعقبهم وتقتلهم بعد ان تقتفي آثارهم في كل مكان . وليس من المستبعد في مثل هذه الظروف والأحوال أن « يحترق الأخضر بسعر اليابس » ، فيذهب البريء بجريرة المذنب ، وتظهر الأحقاد فتقتل الأنفس البريئة وتهجم البيوت على ساكنيها . وقد تسنى لعددٍ من المطلوبين بهذه الجريرة ، من عسكريين ومدنيين ، أن يهربوا إلى أيران فيتغربوا فيها أو يهلكوا في طريقها .

وكان هذا الجو الارهابي العصيب ، الذي أوجده الباشا السمين ، وحلفاؤه الانكشارية العربيدون ، في بغداد الفزعة الواجفة خيرَ جوٍ تفرخ فيه أطماعه وتنفذ في غمرته خططه في النهب والابتزاز . ولذلك عمد ، بمساعدةٍ من آلتنجي زادة أغا الانكشارية الذي عينه كهيةً له في مكان الكهية السابق ، إلى جمع الأموال بكل جرأة ووقاحة ، وراح يدخرها بكل وسيلةٍ من الوسائل . فاتهم

الوجوه وأصحاب الثروة بالتواطؤ مع خصومه والتآمر عليه وعلى الدولة ، وقتل من جراء ذلك ما يزيد على المئتين من المتمولين فصادر أملاكهم وأموالهم لنفسه . ومما فعله من هذا القبيل أنه ألقى القبض على أخ ثري من إخوة الخواجة حسب الله الشابندر ، الصديق الحميم لآمر موقع بغداد مراد آغا ، فعذبه شر تعذيب حتى فاضت روحه ، واستولى على أمواله وممتلكاته برغم جميع التوسلات والوساطات التي بذلت من أجله [1] .

وقد كان من الطبيعي أن تصل أخبار هذه المجزرة الرهيبة ، وكثيراً ما كانت تشهد مثلها ربوع بغداد وأزقتها في تلك الأيام ، إلى المسؤولين في الباب العالي ، وكان في مقدمة من أوصلها إلى هناك حسب الله الشابندر الذي نكب بأخيه وأقاربه وأمواله . ولذلك لم يرَ السلطان بداً من تشكيل هيئة خاصة للتحقيق على مستوى عالٍ ، فتشكلت من والي ديار بكر محمد باشا چاووش زادة ومن أحمد باشا الطيار وجعفر باشا . وقد تأيد لهذه الهيئة جميع ما وصل إلى علم المسؤولين في استانبول من الفظائع والابتزاز بأنواعه . واهتدت اللجنة كذلك إلى وجود مخابرات خطية مكتوبة بخط الپاشا السمين نفسه ، وهي تدل على أنه كان يطمع بمنصب الصدارة العظمى ويمنّي نفسه بتسنمها . وكان يؤمل استخدام الثروة التي جمعها بتلك الكيفية من بغداد لتحقيق مطمحه ، والوصول إلى الهدف الذي كان ينشده بالتعاون مع بعض الشخصيات في استانبول .

وبينما كانت بغداد المرزءة تشاهد الوفد الايراني ، وهو يمر بها مصطحباً الفيلين الكبيرين اللذين قدمهما الشاه هديةً إلى السلطان بواسطة محمد قولي خان سفيره السابق في الباب العالي ، وصل إلى بغداد الفرمان الصادر بعزل الپاشا السمين . فشد الرحال في الحال إلى « دار السعادة » ، مستصحباً ثروته الجسيمة التي جمعها بالظلم والقسوة وابتزها من ضحاياه البائسين . وقد شاع عند أول وصوله اليها أنه بذل الكثير من أمواله تلك ليشتري بها حريته ، وينقذ بها نفسه من الموت الذي أورده لضحاياه . غير أن أمواله تلك ، وهي ملطخة بالدماء ، لم تجده نفعاً ولم تغنه فتيلاً . فقد تسلم منصب الصدارة العظمى في ذلك الوقت خصمه [2] القديم مراد پاشا ، الذي بادر إلى إصدار الفرمان بقتله ، فقتل في « يدي قله » وذهب إلى نتيجته المحتومة غير مأسوفٍ عليه .

---

(١) المرجع الأخير .　　(٢) لونكريك .

١٠
الباشا الأبيض

في غضون سنة أربع وخمسين وست مئة وألف للميلاد سار والي بغداد مرتضى باشا على رأس جيش عرمرم إلى البصرة لتأديب حسين باشا أفراسياب بأمرٍ من الباب العالي، واسترجاع متسلميته إلى حظيرة الحكم العثماني . غير أن سوء تصرف مرتضى باشا في إدارة الحملة ، وعدم تمكنه من السيطرة على قطعات الجيش، قد أوديا به إلى حضيض الفشل المريع . فقد انكسر جيشه المتخاذل تجاه قوات القبائل العربية المستبسلة هناك، حينما اشتبك معها في معركةٍ حامية الوطيس دارت رحاها في الشرش على مقربةٍ من القرنة . وقد تخلت عن مرتضى باشا قطعات جيشه المندحر فعادت لوحدها إلى بغداد واستولت عليها . وحينما تبعها مع عدد قليل من أعوانه ليعود إلى مقره في عاصمة الولاية سدت تلك القطعات أبواب السور في وجهه ، فحالت دون دخوله اليها . وبذلك اضطر إلى الاحتماء في « قلعة الطيور » بجانب الكرخ . ومنها حاول تسوية الأمور مع رؤساء الحامية الانكشارية في القلعة بمختلف الطرق والوسائل فلم يفلح في ذلك . لأن المراجع المختصة في الباب العالي تناهى اليها الوضع المزري الذي خلفه هذا الحادث . فأصدرت الفرمان الهمايوني بعزله [١] .

وقد كان من الطبيعي خلال هذه الفترة كلها ان ترتبك الأمور في بغداد ، وتضطرب الأحوال فيها . فكثرت فيها الفتن ، وثار الناس في عددٍ من حواريها ومحلاتها ، وانقطع حبل الأمن فكثرت فيها السرقات حتى أخذ اللصوص يظهرون في الليل والنهار من دون خشيةٍ أو وجل . وبذلك ازداد الخوف والقلق في نفوس

---

(١) العراق بين احتلالين .

الناس وباتوا غير آمنين على أنفسهم ، فاضطر الجميع إلى حمل السلاح ، وأخذ سكان الكثير من الأزقة و « الدرابين » يعدون العدة لحماية بيوتهم ، ويتوسلون بمختلف الوسائل ليحرسوا أنفسهم بأنفسهم .

وبدلاً من ان يبادر أولياء الأمور في الباب العالي إلى انتخاب من يتوسمون فيه القدرة على معالجة الأحوال المرتبكة في الولاية النائية ، ويفرّج عن أهلها الكربة ، وقع اختيارهم على رجل من رجال البلاط العثماني لم يتمرس بشؤون الحكم ولم يكتسب الخبرة الكافية بالأدارة وأحوال الجيش .

وكان هذا الرجل رياضياً مقداماً [1] يسمى « آق محمد باشا » أي محمد باشا الأبيض ، لكنه مع بياض اسمه ونقاء سريرته كانت أيامه في بغـــداد كلها أياماً سوداً لم يذق فيها طعم الراحة ، ولم يتمتع خلالها بالهدوء والطمأنينة . فقد قضى نصف هذه الأيام بالأمراض والعلل ، وقضى نصفها الآخر في معالجة المشاكل وإحباط الفتن التي كان يثيرها الانكشاريون بين يومٍ وآخر ، حتى أدت به إلى القتل والتشهير . وقد حاول خلال مدة حكمه في بغداد كلها ان يرفّه عن نفسه بهواية الصيد المحببة اليه ، وبما اشتهر به من الشجاعة وحب الفروسية فلم يجده كل ذلك نفعاً أو يغنيه فتيلاً . وجل ما كان يستطيع عمله في هذا الشأن أنه كثيراً ما كان يترك المدينة ، بأجوائها المتوترة ومشاكلها التي تنتظر الحلول العاجلة ، فيبتعد عنها إلى البراري والقفار وحيداً فريداً من دون ان يشعر بوحشةٍ أو تهيب .

وقد ضاق ذرعاً بالأوجاع والآلام التي ظلت تنهك قواه وتنغص عليه العيش ، فتشغله عن إداء الواجب والاضطلاع بالمسؤولية ، حتى عمد إلى الاستعانة بما كان يعتقد به من الرقى والأدعية والتعاويذ لعلها تأخذ بيده فتنقذه من بين براثن الالم والمرض . ولم يكتف بذلك وحده بل التجأ ايضاً إلى الملالي والدراويش ، لعل الله ينزل عليه البرء والشفاء عن طريقهم أو يخفف عنه البلوى بأدعيتهم . وحينما برح به المرض ، وأصابه الضعف والهزال بحيث صارت نفسه لا تستطيع تقبل

---

(١) لونكريك ، وثيفنو .

الأدوية والعقاقير ، جاء له كاتب ديوانه الشاعر العندليب عبد الباقي وجدي بدرويش من دراويش المولوية الأخيار يدعى (مصطفى دده خراباتي) فجسه جساً خفيفاً وبادر بالدعاء له بالشفاء القريب . ثم عاد الدرويش إلى التكية المولوية المعروفة في المولاخانة ببغداد فجمع جمعاً من الدراويش ، وقدم لهم الطعام والحلوى ، ثم ناشدهم أن يبتهلوا إلى فاطر السماوات والأرض رب العرش العظيم بان يمن بالشفاء العاجل على عبده الپاشا الوالي ، ويسبغ عليه جلابيب رحمته وأثواب العافية . وبعد أن قرأ الدراويش الفاتحة قاموا إلى ذكرهم فتحلقوا في حلقاتهم المعهودة ، وأخذوا يبتهلون إلى الحق عز وجل بشفاء الپاشا الأبيض . ثم كرروا ذلك ثلاثة أيام متتالية ، فشاءت الصدفة أن تعود الصحة إلى جسم الپاشا العليل،ولبس ثوب العافية على ما يزعم بإلهامٍ غيبي من ذلك الدرويش الصالح [1] .وبذلك تحققت المعجزة .

على أن الپاشا الأبيض لم تنته محنته في بغداد بزوال مرضه وأسقامه ، وتمتعه بالشفاء الذي أسبغته عليه القدرة الآلهية . لأن القلاقل والفتن التي كان يثيرها الجند الانكشاري واغوات القوات المحلية لم تعد لها نهاية . فقد تمادى هؤلاء في غرورهم وطغيانهم ، واستمروا على شغبهم وتشويشهم للأحوال العامة في بغداد وما حولها ، وعلى الانقياد لشيخ عربيد طاعن في السن من رؤساء القوة المحلية يدعى (عبدي) ، حتى عزم الپاشا الأبيض على البطش بهم وأنزال العقاب الصارم برؤوس الفتنة من بينهم . وفي يوم من أيام الجمع دعاهم إلى اجتماع عام في السراي بعد ان أعد العدة لكل شيء واحضر الجلاد ، واستدرج عبدي الخبيث إلى هناك من بين أتباعه بخدعةٍ محبوكة فقتل شر قتلة . غير ان أعوانه سرعان ما خرجوا إلى ساحة « الميدان » المعروفة فاجتمعوا فيها ، وقر قرارهم هناك على الانتقام لرئيسهم القتيل والثأر به . فعاجلهم آق محمد بقوةٍ مقدامة هاجمتهم

---

(١) وقد كان هذا الدرويش من طبقة الدراويش « الملامتيه » . و الملاميته هذه طريقة من الطرق الصوفية المعروفة منذ زمن طويل ، و يحق للمنتسبين اليها ان يقترفوا المنكرات والقبائح ويتظاهرون بها برغم صبغتهم الدينية التعبدية ، من دون ان يلاموا عليها باعتبار ان اعمالهم الظاهرة للناس هذه لا تؤثر على ما يبطنون من صلاح وتقوى . وهو تفسير صوفي غريب على ما يظهر . (العراق بين احتلالين).

فشتتت شملهم في الحال ، وألقت الرعب في قلوبهم [1] .

وقد ظن محمد باشا أن النتيجة التي آلت اليها الحالة بهذه العملية الجريئة كانت شيئاً حاسماً . فعزم على الركوب إلى الأعظمية كعادته ليؤدي صلاة الجمعة في جامع الأمام الأعظم ، وقد مر في طريقه بساحة الميدان . غير انه ما أن مر ركابه من بين مقاهي الميدان حتى أخذ يسمع باذنيه كلام القذف والمسبة من كل مكان ، ورماه الأوغاد من أعوان عبدي بالحجارة ، وكانوا قد التجأوا إلى تلك المقاهي بعد ان تشتت شملهم . وتقدم بعد ذلك رجلان منهم فهجما عليه بالسيف ليقتلاه ، لكن معركة وقعت بينهما وبين حاشية الباشا أدت إلى مقتل اثنين من جنود اللاوند المرافقين له ومقتل الرجلين المهاجمين معاً . ولهذا ارتأى ان يعود أدراجه ليستأنف العمل على قمع الفتنة واستئصال شأفتها لتهدئة الحال . وقد تسنى له ذلك بالفعل . ونجح في القضاء على الفتنة في مهدها ، وبهذا نال الباشا لقب « آق » أي الأبيض [2] . . لكن رجوعه بتلك الصورة اعتبره قسم من الأهلين مع هذا جبناً وخوفاً منه ، فأخذوا يعيبونه ويلومونه عليه .

ووصل في تلك الأثناء إلى بغداد حسين أغا الخاصكي ، على اثر الفرمان الصادر من استانبول بتعيينه قائداً للحامية الانكشارية في القلعة . وكان هذا الأغا قد انتدب في هذا الظرف بالذات للقضاء على الفوضى وحل المشاكل العويصة الناجمة عنها ، وخوّل صلاحيات مطلقة لهذا الغرض ومن جملتها قتل الوالي نفسه اذا اقتضى الأمر . فما كان منه بعد أن سمع بالحادث الأخير الا أن يبادر إلى قتل الوالي من دون مبرر ، وبذلك ذهب الباشا الأبيض ضحيةً للفوضى وسوء الطالع ، من دون ان يهنأ بأيام حكمه السود .

---

(١) المرجع الأخير .
(١) لونكريك .

١١
حسين أفراسياب

كانت البصرة الفيحاء قد تعرضت في عصورها الغابرة إلى الكثير من شرور الحكم العثماني وتقلباته، وتحملت من أوزاره وأحواله الشاذة ما تحتشد به بطون الكتب والمجلدات. وقد ظل هذا الحكم الغريب ممقوتاً ممجوجاً فيها منذ ان ارتبطت بعجلته في أيام السلطان سليمان القانوني، واستمرت العشائر العربية المحيطة بها تعبر عن استيائها من حكامه وسخطها عليه في كل فرصة أو مناسبة.

ومن غريب ما يروى في هذا الشأن ان البصرة قد انحطت أحوالها وساءت الأمور فيها خلال العقد الثاني من القرن السابع عشر حتى أفلت الزمام من يدي واليها التركي علي باشا، ولم يعد قادراً على الحكم فيها. فقد كثرت هجمات العشائر على المدينة حتى مل من صدها وإيقافها عند حدها، وكره حكمه السكان في الداخل بحيث لم يعودوا احتمال الحامية الأجنبية فيها. فعمدوا إلى هجر الحكومة، ومقاطعة الموظفين القابعين في دوائرها، حتى قلت مداخل الباشا فعجز عن تدوير شؤونها وتدبير ارزاق الجند المحافظ وغيره في حاميتها. فقرر ان يبيع البصرة وحكومتها بأربعين الف قرش، ويرحل عنها فيتركها إلى مصائرها المجهولة[1].

وقد اشتراها منه رجل كان يعمل كاتباً في دوائر الجند المحافظ، يدعى أفراسياب. فاستطاع أفراسياب، وكان ينتمي إلى أصل تركي سلجوقي وأم عربية من بلدة الدير، ان يؤسس أسرة حاكمة قوية قدر لها ان تيسر للبصرة الفيحاء حكماً محلياً مزدهراً يمتد إلى ما يزيد على سبعين سنة. فقد حكم فيها هو على

(١) راجع في هذا الكتاب الصورة الأخرى بعنوان «كيف بيعت باشوية البصرة؟».

أثر ذلك سبعة أعوام وطد فيها شؤون الامارة ووضعها على أسس ثابتة . ثم تلاه في الحكم ابنه علي پاشا ، فبرهن خلال مدة حكمه الممتد إلى خمس واربعين سنة على انه كان حاكماً عاقلاً يسهر على شؤون الرعية ، ويشجع الثقافة وأهلها بحيث صار ديوانه العامر أشبه ببلاط هارون الرشيد على ما يقول الشيخ فتح الله الكعبي مؤرخ الأسرة [1] .

على ان هذا الحكم الطويل ، الذي كان يزدان بكل ما من شأنه ان يدل على الاستقرار والتقدم ، قد تولاه من بعد علي پاشا ابنه حسين فسار به خلال مدة تناهز الاثنين والعشرين عاماً إلى الانقراض والدمار. فقد كانت هذه المدة كلها مفعمة بالتقلبات والمشاكل . متصفة بما كان يتصف به حسين نفسه من الطيش والغرور وسوء التصرف ، وبالقسوة والعنف . ولم يكن من المستغرب أن يؤدي التعسف الذي اتخذه حسين پاشا وسيلة للحكم إلى نفرة الأهلين واشمئزاز الرعية منه ، وان يشجع ذلك عميه ابني افراسياب الأول: احمد آغا وفتحي بك على مناوأته والتآمر عليه . فقد فرا من البصرة وقصدا استانبول ، فاستطاعا هناك ان يقنعا أولياء الأمور بعزل حسين ، وتسليم البصرة بأيديهما . لكن ذلك كان يتطلب استعمال القوة . فصدرت الأوامر إلى مرتضى پاشا والي بغداد بالزحف إلى البصرة على رأس جيش عرمرم لتنفيذه .

وحينما علم حسين بتقدم الجيش الامبراطوري نحوه ، جمع وجوه البلد ورجال الحكومة البارزين ليضع خطة محكمة للدفاع . لكنه سرعان ما اكتشف ان معظمهم كانوا على خلاف معه في الرأي ، وانهم كانوا يميلون إلى جانب عميه الناقمين عليه . فاضطر إلى ان يلوذ بأذيال الفرار مع أفراد اسرته وتابعيه إلى الدورق في عربستان، وان يلتجيء إلى بهبهان من بعد ذلك . ولهذا لم يجد مرتضى پاشا ، وفي معتيه أحمد آغا وفتحي بك ، صعوبةً في الدخول إلى البصرة والاستيلاء عليها .

غير ان الرياح تجري بما لا تشتهي السفن . فقد راقت البصرة لمرتضى باشا

(١) زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر – فتح الله الكعبي ، مطبعة الفرات . بغداد ١٩٢٤ .

وأصبح ميالاً للاستئثار بها لنفسه ففكر بالعصيان فيها والاستقلال بحكمها عن الدولة العلية ، لبعدها عن مركز الامبراطورية وصعوبة سوق الجيوش اليها . فقتل أحمد وفتحي ابني افراسياب بدم بارد واغتصب حكم البصرة منهما لنفسه . لكن هذه الخيانة البادية للعيان سرعان ما استفزت البصريين الكرام وشحذت هممهم فتواطؤوا مع سكان الجزائر وقبائلها وثاروا في وجه مرتضى الأخرق . ثم عمدوا إلى قتل رجاله ومعتمديه أينما وجدوا حتى اضطروه إلى الفرار مع من بقي معه من رجال الجيش والحامية القليلين ، والعودة إلى بغداد .

وقد ندم أهالي البصرة على ما بدر منهم تجاه حسين باشا من قبل ، ولعلهم لم يعرفوا خيره حتى جربوا غيره ، واضطروا إلى ان يقبلوا به مع جميع ما كان يتصف به من عيوب فاستدعي من ملجئة في بهبهان ، وعاد إلى باشويته في سنة أربع وخمسين وست مئة وألف . وكان الأحرى بأهل البصرة ان لا يفعلوا ذلك ، لأن حسين باشا لم يؤدبه الزمان على ما يظهر ، ولم يتعظ بعواقب ما كانت قد صنعته يداه . فقد عاد إلى سلوكه القديم في الطيش والغرور ، ولم يكن في حاشيته من يمحضه النصح ، ويمده بالمشورة الصائبة ، الا صهره وكهيته يحيي أغا . لكن يحيي أغا كان ذا نفس شريرة ونيات خبيثة ، تعتلج بين جنبيه الأطماع وتراوده الأمنيات البعيدة . فصار يحسن له كل قبيح ، ويقبح له الحسن المفيد . وجعله يتجاوز بأعماله الخرقاء حدود البصرة في هذه المرة . إذ عمد إلى سوق الجيوش إلى الأحساء سنة ثلاث وستين وست مئة وألف لإنتزاعها من محمد باشا بن علي باشا حاكمها خلفاً عن سلف.وهاجمها من البر والبحر،فنهبها وقتل عدداً كبيراً من سكانها ، فأثار بذلك عليه من جديد سخط السلطان الذي ذهب محمد باشا يقدم الشكوى اليه . وعند ذاك تقرر سوق جيش امبراطوري لجب بقيادة ابراهيم باشا والي بغداد للقضاء عليه .

وما ان علم حسين أفراسياب بدنو الجيوش الامبراطورية من منطقته حتى عمد إلى تعزيز وسائل الدفاع جميعها ، وعزم على المقاومة بكل ما أوتي من حيلة وقوة . وقد ارتكب من اجل ذلك فظاعات واعمالاً شنيعة[1] تقشعر من هولها الأبدان.

---

(١) جاء في شرح من شروح « زاد المسافر..» قول الشارح (خلف شوقي الداوودي) : =

فقد حصّن القلاع في الكميت والقرنه وغيرهما ، وأمر باجلاء عام للسكان غير القادرين على حمل السلاح من البصرة وغيرهامن بلدان الشمال والجنوب بجماعات متعاقبة . غير ان فئة كبيرة من السكان تماهلت في الأمر ولم تشأ تنفيذ الأوامر نظراً للصعوبة المنطوية فيها ، لكن حسين باشا أمر بتنفيذها بالقوة الخالية من أي نوع من الرحمة او الشفقة [1] . وعهد بالمهمة إلى اثنين من جلاوزته ومماليكه المعروفين بالعنف القسوة ، وهما علي بن شاطر أحمد والأمير حسن بن طهماز ، فتلفت بذلك الأنفس بالمئات ، ودمرت الممتلكات ، ونهبت الأموال . وبذلك تم إخلاء الجانب الغربي من شط العرب معظمه ، واستعد حسين باشا لحصار طويل وكفاح مرير [2] .

= ومن العجائب ان عبد الله أغا أخا يحيى أغا لأبيه ، وهو المعروف بابن مرجانة ، انحطت حالته في هذه الواقعة الى ان عجز عن تدبير القوت لنفسه فضلا عن عياله . فجعل نفسه خادماً لبعض أهل اليسار من توابع البصرة وبقي في مضيفه .. الى ان مات . ومنها ان الجزائر صار يحكمها رجل يقال له كنعان بن عثمان ، وكان مع أبيه عثمان يغنيان في الأعراس في مجالس أدنى الناس ، وان رجلا يقال له هجول الدلال كان وزاناً في سوق الطعام فترقى الى خدمة الدلالين ثم صار دلالا ، ولم يمض غير قليل حتى حكم أهل الجزائر أيضاً .

(١) لكن الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي يرى في (زاد المسافر ..) ان هذا كان من أعماله الحازمة . فهو يقول : وكان من بعض حزمه ، ومواقع فهمه ، أنه أمر باخلاء الديار حتى لا يبقى فيها ديار ، فخرج الناس على طبقات ، وملأت الفجاج والطرقات . وكان ابتداء خلو المغاني في غرة جمادى الثانية ، في اليوم الأول منه طلعت الكبرا ، وفي الثاني التجار والأمرا . ثم تثاقل الباقون بالقعود ، ومنوا أنفسهم بالوعود ، فحين اطلع على سرهم ، ومكنون أمرهم ، أمر بان ينادي المنادي في الحاضر والبادي ، والموالي والمعادي ، ألا من أنذر فقد أعذر ، ومن بصر فما قصر ، ومن أقام الى ثالث يوم فما له و رأسه للعسكر .

(٢) يقول مؤلف زاد المسافر .. : ثم بدأ الخراب في ناحية الجنوب ، وكان المسلط على تحويلهم من بعد نهبهم وتهويلهم ابن شاطر أحمد للسراجي وما يليه ، والأمير حسين بن طهماز أمر باقي البلاد اليه . وما مضت أيام قلائل ، حتى ظهر للشر دلائل ، باخلاء الديار ، ونهب الدثار ، من بعد قتل وسبي وعذاب . فكم غانية تركوها عانية ، وذات نعمة صيروها بغمة .. حتى صارت العباد نوازح والبلاد في صحاصح ، وكان تمام خراب الجانب الغربي من شط العرب لمضي النصف من شهر رجب .

ثم يذكر الشارح تعليقاً على هذا قوله : وابن شاطر أحمد اسمه علي أحد غلمان حسين باشا .. والأمير حسن بن طهماز هو أيضاً أحد غلمان حسين باشا ، وأصله من الدورق من قرية يقال لها الحوز . وكان أبوه طهماز قد انتقل عنها الى البصرة وخدم حسين باشا . وفيما يقال ان طهماز كان هارباً من مهدي =

وحينما وصل ابراهيم باشا الطويل قائد الجيوش الامبراطورية المتألفة من رايات سبعة من الباشوات . وعشرين من البيكات التابعين . إلى العرجة كاتب أهالي البصرة ووجوههم من الكواوزة وغيرهم للقيام في وجه الباشا العاصي ، وتمهيد الأمور للجيش المنقذ ، فضلاً عن تطمينهم وتأمينهم على أنفسهم . فصدعوا بالأمر . وأخذوا يعدون أمرهم للانتقاض على ابن أفراسياب . ثم بعث أناس آخرون من أهل البصرة . ومن جملتهم أصحاب السفن الموسوقة بالأطعمة التي كان حسين باشا قد صادرها وهي في شط العرب ، بكتاب إلى الباشا الطويل عند وصوله إلى مواقعه الحربية حوالي القرنة يخبرونه بان البصرة أصبحت في فوضوية من الحكم والاضطراب . ويطلبون منه ان يرسل حاكماً عنه لينقذها من سيدهم . فارسل سولاق حسين مندوباً عنه . غير ان الشيوخ والتجار كونوا سلطةً موحدةً في البلد ، وفضلوا ان يحتفظوا هم أنفسهم بالحكم بدلاً من ان يسلموا المدينة إلى غريبٍ لا سند له .

وبينما كان حسين أفراسياب يدبر المقاومة والحصار في الجبهة . ثار البصريون وعلى رأسهم الشيخ ذو الكفل زعيم الكواوزة [1] ، فقتلوا نائبه محمد بوداغ واستولوا

= سلطان حاكم الدورق ، وقد أهدى الى حسين باشا هدية ، فكان ابنه حسن المذكور من جملة الهدية . لأن حسين باشا كان يحب الشباب المرد وربما نسب اليه انه يفعل بهم الفاحشة والله أعلم بحاله . وكان حسن مقبولا حسن الصورة فقبله حسين واستخدمه الى ان بلغ ونبتت لحيته ثم ولاه حكومة القبان . وبأمارته في القبان كانت هذه الوقعة فأرسل اليه وولاه تخريب الناحية على ما هو مذكور .

(١) يفهم من التعليقات الواردة في (زاد المسافر ..) ان الكواوزة هم أسرة باش أعيان البصرية المعروفة في يومنا هذا ، وينتسبون الى شيخ الطريقة الصوفية المعروف بالشيخ محمد الكواز . وليست نسبتهم اليه نسبة قرابة ، لأنهم أولاد الشيخ عبد السلام العباسي الأكبر تلميذ الشيخ محمد المذكور . وقد نسب اليه فسمي الشيخ عبد السلام الكوازي كما قيل مروان الجعدي نسبة الى الجعد بن أدهم استاذه ، ثم قيل لأولاده من بعده الكواوزة بمرور الزمان . وللشيخ عبد السلام حفيد الشيخ عبد السلام الأكبر أولاد كثيرون منهم أحمد ومحمود وطه وعلي وذو الكفل وصالح ومصلح والجنيد .

هذا وندرج فيما يأتي كذلك رسالة ابراهيم باشا التي عنونها : من ابراهيم باشا الى مشايخ أهل البصرة ومن فيها من الرعايا والتجار ، وخصوصاً قدوة الراسخين الشيخ ذي الكفل ، اما بعد فسلام عليكم ، ومعلوم عندكم أننا توجهنا الى فتح البصرة من يد الطاغي حسين باشا ، فحين اطلاعكم على مضمون كتابنا تطيبون أنفسكم وتؤمنون الرعايا . فما ينالكم منا الا الخير والسلام .

على مقاليد الأمور في البصرة . غير ان حسين باشا ما أن علم بالأمر حتى داهم الكواوزة واتباعهم في ليلةٍ حالكة الظلام ، فقطع رأس الشيخ ذي الكفل وقتل عدداً من المدافعين عنه ، ولم يعلم أحد بذلك الا في صباح اليوم الثاني وعند ذاك لاذ الباقون من أتباع الشيخ القتيل بأذيال الفرار .

على أن الجيش الامبراطوري ظل متمادياً في الزحف على القرنة بعد تلبثه في العرجة حتى وصلها فضرب عليها الحصار من جميع الجهات . ومع ان طوقه ظل مضروباً عليها مدة تناهز الثلاثة أشهر فان القلعة الحصينة لم تستسلم . وعند ذاك أجريت مفاوضات سلمية بين الطرفين ، وتم الاتفاق على تراجع ابراهيم باشا واستصحاب يحيي اغا كهيه حسين باشا معه ، ليستحصل له عفو السلطان اليادشاه ورضاه . هذا بشرط ان تنتقل حكومة البصرة من حسين باشا إلى ابنه الصغير افراسياب ، وان ينسحب حسين نفسه إلى مكة المكرمة ، ويرفع إلى السلطان اعتذارات رسمية معززة بالهدايا اللائقة ، وان يعاد محمد باشا إلى حاكميته في الاحساء ، علاوةً على نقاط أخرى . فعاد حسين باشا إلى البصرة في حكم ابنه الصغير بالاسم او لتوليه الأمارة بصورة عملية للمرة الثالثة .[1]

وقد حدث عند رحيل ابراهيم باشا وفكه الحصار عن القرنة ، أن أربعة من أفراد الأسرة الكوازية المرزءة ، ومنهم احمد بن محمود وابراهيم بن علي ، رافقوا يحيى أغا في سفرته إلى استانبول . وهناك استطاعوا إفساده على سيده بسهولة فخانه وتواطأ مع الكواوزة ، واستطاعوا معاً اقناع المسؤولين في الباب العالي بأسناد باشوية البصرة إلى يحيي[2] أغا نفسه بدلاً من إبقاء حسين أفراسياب فيها .

وهكذا عادت الجيوش الامبراطورية ، وقد بلغت ثمانين ألف جندي في هذه المرة ، إلى الزحف على البصرة بقيادة قره مصطفى باشا والي بغداد لفرض الباشا الجديد فيها ، فوصلت إلى مواقعها في خطوط حصار القرنة سنة سبع وستين وست مئة والف (١٤ رجب ١٠٨٧) . ومع جميع التحصينات المنيعة التي كان حسين

---

(١) لونكريك – أربعة قرون ..

(٢) كان يحيى أغا هذا زوج اخت حسين باشا المسماة بـ« الحجية » . وكانت معروفة بقوة شخصيتها .

باشا قد أدخلها على مواقع الدفاع بعد الحصار الأخير ، فقد استطاع الجيش العثماني في هذه المرة ان يسحق المقاومة العنيفة التي أبداها حسين باشا افراسياب وقواته . فكان لا مناص لحسين والحالة هذه من ان يفر من الميدان وينجو بنفسه وأفراد اسرته إلى الدورق في عربستان ، عن طريق مزيرعة وسحاب الكائنتين في الضفة [1] المقابلة للقرنة . وقد دخل الجيش على اثر ذلك إلى البصرة فاستولى عليها في يوم من أيام الجمع الواقعة في رمضان المبارك ، بعد ان وقعت مجزرة رهيبة في شوارعها وقتل فيها حوالي أربعة الاف نسمة من البصريين التعساء .

اما حسين باشا فقد طوحت به الأقدار فرمت به في الهند اخيراً . فقد توجه من الدورق إلى شيراز ليستنجد بالشاه سليمان بن الشاه عباس الصفوي ، ويستنصره على بني قومه في العراق ، لكنه فشل في مسعاه بدسٍ من أحد امراء أيران الذي كان يحقد عليه . ولم يجد بداً عند ذلك من التوجه إلى الهند ليجرب حظه فيها . فاستقبله أحد ملوك الهند المسلمين وأكرم وفادته . ثم ولاه بعض مدنه ، وهي المدينة المعروفة بـ « بوچير » . فبقي فيها والتحق أهله وحشمه بعد ذلك به . لكنه قتل فيما بعد هو وابنه علي بك في إحدى حروب الملك الذي آواه ضد اعدائه . وظل نسله هناك إلى يومنا هذا على ما يقال .

وبهذا انتهت صفحة من أروع صفحات التاريخ العراقي في البصرة . وتقوضت بفعل الطيش الذي أبداه حسين في الحكم ، والمشورة السيئة التي قدمت له ، دعائم الأسرة الحاكمة التي كان من المؤمل ان تظل قائمة في الوجود ردحاً طويلاً من الزمن .

---

(١) يبدو ان حسين افراسياب كان قد احتاط لذلك منذ بداية المعركة ، فقد نصب خيماً خاصاً له ولأسرته في هذه الجهة حتى يتأمن له الفرار فيفوز بالنجاة .

١٢

خاصكي محمد باشا

كانت الحوادث التي وقعت في أيام آق محمد باشا ، والي بغداد في سنة ست وخمسين وست مئة وألف ، قد أدت به إلى ان يعمد إلى تأديب قادة الجند المحلي في بغداد ، واعدام رؤوس الفتنة من بينهم . وقد نقلت هذه الحوادث بشكل غير حقيقي إلى أولياء الأمر في الباب العالي فقرروا عزل الوالي وقتله ، ولذلك عُين قائد جديد للحامية الانكشارية وخوّل صلاحية واسعة في معالجة المشكل . فقدم إلى بغداد ، ونفذ أمر القتل في الوالي المعزول حال وصوله .

وكان لا بد من تعيين وال جديد يتربع على دست الحكم في باشوية بغداد العريقة ، فوقع الاختيار على والٍ اعتُبر من الولاة المجربين ، يدعى خاصكي محمد باشا ، بعد أن أشغل باشويتي مصر والشام من قبل . غير ان هذا الوالي ، مع جميع ما كان عنده من خبرة ومنزلة في البلاط العثماني الذي نشأ فيه ، كان يتصف بمجموعة من الأخلاق والأحوال المتناقضة . فقد كان رجلاً بهي المنظر حلو الشمائل ، كثير الميل إلى الأبهة والفخفخة . ولذلك عمل في الحال على ان يكون له ديوان فخم باذخ يجلس فيه فيكلم الناس من وراء ستار [١] ، بطريقة لم تكن مألوفة لهم في هذه الولاية من قبل . ونظّم الأمور فيه بحيث فرض على الموظفين المحيطين به ان يلبسوا البسة خاصة ويعملون بموجب انظمة ومراسيم معينة . وصار يجلس في كثير من الأيام فيبذل للفقراء والمستحقين بذلاً سخياً . ويبالغ في التلطيف والانعام على طبقات معنية من الناس . ومع جميع ما كان يبديه من مظاهر التدين والعناية بتعمير المساجد والعتبات المقدسة في العراق والحجاز [١] .

---

(١) العراق بين احتلالين ، وكلشن خلفاً .

(٢) كان قد عمر على نفقته قبة الخليفة عثمان بن عفان في المدينة المنورة .

فقد كان ميالاً إلى الأنس والطرب مولعاً بمعاقرة الخمرة أو بنت الحان . ولذلك كان يقضي لياليه معظمها مع الغواني والمغنين ، ويعمد إلى تعاطي المشروب في رابعة النهار . وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الحالة ان تتسيب الأمور في ديوان الولاية ، ويستبد بالناس رؤساء الوحدات العسكرية المحلية ، وأغوات الأنكشارية حتى تسربت الخمرة والنساء إلى ثكنات الجيش والمراكز العسكرية كذلك[1] .

ولم يكن تأثير هذا السلوك الشائن تأثيراً يسيراً في تصريف شؤون الولاية ، واستتباب الأمن في البلاد ، فقد بدأت العشائر تتحدى الحكومة على عادتها في أنحاء مختلفة من العراق ، وتمتنع عن تأدية الضرائب او تنفيذ الأوامر الحكومية في شتى الظروف والمناسبات . فاقتضى الأمر في يوم من الأيام ان تقدم الحكومة على تجريد حملة عسكرية خاصة لتأديب العشائر الخارجة عن الطوق في منطقة الجوازر ، فتوجهت القوات اليها في طريقي النهر والبر ، حتى وصلت إلى الأماكن التي كان يعتصم فيها الثوار . غير ان قطعات هذه القوة دب الخلاف فيما بينها ، فأدى إلى اشتباك الخيالة ببعض الوحدات البرية ، وأزهق عدد غير يسير من الأرواح والأنفس . ثم تفرق قسم من أفراد الحملة ورجع الجيش إلى بغداد بأجمعه من دون أن يقوم بالواجب الذي سيق من أجله . وكان رأس الفتنة وموقد نارها كتخدا اليسار وأحد رؤساء العرفاء مع فريق من الخيالة .

وحينما علم خاصكي محمد باشا بالأمر ثاب إلى رشده ، وجمع « أغا بغداد[2] » وبعض البارزين من انكشاريه الموجودين في بغداد للتداول في الأمر ، واتخاذ ما يلزم من التدابير لانقاذ الحكومة من ورطتها . فتقرر في الاجتماع ان تسد الأبواب في وجه القوات العائدة ، وان لا يسمح لأي أحد منها بالدخول إلى بغداد ما لم يسلم إلى الجهات المسؤولة في الحكومة مثيرو الفتنة والشغب . فنفذ هذا القرار في الحال ، واضطرت القوات المبعثرة المتقهقرة ان تخيم في خارج السور

---

(١) لونكريك .

(٢) أي آمر حامية بغداد ، وتنسب اليه « باب الأغا » المعروفة في شارع الرشيد ببغداد اليوم ، حيث كان يوجد مقره عادة .

حتى يسمح لها في الدخول بوسيلة من الوسائل . وما انقضت أيام ثلاثة عليهم حتى تطورت الأمور إلى أخطر مما كان يظن . فقد خامر قسم من أغوات الانكشارية الذين حضروا الاجتماع . وعزموا على استغلال الحادث لمصلحتهم ، وبعد ان اتصلوا سراً بقادة الفتنة في الخارج بادروا في ليلة اليوم الثالث إلى جمع أتباعهم من البيوت . وتوزيعهم على الأزقة والطرقات . ثم فتحوا أبواب السور عند طلوع الفجر . وعند ذاك اندفعت القوات الممنوعة إلى الداخل ، وهوجمت المدينة في عدة جهات فاقترفت الفضائح والشناعات .

على ان الهجمات معظمها تركزت في منطقة السراي . فنهبوها كلها . وأرادوا قتل الوالي الخاصكي فلم يظفروا به . واجتمعوا في ساحة الميدان بعد ذلك مطالبين بتسليم أشخاص ثلاثة من أخص أعوان الباشا المرتبك ، وهم ذو الفقار افندي أمين مخزن الولاية ، وعلي الروزنامجي . وحيدر چلبي الشابندر . وسرعان ما ألقوا القبض على أمين المخزن فقتلوه شر قتلة ومثلوا بجثته . ثم تفرقوا . وعادوا في اليوم الثاني فهاجموا السراي من جديد وطالبوا الوالي الخاصكي بالشخصين الآخرين . لكنه حلف لهم بالايمان المغلظة بأنه لم يكن يعلم شيئاً عنهما . والغريب في الأمر انه خصص بضغط من الثائرين اكرامية خاصة لمن يلقي القبض عليهما . وبذلك أمكن العثور على الروزنامجي فجيء به إلى رؤساء الفتنة وأعدم ، في الوقت الذي كانت ترتفع فيه أصوات المؤذنين داعية الناس إلى صلاة الجمعة من دون ان يراعوا حرمة الأذان أو قدسية اليوم الفضيل . اما الشخص الثالث ، حيدر چلبي الشابندر . فقد استطاع الأفلات من الجموع الثائرة خلال اليوم الأول بالتجائه إلى أمير طي الذي كان مخيماً على مقربة من جانب الكرخ ، فقبل دخالته وذهب به إلى الموصل . وحينما علموا بذلك هدأت ثائرتهم وانتهت الفتنة .[1]

لكن انتهاءها لم يكن الا لأجل محدود . ففي ليلة من الليالي القليلة التي أعقبت الفتنة الأولى تجمهر الثوار المعربدون في ساحة « الميدان » فجأة . وظلوا فيها حتى الصباح من دون أن يفهم السبب الداعي إلى ذلك . فاضطرب الناس وانتشر الذعر

---

(١) أربعة قرون .. والعراق بين احتلالين .

بينهم من جديد ، وخشي الوالي من ان يفتكوا به ففر هارباً إلى هيت . وحينما علموا بفراره أدركوا عظم الجرائم التي ظلوا يرتكبونها ، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً ، فقرروا أيفاد من يعتذر اليه فيدعوه الى العودة . فعاد الى بغداد ، لكنه اعتصم في جانب الكرخ منها حتى يرى رأيه النهائي في الأمر . وحينذاك زاره جمع من عقلاء الانكشارية المتنفذين وأبدوا له الاذعان والطاعة ، ثم طمنوه وبينوا له أن الفتنة قـــد هدأت وتشتت شمل القوات المحلية العاصية ، إذ هرب منها مـــن استطاع الهرب ، واعتصم الباقون في محلة قنبر علي .

غير ان الوالي لم يطمئن قلبه لكل ذلك ، وآثر التريث والتأني فخيم في جهة « المنطقة » وطلب ان يسلم اليه رؤساء الفتنة بالذات . فجاء بهم الانكشاريون بعد أيام معدودة ، وهم « يوزباشي » القوات المحلية ، وكتخداه ، وبلوگ باشي الخيالة ، مع عدد من الأنفار . فقتل الجميع في الحال ، عدا اليوز باشي الذي عفى عنه الوالي بتأثير من بعض الشخصيات المتنفذة ، لكنه سلمه إلى الجورجي فأمر بنفيه ، وقد ارتأى الوالي كذلك ان يقطع الارزاق عن ما يقرب من ثلاث مئة جندي تأديباً لهم ، وفرقهم على الحاميات في الخارج .

وهكذا انتهت الفتنة الدالة على الاهمال والتسيب ، وانعدام الضبط في القوات المحلية وغيرها ، بعد أربعين يوماً كانت حافلة بالمآسي والأحداث المؤسفة . على ان خاصكي محمد باشا بقي مع كل هذا ألعوبة في أيدي أتباعه واللائذين به ، وخاضعاً لرحمة القادة الانكشاريين وأغواتهم . ولذلك لم يستطع الحكم بالعدل لأنهم تمادوا في ظلمهم وجورهم على الناس من دون خوف أو وازع . ومع هذا فيلاحظ من جهة أخرى أنه استطاع القيام بأعمال نافعة في البلد ، كانت وما تزال تذكر باسمه حتى اليوم . فقد أشرف بنفسه على انقاذ بغداد من الغرق حينما فاض الرافدان ، سنة سبع وخمسين وست مئة والف ، وصارت مياه الفرات تصب في دجلة ، وعمر الجامع الذي ما يزال يعرف باسمه وهو « جامع الخاصكي » ، وتم في أيامه بناء منارتين [1] . في الروضة الحيدرية في النجف ، واصلح السور

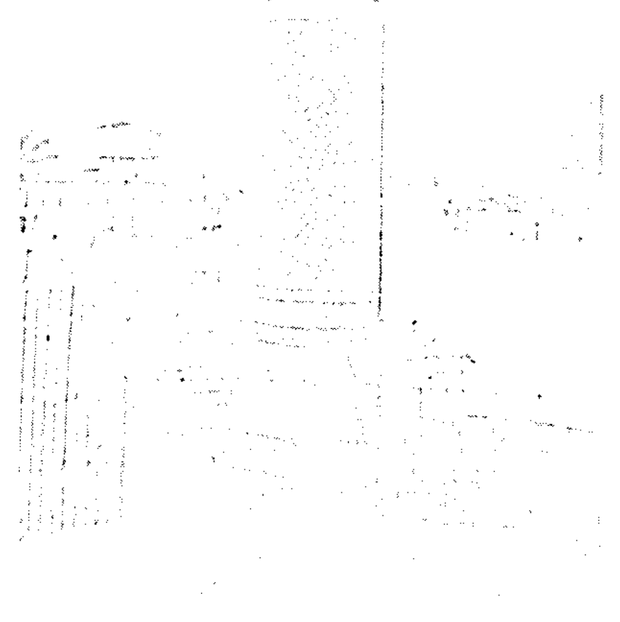
---

(١) العراق بين احتلالين ، لكن لونكريك يذكر في تاريخه انه عمر منارة واحدة فقط في الروضة الحيدرية .

المتصدع ثم أحكم مواقع الدفاع فيه . وكان من جملة ما أعاد تعميره كذلك « طابية الفتح »[1] الكائنة في غربي مقبرة « الشيخ عمر » ، وكانت مياه الفيضان — الدفرة — قد جرفتها تلك السنة حينما وصلت بتدفقها إلى « باب المعظم » .

غير ان ضعف خاصكي محمد باشا في الحكم ، وانصرافه إلى الخمرة والنساء ، كان لا بد من ان تسمع بهما الجهات المختصة في الباب

(١) وطابية الفتح هذه هي تل كبير عال من التراب المرصوص ، رباعي الشكل ، ظل قائماً في موقعه المشار اليه في أعلاه الى ما قبل سنوات عديدة ثم أزيل . وكان من بقايا فتح بغداد واستخلاصها من أيدي الصفويين على يد السلطان مراد الرابع كما لا يخفى. وقد لعبت هذه « الطابية » على ما يبدو دوراً فعالا في تلك المعركة الرهيبة ، ولعل بعض المدافع كانت تنصب فوقها.



منارة جامع الخاصكي في بغداد

العالي . فلم يستطع الصدر الأعظم محمد باشا كوپريلي السكوت عنه ، لا سيما وأنه كان يكرهه وينفر منه. ولذلك صدر الفرمان الهمايوني المبجل بعزله في منتصف[1] صيف ١٦٥٩ (١٠٧٠هـ) ، واعادة مرتضى باشا للمرة الثانية إلى بغداد في مكانه.

ويروى في مصادر عدة ان خاصكي محمد باشا حينما كان مخيماً في خارج بغداد استعداداً للرحيل عنها بعد عزله فوجىء بوصول خلفه مرتضى باشا . وتخييمه على مقربةٍ منه . وسرعان ما عمد الباشا الجديد هذا إلى محاسبته عن واردات الولاية ومحتويات خزينتها . فتبيّن له ان للخزانة العامة في ذمة الوالي الخاصكي شيئاً يزيد على ست مئة كيس من الأقچات . ولذلك طالبه بها ، وشدد النكير عليه من أجلها ، فلجأ الخاصكي إلى التوسل به والتوسط له فأنزل له زميله مرتضى باشا مئة كيس ، ثم قسّط الباقي عليه . على ان مرتضى باشا حينما دخل بغداد رأى ان يقوم بواجب المجاملة تجاه زميله وسلفه ، فضيّفه قبل ان يرحل وأهداه خمسة عشر كيساً من النقود وثلاثة بغال رهوان للركوب . ثم أنعم عليه بخلعةٍ من السمّور ، وعلى كلٍ من أخيه وابنه بخنجر مرصع .

---

(١) لونكريك .

١٣

الباشا الاسود

كانت بغداد في سنة خمسين وست مئة وألف تعيش عيشة رضية مطمئنة ، بفضل واليها الشاب حسين باشا . وكان هذا الوالي ، على صغر سنه ورطوبة عوده ، يكاد لا يشبه الكثيرين من ولاة العثمانيين في تلك الأيام . لأنه كان رجلاً محباً للخير ، كثير الحلم والشفقة ، مهتماً بشؤون الناس والرعية من جميع الطبقات . حتى انه كان يخرج إلى أحد المساجد في كل ليلة من ليالي الجمع المباركة فيعتكف فيه ، وينصرف إلى العبادة بكليته فترة من الزمن ، ثم يكرم الخطيب والأمام وفقراء الناس الموجودين .

غير أن أيامه التي كانت أشبه بأيام الحلم بالنسبة للبغداديين في ذلك العهد كانت أياماً معدودة . فقد وافاه الأجل المحتوم وهو في مقتبل العمر ، وميعة الشباب ، وذهب مبكياً عليه من الجميع فدفن في جامع الشيخ الكيلاني[1] . فعُين في مكانه رجل من رجال البلاط العثماني يدعى قره مصطفى باشا ، أو مصطفى باشا الأسود . ومع هذا السواد الذي يُكنى به ويتخذه لقباً له ، فقد كان مصطفى الأسود صبيح الوجه حلو الكلام ، يجيد آداب المجاملة والتحدث ويتقن شؤون الدولة وتصريف شؤون الناس بأحسن وجه . وقد عهد اليه بولاية بغداد وباشويتها بعد ان وصل إلى رتبة السلحدار في استانبول ، فقُدر له بهذا ان يعيش عدة سنوات فيها ويتولى مسؤوليتها ثلاث مرات .

وقد وافى بغداد للمرة الاولى فحكم فيها حكماً كان يتوخى فيه خير الناس

---

(١) العراق بين احتلالين ، لكن المستر لونكريك يسميه في (اربعة قرون من ..) شاطر حسين باشا .

ومصلحة الدولة في وقت واحد . غير ان شغب الانكشاريين الذي كان مستفحلاً في أرجاء الامبراطورية العثمانية كلها يومذاك ، وتحريكات المغرضين والمفسدين ، قـــد أدى إلى تنحيته عن بغداد ونقله إلى ديار بكر بعد سنتين من الحكم فيها.
ومن طريف ما حدث في عهده ان ولاية الموصل كانت قد شغرت في يوم من الأيام فعُين لها محمد باشا الدباغ ، لكنه تأخر في الوصول اليها . وحينما وصل متسلمه قبله لتسلم الوظيفة وجد فيها ان ضابطاً مطروداً من حلب يدعى محمد بن عثمان جاووش كان قد جاء اليها فضبطها بعد ان زورّ فرماناً قرأه في السراي ووزعه على الناس . وقد ادعى ابن عثمان جاووش هذا ان حصوله على المنصب كان قد كلفه اثني عشر ألف قرش ، وانه دفع من هذا المبلغ ثمانية الآف ، ولابد من ان يستحصل البـــاقي من الناس . ولذلك وجده المتسلم منهمكاً في جمع المبلغ بشتى الطرق والوسائل ، وبادر إلى أيقافه عند حده . لكنه لم يستطع القبض عليه لانه استطاع الدفاع عن نفسه في مخيمه الذي كان قد نصبه في الخارج ، فأفلت وفر هارباً مع عدد من اتباعه المغامرين إلى منطقة البصرة .

وبعد أربعة عشر عاماً من الحكم في ولايات ديار بكر وحلب والقاهرة ، قلب الدهر لمصطفى باشا الأسود ظهر المجن . وكشرّ له عن أنيابه ، فغضب عليه السلطان البادشاه وأصدر فرماناً بعزله . فما كان منه إلا ان يتوجه إلى استانبول دار السعادة ، وفي معيته نفائسه وأمواله التي كان قد جمعها لنفسه وأهله خلال تلك المدة الطويلة من ايام الحكم الموفق في مختلف الولايات . وبتحريك من أهل الوشاية والفساد عين السلطان من يذهب [1] إلى مصادرته والقاء القبض عليه في أثناء رحلته إلى استانبول ، فما كان منه بعد ان علم بالأمر في مرحلة قريبة من الاستانة الا أن يترك ما كان معه من ذهب ونفائس ويلوذ بأذيال الفرار . وبعد أيام دخلها متنكراً بزي درويش من الدراويش ، واختفى في أزقتها وحواريها بحيث لم يمكن العثور عليه . ولذلك أطلق عليه اسم (مصطفى باشا الهارب) أيضاً .

وقد بقي الباشا الأسود شريداً متخفياً ثماني سنوات طوال ، بذل من مخبأه

(١) عين السلطان لهذه المهمة رجلا يقال له حسن باشا أباظه .

خلال أيامها السود معظمها مساع غير يسيرة للفوز بعطف السلطان عليه . فتوفق في ذلك ، ونال بغيته ، لأن السلطان عاد فشمله برعايته من جديد وأنعم عليه بولاية وان . ثم نقله بعد ذلك إلى بغداد مرة ثانية ، فوصلها خلفاً لسميه مصطفى باشا يمبوق [1] سنة أربع وستين وست مئة وألف .

وفي خلال توليه الباشوية في بغداد مرة ثانية ، أبدى قره مصطفى باشا غاية الحيطة والحذر وبالغ في مداراة الناس جميعهم ، متعظاً بذلك من خبرته السابقة ، فمالوا اليه . ثم أظهر شيئاً غير يسير من الزهد و « الدروشة » على ما تقول بعض الروايات ، وقد روي عن عهده في هذه المرة ان ولده محمد بك الذي كان قد ولد في بغداد خلال مدة حكمه الأولى ، قد أقيمت له حفلة ختان كبيرة ظلت مراسيمها تقام مدة سبعة أيام متتالية . وكان الباشا خلال هذه الأيام كلها يقدم لضيوفه أشهى المأكولات وأفخرها ، ويعتني بكبيرهم وصغيرهم عناية تنم عن تواضعه وطيبة قلبه [2] .

على ان الظروف لم تشأ ان يستقيم الباشا الأسود في ولاية بغداد أكثر من سنة واحدة في هذه المرة . فقد اقتضت الأمور ان ينقل إلى الشام ، ويُعين والياً في مكانه ببغداد ابراهيم باشا الطويل رئيس البستانيين في الحرم الهمايوني ، وكان قد عُين قائمقاماً في استانبول نفسها قبل زمن قليل . وفي أثناء المدة التي حكم فيها والي بغداد الجديد هذا وقعت حوادث حسين [3] باشا أفراسياب في البصرة ، حينما تحدى الدولة العلية بطغيانه وأقدم على احتلال الأحساء وطرد واليها محمد باشا الأحسائي انتقاماً منه على ما كان يدعي . فسيقت الجيوش لتأديبه من بغداد والولايات الأخرى ، ووقعت حوادث ومآس في البصرة كان مجموعها يدل على فشل الباشا الطويل في تدبير شؤون الحرب والسياسة على سواء . والظاهر ان هذا الفشل هو الذي أدى إلى عزله عن باشوية بغداد ، بعد ان قضى فيها ما يقرب من سنتين اثنتين .

---

(١) أي القطني ، أو القطان ، لأن الكلمة تعني القطن بالتركية .
(٢) لونكريك ، والعراق بين احتلالين . ويقول لونكريك : وتردد ذكرى السنين المتأخرة من باشويته في هذه المرة الأفراح المسرف فيها ، المقامة في يوم ختان ابنه .
(٣) راجع الصورة السابقة عن حسين أفراسياب .

ولما كان الباشا الأسود قد أصبح خبيراً في شؤون بغداد وولايتها ، لما اكتسبه من خبرة ومران خلال المرتين اللتين تولى فيهما شؤون هذه الولاية من قبل ، فقد اتجهت أنظار الباب العالي اليه من جديد . فصدر الفرمان الهمايوني بنقله إلى بغداد مرة ثالثة ، وكان ذلك سنة ست وستين وست مئة وألف .

وحينما تولى قره مصطفى باشا عمله في بغداد هذه المرة كانت الدولة العلية قد اضطرت إلى مصالحة حسين أفراسياب ومسايرته خوفاً من ان يؤدي الضغط عليه إلى وقوعها في مشاكل لا نهاية لها مع الدولة الصفوية في أيران . لكن حسين باشا ظل سادراً في طغيانه ، وتمادى في مماطلة الدولة العثمانية وعدم دفـــع الواردات السنوية البالغة مئتي كيس اليها ، ثم اختلف مع مشايخ البصرة وأعيانها فضجوا بالشكوى منه . ولذلك تقرر في الباب العالي عزله وتعيين صهره وكهيته الخبيث يحيى أغا في مكانه ، كما تقرر أن يعهد إلى الوالي قره مصطفى بتنفيذ ذلك بالقوة . ومن أجل هذا صدرت الأوامر إلى والي ديار بكر ابراهيم باشا ، ومحافظ شهريزور كنعان باشا ، وأمير امراء الموصل موسى باشا ، وأمير الرقة ديلا وير باشا ، بالانضمام اليه والزحف بقواتهم في معيته . فصدع باشا بغداد بالأمر ، وبعد ان جمع قواته كلها في البادية المحيطة بقلعة الطيور في جانب الكرخ ، زحف على رأسها متوجهاً إلى البصرة عن طريق الحلة . ومن هناك تابع الجيش زحفه إلى الجنوب بينما توجه قره مصطفى مع امرأته لزيارة روضتي الأمام الحسين في كربلا والامام علي في النجف المطهرتين ، ولحق بالجيش بعد ذلك . وكانت الحملة من الحملات العسكرية الكبيرة التي عبئت لها جميع القوى والوسائل ، واستخدمت فيها السفن النهرية ، والمدفعية بأنواعها ولا سيما المدفعية الشاهية [1] .

وقد كانت المعركة الفاصلة في هذه الحملة حوالي قلعة القرنة[2] التي حوصرت حصاراً شديداً حتى استسلمت ، ففر حسين باشا إلى أيران بأهله وعياله . وزحفت الجيوش على البصرة من بعد ذلك فاستعادتها إلى حظيرة الحكم العثماني . وبعد

---

(١) العراق بين احتلالين .

(٢) التي اصبحت تسمى يومذاك « العلية » باسم علي باشا أفراسياب والد حسين باشا ، وظلت كذلك مدة من الزمن .

أيام خمسة قضاها الباشا الأسود في البصرة ، وزار خلالها قبري طلحة والزبير ، سلّم الولاية إلى يحيى باشا وقفل راجعاً إلى بغداد .

غير ان يحيى باشا هذا ، وقد عرف بخبثه وتحريكاته التي ادت إلى زوال حكم حسين باشا في النهاية ، حنث بالوعود التي قدمها للدولة بالطاعة والاعتراف بالجميل ، واختلف مع قواد جيشه وموظفي ديوانه ، فعمل على شق البصرة واضرام حرب أهلية فيها . فاقتضى ذلك ان يعود الباشا الأسود إلى الميدان ، فيسير على رأس جيشه لتأديب المتمرد الجديد في البصرة المنكودة الحظ ، بعد ان كان نصبه في الباشوية على اثر الحملة السابقة ، وتعيين الباشا[1] الذي عُيِّن لها من استانبول . وقد توفق في ذلك ، وقام بما عهد اليه على أحسن وجه ، فعاد إلى عاصمة ملكه من جديد . والظاهر أن أعماله المتعبة هذه قد قوبلت بالاستحسان التام في الباب العالي ، لأن السلطان غمره بألطافه وانعامه . إذ خلع عليه خلعة من جلد السمور ، وأهداه سيفاً مرصع القبضة بالجواهر ، ثم قلد ابنه محمد بك إمارة الشهرزور وعين أخاه محمد بك أيضاً دفتر داراً في بغداد .

وكان الباشا الأسود عند عودته من البصرة ، في المرة الأولى ، قد قدم إلى الباب العالي مقترحات مفيدة لأصلاح احوال البصرة المالية ، واستغلال وارداتها الوفيرة ، على الوجه الأكمل . فارتأت الجهات المسؤولة في استانبول بعد مدة بان تعهد اليه بهذه المهمة ، فصدر الفرمان اللازم بتعيينه في ولاية البصرة ، وبذلك انتهت مدة حكمه الحافل بجلائل الأعمال في بغداد ، فرحل عنها في أواسط سنة سبعين وست مئة وألف ، بعد ان ظل مهيمناً على مقدرات الأمور في بغداد مدة من الزمن من حياتها المرتبكة في تلك الأيام[2] .

---

(١) جاء في « البصرة العظمى » لمؤلفه الحاج سليمان فيضي ان الذي خلف يحيى باشا في حكم البصرة هو قبوجي باشي مصطفى باشا .

(٢) يذكر المستر لونكريك في (أربعة قرون من ..) ان باشوية قره مصطفى الثالثة في بغداد دامت أربع سنوات ، وانه بقي في البصرة سنة واحدة بعد ان نقل اليها فتوفي فيها .

١٤

الباشا العملاق[١]

كان أحمد باشا عملاقاً بين الباشوات الذين حكموا العراق وتلاعبوا بمقدراته ردحاً طويلاً من الزمن ، عملاقاً في جسمه وأعماله وتصرفاته ، وفي عمق التأثير الذي أحدثه في تاريخ العراق الحديث . وكان للمواهب التي اتصف بها ، والمحيط الذي نشأ فيه ، والتربية التي شب عليها ، تأثير كلي في تكوين شخصيته وإظهاره بالمظهر الذي عرف به .

فقد ولد في حدود سنة خمس وثمانين وست مئة وألف في جنلكه بالقرب من استانبول ، ونشأ نشأة ارستقراطية تحيط به مظاهر الآبهة والترف ، وتبدو من حوله إمارات الجاه والسلطان في كل مكان . إذ كان والده حسن[٢] باشا من موظفي البلاط العثماني الزاهر ، ثم ترفع إلى مرتبة وزير وعين والياً في عدد من إيالات[٣] الامبراطورية العثمانية ، حتى استقر به المطاف في إيالة بغداد سنة ١٧٠٤ . وكانت أمه (أم احمد باشا) عائشة خانم ابنة رجل من رجال الحاشية في بلاط السلطان مراد الرابع ، وقد قُدر لها ان تنتهي حياتها في بغداد فتدفن[٤] فيهـــا كما دفن زوجها وأبنها من بعدها .

وكان أحمد هذا الابن الوحيد للحاج حسن باشا . فصحب والده متنقلاً في

---

(١) المراجع : رحلة كارستن نيبور ، حديقة الزوراء ، اربعة قرون .. ، دوحة الوزراء .

(٢) حسن باشا هو ابن مصطفى بلك من ضباط الجيش السباهي التابع للسلطان يومذاك.

(٣) اشتغل في إيالات قونيه وحلب وأورفة وديار بكر ، ثم نقل الى بغداد.

(٤) دفنت في مقبرة الشيخ معروف في جانب الكرخ ، في التربة التي يطلق عليها تربة « زبيدة » . وليست زبيدة هذه هي زبيدة زوجة هارون الرشيد كما يظن خطأ ، وانما هي زبيدة ابنة هارون الجويني حاكم العراق بعد سقوط الدولة العباسية على ما يظن. وكانت أمها رابعة بنت أحمد بن المستعصم بالله الخليفة العباسي الذي قتله هولاكو .

مختلف الأماكن التي اشتغل فيها والده موظفاً للدولة . ولذلك أهمل تثقيفه ونشأ أمياً لا يحسن القراءة والكتابة طوال أيام حياته . لكنه رزق بسطةً في الجسم ، ومتانةً في العضلات ، وذكاءً في العمل ، وشخصيةً فذة جعلت من سيرته الحافلة بجلائل الأمور والاعمال شيئاً خطيراً في الحق والحقيقة . وهو وإن أهمل تثقيفه ونشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فقد كان يتذوق الشعر بالعربية والتركية ويهوى سماعه وإنشاده ، ويقدر رجال العلم والأدب فيقربهم وينعم عليهم في المناسبات التي كانت تزخر بها أيام باشويته الطويلة في بغداد ، وغيرها من الأيالات .

ولم يكن استعداده الجسمي شيئاً بسيطاً يهمل ذكره عند التحدث عن خصاله ومآثره ، وانما كانت موهبةً ربانية خارقة ، وقوةً بدنية فائقة ، ألانت له الحديد وجعلت منه رجلاً عملاقاً في الجسم وغيره. فقد كان فارساً مغواراً ، يجيد ألعاب الفروسية بفنونها وحيلها ، وقوياً جباراً يأتي بالعجائب اذا أخذ الرمح بيده أو جرد السيف من غمده . ولذلك رويت عنه قصص وحكايات فيها الكثير من الطرافة والمغزى . فيروى مثلاً أنه رمى بسهم من بعيد فنبت في الحديد ، وأنه كان يأخذ قطعة اللباد السميكة ويبلها بالماء ، ثم يلفها لفاً قوياً ويضربها بالسيف فيبترها كما تبتر الخيارة الطرية . وأنه كان يعلق الورق في الهواء فيقطعه بضربةٍ من سيفه المرهف وكأنه قد قص بالسكين . كما يحكى انه كان يؤتى له بالصينية المصنوعة من النحاس السميك فيمسكها بكلتا يديه ويشقها شقاً كما تشق قطعة القماش ، أو يلويها لياً ويطويها كطي الورق .

على ان أهم ما اشتهر به أحمد باشا من هذا القبيل قصة صراعه مع الأسد . فقد خرج ذات يوم بموكبه الحافل ، وحشمه ومصاحبيه ، وقصد الصيد في منطقة عقرقوف . وبينما كان يسير بين الآجام ومن ورائه نفر من مماليكه وحاشيته شاهد عن بعد أسداً أفزعه دنو الموكب منه ، وتحفز للانقضاض على من فيه . فتفرق رجال الحاشية خائفين ، وانفضوا عنه مبتعدين ، لكن الباشا كرَّ عليه بفرسه وصال وجال من حوله بكل ما عنده من مهارة ورباطة جأش حتى أصابه بحربةٍ في أحشائه. غير ان الأسد تجلد ووثب عليه ، فعاجلته فرس الباشا



أحمد باشا يصارع الأسد

نقلا عن تاريخ العراق بين احتلالين

برفسة على أم رأسه ، فولى هارباً وتبعه الباشا بنفرٍ من مماليكه وأجهزوا عليه فقتلوه ، ثم سلخوا إهابه فحشوه بالتبن وجاؤوا به الى بغداد[1] . ومن طريف ما يذكر هنا ان أحمد باشا عاتب رجال حاشيته على خوفهم وفرارهم ، فأجابه ظريفٌ منهم يقول : ما شأن الكلاب بالتدخل حينما يتقارع الأسدان ؟

ولعل هذه المواهب والقابليات الخارقة هي التي مهدت له سبل النجاح في الحروب العديدة التي خاضها ، والغزوات الكثيرة التي شنها ، طوال أيـام حكمه . فقد عُين في أيام والده أبي الخيرات الحاج حسن باشا والياً في البصرة ، وبينما كان الوالد مشغولاً في السير الى فتح همدان ، بأمرٍ من السلطان البادشاه ، قضى نحبه في الميدان . فجيء بأحمد باشا من البصرة على عجل ونصب والياً وقائداً في مكانه ، فدبر أمور الجيش ببسالةٍ وحيوية ، واسترجع بدهائه وسخائه ولاء اتباعه المذبذبين وجيشه المتنازع ، ثم كُتب له النصر في فتح همدان فحقق لوالده الراحل الاسم[1] الذي لم يمهله القدر في تحقيقه ، واستحق بذلك ان يكتب له البادشاه كتاب شكر خاص بيده بعد ان لبست استانبول حلةً قشيبة بالأفراح عند وصول أنباء الانتصار المدوي اليها .

وقد كان هذا النصر المؤزر كافياً للدولة العلية بأن تضع ثقتها في الباشا العملاق فيحدوها الطمع ، ويدفعها النزاع الطائفي يومذاك ، الى ان تستغل الأوضاع المرتبكة في ايران فتبادر الى التوسع في فتحها والتوجه الى عاصمتها أصفهان . فقد وجد أحمد باشا نفسه ، بعد ان حملته في صيف ١٧٢٦ شؤون مستعجلة الى العراق ، وقد عُين سر عسكر من جديد لجيش عثماني لجب يناهز المئة ألف مقاتل في عده فيسير على رأسه لتنفيذ الأمر المطاع . غير ان أحمد باشا لم يكن النصر حليفه في هذه المرة ، برغم الجيوش الجرارة التي كان يقودهـا

---

(١) رويت القصة بأشكال مختلفة أخرى ، ومما جاء في هذه الروايات ان مملوك احمد باشا سليمان ، الذي اصبح بعد ذلك سليمان باشا ابا ليلة وتزوج من ابنته ، كان معه في هذا الحادث فخف لمساعدته بسيفه . ولذلك ظل يقدره ويقدمه حتى عقد له على ابنته .

(٢) سمي الحاج حسن باشا « فاتح همدان » لأنه توفي وهو مزمع على فتحها وسائر اليها ، وقد فتحها ابنه احمد باشا من بعده .

والمعدات الحديثة التي كانت عنده . فقد اندحرت جيوشه في معركة وقعت بين همدان وأصفهان وترك في الميدان اثني عشر ألف قتيل . ثم تراجع متقهقراً الى كرمنشاه وما بعدها . وكان السبب في كل ذلك امتناع أكراد جيشه بقضهم وقضيضهم عن القتال عند بدء الهجوم لأن أشرف خان ، العاهل الأفغاني الذي استولى على الحكم في ايران يومذاك ، استطاع ان يفسد بيكاتهم بالوعود المغرية وبالترفيع والهدايا . والملك والامارة . وبالرشوة التي استخدمت في مكانها المناسب[1] . ومع ان أشرف خان كان مستعداً للصلح بأهون الشروط وأنسبها فقد دفعت أحمد باشا رغبته القوية في الانتقام لنفسه وتلافي الخسران . ووجود حزب اعتدائي حربي في استانبول . الى تنظيم حملة قوية أخرى واستئناف القتال . لكنه ما سار بجيشه المؤلف من ستين ألف مقاتل نحو همدان . في ايلول حتى تلقى أوامر سلطانية مستعجلة بالتوقف عن المسير وفتح باب المفاوضات . وقد استطاع الباشا العملاق بشخصيته ولباقته ان يستغل ظروف ايران المشوشة في هذه المفاوضات فيعقدالصلح مع أشرف خان بشروط مناسبة جداً برغم الاندحار السابق . إذ قضت بأن تكون همدان وكرمنشاه وأردلان من حصة السلطان . واعترف أشرف خان فيها بأن يكون ملكاً على ايران خاضعاً لسيادة الخليفة العثماني الروحية[2] .

---

(١) يراجع لونكريك في أربعة قرون .. النص ١٦٦ ، ط ٤ . وقد كان المعول في هذه الحملة على القوات الكردية التي كانت تتألف من الأمراء والأكراد الآتية أسماؤهم والقوات التابعة لكل منهم : خانه محمد باشا أمير أردلان ، وأحمد بك أمير درنة ودرتنك ، وعلي بك أمير باجلان ، وعلي بك أمير كويسنجق ، وصفي قلي بك أمير الجاف ، وحسن بك أمير كروس ، ومصطفى بك أمير حرير ، وسبحان ويردي بك أمير سعد آباد ، ورضا بك أمير كلهور ، ومحمد بك أمير زنكنة ، وأحمد بك أمير آلتون كوبري ، وفرهادبك زاده أمير قزلجة ، وفرهادبك أمير شهربازار ، وحسن بك أمير سروجك ، وحاكم العمادية (تاريخ العراق بين احتلالين).

(٢) يفهم مما جاء في حديقة الزوراء أن أشرف خان كان راغباً في التقرب الى الدولة العثمانية وتقدير الخليفة العثماني حق قدره برغم ما جرى بين الطرفين من حروب ، ومكاتبات طويلة ، وجدال شبه ديني ادعى فيه أشرف بأحقيته في الخلافة لأنه عربي الأصل من نسل خالد بن الوليد .

وبدافع من هذا تساهل في الصلح الأخير وعززه بهدايا ثمينة بعث بها الى السلطان عن طريق أحمد باشا في بغداد. ومما أهداه الى السلطان فيل مدرب تجلله حلل مزركشة بزينة جميلة ومرصعة بالأحجار الكريمة ، =

على ان الأحوال قد تطورت تطوراً مفاجئاً على أثر ذلك فظهر على مسرح الحوادث فيها آخر شاه صفوي (طهماسب شاه) يحاول استرداد عظمة أسرته وبلاده . فهاجم همدان وكرمنشاه وتغلب على حاميتيهما فاستولى عليهما . وعند ذاك سار أحمد باشا الى تلك الجهات مرةً أخرى على رأس قوات جسيمة واحتل كرمنشاه من دون مقاومة . ثم نازل طهماسب شاه على مقربة من همدان فالتحم الجيشان في حربٍ ضروس كان النصر فيها للباشا العملاق كذلك . ثم دخل همدان فصلى في مسجدها ، ومنها كتب بالبشرى الى الدولة العلية فوافته اليها من السلطان خلعة وهدايا ثمينة أخرى . مع رسالة شكر حملها اليه مبعوث خاص يدعى عبدي باشا عطازادة . ثم أخذ احمد باشا يلاحق الشاه المندحر ويجعجع به من مكانٍ الى آخر حتى ألجأه الى طلب الصلح . فتم عقد الصلح وأصبحت جميع البلادُ التي استولى عليها الجيش التركي تابعةً للدولة العثمانية . وعاد الباشا المنتصر الى بغداد .

وليس من المستغرب بعد كل هذا ان يكون الباشا العملاق قادراً على الوقوف ازاء فاتح عملاق مثل نادر شاه . والصمود ببغداد في وجهه مرات ثلاث من دون أن يكون قادراً على فتحها أو الاستيلاء عليها . فقد تمخضت الحوادث التي أدت إلى ظهور طهماسب شاه عن تألق نجم قائده نادر قلي ، وتقدم شأنه بسرعة فائقة حتى أصبح بطل ايران ورجلها الفذ . وكان من الطبيعي ان يعمد نادر قلي هذا الى تصفية الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في ايران كلها . والقضاء باسم العرش الصفوي على مغتصبي الحكم فيها من الافغانيين وغيرهم ، ثم يستولي على العرش الصفوي نفسه في النهاية فيضع حداً للحكم الصفوي في ايران الى الأبد .

وكان لا بد له وهو يفعل هذا كله من أن يصطدم بالدولة العثمانية التي كانت

= ويحمل على ظهره هودج بديع خاص ، وعلى رأسه رجال ثلاثة يسوقونه ويتولون قيادته . وكان لمنظره هذا وقع كبير في نفوس البغداديين حينما خرجوا مع الباشا الوالي لمشاهدته والتفرج عليه . فقد جيء به أمام الوالي حينما جلس لاستقبال الرسول ، الذي جاء بالهدايا ، في سرداق خاص نصب له في « باب المعظم » فأومأ للسلام بخرطومه الطويل ، ولم يتحرك حتى حصل على جائزة له من الوزير .

تستولي حينذاك على شطرٍ غير قليل من بلاده ، فيهاجم في ضمن ما يهاجم من ممتلكاتها وأراضيها بغداد وما يحيط بها من البلاد العراقية . وقد فعل هذا أول مرة في أوائل خريف ۱۷۳۲ . فقد تلقى منه أحمد باشا فجأة ، خلال مدة وصايته[1] على العرش الايراني ، خطاباً شديد اللهجة يقول فيه « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الأئمة علي والحسين والمهدي وموسى . ونطالب بجميع الايرانيين الذين أسروا في الحرب الأخيرة .. ونحن سائرون في الحال على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ، ونستريح في ظل أسوارها » .

فلم يكن من احمد باشا الا أن يحتل ممرات الحدود في درنه ومندلي وبدره ، ويعزز حامياته في زهاو ، وقصر شيرين ، استعداداً لما يتمخض عنه الموقف ، زيادةً على إصلاح مراكز الدفاع في بغداد ومخازن الحبوب بكل عناية. لكن نادر قلي استطاع ان يدخل الحدود فيصل الى نهر ديالى بسهولة ، ثم عبره من بهرز في أول اسبوع من كانون الثاني ۱۷۳۳ ، وسرعان ما وصل الى مبتغاه وأخذ يعمل على تطويق بغداد من جميع الجهات . وبهذا وقف العملاقان أحدهما تجاه الآخر لأول مرة . إذ وقف في داخل الأسوار أحمد باشا وفي معيته كهيته وصهره سليمان باشا ، ونسيبه قره مصطفى باشا ، وغيرهما من الباشوات ذوي الرتب العالية . ووقفت معه حامية قليلة العدد بحيث لا تستطيع ان تقوم بهجمات قوية الى الخارج تدفع بها عدوها الى مسافةٍ أبعد وترد كيده الى نحره ، وكثيرته بالنسبة للأقوات والأرزاق المتوفرة لديه . وكانت تقف من وراء هؤلاء جميعاً مدينة فزعة محاصرة انقطع توارد الطعام عليها من الخارج فأخذ يقل مخزونه فيها يوماً بعد يوم وترتفع أسعاره ساعة بعد أخرى ، وانذهل سكانها فتدنت معنوياتهم .

اما خارج الأسوار ومن حولها فقد كان يقف على شكل طوق محكم جيشٌ

---

(١) لقد نصب نادر على العرش الصفوي الأمير الصبي عباس ميرزا وعين نفسه وصياً عليه ، ثم خلعه عن العرش ونصب نفسه امبراطوراً شاهنشاهياً بعد ذلك .

جرار يرأسه فاتح عملاق جبار بدأ سيرته بكل مظاهر البطش وما يفضي الى الدمار . وقد امتدت جحافله ومنشآت معسكره بحيث كانت تبدو كالمدينة المترامية من فوق الأسوار . لأن كثيراً من ضباطه كانت ترافقهم عوائلهم فبنوا لها دوراً متقنة البناء وشيدوا لها حمامات واسواقاً رحبة الأرجاء . فكثرت سلعها ورخصت اسعارها . ومع جميع ماكان في هذا التفوق من رجحان في كفة الايرانيين فقد تطاول أمد الحصار وامتد أجله . لأن ضعف المدفعية الايرانية لم يجعل من الممكن الاستيلاء على المدينة بالهجوم . فانحصر أمل الفتح بالحصار الطويل . ولذلك تحتم على المدينة المحاصرة أن تصمد لهذا الحصار وما فيه من أهـوال ومآس بقوة الصبر ومضاء العزيمة . حتى يعجل الله بالفرج ويصل من استانبول المدد الذي ظلت تنتظره بغداد ومن فيها بقلوب هلعة . وأنفس مشوقة . وعيون متطلعة . يوماً بعد يوم طوال مدة تناهز الثمانية أشهر .

على ان هذا التفاوت في الكفتين كان يخبط تأثيره ويحافظ على شيء من التوازن فيه أحمد باشا بقوة شخصيته . ورباطة جأشه . وصدق عزيمته . فقد أنشبت المجاعة أظفارها ببغداد ومن فيها . وكشرت عن أنيابها فدفعت بالجند وسائر الناس الى أكل لحوم الخيل والبغال . وحتى لحوم القطط والكلاب . ومضغ جلودها . واشتد الضيق بهم حتى راحوا يستسيغون أكل الميتة وحب القطن والشريس ويبذلون من أجل لقمة العيش الغالي والنفيس . وقد هجموا ذات يوم على طعام الباشا حينما كان ينقل اليه فنهبوه على مرأى منه . فاستعبر واغرورقت عيناه بالدموع . ومع هذا فانه لم يدخر وسعاً في التخفيف عن هذه الظاهرة الخانقة . ولم يترك وسيلة الا واستخدمها لتقوية المعنويات وإدامة المقاومة والصمود . فكثيراً ماكان يبعث رسلاً مخادعة لتأتي من الخارج بأخبار سارة مكذوبة تنبيء بقرب وصول النجدة وتفيد بدنو الفرج . وكثيراً ما كان يعمد الى حرب الاعصاب مع العدو المرتاح في الخارج ليوهمه بأن حصاره غير مجد . فيرغمه على الصلح والانسحاب . وقد حصلت مداعبات ومناوشات طريفة بين العملاقين المتنازلين في هذا الشأن . إذ ورد ذات يـوم من أيام الحصار عند اشتداده كتاب من مفتي الجيش الايراني الى علماء بغداد يناشدهم

فيه إقناع أحمد باشا بالاستسلام لأن الناس قد أهلكتهم المجاعة ، من دون ان يكون لهم أمل بالمدد ، واللوم والمسئولية عليه في هذه المحنة . غير ان الباشا رد على الكتاب يقول ان ما يتصوره الايرانيون من هذا القبيل لم يكن له أساس من الصحة ، وأنه وهمٌ من نسج الخيال . ولأجل ان يتأكدوا من ذلك بعث الايرانيون بوفد يطالب بالصلح في الظاهر ويستقصي الحالة الحقيقية ومعنويات الأهلين في الباطن . فما كان من الباشا الا أن يأمر بوضع أكداس من الخبز والمأكولات في طريق الوفد ، وبالمناداة عليها بأسعارٍ رخيصة . ثم أولم للوفد وليمة قُدمت له فيها أفخر الأطعمة وأشهاها بوفرةٍ حتى اقتنع أفراده بأن ما بلغهم من أمر المجاعة لم يكن شيئاً حقيقياً . وحينما بعث نادر قلي بحملٍ من الرقي هديةً الى الباشا على سبيل الاستخفاف بجوع السكان أرسل له الباشا هديةً من أفخر الخبز وأحسنه . غير أن هذه المداعبات ، ومعروضات الصلح غير المقصودة ، لم تكن لتخفف من ويلات المجاعة التي اشتدت وطأتها فلم يعد من الممكن تحملها . ومع كل هذا بقي أحمد باشا صامداً حتى النهاية ، وعندما فوتح بأمر التسليم رفض بكل إباء وهو يقول « هيهات هيهات أن أسلم ، ولو قطعوني إرباً إرباً » .

وقد شاءت عناية الباري عز وجل ان تكافىء هذا الصمود الأشم بحسن العاقبة ، وأن تمن على بغداد المرزءة بالفرج . فقد جاءها المدد وهي في الرمق الأخير ، ووصل طوپال عثمان[1] لانقاذها بجيشٍ لجب استغرق سيره اليها زهاء ستة أشهر . فنازل الفاتح العملاق على مبعدةٍ من شماليها ومزق جيشه شر ممزق ، حتى اضطر الى التقهقر الى بلاده وفك الحصار عن المدينة الصامدة.

على أن نادر قلي لم يكن بالخصم الذي يمكن قهره بسهولة والقضاء عليه ، وكان نده في بغداد أحمد باشا على علمٍ تام بهذه الحقيقة فتوقع أنه لا بد من ان يعيد الكرة عليها ، ولذلك بادر الى ترميم أسوارها واصلاح القلعة والخندق المحيط بها ، بينما كانت هي تتماثل للشفاء يومياً وتستجمع قواها من جديد .

---

(١) راجع الصورة المعنونة « المنقذ الأعرج » .

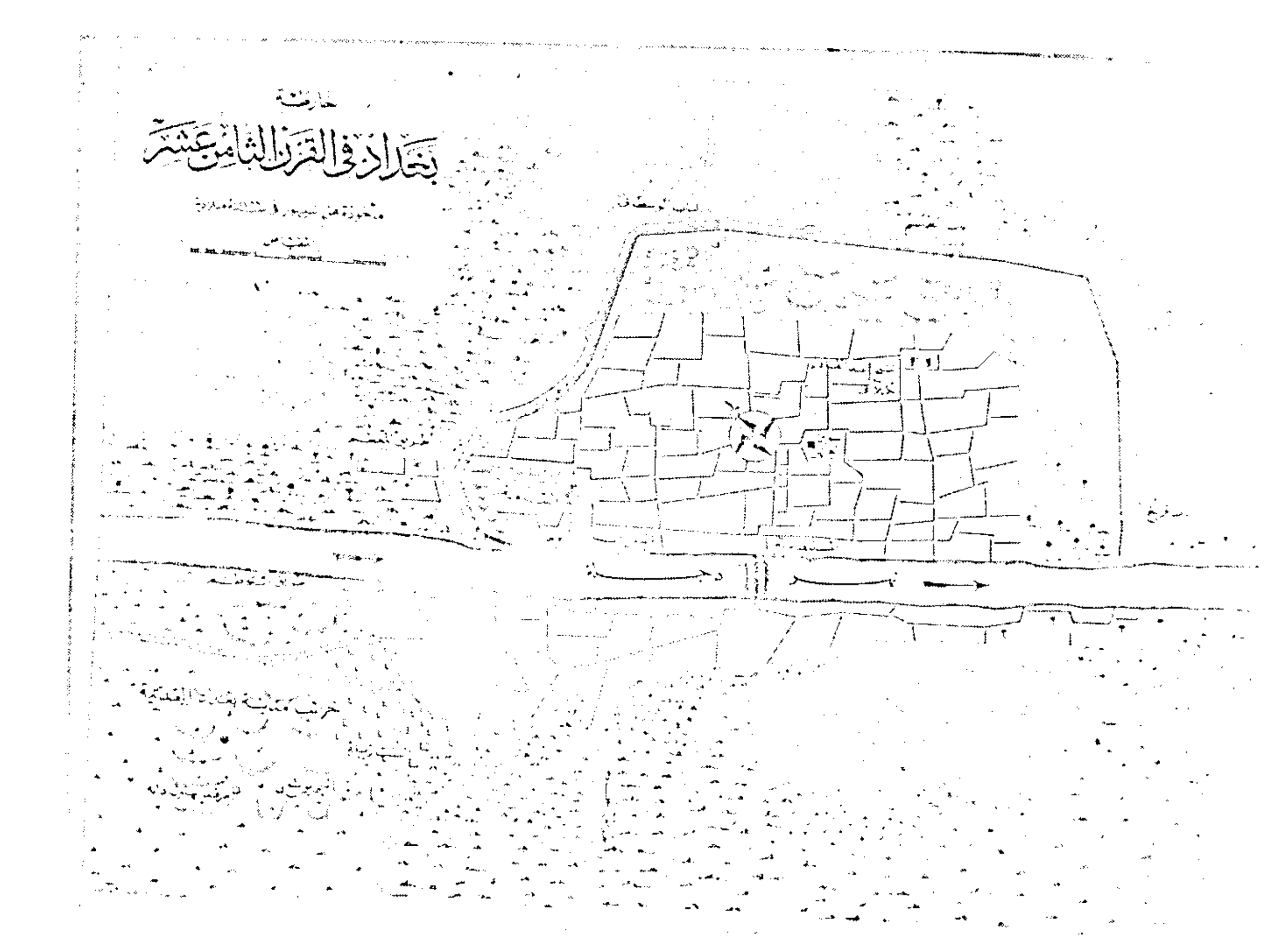
وقد صح ما توقعه الباشا الوالي، فما مرت أسابيع قلائل حتى استطاع نادر ان يعيد تنظيم جيشه في همدان فأصبحت فلول جيشه المتشرد جيشاً قوياً دبت فيه الحياة عوداً على بدء . وسار الى كرمنشاه فتقصد منها طوبال عثمان رأساً، بعد أن كان قد انسحب الى كركوك وتفرقت معظم قطعات جيشه المنقذ . فاندحر الأتراك اندحاراً تاماً في الحرب التي وقعت بين الفريقين هناك . ولم ينج من الجند الا القليل ، ثم قتل طوپال عثمان بعد ان اضطر الى ترك محفته وامتطاء صهوة جواده فخر قتيـــلاً منه .

وعلى هذا فقد فوضت بغداد أمرها الى الله وظلت تنتظر الحصار من جديد ولها أضعف الآمال في وصول أية نجدة اليها في هذه المرة . لكنها كانت تضع كل ثقتها في واليها العملاق وتعقد آمالها عليه . ولأجل ان يكون الباشا قادراً على الصمود في وجه نادر مرةً اخرى رفض السماح لجماعات المنهزمين من جيش طوبال عثمان المشتت بالدخول الى بغداد ، لأن قوتها الدفاعية كانت تكفي للاضطلاع بمهمة الدفاع الشاقة ، ولأن البلدة كان فيها الكثير ممن « يأكل ولا ينفع » . ثم سمح لجميع من يريد من الأهلين بترك المدينة ، وبعث هـــو بعائلته الى البصرة . وما أن بدأ الحصار بعد أن وصل جيش نادر عن طريق الخالص حتى حدث ما لم يكن في الحسبان . فقد وافته الأنباء بنشوب ثورة خطرة في فارس لمصلحة الصفويين ، وبتمرد محمد خان بلوج واعلانه العصيان فيها ، ولم يرَ بداً من العودة الى الصلح ، فكان هذا لدى الباشا نجدةً نزلت من السماء عليه . فتم عقد الصلح وسُرّح الأسرى ، ثم تهادى القائدان الهدايا . وبعد ان زار نادر قلي العتبات المقدسة رجع لتدبير شؤونه المستعجلة في ايران ، وبذلك أُنقذت بغداد للمرة الثانية على يد بطلها العملاق وشملتها عناية الله بطالعه الميمون .

لكن معاهدة الصلح التي تم التوقيع عليها بين العملاقين على أثر هذه التطورات لم ترق للمسؤولين في استانبول ، لا سيما بعد ان وصلت اليها جثة البطل الصريع طوپال عثمان . فجُيّشت الجيوش من جديد ونُقل أحمد باشا الى أورفة [1] .

---

(١) تذكر بعض المراجع أنه نقل الى حلب أولا فتوجه اليها لكنه وهو في طريقه اليها وقف في الموصل وخابر الباب العالي منها مسترحماً تبديل النقل الى مكان آخر فتم نقله الى أورفة .


خارطة
بغداد في القرن الثامن عشر
دجلة
نهر

وبعد أن قضى نادر قلي على الثورة في ايران خف عائداً لمنازلـــة الأتراك في حدوده الشمالية الغربية سنة ١٧٣٤ (١١٤٧) ، وحاصر القلاع الايرانية التي كانت ما تزال في أيدي الأتراك ، ثم تطورت الحال في خريف ١٧٣٥ الى وقوع معركة مخيفة في بغاوند على مقربة من قارص ، أضاع فيها السر عسكر التركي عبد الله باشا كوبريللي (كان والي مصر يومذاك) حياته وجيشه بأجمعه تقريباً .

وحينئذ ندم المسؤولون في الباب العالي على ما بدر منهم في رفض معاهدة ١٧٣٣ التي عقدها أحمد باشا . ولذلك اتجهت الأنظار اليه عوداً على بدء ، وهو بمقره في أورفه . وسرعان ما وجد نفسه سر عسكر بدرجـــة ممتازة في آسية وخوّل صلاحيات المفاوضة للصلح . وبهذا وقف العملاقـــان وجهاً لوجه مرةً أخرى . ومع جميع المطاليب التي اشتط بها نادر في هذه المرة ، وبرغم تطاول المفاوضات وامتدادها لعدة أشهر ، استطاع أحمد باشا ان يعقد صلحاً مقبولاً مع نادر يعود فيه الطرفان الى حدود مراد الرابع المعينة في ١٦٣٩ ، ويـتم الاعتراف فيه بالمذهب الجعفري . وعند ذاك عاد الى بغداد واليها البطل بعد ان أُبعد عنها مدة سنتين .

وقد كتب لأحمد باشا ان يعود الى عرينه وأيالته فيتهيأ فيها للوقوف مرةً ثالثة في وجه نده العملاق نادر شاه . فقد تعاظم شأن نادر قلي منذ ان فاوض احمد باشا مفاوضته الأخيرة ، واستولى على العرش فأصبح صاحب الجلالة الشاهنشاهية . وتوسع في الفتوحات فدانت له الأقطار والبلاد ، ولذلك عاد الى التحرش بالعثمانيين وراح يصر بجموح شاذ على تنفيذ شروط يستحيل عليهم تقبلها . فعبرت جيوشه الحدود العثمانية في صيف ١٧٤٢ ، فلم يكن من أحمد باشا الا أن يبذل جهده في تموين عاصمته وترميم أسوارها وحصونها مع سد ثغرات الحصار فيها . والظاهر ان الشاه قد ألف التعامل مع نده العملاق في بغداد ، وأصبح يقدر مواهبه ويعترف ببطولته ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، ولذلك حاول مخاطبته بالحسنى ورغب في استمالته اليه بدلاً من تهديده . فبينما كان الزرع أخضر عالياً في حقول العراق ومروجه في ربيع ١٧٤٣ وصل رسله الى بغداد يحملون رسالةً الى أحمد باشا يقول فيها « أني لست راغباً في مضرتك ،

ولا في إلحاق الأذى ببغداد ، انما انا أنازع السلطان ، فسلّم إيالتك وسوف لا تندم على ما فعلت » . فشرح الباشا حاله هذا للسلطان ، وماطل السفراء الايرانيين فأطال جلساته ومفاوضاته لهم حتى حصدت الحبوب من الحقول وأمكن ادخار ذخيرة كبيرة منها . وعند ذاك رد على الشاه بجواب مبهم بارع مضمونه « خذ الموصل أسلم اليك بغداد » . ولذلك تقاطرت القوات الايرانية ، البالغ عددها ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، على الشمال فاحتلت كركوك وأربيل ونكلت بهما ، ثم توجهت الى الموصل . لكن أم الربيعين صمدت لهجوم الشاه كالطود الأشم بقيادة بطلها وحامي حماها الحاج حسين[1] باشا الجليلي ، فلم تمكّنه منها بشيء ، وعاد من حصارها الطويل بخفي حنين . وكان الباب العالي في هذه الأثناء قد عمد إلى تعيين أحمد باشا « سكرعسكر » من جديد ، وانتدب قائدين آخرين لمساعدته ، ثم أوفد بعثةً خاصة للمفاوضة وهي تحمل الى أحمد باشا خلعة ثمينة ، وهدية من المال . لكن الشاه رفض ان يفاوض غيره فخولته البعثة صلاحية مطلقة في ذلك . وقد ترك جيشه وتوجه لزيارة الامام الأعظم في الجنوب بموكبٍ فخم وضعه أحمد باشا تحت تصرفه ، بعد ان تهاديا الهدايا. ثم قصد الشاه زيارة العتبات المقدسة الأخرى ، غير ان المحاولات التي بذلها للتقريب المذهبي هناك لم تثمر شيئاً . واستطال أمر المفاوضات بحيث اضطر الشاه الى أن يرجع الى بلاده من دون ان يضرب ضربةً ما أو يوقع على شيء من الاتفاقيات والعهود ، وانسحب جيشه من بعده فانتهى بذلك تهديده لبغداد وما حولها من البلاد .

ولم تكن هذه الجهود الجبارة التي بذلها أحمد باشا في حماية بغداد ودفع الاحتلال الايراني عنها ، خلال سنوات متتالية ، سوى جهود إضافية بذلهـــا الباشا العملاق علاوةً على ما كان يبذله من جهد وقوة في تمشية امور الأيالة والمحافظة على شؤون الأمن والاستقرار فيها . وقد نشط لذلك منذ أن تسلم مقاليد الأمور فيها بادىء ذي بدء ، فرتب شؤون الحكومة ودوائرها وأدّب الانكشاريين العربيدين في مختلف الحاميات بصرامةٍ متناهية كان يعدم فيها

(١) راجع الصورة المعنونة « بطل الحصار » بعد هذه الصورة .

البارزين منهم خنقاً وشنقاً من دون رحمة أو شفقة . وأفلح في القضاء علـى حركات العشائر وثوراتها الناشئة في أنحاء البلاد بحزمٍ وقوة ، وبقسوةٍ متناهية لم تعهدها تلك العشائر من قبل .

فقد بدأ عهده في حكم بغداد بشن غزوة خاطفة على بني جميل ، خلال فترة قصيرة جاء فيها الى بغداد من جبهة القتال في همدان ، ووقع بهم قتلاً وأسراً وتشريداً . واستولى على أموالهم فعاد الى عاصمته سنة ١٧٢٢ . وفي ١٧٢٥ هاجم فريقـاً كبيراً من عشائر شمّر وبني لام والسواعد وآل شبل وغيرهم في جهات الكفل ، وكانوا قد تحالفوا على الثورة معاً ، فنكّل بهم واستولى على كل ما يملكون من سلاح ومال وحطام . وأعاد الكرة على شمر في السنة نفسها لأنهم رجعوا الى مناوأة الحكومة وشق عصا الطاعة عليهـا . وعصت عشائر الحويزة سنة ١٧٢٨ فامتنعت عن دفع الضرائب ، فسار اليها الباشا غازياً مؤدباً . ومن خرافات ما يذكره المؤرخون عن هذه الحملة انهـا اضطرت الى النزول في مكانٍ تكثر فيه الأفاعي الى حد مخيف ، لكن هـذه الأفاعي لم تؤذ أحداً من الجيش بسبب يمن طالع الباشا الوالي وبركته . وقضى في هـذه السنة كذلك على عصابة عشائرية تضم عـدداً من الشقاة المخطرين. كانت تعبث بالأمن وتقطع الطرق في جهات مختلفة ، بعد ان ألقى القبض على رؤسائها المشهورين ، وهم شبيل وشبلي ودندن ، وشنقهم واحداً بعد آخر . وحينما انتهى حصار نادر قلي الثاني لبغداد جرد أحمد باشا في ١٧٣٤ قوةً لتأديب العشائر التي تعاونت مع الشاه المنسحب فقدمت خدمات مفيدة لـه . وكان في مقدمتها فريق من عشائر شمر فقاومت الباشا والتحمت مع قواته بقتالٍ عنيف حتى انتصر عليها ، وقتل مقتلةً عظيمة منها . ثم هاجم عشيرتي قشعم وزبيد فقتل خلقاً كبيراً منهم وأسر شيوخهم فأرسلهم مكبلين بالقيود الى سجن بغداد . وقد وجد عند عودته الى بغداد بعد نقله الى أورفة أن الأمور قد ارتبكت في الأيالة وتفاقم أمر العشائر فيهـا حتى وجد نفسه مضطراً الى شن حملات متتالية لتأديبها . فبدأ ببني لام وشيخها عبد القادر ، وسار في ١٧٣٧ بقوةٍ كبيرة الى جهات على الظاهر (الأرجح انها على الغربي) واشتبكت معها قواته بالسلاح

الأبيض حتى هزمهم هزيمة نكراء فاستولى على أموالهم وذخائرهم وأسر عيالهم ثم فرض غرامات باهظة على رؤسائهم . وجرّد في السنة نفسها حملة قوية على عشائر البلباس الكردية قادها بنفسه ، وضيق الخناق عليها حتى استسلمت وقدمت الطاعة الى الحكومة . وعند عودته الى بغداد ساق حملةً يقودها سليمان باشا الكهية على زبيد فشردها وقفل راجعاً .

وفي سنة ١٧٣٨ جدد حملة كبيرة لقتال بني لام مرةً أخرى واستيفاء « الميري » من ربيعة ، ففر بنو لام وتشتت شملهم . وعندما كانت تستوفي الميري من أبي سودة أحد رؤساء ربيعة قتل علي بك قائد الحملة وفرت القبيلة الى الأهوار ، فجرد الباشا حملة أخرى عليهم بقيادة كهيته سليمان فتعقبهم وحاصرهم في جزر الهور ثم استولى على أموالهم وذخائرهم ، فصاروا عبرةً للقبائل الأخرى . وعمد سليمان باشا الى القاء القبض خلال هذه الحملة كذلك على سعدون شيخ المنتفك ، وهو الذي تسمت أسرة السعدون الكبيرة باسمه ، لأنه كان يحاول الخروج على الدولة ليكون ملكاً على العرب كما يقول المؤرخون الأتراك ، وجيء به مقيداً الى بغداد فزُج في سجن القلعة . لكنه أُطلق سراحه بعد مدة لأنه تمرض في السجن، بعد أن توسط له عدد من أشراف بغداد ورؤساء القبائل .

غير أنه ما عاد الى ديرته وعشائره حتى ثار على الحكومة مرة أخرى بعشرة آلاف مسلح ونزل في جهات النجف والكوفة ، وأخذ من هناك يهاجم المدن والبلدان ويحاصرها ، كما فعل في الحلة ، ثم أخذ يشيع بين العشائر وغيرها أنه هو الحاكم في تلك الجهات لا غير وأنه لا يعترف بالسلطان ولا بأحمد باشا ، وأنه سوف يحتل بغداد فيحكمها بالعدل والرأفة. ثم حاصر البصرة التي كان يقول عنها « انها ملكنا ولا شأن للروم بها ، فقد كنا نأخذ الغنيمة من أهلها كل سنة . » وعند ذاك سار اليه أحمد باشا بنفسه بقوة كبيرة ففر من وجهه ، وظل الوالي يتعقبه الى أهوار المنتفك . وقد خرج إليه من هناك كورد عثمان باشا فضيق عليه وعلى العشائر التي خفت الى نصرته حتى عز عليهم القوت وهددتهم المجاعة . ويروى في هذا الشأن ان ابناً من أبناء سعدون الصغار جاء يشكو

الجوع لأبيه فأجابه « اذهب الى عمك يشبعك » ، وحينما قصد الوالي أحضر بين يديه فخاطبه يقول « عماه جئتك جائعاً فاشبعني ، ان أهلي يتضورون جوعاً الآن فأعف عنهم . وان لم تعف فلا ترجعني اليهم لئلا أهلك معهم» . وقد سُر أحمد باشا من جرأة هذا الطفل وأُعجب بحديثه فرق له ، ثم عفا عن أهله وأمر بالكف عن تعقيب الشيخ وقبائله . على ان الشيخ سعدوناً عاد الى الثورة مرةً ثالثة والتفت حوله عشائر كثيرة من جديد فسار اليه سليمان باشا بحملة خاصة وبعد ان التحم معه في قتـــال عنيف تمكن من القبض عليـــه . فسيق سعدون مكبلاً بالقيود[1] الى بغداد ثانيةً ، ومنها سُفّر الى استانبول .

وقد تحالفت في سنة ١٧٣٩ عشيرة قشعم مع عشائر السرحان وبني صخر وأسلم على الثورة في وجه الحكومة . واعتصمت العشائر المتحالفة هذه في جهات الرحالية القريبة من شثاثة في البادية وراحت تعبث بالأمن وتتحدى الحكومة . فسار الباشا اليها برتلين كبيرين بعث أحدهما بقيادة سليمان باشا ليهاجم من جهات هيت . وتوجه هو يقود الرتل الآخر عن طريق كربلا . فظفر بـهـم و « اطبق عليهم الجيش فأخذ يحصدهم حصداً ويفل جموعهم فلم يسعهم الثبات وولوا الأدبار » . وفي سنة ١٧٤١ تم تأديب زبيد وبني لام ، واتهم في في ١٧٤٤ غصيبة شيخ زبيد بمساعدة الجيش الايراني حينما حاصر بغداد ففر من وجه الحكومة . وحينما سار الجيش لتأديب شمر في تلك السنة تطوع[2] غصيبة لمساعدته وحضر الى الحلة فقبض عليه الكهية وأعدمه مع عدد من أتباعه.

---

(١) هذا ما تذكره الترجمة العربية لدوحة الوزراء (ترجمة الاستاذ موسى كاظم نورس) لكنني لاحظت أن العزاوي يذكر في (تاريخ العراق بين احتلالين) نقلا عن دوحة الوزراء أيضاً (الأصل التركي) ان سليمان باشا الكهية حينما ألقى القبض على سعدون قتله و بعث برأسه الى أحمد باشا في بغداد . وقد بعث بالرأس بعد ان سُلخ وحُشي بالتبن الى استانبول. وتؤيد هذه الرواية كذلك روايتا حديقة الزوراء و « تاريخ نشاطي » المثبتتان في (تاريخ العراق بين احتلالين أيضاً . ولعل الاختلاف سببه وقوع سهو في النقل الى العربية .

(٢) هذا ما تذكره الترجمة العربية لدوحة الوزراء كذلك ، لكن الملحوظ ان (تاريخ العراق بين احتلالين) يذكر نقلا عن دوحة الوزراء أيضاً ان الوالي نفسه كتب الى الشيخ غصيبة بلهجة ودية بأن يأتي الى الحلة فحضر وقبض عليه سليمان باشا ، وعلى أكابر عشيرته الذين كانوا معه ، فصلبهم عند رأس الجسر .

وفي ١٧٤٧ قاد الكهية سليمان باشا حملة لتأديب العشائر الكردية المتمردة في جهات العمادية فأدبهم واقتص منهم . لكن آخر حملة قادها أحمد باشا فأدت الى مرضه ووفاته في الأخير هي الحملة التي سار على رأسها لتأديب سليم باشا بابان متصرف السليمانية لأنه أخذ يحرض العشائر الكردية على العصيان والتمرد ، واتصل بأيران ليمدوه بقوات من الجيش « يحتل بها بغداد ويسلمها لهم » . فعزم أحمد باشا على « ان ينتف ريش خيانته ويقطع منه مادة غوايته » . ففر سليم باشا مع أخيه شير بك الى الجبال عند وصول الباشا الوالي بقواته الى السليمانية ، لكنه تعقبهما فتحصن سليم في سروچك وأخوه في قاچوغة . وبعد حصار وقتال انتصرت قوات الوالي ففر شير بك من وجهها ، لكن سليم باشا قرر الاستسلام وطلب الأمان بواسطة ابنه ووالدته فأمّنه أحمد باشا بعد تلكؤ ، على أن يتعهد بأن لا يقوم بحركة ضد الحكومة . وكان الجيش حينما حاصر سروچك قد تفشت بين أفراده حمى الملاريا الخبيثة على ما يبدو ، فسرت عدواها الى الوالي أحمد باشا نفسه . وعند وصوله الى دلي‌عباس ، في طريق عودته الى بغداد ، اشتدت عليه الحمى فقضى نحبه وجيء بجثمانه الى بغداد فدفن بجوار والده في مقبرة الامام الأعظم .

ويلاحظ ان أحمد باشا كان خلال مدة حكمه كلها موضعاً للشك والريبة من نواحٍ عديدة ، برغم الأعمال الجبارة التي اضطلع بها والخدمات الجلى التي قدمها للدولة والبلاد . فقد كان إكثاره من شن الحملات على العشائر وسلبهم وغزوهم مثيراً للكثير من التقولات في الأوساط الحكومية والأهلية على سواء ، ومدعاة للارتياب في جدوى الكثير منها . حتى قيل ان الحملات التي ظلت تشن على عشائر الجنوب سنة بعد أخرى لم تكن الا حيلة كان يدبرهـا هو عن قصد للاحتفاظ بأيالة البصرة وابقائها تابعة له . كما قيل عن الغزوات والحملات بوجه عام أن الغرض منها في الدرجة الأولى كان الحصول عـلى الغنائم والأسلاب والانتفاع بها . ولذلك كانت معظم عشائر العراق تكرهه كراهية ما بعدها من مزيد ، وقد بلغت الكراهية ببعضها (الغرير وشهوان) أنها تصدت لقافلته حينما سافر منقولاً الى أورفة وحاولت سلبه أو القضاء عليه . لكنه قاومها ولم

يستسلم لرجالها حتى تغلب عليهم واستولى على سلاحهم ، ثم أسر قسماً منهم .

ومع ان السلطان ومن يحيط به من المسؤولين كانوا يستعينون به في نزاع الدولة مع نادر شاه فقد كانوا يرتابون منه في الباطن ولا يطمئنون إلى علاقته بنادر ، وظلوا يستمعون الى حاسديه وشانئيه حتى نقلوه الى أورفة بعد ان أنقذ بغداد من نادر شاه للمرة الثانيــة . ولم تمض سنتان حتى اضطر السلطان الى الاستعانة به من جديد وعينه سرعسكر ليقف في وجه نادر . وكان قدهاجم الأناضول وانتصر على العثمانيين في موقعة بغاوند المعروفة . ثم أعاده الى بغداد بعد ان ساءت الأحوال في العراق واستفحل أمر العشائر فيه ، وبقي فيها حتى انتقل الى الدار الآخرة . والحق ان موقف نادر شاه من أحمد باشا ، وإخفاقه في احتلال بغداد واحمد باشا فيها مع جميع ما كان تحت تصرفه من جيوش ، يثير كثيراً من الشك والريبة ويبعث على التساؤل . ولعل جميع ما كان يفعله أحمد باشا خلال تعامله مع نادر شاه ، وحملاته الكثيرة على العشائر ، كان تكتيكاً خاصاً يستهدف فيه إجبار السلطان والمسؤولين في الباب العالي على إبقائه في العراق وإطلاق الحرية له في العمل . والظاهر ان نادر شاه نفسه قد فطن الى ذلك ، فصرح ذات يوم يقول «ان أحمد أذكى من كلينا» أي أذكى من الشاه والسلطان. ويحكى كذلك انه قال ما مضمونه ان أحمد باشا كان انساناً عاقلاً ذا درايــة وتدبير لأنه كان يخدّر دولته من نادر شاه ، ويخوّف نادر شاه بدولته في الوقت نفسه . ويعزّز حرصه على التمتع بالحرية الكاملة في العمل والحكم انه لم يكن يرسل الى الباب العالي من الأتاوى السنوية الا القليل ، أو ما كان يرسل بها البتة. وأنه كان يرفض أحياناً مرشحي السلطان للوظائف التي تشغر في إيالاته . وقد رويت في هذا الشأن قصص عن وفود سلطانية كانت توفد الى بغداد لتدبير قتله أو التحقيق في أمره فتختفي في الطريق قبل ان تستطيع الوصول اليها. ومن جملة هذه القصص القصة المشهورة التي يرويها الرحالة نيبور عن الـ « قپوجي باشي » الذي استطاع الوصول الى بغداد موفداً من استانبول من دون أن يعلم به أحمد باشا فدبر حيلةً لقتله[1] .

---

(١) راجع الصورة المعنونة « فروسية الجريد عند العثمانيين »

ومما يؤيد ما قيل عن رغبته في الاستقلال بالحكم والحرية في العمل توسعه فيما بدأ به أبوه من قبل بالاكثار من استجلاب المماليك القفقاسيين والاستعانة بهم في تمشية شؤون الأيالة الحكومية والقوات المسلحة . فقد اشترى عدداً كبيراً منهم طوال أيام حكمه حتى أصبح تحت تصرفه عند نقله الى أورفه (١٢٠٠) مملوك. وكان هؤلاء مدربين ومصنفين للعمل في مختلف الأعمال والمناصب كل حسب قابلياته ومواهبه . وقد تفانوا في خدمته فأخلصوا اه بحيث عهد لبعضهم بأعظم المناصب في الأيالة وأكبرها شأناً . ومنحهم الرتب والدرجات العالية في سلم الوظائف والحكم . فقد عين مملوكه سليمان . الذي أصبح بعد ذلك سليمان باشا ابا ليلة . كهية له ثم والياً في البصرة لأنه خدمه وأخلص له . فاستفاد منـه في حملاته وحروبه الى ان توفي . ولم يتورع عن تزويجه من ابنته الكبرى عادلة خانم . حتى خلفه في المنصب وتربع على دست الحكم في سراي بغداد من بعده لأنه لم يخلف أحداً من البنين[1]. وبهذا وضع اللبنة الأولى في تأسيس سلالة حاكمة من المماليك تولى حكم العراق فيها مماليكه ومماليك أبيه . واحداً بعد آخر خلال مدة تناهز الثمانين[2] عاماً من تاريخ العراق الحديث . فأثر بهذا على مجرى التاريخ وسير حوادثه في هذه البلاد تأثيراً غير يسير .

وهكذا استطاع هذا الباشا العملاق أن يحكم إيالات العراق وما جاوره من البلاد في نفس الوقت بكل عـزم وقسوة . ويخوض الحروب او يصمد للحصارات . خلال مدة تناهز ثلاثين عاماً من دون ان تفتر همته أو يفل من عزمه . حتى قضى نحبه وهو في الميدان في الرابعة والستين من عمره .

(١) خلف أحمد باشا من زوجته ابنة أحد رؤساء القبائل العربية ابنتين فقط ، هما : عادلة خانم التي تزوجها في ١٧٣٢ كهيته سليمان باشا، وقد تولى الباشويه من بعده وصار يسمى سليمان أبا ليله ، وعائشة خانم وقد زوجها من رئيس ديوانه أحمد أغا .

(٢) ١٧٥٠ – ١٨٣١ .

١٥

المنقذ الأعرج[1]

لم يكد نادر قلي خان[2] يتولى الوصاية على العرش الصفوي الايراني ، ويجعل نفسه حاكماً مطلقاً في ايران ، حتى أخذ يسرع في استرداد الولايات الايرانية التي استولت عليها الدولة العثمانية بالقوة في الحروب الأخيرة . وأخذ يولي وجهه شطر العراق ، ويصطنع الحجج الواهية للاستيلاء على بغداد والعتبات المقدسة القريبة منها . وفي خريف ١٧٣٢ تلقى والي بغداد أحمد باشا ، بن حسن باشا ، رسالةً منه يقول فيها :

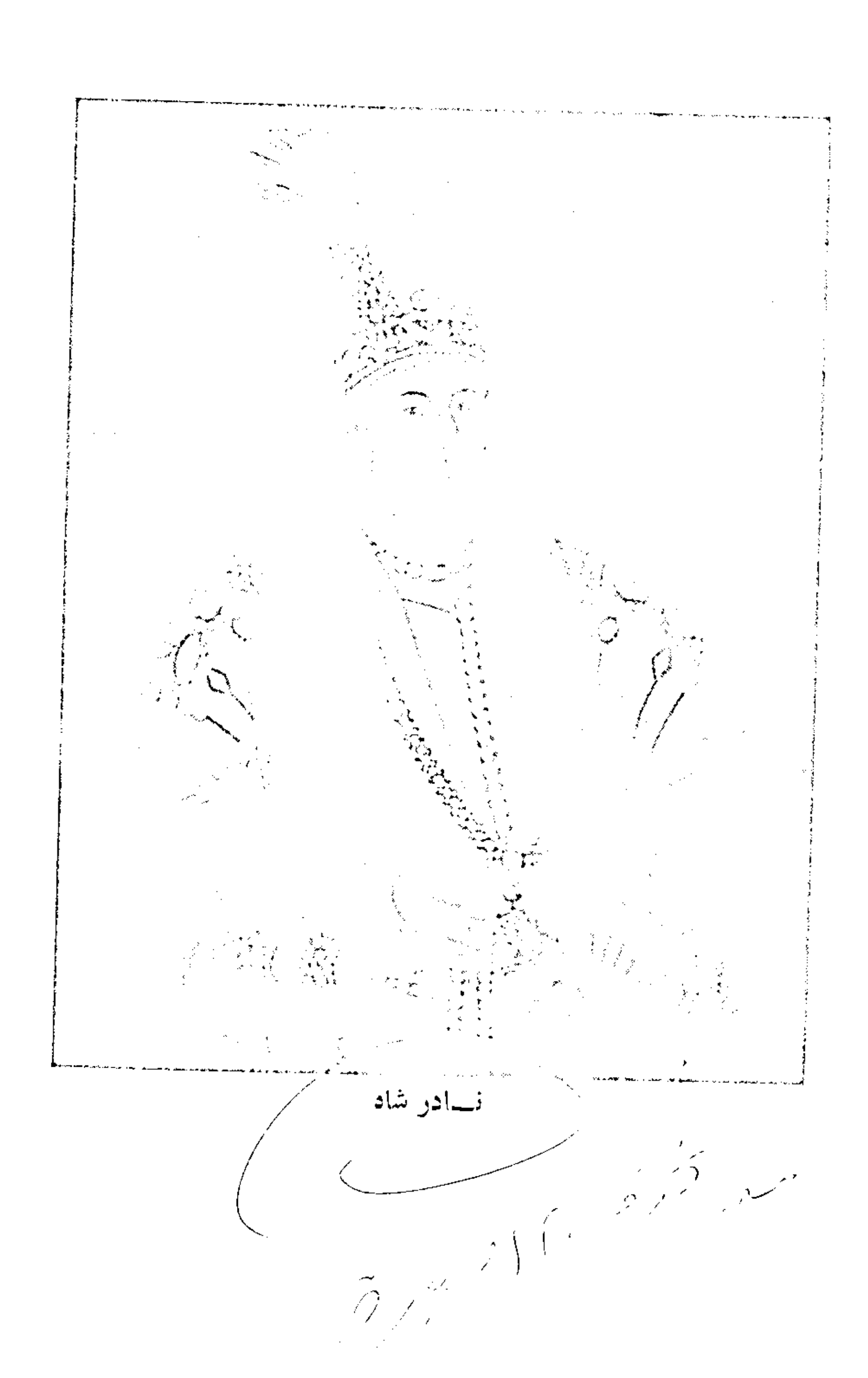
ليكن معلوماً لديكم ، أيها الباشا في بغداد ، أننا نطالب بحقٍ لا نزاع فيه بزيارة قبور الأئمة علي والحسين والمهدي وموسى . ونطالب بجميع الايرانيين الذين أُسروا في الحرب الأخيرة .. نحن سائرون في الحال على رأس جيشنا المظفر ، لنتنسّم هواء بغداد العليل ، ونستريح في في ظل أسوارها ..

فلم يكن من أحمد باشا الا أن يحتل نقاط الحدود وممراتها في درنة ومندلي وبدرة ، ويبادر الى تعزيز حامياته في زهاو وقصر شيرين . ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في أسوار بغداد ، وملأ المخازن والأهراء بالحبوب وغيرها من الأرزاق . وعجّل بعد ذلك بأشعار الجهات المختصة في استانبول بدنو

---

(١) رجعنا في كتابة هذه الصورة الى ما كتبه عن الموضوع لونكريك في « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » ، وهو يستند فيما كتبه الى مؤلفات صبحي ، والفون هامر ج ١٤ ، ونيكوديم ، وهانوري .

(٢) الذي أصبح نادرشاه فيما بعد .



نــادر شاه

الخطر ، وتهيأة ما يقتضي من الأسلحة والمعدات . وبعد ان اتخذ هذه التدابير ظل ينتظر أهوال الحصار بعزم قوي وايمان ثابت .

اما نادر قلي فقد جمع جيشاً قوياً في همدان يقدر بمئة ألف مقاتل . وسار به الى كرمنشاه . ومن هناك داهم نقاط الحدود فاحتلها في جنح الظلام . ثم اجتازها متوجهاً الى بغداد التي أعدت العدة لمقاومته بكل وسيلة ممكنة . وفي الاسبوع الأول من كانون الثاني سنة ١٧٣٣ عبر ديالى من بلدة بهرز . وبعد مناوشات طفيفة هنا وهناك ضرب نطاقاً قوياً من الحصار حول الجانب الشرقي من المدينة . وتمكنت ثلة من القوات الايرانية ، يقودها نادر نفسه ، من العبور الى الجانب الأيمن من دجلة بعد ان كان المهندس الأوربي الذي يرافق الحملة قد انتهى من انشاء جسر متين عبرها ، على بعد عدة أميال من شمال بغداد . ثم عبرت قوات أخرى بالزوارق . فتكوّن من ذلك كله رتل قوي زحف على الكرخ . وعند ذاك وقعت معركة حامية مع ثلاثين الف مقاتل من الأتراك كان يقودهم نسيب پاشا والي أورفة . فرجحت كفة الأتراك المدافعين في بادىء الأمر رجحاناً خاف فيه نادر قلي على نفسه . لولا أن تخف لمساعدته نجدات أيرانية عبرت النهر بسرعة فائقة فتغيّر الموقف . وعندئذ تم الانسحاب العام الى الجانب الأيسر ، وخف نادر الى احتلال رأس الجسر في ذلك الجانب . كما تم استيلاء الايرانيين على ضواحي العاصمة الغربية ، وانقطع بذلك وصول قوافل الحبوب اليها من الجنوب .

وبهذا استحكم الحصار حول بغداد . واستولى نـــادر على جميع النقاط والمواقع المهمة في خارجها ، حتى بعث قسماً من ضباطه للاستيلاء على المدن والبلدان العراقية القريبة . وتوسعت معسكراته وخيّماته حتى كان يبين للناظر من أسوار بغداد ما يشبه المدينة الكبيرة من الأبنية والمنشآت المقامة في خطوط الجيش الايراني المنتشر . فان كثيراً من الضبـــاط الايرانيين كانت تصحبهم عوائلهم ، فبنوا لها أبنية متقنة البناء . وكان سوق المعسكر كذلك ممتلئاً بالحاجات والسلع الرخيصة .

اما في الداخل فقد كان أحمد باشا يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ومناوشة العدو من جهة ، وعلى إدامة المقاومة وبث الروح المعنوية لاطالة أمد الثبات

والصمود من جهة أخرى . فكان يبعث من أجل ذلك رسلاً مخادعة ، تأتي من الخارج الى بغداد خلسةً بأخبارٍ سارة مكذوبة ، تنبيء بقرب وصول النجدة من استانبول . لكن هذه النجدة قد تأخرت وطال أمدها ، فقلت الأقوات وانتشرت المجاعة فاشتدت وطأتها ، وازدادت ويلاتها يوماً بعد يوم . واشتد الأمر بالناس فانتابتهم الأمراض ، بعد ان أخذوا يأكلون الشريس وحب القطن وما أشبه ، وبعد أن اتخذ أحمد باشا جميع التدابير الممكنة للتفريج عن الضائقة. وقد وصل به الأمر في هذا الشأن الى أن يذبح خيوله ويطعم لحومها للناس ، فحذا حذوه الأغنياء والأمراء بحيث لم يبقَ من الخيول وسائر الحيوانات شيء يذكر في المدينة المرزءة .

ومع هذا كله ، بقي أحمد باشا ثابتاً قوي الجنان ، ولم تفل من عزمه الماضي جميع هذه المصاعب والأزمات . فاستطال أمد الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر ، لأن مدفعية الايرانيين الضعيفة قد عقّدت الموقف وجعلت اقتحـــام الأسوار بالهجوم صعباً عليهم . ولم يؤد تبادل الوفود بين الطرفين للبحث في شؤون الصلح الى أي اتفاقٍ حاسم .

وقد شاءت الارادة الربانية في الأخير ان يكافأ أحمد باشا على صبره وثباته البطولي الطويل بحسن العاقبة . فقد وافته الأنباء تفيد بوصول المدد من استانبول الى الموصل وعلى رأسه طوپال عثمان ، أي عثمان الأعرج . وكان المنقذ الأعرج هذا شخصيةً مخلصة باسلة لم تظهر على مسرح التاريخ العراقي الحديث شخصيةٌ أكثر رومانتيكيةً منها . فقد ولد في اليونان ، وتثقف في استانبول بخير ماكان يمكن ان يتثقف به في ذلك العصر . ثم تسنم المناصب الرفيعة واحدة بعد أخرى حتى أصبح قائداً عاماً في اليونان ، ووالياً في روم ايلي . وأبلى بلاءً حسناً في كثيرٍ من المعارك والحروب فتشوه جسمه بعددٍ من الجروح الممضة التي أثر قسمٌ منها في احدى رجليه فصار يلاقي صعوبةً في المشي عليها ، ولذلك سُمي « طوپال » أي الأعرج . وكان يتحلى فوق الشجاعة والخدمة المخلصة بسجايا نادرة ، فكان سخياً شريفاً ورقيقاً متواضعاً ، ولذلك اختير للصدارة العظمى وأحيل الى التقاعد بعدها .

وقد حدث على أثر إحالته على التقاعد ان شاع الخطر المحدق ببغداد في استانبول ، فعيّن « سر عسكر » في الجبهة الآسيوية ليرد الخطر عنها ، وخُوّل سلطةً تامة في تجنيد القوات . واستخدام الموارد المختلفة في الأيالات الشرقية. فزحف بجيشٍ جرار قوامه مئة ألف مقاتل لينازل نادر قلي ويفك الحصار عن عاصمة الخلفاء . واستغرق مسيره مدةً تناهز ستة أشهر . وحينما تحرك بزحفه على بغداد من كركوك تسلم كتاباً من خصمه المتغطرس ملؤه التجبر والازدراء . فقد تمنى الأفشاري المتباهي لطوبال عثمان رحلةً سريعة نحو حتفه . وهدده بالقبض عليه كما يقبض على الطفل في مهده ، تعريضاً له بالعاهة التي كانت تضطره الى الركوب في محفةٍ خاصة عند مسير الجيش ، فلم يعبأ بذلك وتابع المسير .

لكنه ما أن وصل الى بُعد عدة مراحل من بغداد حتى وافاه كتابٌ آخر من نادر قلي يطلب فيه ان يختار عثمان موقعاً لمعسكره ويستعد للقتال . فتوقف جيش طوبال عثمان عن المسير . وهيأ نفسه للقتال الفاصل في موقعٍ مناسب . بينما ظل الجند الايراني يكد ويكدح ماشياً نحو الشمال للقائه . وفي صبيحة التاسع عشر من تموز سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة وألف نهض طوبال عثمان من نومه الهادىء فصلى صلاة الصبح . ثم امتطى صهوة جواده بعد ان لم يكن يركب من قبل طوال مدة سير الجيش لأنه كان يُحمل في محفة منذ غادر ديار بكر متوجهاً الى بغداد . وأخذ يعبىء قواته ، ويصدر أوامره كأنه في عز شبابه وأوج نشاطه [1] . وحينما التحم الجيشان الكبيران كانت الحرب سجالاً بينهما في بداية الامر . بينما كانت أساليب الحرب يومذاك ، وانبساط ساحة الحرب لم تدع سبيلاً للاستعانة بالخدعة . ولذلك كان مصيرها مناطاً بالشجاعة التي

---

(١) لقد استرعى ذلك انتباه طبيبه الفرنسي الخاص الذي لاحظ فيه صباح ذلك اليوم حيوية غير معهودة وروحاً عالياً ، فكتب يقول : ... ولا يمكن ان أعزو القوة التي أظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية الأصيلة ، والنار التي كانت تتأجج بين أضلعه .. فقد رأيته يركب كأنه فتى يافع وهو ينتضي سيفه ، فكانت سيماه تبعث في الناظرين اليه الحماسة والنشاط ، وعيناه تتألقان حين يصدر أوامره بخفة معجبة وفكر متيقظ .

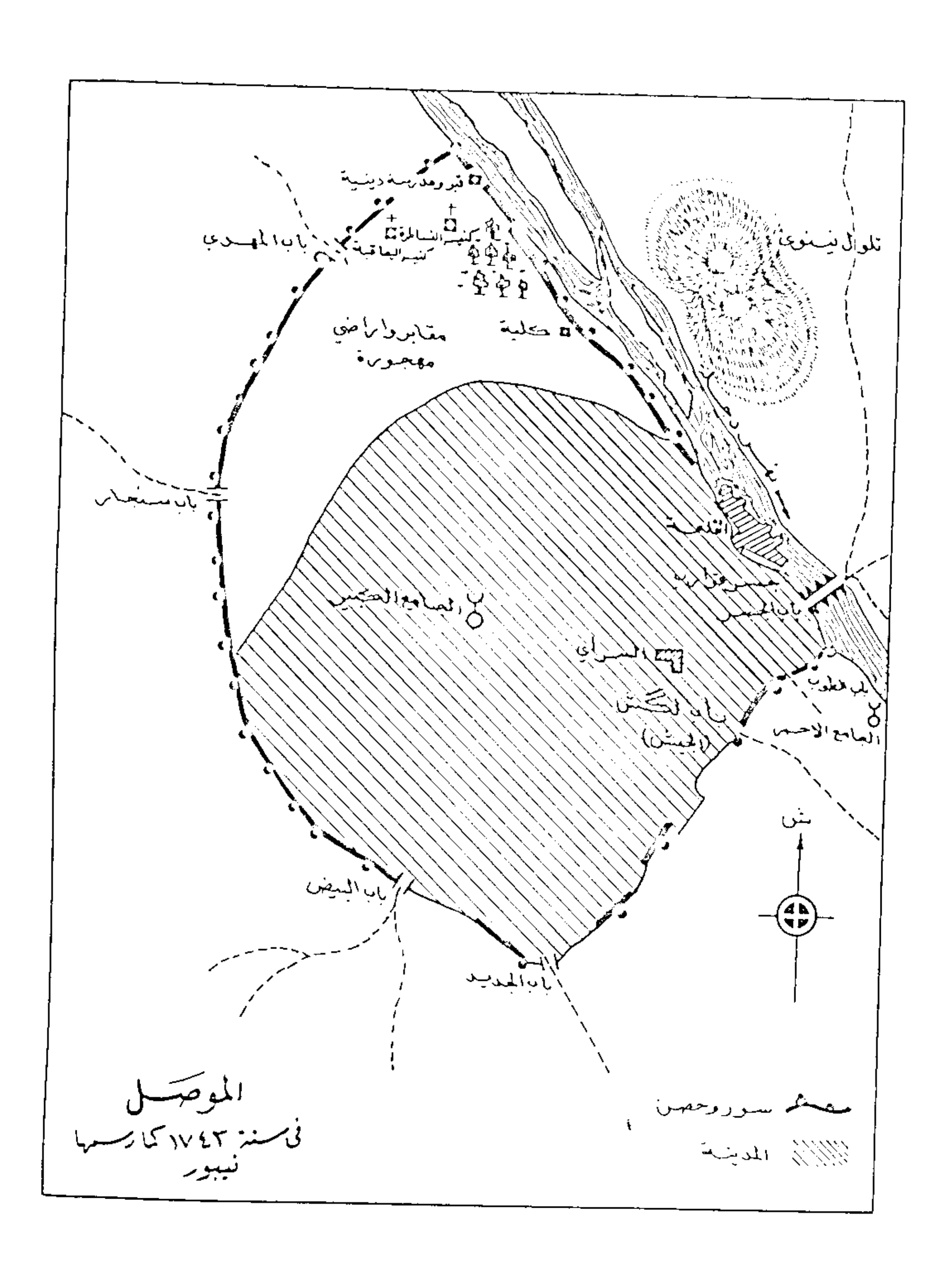
يبديها المقاتلون . وبما يحمله القائد بين جنبيه من عزم وثبات ، وبالحماسة التي يثيرها في جنوده . وهنا بانت مواهب المنقذ الأعرج .

فقد نفخ من روحه القوية في ضباطه وجنوده ، فوقف مشاته كالبنيـــان المرصوص وراء خيالته التي ارتدت أمام الجيش الرئيس المؤلف من خمسين ألف مقاتل بقيادة نادر نفسه . وسرعان ما تدحرج ثلاث مئة رأس من رؤوس الايرانيين بين يدي السر عسكر الثابت مع جنده كالطود . ولاح النصر له ، لولا أن يرتد ألفان من أكراد جيشه ويخرجون من الحومة الحاميـــة ، فتنعكس الآية وتحدث ثغرة في الصفوف يغتنمها الايرانيون المستقتلون فيكرّون ويستولون على قسمٍ كبير من مدفعية الاتراك . وهنا أيضاً يتصدى المنقذ الأعرج للمأزق الحرج برباطة جأش لا مثيل لها ، فيطوي كشحاً من مشاوريه من كبار الضباط الذين أشاروا عليه بالتقهقر ، ويزج باحتياطيه المؤلف من عشرين ألف مقاتل فيستعيد ما خسره من أرضٍ ومدفعية ، ليطغى مد الأتراك عوداً على بدء . ثم يأمر القائد الأعرج انكشاريبه العتاة في قلب الجيش بالتقدم على طول الخط . ففعلوا ذلك بحيث أضاع نادر قلي سيطرته على الفلول المتفرقة من جيشه المرتبك وكلفته مجازفته بنفسه من أجل هذا خسران حامل لوائه وفرسين من تحته . وهكذا فبعد حربٍ داميةٍ ضروس دامت تسع ساعات متماديةغربت الشمس عـــلى الايرانيين وهم مندحرون متفرقون . فأحرز المنقذ الأعرج نصراً مبيناً .

وقد امتلأت ساحة الحرب الواسعة بالآلاف من جثث القتلى والجرحى من الايرانيين . وكانت الغنائم تشتمل على جميع المدفعية الايرانية ،وجميع خيامهم وأمتعتهم ،وجميع مؤونتهم بما فيها الثمار الطازجة والحلويات ،وكذلك أعلامهم وآلاتهم الموسيقية وكراعهم . فاغتنت بذلك قوات الباشا المنهوكة ، الفرحة بالانتصار الساحق . اما الباشا نفسه ، فقد بكى من فرحه على ما أصابه من تعبٍ ممض ، وحمد الله على النصر المؤزر المبين . وكانت خسائر الايرانيين تقدر بثلاثين ألف قتيل ، وثلاثة آلاف أسير كان من جملتهم حمو نادر وابن أخيه فأعيدا الى الوصي المندحر من دون ان يمسهم أحد بأذى .

وفي الثاني والعشرين من تموز وصل دفتردار بغداد الى طوبال عثمان في

مخيمه بكتب التهنئة الحارة . وحينما بان تقدم الجيش المنقذ ولحظه الناس من أعالي السور ، في مساء اليوم الثالث والعشرين ، ركب أحمد باشا للقائه . فكان اللقاء قصيراً رسمياً على صبغته الدراماتيكية في تاريخ العراق ، وكان الانقاذ بالنسبة للعثمانيين يكاد يضارع في أهميته انقاذ السلطان مراد الرابع لعاصمة الخلفاء من قبل . ولما كان المنقذ الأعرج يستهجن المراسيم الفارغة بعد انتصارٍ كان سببه قوةً خارقة ، وتوفيقاً خاصاً من الله العلي القدير ، ركب من دون حاشية ولا أبهة ، فدخل المدينة التي كان أخذ منها الجوع مأخذه ، وفتك بها المرض ، ودوّى فيها صوت الموت الرهيب . فلم يكن قد وصل اليها أي نوع من الطعام والقوت منذ كانون الثاني حتى أواخر تموز ، ومات فيها من الجوع ما يزيد على مئة ألف انسان . فرميت جثث الألوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقين تملأ الهواء بعدواها فضلاً عن رائحتها فجاءت بالمرض أثر المجاعة . وقد بلغ الوهن والضعف بمن عاش من السكان الذين شهدوا دخول أشرف رجل في عنصره – وكان مؤثراً في تواضعه – حداً لم يستطيعوا معه ان يتذوقوا طعم النجاة من الحصار كما ينبغي . لكنهم توافدوا عليه من جميع الطبقات شيباً وشباناً يقبلون أقدامه ، ويمسحون عنها الغبار .


قبر ومدرسة دينية
كنيسة الطاهرة
باب المهدي
مقابر واراضي مهجورة
تلول نينوى
باب سنجار
القلعة
باب الجسر
الجامع الكبير
السراي
باب لكش
(الجيش)
باب الطوب
الجامع الاحمر
ش
باب البيض
باب الجديد
الموصل
في سنة ١٧٤٣ كما رسمها
نيبور
سور وحصن
المدينة

١٦

بطل الحصار[١]

في صيف سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة وألف ابتُليت الموصل الحدباء ببلية لم تتغلب عليها الا بشق الأنفس . وقد كان الفضل في خروجها من تلك البلية ، رافعة الرأس ناصعة الجبين ، يرجع الى صمود أبنائها ، وقوة عزيمتهم ، والى براعة بطلها وحامي حماها يومذاك الحاج حسين باشا الجليلي . فقد داهمها في تلك الأيام العصيبة نادرشاه ، الذي يطلق عليه الموصليون اسم «طهماز» ، بخيله ورجله من جهة أربيل وانتشرت جيوشه الجرارة ، وهي تقدر بثلاث مئة ألف مقاتل ، في محيط الموصل فاكتسحت امامها القرى والقصبات والدساكر ، وأعملت فيها القتل والتدمير بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وكان نادرشاه قبل ان يصح عزمه على مهاجمة الموصل واخضاعها قد عبرت جيوشه الحدود من جهة مندلي وشهرزور للاستيلاء على بغداد ، وكان قد عجز عن الاستيلاء عليها قبل سنوات عشر ، حتى بعد ان حاصرها وضيق الخناق عليها مدة تناهز السبعة أشهر . وحينما أحاط بها في هذه المرة تمكن واليها أحمد باشا من دفعه عنها بخدعة محبوكة ، وأخبره بما معناه « ان أخذت الموصل أسلم اليك بغداد لقمة سائغة » . فتقاطرت قواته بعد ذلك الى كركوك ، ففر ضباط الحامية فيها الى الموصل وما وراءها ، ورووا لأولي الأمر فيها أشياء مفزعة عن كثرة قوات نادر والفظاعات التي ارتكبتها في تلك

---

(١) مراجع البحث : كتاب لونكريك الذي يستند الى تقويم الموصل ، وكتابات صبحي في مؤلف العون هامر ج ١٥ . ثم تاريخ الموصل ج ١ للقس سليمان الصايغ ، و « الموصل في القرن الثامن عشر » للأب الايطالي الدومينيكي لانزا ، ترجمة القس بيداويد ، طبع الموصل .

الجهات . ثم زحف الجيش الايراني على أربيل فاحتلها وسيطر على قلعتها بسهولة ويسر . وتوجه من هناك الى أم الربيعين .

على أن والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي كان منذ مدة من الزمن قد أعد عدة الدفاع عنها إعداداً روحياً ومادياً . فحفرت الخنادق العميقة من حولها . ورممت جهات السور كلها . فبني قسمٌ منه بالحجارة الجديدة وسدت الثلم والثغرات فيه . وما كاد نادر شاه ينتهي من الاستيلاء على أربيل حتى كان الحاج الجليلي قد أعد آخر الاستعدادات للصمود في وجهه الى آخر رمق كما عاهده عليه الموصليون . فعينت المراكز للمدافعين . وملئت المخازن من الحبوب والذخائر . ومع ان الموصل أخذت تتدفق عليها الألوف من سكان القرى والأرياف المجاورة . وهي هاربةً من وجه المحتل الغاشم . فقد قبل الوالي البطل ايواءهم فيها ثم جندهم واستفاد منهم في القتال وأعمال المحافظة على السور . حينما تعرض لقصف مستديم في أثناء الحصار . وقد تضافرت بذلك مجهودات الجميع في اليوم العصيب . لأن الحاج حسين باشا استطاع ان ينفخ في جميع الطبقات من الناس روح الدفاع العالية والعمل لمصلحة الجميع . حتى أنه أوعز بأن تظل الموسيقى العسكرية تصدح بأنغامها لتلهية المشتغلين بترميم السور أوالمحافظة عليه . وكان يقوم بنفسه كذلك بالسهر على كل هذا والاختلاط بكراة الخندق وبناة السور ليحبب اليهم العمل .

وكان أول اتصال لنادر شاه بالوالي الجليلي قد حصل حينما أنفذ عند دنوه من الموصل قاضي كركوك حسن افندي . وشخصاً آخر يدعى مصطفى أغا . برسالةٍ الى مفتي الموصل السيد يحيى يخاطب فيها عن طريقه الحاج حسين باشا ويطلبُ اليه تسليم المدينة والأذعان له بالطاعة . غير ان الحاج البطل آثر ان يشرك الموصليين معه في الرد على هذا الطلب . فجمع جمعاً غفيراً من وجهائهم ورجالهم المدججين بالسلاح في الجامع الأحمر الواقع على ضفاف دجلة . وهناك قرئت الرسالة الواردة من الشاه عليهم فرفضوا الاذعان بصوتٍ واحد . وطالبوا بالمقاومة المسلحة والوقوف في وجهه الى الرمق الأخير . وكلفٌ القاضي بتدبيج ردٍ مناسب . فقام بذلك خير قيام وحرر كتاباً يمتلىء بروح المقاومة والتصلب .

ومن ذلك الاستشهاد بالبيتين التاليين من الشعر :

قام الحمام على البازي يهـــدده واستصرخت بأسود الغاب أضبعه
يا من يسد فم الأفعى باصبعـــه يكفيه ما قد يلاقي منه اصبعه

وبذلك تقررت الحرب . واستعد الطرفان لخوض غمراتها . ولأجل ان يشاغل الحاج حسين خصمه العنيد . ويعمل على اتمام التهيؤ للحصار . خرج الى خارج السور وخيّم في موقع مناسب استعرض فيه قواته الباسلة وعساكره التي كان يقودها معه حسين باشا والي حلب . وقوج باشا حاكم كويسنجق . اما نادر شاه . فقد تقدم بعد وصول كتاب الرفض اليه نحو دجلة الشرقية وخيّم بجوار قرية يارمجة . وما ان استعد الطرفان للقتال على هذه الشاكلة حتى أوعز الباشا الجليلي لأخيه الشاب عبد الفتاح بك بالعبور مع فوجه الغدائي الى الضفة الشرقية من دجلة ومنازلة العدو فيها . ففعل ذلك بحركة جريئة . ودارت في تلك الجهة معركة عنيفة قتل فيها قائد الفرسان الايرانيين جيلو خان[1] . وعند انتهاء المعركة عاد عبد الفتاح بك بفوجه الباسل الى الضفة الغربية بعد ان أوقع بالعدو خسائر غير يسيرة . ومن دون أن يستطيعوا الحيلولة دون عبوره في الرجوع .

وفي اليوم الثاني انسحب الجميع الى داخل المدينة وأغلقت أبواب السور استعداداً للحصار . وقد استطال أمـــده اثنين وأربعين يوماً . وبعد ان ظل نادر شاه مخيماً في يارمجة خمسة أيام عبر النهر وطوّق المدينة بجيشه اللجب . ثم أخذ يستطلع الوضع مع قواده . ويضع الخطط المناسبة لاقتحام المدينة التي كانت تبدو شيئاً ضئيلاً في نظره . فقر قرراه عند عودته الى مخيمه الجديد الذي أقامه على قمة تل من التلول المجاورة للنبي يونس . ان يصليها بوابل متواصل من مدفعيته الكثيرة وقذائفه النارية . ثم يهاجمها من اثني عشر مركزاً في وقت واحد . ومن أجل هذا شيد في كل مركز من مراكز الهجوم أماكن تحتمي بها

---

(١) وقد دفن في قرية قريبة من مخيم الايرانيين يومذاك،وهناك اليوم قرية تحمل اسم جيلوخان في طريق الخضر – البساطلية .

جانب من سور الموصل وباب سنجار في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر

مدفعيته . وفي أوائل تشرين الأول بدأ قصف شديد من مئتي [1] مدفع على المدينة . فكانت الشظايا المتطايرة تظلم السماء في النهار وتنيرها في الليل كما تفعل الشهب . وقد استمر هذا القصف ثلاثة أيام بلياليها حتى قيل ان مجموع ما ألقي من القنابل على الموصل والسور في تلك المدة قد بلغ شيئاً يزيد على خمسين ألف قنبلة [2] . فأرهقت الأنفس عسراً . واشتد الضغط . غير ان ذلك كله لم يؤثر في العزائم والمعنويات لأن الحاج بطل الحصار كان يخف . مع ابنيه مراد وأمين . الى مواقع الخطر ليل نهار من دون خشية ولا مبالاة فيشجعون الناس على مقابلة العدو بقصفٍ [3] من عندهم . وترميم ما يصيب السور من تهديم في الحال .

ومع جميع ما بذله الشاه بالذات من جهود في هذا القصف والهجوم فقد باءت بالفشل . بسبب ما كان يبديه الحاج حسين من تدبير للأمور وتشديد للقوى والعزائم . ولذلك اضطر الشاه الى ان يجرب طريقةً أخرى في تقويض السور الصامد . فقد أمر المشاة من جيشه بحفر أنفاق عميقة تحت الأرض تقودهم الى أسس السور . ليسهل عليهم تفجير ألغام كبيرة في اسفله . وقد انفجرت بالفعل أربعةٌ من هذه الألغام العظيمة . فضعضعت جزءاً كبيراً من السور وصدعته . وقد سبب احد الانفجارات سقوط قطعة كبيرة منه مهشمةً على الأرض . وفي هجومٍ عنيف شنته القوات الايرانية لضبط الفجوة الحاصلة بسبب ذلك . اقترب النصر للايرانيين وبات مصير أم الربيعين معلقاً بخيط واهٍ . غير ان هذه الضائقة ما فتئت ان انجلت . بفضل البطل القائد الذي صمد بنفسه

(١) يقول الأب لانزا الدومينيكي الايطالي الذي كان في الموصل أثناء الحصار ، في كتابه « الموصل في القرن الثامن عشر » ان عدد المدافع الكبيرة كان (١٦٠) ومدافع الهاون (٢٣٠) .

(٢) ما يزال يلاحظ وجود هذه القنابل في يومنا هذا عند بعض الناس من أهل الموصل أو في بيوتهم لانهم أخذوا يحتفظون بها للذكرى منذ تلك الأيام الخوالي .

(٣) كان برج باش طابية الواقع بجوار جامع الامام يحيى أبي القاسم في شمال الموصل ناشطاً في مدفعيته ضد العدو على الأخص ، وفيه كان يقيم الحاج الجليلي في الليل . ولذلك نقل نادر شاه قسماً مهماً من قواته ومدفعيته الى قرية التاضية (تاضيكند) الواقعة في مقابل باش طابية ، وظل يقصفها قصفاً شديداً استغرق خمسة عشر يوماً .

على رأس الحامية الموصلية وهي تدافع دفاعاً مستميتاً يفوق طاقة البشر وتصب القذائف على المهاجمين المستقتلين الى أن خابوا في مهمتهم واحبطت مساعيهم .

على ان العدو العنيد ما كان يفشل في هجمة من الهجمات ، أو حيلة من الحيل ، حتى يجرب غيرها للفوز بما يريد . فقد استطـــاع الايرانيون إضرام النار بالقرب من أبواب السور الخشبية كذلك . لكن الريح ردّتها على مضرميها بتقدير الله سبحانه وتعالى وتدبيره . وجربت السلالم أيضاً للتساق . فأنشبت في السور وأخذ الجند الايراني يتسلقها ليعلو عليها . لكن رؤوس الصاعدين كانت سرعان ما تطيح على أخوانهم في اسفلها .

وقد استقامت الحرب على هذه الشاكلة أياماً عديدة أيقن بعدها العاهل الايراني الجبار ان لا قبل له بفتح هذه المدينة الباسلة . والتغلب على حاميها وبطلها الحاج . فعمد الى حيلة ٍ أخرى . فقد أنهى الحصار عنها ليوهمها بانه عدل عن فتحها . وتوجه الى جهات جزيرة ابن عمر . فقتل وسبى وهدّم في تلك الأنحاء . ثم عاد الى الموصل فباغتها من جديد بهجمة ٍ مفاجئة فألفاها أمنع من عقاب الجو عليه لأن الحاج الخبير بشؤون الحرب والسلم على سواء لم تنطل عليه الحيلة . فراح يزيد في تحصين المدينة ويكثر من خزن المؤن والمعدات طالما كان الخصم العنيد ما يزال قريباً في الميدان . لكن نادر شاه هاجم الموصل هجمة أخيرة . وأنشأ القناطر على الخندق المحيط بالمدينة فعبرت جنوده من فوقها تحت وابل ٍ من القنابل التي كانت تنصب عليهم من المدينة وسورها بكثرة ٍ فائقة . غير أن بطل الحصار صمد لهذا الهجوم كذلك . وخرج جنده من بعض الأبواب فالتحموا مع الايرانيين في معركة ٍ ضارية امتدت الى ثماني ساعات متوالية . فانجلى الغبار عن اندحار المهاجمين . وعودة معظمهم هاربين من دون ان يلووا على شيء أو يعبأوا بتحريضات الشاه وقد أخذ يناشدهم الثبات في المعركة . حتى عبروا دجلة الى معسكرهم الرئيسي في الجانب الشرقي . وقد خلفوا وراءهم في حومة الوغى ما يقرب من ستة آلاف قتيل .

وعند ذاك أيقن نادر شاه بعجزه عن فتح المدينة الباسلة ، وآمن بان قائدها المغوار ليس مثل غيره من الرجال. ولأجل ان يحافظ الشاه على ماء وجهه . ويموه

العار الذي أصابه من جراء هذا الفشل المريع برغم الجهود الجبارة التي بذلها . فتح باب المفاوضة مع الحاج حسين باشا . لكن الحاج البطل أبى المصالحة في بادىء الأمر . وأجاب الرسول باستعداده لخوض المعركة الى آخر رمق . غير ان الشاه أعاد الكرة بكتاب خاص التمس فيه انتداب اثنين من رجال الموصل للتداول في الأمر . فأرسل اليه القاضي . ومفتي الشافعية الغلامي ، وقره مصطفى بك . وحينما وصل هؤلاء الى مخيم الشاه في القاضية استقبلوا بحفاوة بالغة . ثم تم الاتفاق على قواعد الصلح بين الفريقين . وخلع الشاه على اعضاء الوفد خلعاً ثمينة . فقابله الباشا الحاج بانفاذ ثمانية من رؤوس الخيل العربية الاصيلة . بصحبة عمه الحاج قاسم أغا . هدية اليه .

وهكذا تم عقد الصلح بين الطرفين . وعاد « طهماز » بخفي حنين . من أم الربيعين .

١٧

امرأة تتحكم في باشوية بغداد [١]

في صيف ١٧٤٧ توفي والي بغداد أحمد باشا في حملة تأديبية سار على رأسها الى كردستان . بعد سيرة حافلة بجلائل الأعمال . فووري التراب تحت قبة أبي حنيفة، من دون ان يخلّف وراءه سوى ابنتين شقيقتين هما : عادلة وعائشة . وعدد كبير من مماليكه ومماليك والده الحاج حسن باشا المعتقين . وقد كان في حياته يتوسم الخير في مملوك من مماليك أبيه يدعى سليمان أغا ويرجحه على أقرانه . ولذلك صار يرعاه ويقلده المناصب الكبيرة في الولاية واحدةً بعد أخرى حتى وصل الى أرفعها قدراً وأجلها شأناً . وقد اعتمد عليه كل الاعتماد في حصارات نادر شاه لبغداد ووقوفه دون استيلائه عليها . وبلغ من تقديره لهذا المملوك ان زوجه من ابنته الكبرى عادلة خاتون سنة ١٧٣٢ (١١٤٥ هـ) . فمهّد السبيل بذلك ليصبح صهره المحظوظ هذا خليفته من بعده في الباشوية . بعد ان كان كتهيته في حياته . وأول باشا من باشوات المماليك الولاة في بغداد .

فكان الصهر عند حسن ظن سيده به . فقد نجح في الحصول على الولاية فيها . وبرع في حكمها وتوطيد دعائم الأمن والنظام في أرجائها . وانقادت له العشائر المتلقلقة والمدن المستكنة على سواء . وأصبح باشا ذا « طوغات[٢] » ثلاث اي باشا من الدرجة الأولى .

---

(١) المراجع : دوحة الوزراء ، وأربعة قرون .. لونكريك ، ورحلة نيبور .

(٢) الطوغ هو ذيل من ذيول الخيل ، وقد اتخذ يومذاك شعاراً لدرجات الباشوية والتقدم في مضمارها .

غير أنه مع هذا كله لم يكن قادراً على حكم نفسه بنفسه . ولا مهيمناً على شؤون بيته وأسرته ، لأنه لم يستطع التغلب على النقص الموجود فيه وهو حقارة منشئه وضعة ماضيه ومنبته . ولم تكن زوجته القهرمانة عادلة خانم . وهي ابنة الباشا المتحكم والسيد المطاع . وحفيدة حسن باشا رجل البلاط العثماني من جهة الأب والأمير العربي من جهة الأم . لتنظر اليه إلا بتلك النظرة التي ينظر بها الأرستقراطي المتجبر الى خدامه ومماليكه . ولم يكن هو في نظرها . برغم منصبه الرفيع . سوى ذلك المملوك الذي اشتراه جدها حسن باشا . وتصدق عليه أبوها بالرعاية والتعهد حتى أوصاه الى دست الحكم في الباشوية . ولهذا كانت له المرتبة الثانية في بيته وهو الباشا المغوار والوالي الجبار .

ولا غرو ، فقد كانت عادلة خانم كثيرة الغرور والتكبر ، شديدة الغطرسة والتحكم . عديمة الشفقة حتى مع زوجها الباشا الذي حرمت عليه قبل كل شيء ان يتزوج امرأةً غيرها . ومنعته من اقتناء الجواري . حتى أدى به الأمر الى انقطاع نسله ولم يخلف وريثاً من بعده لأنها هي نفسها كانت امرأةً عاقراً[1] . وبهذا تكون نموذجاً حياً للمرأة التركية ، على ما يقول الرحالة الألماني نيبور في رحلته المشهورة . كما كانت حريصة على ان تكون سيدة الباشوية من وراء زوجها المملوك . وصاحبة الكلمة العليا فيها . وكان لها ما تريد الى درجةٍ غير يسيرة . فما ان تسلم زوجها سليمان باشا « أبو ليلة[2] » زمام الحكم حتى نشطت الخاتون الى ممارسة نفوذها واستخدام سطوتها في جمع الأتباع والمريدين ، وتشكيل كتلة قوية في عاصمة الولاية تأتمر بأمرها قبل ان تأتمر بأمر زوجها الباشا المسؤول . وبلغ بها الأمر انها صارت تتدخل في شؤون الحكومة وادارتها . وتتحكم في النقل والتعيينات بحيث أخذت تنقض الأوامر التي كان يصدرها الباشا او وزيره الكهية في كثير من الأحيان .

وكان أتباعها يحملون شارةً خاصة بهم . تميزهم عن سائر موظفي الولاية

---

(١) وكذلك كانت اختها عائشة زوجة الوالي عمر باشا .

(٢) سمي كذلك « ابا سمرة » و « دواس الليل » لانه كان يخرج متنكراً في الليل لتفقد شؤون الرعية ، وقد سمع الرحالة نيبور أنه كان يسمى « سليمان الأسد » أيضاً .

ورجالها . فقد جرت العادة في تلك الأيام ان يخلع الباشا على الأغوات الذين يتم تعيينهم في أنحاء الولاية بفروٍ خاص . وعلى الشيوخ الذين يعينون للمشيخة عند العشائر العربية بعباءةٍ ثمينة . فصارت عادلة خاتون تفعل مثل ذلك هي نفسها . وتأمر زوجها بتقديم هذه الهدايا لمن تريد كي تستميلهم الى جانبها . كما صارت تقدم الى الأغوات البارزين ممن خدم في أيام جدها وأبيها مناديل حرير يلفونها حول رؤوسهم ليتميّزوا بها عن غيرهم في أثناء الاحتفالات والمراسيم . وكانت هذه تنسج بأشكال وألوان خاصة . ثم توسعت في ذلك فصار الآخرون ينشدون الحصول على شارة الشرف هذه بتقديم الهدايا الثمينة اليها ويترددون على مجلسها في أيام وأوقات معينة . لقضاء حوائجهم فيتفاهمون معها عن طريق الـ « حرم أغاسي » الذي كان يأخذ العرائض اذا اقتضى الحال ويأتيهم بالجواب . وبذلك صارت تطّلع على جميع ما يحدث ويجري في الولاية . أو الأيالة كلها وصار جميع من يحصل على وظيفة هامة تتحفه زوجة الباشا بمنديل من الحرير علاوةً على الخلعة التي يحصل عليها منه . وقد استغل أصحاب الحظوة عندها مـــن الموظفين والشيوخ تقربهم اليها . فأخذوا يظلمون الناس ويبتزون منهم الأموال والاملاك .

ولذلك فقد تجمع لديها شيء غير يسير من المال والثروة علاوةً على الجاه والنفوذ . وأخذت تستخدم ذلك في بسط نفوذها ومد سيطرتها وتعمد الى تشييد المباني وانشاء المساجد والخانات للقوافل والمسافرين في الطرق المهمة . ومن ذلك جامع العادلية[1] في بغداد . وخان عادلة الذي نشأت حوله قرية قوش تپة التي وقف فيها في اواخر القرن الثامن عشر الرحالة نيبور في الطريق ما بين آلتون كوپري وأربيل ، كما بقيت الى يومنا هذا .

وقد بلغ نفوذها المتعاظم هذا . وكان زوجها الباشا ينظر اليه بنفسٍ حسيرة وعينٍ كسيرة . حداً أصبحت فيه خطراً على خصومها أو الذين كانوا يقفون في طريقها . لأنها كانت بارعة في الدس والتآمر كذلك . وجريئة في خلق

(١) الذي استبدل ونقل مكانه قبل سنوات قليلة من موقعه القديم في شارع المستنصر ببغداد ، الى محلة الوزيرية في « اوقاف المميز » بالصرافية قرب جسر القطار الحديد .

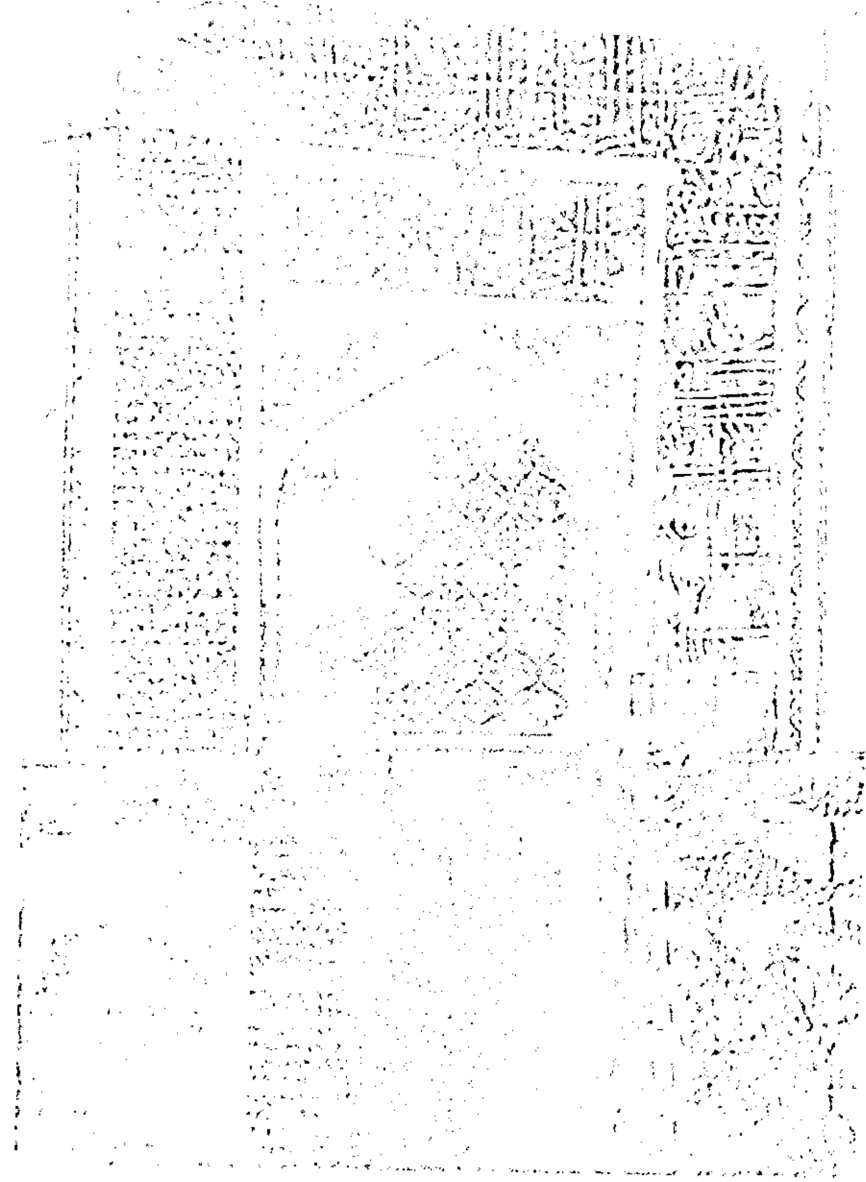
المناسبات للقتل والاغتيال . وعُرفت في أيامها حوادث ذات بال من هذا القبيل .

فقد كانت عادلة خاتون على دون وئام مع شقيقتها الوحيدة عائشة خـــانم . ولعل سبب هذا الاختلاف والتنافر ان شقيقتها هذه كانت متزوجة من شخصية محترمة في البلد يدعى أحمد أغا . ولم يكن أحمد أغا مملوكاً من المماليك أو صعلوكاً من الصعاليك وانما كان ابناً لأبوين محترمين لهما منزلة مرموقة بين الناس . فدفعها حسدها لاختها وحقدها الدفين عليها الى الانتقام منها بزوجها المسكين . وراحت تتحين له الفرص وتتسقط أخباره بقصد الوقيعة والتشفي . وفي يوم من الأيام سنحت لها الفرصة التي كانت ترقبها بفارغ الصبر . وذلك بمجيء أحد « القبوجيين » من استانبول لاستطلاع الوضع في بغداد النائية . بأمرٍ من المسؤولين . فأشاعت عادلة خاتون وأتباعها ان ذلك « القپوچي [١] » أقنع حماها أحمد أغا بقتل زوجها الوالي سليمان باشا ووعده بان يعينه في مكانه إن فعل ذلك . ونقلت الخبر الى زوجها بصورة مثيرة . كما بعثت من ينقلونه اليه بصورة مثيرة أخرى حتى اقتنع بسوء نية عديله أحمد أغا فدبّر أمر اغتياله. وبذلك تم ما كانت تريده عادلة . وازداد الشقاق والتنافر بين الأختين الى ان استطاع الباشا إقناع عائشة المفجوعة بزوجها ان تتزوج ثانيةً من الكهية عمر أغا.

وبعد ان شفت غليلها من اختها على هذه الشاكلة توجهت وجهةً أخرى . فقد أخذت تحيك الدسائس لتنتقم ممن سبب وفاة والدها أحمد باشا في أثناء الحملة التأديبية التي سيقت الى كردستان . وكانت تعتقد ان السبب في ذلك كله هو سليم باشا بابان الذي شق عصا الطاعة في السليمانية وأخذ يتصل بالايرانيين عبر الحدود العراقية . فأدى ذلك الى سير احمد باشا عليه في الحملة التي قضى نحبه فيها . ولما خاب زوجها الباشا في القبض عليه بين الأوعار والجبال التجأت هي الى المداهنة والخديعة . فمُنح سليم بابان الأمان وأقسم له بالمقدسات وأغلظ الايمان . ثم بعثت له الخاتون من عندها بمنديلٍ حرير من مناديلها الثمينة المعطرة التي كانت تمنحها لأتباعها المقربين . ففعلت تلك الأساليب الخداعة فيه فعل

---

(١) الحقيقة ان « القپوچي » فاوض أحمد أغا بالفعل في قتل سليمان باشا على ما يقول الرحالة نيبور لكنه رفض الاستجابة لطلبه وأهانه بالكلام ، ثم انقطع عن مواجهته .



محراب جامع العادلية القديم

(جامع عادلة خانم)

السحر وهو البسيط الساذج . وأيقن أنه قد حظي بأعظم ما كان يتمناه من الحظوة والالتفات في عاصمة الباشوية العتيدة . وجاء الى بغداد يسعى الى حتفه بظلفه . وهو يحسب انه سينال ما يريد . لكنه ما أن وطأت قدماه الأرض فيها حتى أودع السجن وخُنق في اليوم التالي .

وكان زوجها الباشا في هذه الأثناء قد بلغ من الكبر عتياً . وآن له ان يفارق هذه الدنيا الفانية فيرتاح من أثقالها وأوزارها . ومن أسر زوجته فيها . وحينما ووري التراب استطاع علي أغا متسلم البصرة يومذاك ان يحصل من الباب العالي في استانبول على باشوية بغداد في مكانه . ولا سيما بعد ان استحصل على التوصية [1] اللازمة من الديوان فيها . وبذل الكثير من المال في تقديم الهدايا لمن ساعده في الأمر .

غير ان الوالي الجديد علي باشا لم يستطع ان يحكم في بغداد سوى اثنين وعشرين شهراً فقط . لأن القدر الذي كان يخالف عادلة خاتون في تلك الأيام كان يخبىء له موتةً مفجعة . فهو وإن لم يكن في صغره مملوكاً من المماليك الذين اشتراهم جدها وأبوها . قد نشأ خادماً في معية الـ « سفرجي باشي » في بيت أحمد باشا بعد ان كان ولد في ايران من أبوين فقيرين مسلمين . وعلى هذا الأساس كانت عادلة خاتون تنتظر منه ان يرعاها رعايةً خاصة ويرخي لها العنان كما كان يفعل زوجها الراحل . لكي تستمر في ممارسة نفوذها المطلق في الشؤون العامة والخاصة . وتتحكم في باشوية بغداد كما تريد وتشتهي .

الا أن علي باشا لم يشأ أن يفعل هذا بعد ان تربع على دست الحكم . وانقادت له الباشوية ورجالها . وكان مصمماً على الحكم من دون التقيد بها أو الالتفات اليها التفاتاً خاصاً . حتى انه صار يفكر في ايجاد وسيلة مناسبة يستطيع بواسطتها إبعاد عادلة خاتون عن بغداد . ووضع حد للدسائس التي كانت تحوكها في كل فرصة أو مناسبة . وظل يصرّف شؤون الولاية بحزمٍ وقوة . ويقضي على المشاكل واحدةً بعد أخرى . فقضى على ثورة الانكشارية

---

(١) جاء في دوحة الوزراء ان الصدر الأسبق محمد راغب باشا بينّ للمسؤولين ان على كهية من الرجال الذين يعتمد عليهم ، وأنه من أمناء الدولة .

في قلعة بغداد بمساعدة أشراف بغداد والقبائل العربية الموالية له . وأخضع المتمردين في أنحاء مختلفة من كردستان . لكنه لم يتمكن من تأديب الخزاعل الذين ثاروا في الفرات الأوسط . وهُزم أمامهم هزيمةً صارت تتردد الأهازيج العشائرية التي كانوا يهزجون بها في مقاهي بغداد وأزقتها الضيقة .

فلم تعد عادلة خاتون تتحمل هذه الاهانة في نظرها . ولم تستطع السكوت على عدم استشارتها في مثل هذه الأمور . فاغتنمت فرصة انتصار علي باشا على الأكراد في الشمال وهزيمته أمام الخزاعل في الجنوب بالطريقة التي حصلت . وراحت توغر الصدور . وتشيّع في الأوساط والأندية بواسطة رجالها وأتباعها . ان كل ما حدث كان شيئاً مدبراً مقصوداً . وان علي باشا عامل الأكراد بقسوة بينما تساهل تجاه الخزاعل واندحر أمامهم . ثم أخذت تعرّض بأصله الايراني وميله [1] الخاص الى العشائر الضاربة في منطقة الفرات الأوسط ومحاباته لهم . وتستعيد ذكرى الصوباشي الذي سلّم بغداد الى الايرانيين من قبل . فانتشرت هذه الأراجيف والاشاعات المغرضة في أوساط بغداد وأنديتها انتشاراً غير يسير .

لكن الأغوات الخمسة [2] البارزين الذين كانت بيدهم القوة في بغداد ظلوا غير مصدقين لهذه الاشاعات . واستمر احترامهم لزميلهم علي باشا وابنة سيدهم الأول عادلة خاتون برغم عدم استحسانهم للكثير من تصرفاتها وأعمالها . وفي هذه الأثناء توفي أحد هؤلاء الأغوات فكان الحادث لعادلة خاتون فرصة كأنها نزلت عليها من السماء . فقد انبرت توحي للباقين منهم بان صاحبهم مات مسموماً بتحريض علي باشا نفسه . وانها علمت بانه بعث يستحصل موافقة

(١) مع انه استعمل غاية الشدة والقسوة حينما أدب عشائر بني لام وتم له اخضاعهم من قبل ، وهم من الطراز نفسه .

(٢) جاء في دوحة الوزراء ، لمؤلفه الشيخ رسول حاوي الكركوكي ، ان هؤلاء كانوا سبعة وهم : عمر كهية ، وعبد الله كهية ، واسماعيل كهية ، ورستم كهية ، وحسن كهية ، ومحمود كهية ، وعلي كهية ضابط الحسكة ومتسلم البصرة (وهو علي باشا نفسه) . وكان هؤلاء على ما يقول الرحالة نيبور جماعة من الشبان المماليك الذين اشتراهم في بادىء الأمر سليمان باشا ابو ليلة ورباهم سوية ، ثم نشأهم على الاسلام . كما دربهم على الوظائف فأخذوا يتداولونها بينهم في بغداد وخارجها .

الباب العالي في استانبول على قتلهم وانقاذ الولاية من قبضة المماليك . فصدقوا قولها . وراحوا يفكرون بأنفسهم وسلامتهم . ولم تمض الا أيام معدودة حتى علم الباشا الوالي بأن الأغوات . زملاءه القدماء . قد ثاروا عليه برأسهم كهيته عمر أغا . فهاجمته بغداد بأسرها وأشهرت السلاح في وجهه . ثم وجد نفسه وقد تخلى عنه الجميع . ولذلك اضطر الى ان يلوذ بالفرار متنكراً بزي النساء . وسرعان ما ألقي القبض عليه وهو بزيه هذا جاسوس من الجواسيس . فسيق الى السراي وأعدم فيــه . فذهب ضحية لنقمة عـــادلة خاتون وأطماعها الشخصية .

١٨

فروسية الجريد عند العثمانيين[١]

كان مما عرف به العثمانيون في أدوارهم التاريخية المختلفة اهتمامهم الخاص بالخيول والفروسية . واعتمادهم الكثير على الخيالة في جيوشهم ووقائعهم الحربية . ولذلك لم يكن من المستغرب ان تكون عنايتهم هذه مقرونةً بما ينشأ عنها من فنون الضرب والطعان . وضروب اللعب من فوق الأفراس وظهور الجياد . وقد ظلت السيوف والرماح من الأسلحة المعوّل عليها في حروبهم ردحاً طويلاً من الزمن . واستمرت جيوشهم تستخدمها في الحروب والمعارك برغم استعمالها للمدافع والبنادق . من مختلف الأنواع والأشكال . كلما تقدمت بهم المدنية وكثرت مخترعاتها ومبتدعاتها الحربية .

وقد نشأت في وضعٍ مثل هذا أنواع عدة من ألعاب الفروسية والنزال . والرماية والطعان . وكان أبرزها فروسية الجريد التي كانت من الألعاب المحببة للباشاوات وكبار الضباط . وغيرهم من رجال المجتمع الذين كان يستهويهم الكر والفر وما إليه من أنواع الرياضة العنيفة . وحينما زار الرحالة الدكتور إيفز العراق . في أواسط القرن الثامن عشر . وجد هذه اللعبة من اللعبات المألوفة التي تقترن بتمارين الفروسية والمصاولة في الميدان . فوصفها وأثنى عليها . كما أشار إليها وروى بعض القصص الطريفة عنها بعد ذلك بسنوات الرحالة الألماني المعروف كارستن نيبور .

ولا شك ان لعبة الجريد هذه يراد بها التمرين على المطاعنة والمصاولة بالرماح

(١) المراجع : رحلة الدكتور أيفز ، ورحلة نيبور .
Dr Ives, E - A Journey From Persia toEngland. (London à 173).

من فوق ظهور الجياد . وتنطوي على قيام الفارس الراكب برمي الحربة أو الرمح من مسافة قريبة على خصمه المقابل ، وتسديد طعنة بارعة اليه ، مــع تحاشي الطعنة التي تسدد له من غريمه المهاجم في الوقت نفسه . ولا يخفى ان هذا كله يتطلب شيئاً غير يسير من الخفة وسرعة الحركة ، فضلاً عن البراعة المتناهية في الركوب واصابة الهدف . لأن الفارس يترتب عليه من أجل هذا أن يلزّ جواده بأقصى ما يمكن من السرعة ، وان يكون متأهباً لدرء الخطر وتحاشي الطعنة المقابلة في نفس الوقت الذي يقوم هو فيه بتسديد طعنة الى خصمه . ويتم ذلك في العادة بالزوغان السريع بعد الرمي ، او التحول من ظهر الجواد الى بطنه أو الى جانبٍ من جانبيه ، من دون ان يسقط عنه . وكثيراً ما يدبر ذلك بحذقه الخاص في استخدام إحدى رجليه ونزعها من الركاب ، مع ابقاء رجله الأخرى فيه ، أو بالتمسك بمعارف الجواد أو حزام السرج أو بأي جزءٍ آخر من أجزائه. وحالما يشعر الفارس بأنه قد توفق في تحاشي الرمح المسدد إليه على هذه الشاكلة ، يترتب عليه أن يعتلي صهوة جواده من جديد في الحال ويخف إلى التقاط الرمح الذي كان مسدداً اليه قبل لحظات . فيأتي اليه بأقصى سرعة ممكنة ، وينتزعه من الأرض ، ثم يعود ثانيةً إلى تعقيب خصمه ومهاجمته بطعنةٍ عاجلة من جديد ، في الوقت الذي يكون ذلك الخصم منشغلاً به هو نفسه . وتستمر المطاعنة والمصاولة على مثل هذا المنوال حتى يصاب أحد المتبارزين ، فيصبح كما لو كان قد قتل أو جرح أو وقع في الأسر .

ولا شك أن هذه الحركة العسكرية يستعمل فيها الجريد الخالي من السنان المعدني القاتل بدلاً من الرمح الحقيقي حينما يراد بها المناورة والتمرين ، و عندما يتصاول فيها اللاعبون بقصد اللهو أو اللعب . ويقول الدكتور أيفز في رحلته أن لعبة الجريد هي اللعبة العسكرية الرئيسة عند الأتراك ، وأنهم كانوا يعتزون بها اعتزازاً كبيراً ويتباهون بأتقانها والبراعة فيها . ولذلك كانوا يدربون خيولهم عليها ، ويُعنون عنايةً خاصة بها . وقد أعجب بالخيول التركية [1] على ما يبدو ، لأنه

---

(١) وقد يكون المقصود بهذا الخيول العربية الأصيلة التي تكثر في العراق كما لا يخفى ، لان

يذكر بالمناسبة أنها تكون في العادة جميلة في شكلها ، خفيفة في وزنها وحركتها ، جريئة في عدوها ، تبلغ في ارتفاعها ما بين عشر قبضات وأربع عشرة قبضة ونصف . ويذكر كذلك ان الأتراك لم يكونوا يجبّون أذناب خيولهم مطلقاً ؛ كما كان من العار على أي رجلٍ من الرجال عندهم أن يركب الجياد غير الأصيلة أو الأفراس دون الجياد .

ويستفاد مما جاء في رحلة نيبور الذي زار بغداد سنة خمس وستين وسبع مئة وألف ان هذه اللعبة كانت شائعة بين الضباط وكبار رجال الولاية في بغداد ، وان عدة ساحات في جهات عقرقوف والشيخ معروف وغيرها كانت تعرف بكونها ميادين فسيحة لها . فهو يقول أنها لعبة تركية كانت تعرف في أوربة كذلك ، وأن الفرسان اللاعبين كان يستصحب كلٌ منهم عند خروجه إلى حومتها سائسه الذي يحمل معه كنانةً خاصة ملأى بالجريد الذي يستخدم في اللعب . وكان الفارس حينما يطارد خصمه بالجريد ، ويصاوله للطعان يرفع الواحدة منها ، وهي تبلغ أربعة أقدام في الطول ، إلى ما وراء ظهره قبل أن يرميها إلى الهدف . ومن طريف ما يذكر الرحالة في هذا الشأن كذلك أن الفرسان كانوا يجتمعون في مكانٍ معين مع من يصحبهم للنزهة والتفرج ، فيجلس الشيوخ منهم في ظل شجرةٍ من الأشجار أو عند عينٍ من عيون الماء فيحتسون القهوة ويدخنون الغلايين . أما الشبان فقد كانوا يتقدمون اثنين اثنين في حومة الطعان على ظهور الجياد المطهمة ، وينبرون لمناجزة الفريق المخاصم ثم يتحينون الفرصة فيسددون له طعناتهم القاضية .

ويلاحظ مما يذكره نيبور كذلك أن والي بغداد المعروف أحمد باشا ، بن حسن باشا ، مؤسس أسرة المماليك في العراق ، كان يشتهر بحذقه في الفروسية والطعان وبأتقانه لعبة الجريد على الأخص . وكان جسمه القوي وقامته المديدة العملاقة يساعدانه على ذلك . وقد بلغ من براعته في هذه اللعبة أن تمكن في إحدى جولاته التي كان يخرج فيها إلى الصيد من مصادفة أحد الأسود ، في منطقة عقرقوف ،

الرحالة الأجانب قد اعتادوا في تلك الأيام أن يسموا كل ما يرونه في البلاد العربية تركياً لانها كانت خاضعة للحكم التركي كما لا يخفى .

والاشتباك معه في معركة حتى قضى عليه بطعنة نجلاء من رمحه ، الذي كان يجيد استخدامه بطبيعة الحال .

على أن أهم ما يذكر عن أحمد باشا هذا ، بالنسبة لما له علاقة بلعبة الجريد ، قصته المعروفة مع الحاجب ، أو القپوجي باشي ، الذي انتدبه السلطان من استانبول لاغتياله وتخليص الدولة من خطره . فقد كان السلطان يوجس خيفةً منه ، ويعتقد بأنه قد استفحل أمره وأصبح خطراً عليه ، ولا سيما بعد ان استطاع تدبير أموره مع نادرشاه ، وانقاذ بغداد منه في ثلاث حصارات عنيفة متتالية . ولذلك كان يبعث له بأناسٍ سريين من استانبول لتدبير اغتياله بطريقة من الطرق وإزاحة الدولة منه ، في مختلف الظروف والمناسبات . غير ان أحمد باشا كان يحاط علماً بذلك ، وكان يقظاً متحذراً ، كما كان عنده من العيون ما يوافيه بأنباء هؤلاء الموفدين السريين أولاً بأول على طول الطريق من استانبول إلى بغداد ، ومن يستطيع التخلص منهم حتى قبل أن يصلوا إلى بغداد عند الحاجة .

غير أنه صادف ذات يوم ان استطاع أحد هؤلاء الموفدين الوصول إلى بغداد من دون علم الباشا المتيقظ ، ولم يعلم بأمره الا حينما أصبح على بعد ساعات قليلة منها . فما كان منه الا أن يدبر لعبة جريد معه فيتخلص منه في أثنائها . فأعد العدة لهذه اللعبة المخطرة ، وخرج اليها بموكبه الحافل وحاشيته الكبيرة بحيث يمكنه أن يلاقي القپوجي باشي الموفد لاغتياله على أبواب المدينة . وهناك أظهر له جميع مظاهر الاحترام والتقدير ، واستقبله استقبالاً حافلاً يليق بشأنه ومنزلته . ثم دعاه لمشاهدة اللعبة ، ولما كانت هذه اللعبة من الألعاب الراقية التي يزاولها أشراف الأتراك وعليتهم ، على ما يقول نيبور ، لم يجد القپوجي باشي بداً من الأذعان للطلب فسار مع الباشا الوالي إلى حلبة الفروسية والطعان ، وهو لا يعلم أنه كان يسعى إلى حتفه بظلفه .

وحينما وصل الموكب إلى الحلبة الرهيبة وبدأ الطرد واللعب على المستوى العالي ، طلب أحمد باشا إلى ضيفه المفاجأ أن ينازله في لعبة الجريد على سبيل اللهو والتسلية . فأجابه الضيف إلى طلبه لأن اللعب مع الباشا الوالي كان يعد من

قبيل الخطوة السعيدة والشرف ، الذي لا يناله الا ذو حظ عظيم . وعند ذاك انبرى أحد السياس فقدم له جريدةً من الجريد الموجود في كنانته ، أما أحمد باشا فقد تناول من كنانة سائسة الخاص جريدة مجهزة بسنان حقيقي قاتل وتبع فريسته الضيف فصال عليه وجال ، وما هي الا لحظة أو أخرى حتى سدد له طعنةً قاتلة في رأسه فتقنطر الضيف من جواده ، وخر صريعاً على الأرض في الحال . ولأجل أن يتم أحمد باشا دوره المرسوم للمأساة من قبل ، ويغطي على جريمته النكراء ، قفز من جواده وأسرع إلى ضيفه الصريع فوجده يعاني سكرات الموت . لكنه احتضنه وأخذ يعتذر إليه بصوتٍ مسموع ، ويعزو الحادث إلى خطأ حصل في تناول الجريد وسهوٍ غير مقصود . ثم راح يبين له ان دعوته الى هذه اللعبة المخطرة لم تكن الا من قبيل الصدفة المؤسفة ، وانه حاشا ان يكون قد قصد قتله .

وحينما أسلم القبوجي باشي الروح في حضن الباشا القاتل ، وانتهت مراسيم الدفن بعد ذلك ، بادر أحمد باشا الى اعادة أوراقه في الحال الى السلطان ، مشفوعةً بآيات الحزن والاعتذار عن الحادث المؤسف !

١٩

قحط مبيد في الموصل [1]

لم تنكب الموصل الحدباء بأقل مما نكبت به بغداد الزوراء في أيام الحكم العثماني الطويل . ولم يكن ما أصابها من أهوال الحصارات الطويلة ، والمجاعات المهلكة ، والطواعين المبيدة ، والجدب والقحط ، شيئاً يسيراً قليل الأهمية . لكنها مع ما أصابها من هذا كله بقيت صامــدة لكل الكوارث والأرزاء ، وخرجت منها ناصعة الجبين قوية العقيدة في كثير من الأحيان . وكأن الله جلت قدرته أراد لها ذلك ليمتحنها بالعسر والبلوى ، ويعجم عيدانها بالرزء والأزمات.

وقد كان من أشد النكبات التي نزلت بأم الربيعين في تلك القرون الخوالي ، وأكثرها غرابةً وتأثيراً ، تلك التي وقعت في شتاء سنة سبعٍ وخمسين وسبع مئة وألف ، أي في عهد أول والٍ من الولاة المماليك سليمان باشا ابي ليلة وأوائل عهد الحاج أمين باشا الجليلي في الموصل .فبعد أن هدأت الأحوال فيها ، بانتهاء سنة ست وخمسين وسبع مئة وألف ، هدوءاً نسبياً وتوقف القتال الذي كان محتدماً فيها طوال هذه السنة بين فتاح آغا ومصطفى آغا الجليليين ، وبعد ان قدمت الموصل عدداً لا يستهان به من الضحايا البريئة في هذا النزاع المرير الذي لم تكن لها فيه ناقةٌ ولا جمل في الحقيقة ، داهمتها الكوارث الطبيعية بكل عنف وشدة . فقداشتد البرد في الشتاء المذكور ، وهبطت درجة حرارة الجو هبوطاً استثنائياً لم تعهده الموصل في تاريخها القديم ولا الحــديث الا في النادر . واستقام هذا الهبوط الشديد في درجة الحرارة مدةً من الزمن تجمّدت فيها مياه دجلة كلها بحيث ظلت القوافل تعبر من فوق النهر المتجمد من دون

(١) المراجع : مذكرات الراهب الدومينيكي لانزا في « الموصل في القرن الثامن عشر » ترجمة القس بيداويد ، وتاريخ الموصل ج ١ للقس سليمان الصايغ .



جسر الموصل في ١٨٢٥

خشية أو حذر عشرين يوماً . فأدى ذلك الى إتلاف الحرث والضرع وموت الحيوانات بأنواعها ، ولا سيما المواشي والأغنام التي كانت تعتمد عليها البلاد في قوتها وثروتها في الدرجة الاولى .

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الأحوال ان ترتفع أسعار المأكولات والأطعمة . وتختفي الأقوات بأنواعها من كل مكان . فتأثرت بذلك المناطق المحيطة بالموصل كلها . وامتد القحط الى منطقة ماردين ودياربكر . وطفق سكان هذه الجهات يتركون بلادهم وقراهم ، فيتوجهون الى حيث يمكنهم الحصول على القوت ، وقصدوا الموصل سعياً وراء لقمة العيش . فصار الناس يتقاطرون عليها من كل فج عميق . وبذلك أخذت الأقوات والأطعمة المتيسرة تقل ساعة بعد ساعة . وراحت المجاعة الرهيبة تكشر عن أنيابها الكريهة . وعند ذلك أخذ الأهالي واللاجئون على سواء يموتون بالمئات كل يوم فتتكدس أشلاؤهم في الأزقة والطرقات العامة حتى يقيض الله لها أناساً من أبناء الخير وأهل المعروف فيسحبونها سحباً إلى دجلة ويرمونها فيه .

وحينما ولى الشتاء ببرده المهلك . وتزحزح الشر الذي كان آخذاً بخناق أم الربيعين بعنف وقوة . شوهد العشب في الأيام الأخيرة من شباط فتفاءل الناس بالخير . وحمدوا الباري عز وجل على قرب زوال البلوى والمصيبة . وبادر الباشا الحاكم الحاج أمين الجليلي الى إخراج اللاجئين والغرباء من المدينة المبتلاة بقصد التخفيف عن كاهلها والتفريج عن ضائقتها المميتة . فصادع الكثيرون من اولئك البؤساء للأمر . وخرجوا يهيمون على وجوههم في البراري والقفـــار قاصدين بغداد وكركوك وقرهجولان حاضرة الجبال ، من دون ان يتزودوا بأي نوع من الزاد لطريقهم الطويل بطبيعة الحال . غير ان الجوع كان قد أخذ منهم مأخذه . فهدّ قواهم وأنهك أجسامهم ، ولم يجدوا ما يسدون به رمقهم في محنتهم هذه سوى الأعشاب البرية التي أخذوا يقتاتون عليها كما تقتات البهائم . ولذلك صاروا يتساقطون من الجوع أو الهزال والعشب في أفواههم على طول الطريق ، فتغطت الطرق والحقول الخالية بجثثهم وأجسادهم من دون عد ولا إحصاء.
وقد كان للتدبير الذي اتخذه الباشا الحاكم في إخراج اللاجئين من الموصل .

على قساوته . شيء من التأثير المريح على الموصليين . بعد ان اخـــذوا يعيشون بتقتير وتدبير على ما تعودوا ان يدخروه لأيام الضيق من الأطعمة الشحيحة . وهم ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحصاد . لكن الأيام ظلت عابسةً في وجوههم . لأن الزرع قبل ان يستحصد وتتكون فيه السنابل داهمه الجراد بأرجاله المخيفة وأرتاله التي صارت تحجب الشمس بكثرتها . فعظمت البلوى واستحكمت الفاجعة . لأن هذا الجراد تمكن من التهام الزرع كله في أيـــام ٍ معدودة وقضى على الأخضر واليابس . وحينذاك لم يجد الكثيرون من سكان الموصل وما يحيط بها من القرى والأرياف بداً من ترك مواطنهم والتوجه الى بغداد وغيرها من الجهات . حتى ان قسماً منهم توجه الى ايران والولايـــات العثمانية المجاورة . أو الى الاماكن الأبعد منها . فتكررت بذلك المأساة وعادت جثث الفارين من وجه المجاعة والموت المحتّم تغطي الطرق والحقول بأعداد ٍ كبيرة .

أما الذين قرروا البقاء في أماكنهم فقد حاصرتهم المجاعة . وأمسك بخناقهم القحط . فأخذوا يموتون بأعداد كبيرة كل يوم وليلة . وتكدست الجثث في الأزقة والطرقات لتأكلها الكلاب ان وجدت أو تسحب لتلقى في النهر أن تهيأ لها من يفعل هذا . ولذلك تفشت الأمراض والأوبئة . وظلت تفتك بالناس خلال السنة كلها حتى امتلأت البيوت بالمرضى والمقابر بالموتى .

ولقد كان لهذا التتابع الغريب من المآسي والنكبات التي حلت بالموصل في تلك الأيام تأثير فظيع على الأحوال العامة وأخلاق الناس فيها . فكثرت السرقات في الليل والنهار . ولم يترك اللصوص شيئاً لم تمتد أيديهم اليه . إذ يقول الراهب الدومينيكي ان اللصوص سطوا حتى على داره هو وسرقوا « بضعة أوان ٍ كانت في المطبخ » . لكن الذي يحز في النفس أكثر من هذا ويستثير الألم والأسى فيها ان الجوع قد دفع بالكثيرين من الناس في تلك الأيام السود إلى أن يبيعوا الأطفال والنساء بثمن ٍ بخس من أجل لقمة ٍ يسدون بها رمقهم أو بُلغة ٍ يتبلغون بها . وقد تساوى في ذلك المسلم والمسيحي كما يقول الراهب المذكور في مذكراته . وأشد من هذا أيذاءً للنفس . ان الذين كانوا يضطرون إلى بيع أطفالهم

أو نسائهم على هذه الشاكلة كانوا سرعان ما يجدون أنفسهم جياعاً من جديد فتمتد اليهم أيدي الموت الرهيبة .

ومما كان يزيد في عظم هذه الكوارث والأرزاء ان المآسي التي حصلت في شتى أدوار النكبة والمجاعة ، وأدمت القلوب وقطعت أنياطها ، لم تستطع بكل ما كان فيها من فظاعة وآلام نفسية ان تستأصل من قلوب بعض الحاكمين وعدد من الأغنياء والموسرين في تلك الأيام الكالحة الطمع المقيت الذي كان يدفعهم إلى احتكار قوت الشعب والمتاجرة به . ولعل هذا الجشع من الظاهرات الطبيعية عند البشر ، التي يستغل فيها الانسان أخاه الانسان وقت الضيق فينشب أظفار طمعه فيه ، ويتجرد من انسانيته لينظر إلى مصلحة نفسه من دون اي اعتبار آخر .

ولا شك أن الكثير من هذه الفواجع المؤلمة يكاد لا يصدق . لكننا نختم هذه الصورة بما يقوله الراهب الذي شهدها بأم رأسه . فهو يقول : ان من لم ير المشاهد الغريبة التي حدثت في هذه الظروف لا يمكنه أن يصدق ما يقرأه في هذه الرواية التاريخية أو غيرها من الفاجعات التي حدثت في الماضي . ومما يستبان للبعض أكثر غرابة هو ان الشعب وسط كل هذه الفاجعات والمصائب أصبح في حالة أسوأ مما كان عليه قبلاً ، كما حدث في أورشليم عند خرابها . كما ان روح الثورة كانت سارية بين الأتراك ، وكان المسيحيون أيضاً منقسمين فيما بينهم ...

٢٠

خيانة الأسبناقجي[١]

في ربيع سنة أربع وستين وسبع مئة وألف تولى الحكم في ولاية بغداد عمر بك ، مملوك سليمان باشا أبي ليلة ، بعد مؤامرة بارعة دبرتها جماعة الكهيات الستة [٢] بالاتفاق مع عادلة خاتون لقتل زميله وسلفه علي باشا. وقد قُدر له أن يحكم هذه الولاية الخطيرة ثلاث عشرة سنة من الحكم الضعيف الأخرق ، الخالي من التبصر ، الذي أوقعه في مشاكل لا تعد ولا تحصى مع جميع الجهات . حتى مات في النهاية ميتة شرب فيها من نفس الكأس التي سقى منها ضحيته علي باشا من قبل .

فقد تسلم عمر باشا مقاليد الأمور في الولاية والبلاد في وضعٍ مضطرب وأحوال غير مستقرة ، وتربع في دست الحكم المبني على الدس والتآمر وهو غير أهل للاضطلاع بأعبائه . فشرّقت سفينة البلاد وغرّبت في أيامه من دون هدىً ، واضطربت أحوالها فازدادت سوءاً على سوء في النهاية . وكان أول ما التفت اليه أمر تأديب العشائر العربية في الجنوب وسوق الجيوش عليها ، فجرّد أول حملاته على حمود شيخ الخزاعل ، ودمر حاضرته لملوم ، واعدم عدداً من الرؤساء من دون رحمة ، ثم استُبدل الشيخ الثائر بغيره بعد أن فر هارباً من وجه الجيش. وثارت قبائل كعب في عربستان التي كانت تابعة للعراق يومذاك بمؤازرة من الايرانيين والانكليز المسيطرين على الخليج ، فلم يستطع عمر القيام بشيء حاسم تجاهها . ثم سيقت حملة أخرى بعد مدة غير يسيرة على

---

(١) المراجع : المماليك في العراق لمؤلفه الاستاذ أحمد الصوفي الذي اعتمد في هذا الموضوع على « تاريخ جودت » التركي بالكلية . ٢ : أربعة قرون للمستر لونكر يك . ٣ : دوحة الوزراء . ٤ : مختصر مطالع السعود .

(٢) راجع الصورة الص ١٤٦ بعنوان : امرأة تتحكم في باشوية بغداد .

الشيخ عبدالله السعدون في المنتفك ، وأعدم على أثرها عبدالله بك الشاوي فأدى ذلك الى نشوء قلاقل جديدة بسبب الحادث فأفضت الى اضطراب الحالة فيما يحيط بالعاصمة نفسها . ومع جميع القسوة التي استعملت في هذه التأديبات والحملات العسكرية فقد ظل نفوذ حكومة عمر باشا يقل بالتدريج ، وفقد حتى قدرته على عزل الشيوخ الرسميين وخلق غيرهم . وقلت قيمة فرامينه شيئاً فشيئاً فلم يعد للحكومة تأثير بالكلية من القرنة الى حسكة من جهة الفرات والى منطقة زبيد من جهة دجلة[1] .

ولم يقتصر تصرف عمر باشا الأخرق على هذا فقط بل تعداه الى المناطق الكردية في الشمال كذلك . ولكن المشاكل الكردية لم تكن معالجتها أمراً يسيراً يقتصر على الحملات التأديبية الآنية فقط بل كانت هناك مشاكل حساسة أدت الى حصول أزمات سياسية مع ايران تجاوزت في تأثيرها حدود البلاد العراقية فورّطت الدولة العلية معها في الوقت الذي كانت منشغلة فيه بكفاح مرير مع روسية القيصرية في تلك الأيام . فقد كان من المعروف في تلك العهود أن أبناء الأسرة البابانية الحاكمة في الأصقاع الشمالية الممتدة الى الحدود الايرانية العراقية ، كثيراً ما كانوا يختلفون فيما بينهم ويتناحرون على السلطة فيرتمي قسم منهم في أحضان الدولة الايرانية لتشد أزره . ويبقى القسم الآخر موالياً للدولة العثمانية وممثلها الباشا الوالي في بغداد ، فيؤدي سلوكهم هذا الى تصادم الدولتين المتجاورتين في كثيرٍ من الأحيان. وحدث في أيام عمر باشا تنافس شديد على السلطة من هذا القبيل بين محمد باشا بابان (بن خالد باشا) متصرف لواء بابان وأخيه الصغير محمود باشا متصرف لواء الكوي (كويسنجق) . فقد اختلف الأخوان فيما بينهما اختلافاً ظل يشتد ويتزايد حتى أدى الى نشوب قتال بين الطرفين برغم توسط عقلاء القوم ورجال الدين بينهما ، وراح كلٌ منهما يلتجيء الى عضيده وحاميه في شيراز أو بغداد. وحينما علم محمد باشا أن أخاه وغريمه قد تلقى مساعدة لا يستهان بها بالمال والجند من بغداد ارتمى

---

(١) لونكريك .

في أحضان الوصي على العرش الإيراني كريم خان زند فآزره وزوده بما يريد .
وقد رد عمر باشا على ذلك في الحال بعزل محمد باشا عن المتصرفية وإلحاقها بمتصرفية أخيه محمود باشا في كويسنجق . فتطور الامر بنتيجة ذلك حتى انقلب الى صدام مسلح اندحر فيه محمد باشا وفر هارباً الى ايران . وهناك وسّط كريم خان زند في معاونته على الرجوع الى منصبه في قره جولان [1] بعد استحصال العفو عنه من عمر باشا . ولأجل أن يتوفق في مسعاه هذا دبر إرشاء عمر باشا وايصال مبلغ كبير من المال اليه ليقبل اعتذاره . لكن الباشا الأخرق استساغ أخذ الرشوة على ما يبدو ونكل عما تعهد به ، فرد على رجاء الوصي الايراني رداً جافاً يخلو من الكياسة والذوق ، ويرفض فيه التدخل في شؤون ولايته الداخلية .

وكان من الطبيعي أن يغضب كريم خان من هذا أشد الغضب . وأن يزداد سخطه على الباشا المملوك في بغداد ، فجهز محمد باشا قوة عسكرية مناسبة زحف على رأسها لاسترداد عاصمته المضاعة قره جولان . ووقعت على مقربة منها موقعة حامية بينه وبين أخيه محمود وقـد انضم اليه في هذه المرة أخوهما الأكبر أحمد باشا بعد أن أطلق سراحه من السجن الذي كان محمد قد أودعه فيه ، وعلى أثر استدراجه اليه بخدعة مستنكرة . فهزم محمد باشا شر هزيمة برغم تفوق القوات التي كان يقودها في العدد والعُدد .

فزاد هذا الانتصار المدوي في الطين بلة ، واشتدت نقمة الوصي الايراني على عمر باشا حتى تصعد العداء وانتقل الى الصعيد الدولي الذي كادت أن تشتبك فيه الدولتان الايرانية والعثمانية في أحرج الظروف . وقد كانت هناك مقدمات وممهدات لتفاقم هذه الأزمة، وظلت تتجمع منذ أن تولى الحكم عمر باشا في بغداد . فقد كان الحجاج الإيرانيون ، الذين يمرون بالعراق في طريقهم الى بيت الله الحرام . كثيراً ما يحتقرون في أيامه من دون وازع ، ويعاملون معاملة سيئة لم تكن تسكت عنها دولتهم . وكان الزوار الذين يفدون

---

(١) عاصمة البابانيين قبل تشييد السليمانية ، وهي تكتب في الأصل « قلعة جوالان » لكنها تخفف باللفظ بحيث تكون قريبة من لفظ « قره جولان » . ولذلك يفضل الكثير من المؤلفين كتابتها بهذا الشكل.

من ايران في المواسم المعروفة لزيارة العتبات المقدسة في العراق يلاقون نفس المعاملة والصعوبة . كما كان الوصي الايراني قد فاتح عمر باشا . على أثر النكبة التي أنزلها طاعون سنة ١٧٧٠ ببغداد والبصرة وسائر انحاء العراق وفتك فتكاً ذريعاً فيها . بتسليم الأموال والمخلفات العائدة للأسر الايرانية الكثيرة التي محاها الطاعون الرهيب من الوجود . فقد كانت تقطن في بغداد والبصرة بصورة مؤقتة ما يزيد على سبع مئة أسرة ايرانية أتى عليها الطاعون المذكور عن بكرة أبيها وخلفت أموالاً تعود لوارثيها الشرعيين في ايران . الذين ثبت حقهم فيها بأحكام شرعية صادرة من محاكم مختصة . فرفض الباشا تسليمها وضمها الى ثروته الخاصة[1] .

وكانت نتيجة هذا كله أن نفد صبر كريم خان زند على ما يظهر . بعد أن حاول معالجة الأمور بالطرق السلمية . ولم يبق في قوسه منزع . فشرع بتعبئة الجيوش . وسيّر عدداً منها لمهاجمة العراق من عدة جهات : فجرد حملة كبيرة يقودها أخوه صادق خان على البصرة وكانت عدتها عشرين ألف مقاتل . وساق حملة أخرى بقيادة الأمير نظر علي خان فاخترقت الحدود العراقية من جهات ديالى واحتلت درنة ومهروت ومندلي وبدرة . في طريقها الى بغداد . كما سيقت حملة ثالثة يقودها محمد شفيع خان على بلاد الأكراد في الأصقاع الشمالية فتوغلت فيها حتى أشرفت طلائعها على كركوك . واتجه قسم منها الى مواقع أخرى في منطقة الشهريزور وأخذت تزحف نحو قره جولان . وبذلك أصبح موقف العراق العسكري بالغ الخطورة .

ولم يكن يخفى كل هذا على أولياء الأمور في استانبول بطبيعة الحال . لكن عمر باشا أدرك عظم الأغلاط التي اقترفها، فراح لتوه يستنجد بالباب العالي ، لأن قواته لم تكن قادرةً على الوقوف في وجه هذه الجيوش من حيث العدد والعُدد . ولأن خزانته الحكومية كانت خاوية على عروشها . فحاولت الدولة العثمانية حصر هذا الاشتباك في نطاقه السياسي وحله بالطرق الدبلوماسية السلمية

---

(١) أحمد الصوفي ، المماليك في العراق .

على قدر الامكان، لأنها كانت تعتقد على ما يظهر بأنه لا يخرج عن حد الخلاف والخصومة بين الوصي الإيراني والباشا المملوك. فقررت أن تنتدب لمفاوضة كريم خان زند في هذا الشأن الأديب المعروف يومذاك وهبي أفندي سنبل زادة. وأن تستمزج رأي حكام الولايات القريبة والمجاورة حول الموقف. فقدمت التقارير المطلوبة، وكان أهمها تقرير سليمان باشا الجليلي والي شهريزور. فقد أيد النقاط التي أوردناها كلها. وزاد عليها في النهاية أن النزاع يمكن أن يعتبر نزاعاً شخصياً بين وصي ايران وباشا بغداد من جراء السياسة الخرقاء التي كان يسير عليها عمر باشا. وأن كريم خان لم تكن عنده نوايا توسعيه اعتدائية في ذلك الوقت.

وقد كان لتقرير سليمان باشا الجليلي وقع مؤثر في الباب العالي، فقرر أولو الأمر هناك إقصاء الباشاوات المماليك عن حكم العراق وعلى رأسهم عمر باشا، الذي تدنت أحواله في تلك الأثناء الى حد تقاعس فيه عن انجاد البصرة بعد أن حاول محاولة غير جدية ففشل فيها، وارتكس بكليته في حمأة الرذائل التي أوقعه فيها «العميل» الإيراني عجم محمد. فقد انصرف انصرافاً تاماً الى ملذاته ولياليه الحمراء التي اعتاد أن يحييها للباشوات واعوانهم في بغداد هذا العلج الوضيع فيستولي على لبهم بها ويقضي لباناته بواسطتهم. وأصم أذنيه عن تلبية طلبات البصرة المتكررة التي ضربت القوات الإيرانية نطاقاً قوياً من الحصار حولها فاستقام أربعة عشر شهراً. كما قرروا استبدال الوالي المنقول عمر باشا بمصطفى باشا الاسبيناقچي والي الرقة. ودعمه بتجريد بعض القوات معه بقيادة أوزون عبدالله باشا والي ديار وبكر وسليمان باشا الجليلي والي شهريزور. على أن يكتم الجميع ما عزمت عليه الدولة ويتظاهرون بكونهم جاؤوا لمساعدة عمر باشا في حروبه مع ايران. وقد خوّل الاسپيناقچي علاوةً على ذلك باعدام سلفه اذا امتنع عن تسليم الولاية. وبالعمل على انجاد البصرة بالسرعة الممكنة. وقد وصل الجميع الى بغداد تصحبهم قوة من الجيش يبلغ مجموع مقاتليها زهاء ثمانية آلاف جندي، فانفتحت بوصولهم صفحة جديدة من صفحات المأساة المؤلمة. وكان ذلك في بداية عام ستة وسبعين وسبع مئة وألف.

وقد أمر مصطفى باشا الاسبيناقجي عند أول وصوله باحضار عمر باشا اليه . فبلغه بأمر نقله الى ديار بكر وأكد عليـــه بأن يتوجـــه اليها بأسرع ما يمكن ، ثم سلم له الفرمان الهمايوني الصادر بذلك ، فتقبل عمر الأمر بالطاعة والإذعان لهذا النقل المشرف الذي كان يتوقع شيئاً أسوأ منه . وبعد أن جمع ثروته وخزائنه وأمتعته كلها خرج مع أعوانه وعياله من بغداد وخيّم في « المنطقة » بطريق الكاظمية تمهيداً لمغادرة البلاد بالقافلة . وعند ذلك دخل الاسبيناقجي ولايته الجديدة وتسلّم زمام الحكم في سرايها . وكانت البصرة في تلك الأثناء ما تزال تعاني ويلات الحصار الايراني المضروب حولها ، وتبدي بقيادة متسلمها سليمان أغا (الذي أصبح سليمان الكبير بعد ذلك) مقاومةً باسلة برغم جميع الانتكاسات والظروف السيئة المحيطة بها . وحينما وصل الباشوات الجدد الى بغداد تصحبهم قواتهم المدججة بالسلاح انتعشت الآمال في انجاد البصرة . واستبشر الناس في انحاء الولاية كلها فسرت موجة عارمة من الفرح في البصرة وغيرها .

غير أنه ما كل ما يتمنى المرء يدركه . فقد تطورت الأحوال بخلاف ما كان يتوقعه الناس في العراق وأولوالأمر في الباب العالي . وبرهن الباشا الأسبيناقجي على كونه لا يختلف كثيراً عن عمر باشا واضرابه في عدم لياقته للحكم الصالح ، وشدة طمعه وانجرافه في الانقياد الى النفس الخسيسة الأمارة بالسوء . برغم اختلافه عنه في العنصرية والمنبت . إذ لاحظ أن عمر باشا كانت له أموال طائلة ، وثروة يسيل لها اللعاب . أخذ ينقلها الى خيمه في « المنطقة » ويرزمها باتقان ليأخذها معه الى مقره الجديد ، فطمع فيها وسوّلت له نفسه الشريرة ان يستولي عليها لتكون فاتحة الحظ له عند أول توليه الحكم في هذه البلاد الغنية . وأوصل اليه المغرضون في تلك الأثناء اشاعات خبيثة تفيد أن عمر باشا كان يتعمد التأخر في مغادرة البلاد لأنه ينوي تدبير حركة عصيان على الدولة التي نقلته . فوقعت تلك الاشاعات موقعاً مقبولاً في نفسه وقرر العمل . فداهم عمر باشا في إحدى الليالي وهو أعزل في خيمه للقبض عليه . لكن عمر قاوم مقاومة مستميتة وركب جواده لينجو بنفسه

وهرب في اتجاه الكاظمية . غير ان جواده كبا به في ظلمة الليل ، كما كبا به حظه من قبل . ووقع من فوقه فدقت عنقه . ثم جيء برأسه الى مصطفى باشا فأودعه في صندوق خاص وبعث به الى استانبول مرفقاً بكتاب يشرح فيه أن عمر باشا قتل في أثناء محاولة صدرت منه لإعلان العصيان . وعند ذاك استصفى الاسبيناقجي ثروة عمر فكانت أول الغيث بالنسبة له . وأعقب هذا بمضايقة أغنياء بغداد وأصحاب الثروة فيها . وراح يجبي منهم الأموال بحجة تدبير تكاليف الحرب مع ايران . حتى ضج الناس واضطروا الى رفع المضابط الى السلطان يطلبون فيها وضع حد لهذا الابتزاز المفضوح .

وبعد أن دشن الاسبيناقجي أعماله بهذه الباكورة غير الموفقة . على غير ما كان يريده المسؤولون منه بطبيعة الحال . التفت الى ناحية أخرى تورط أولئك المسؤولين مع المماليك وتنافي التوصية التي تلقاها عند مجيئه بكتمان أمر تصفيتهم والقضاء عليهم . فقد أخذ يضايقهم بقصد ابتزاز المال منهم لنفسه . ويستفزهم بالتصريح بأنه جاء الى بغداد ليقضي على المماليك وينقذ الدولة والولاية منهم . فادت هذه السياسة الهوجاء الرعناء الى عكس ما كانت تبتغيه الدوائر المعنية في الباب العالي . لأن عبدالله أغا الكهية الذي ترأس المماليك بعد عمر باشا هرب مع جماعة من اتباعه وبني جلدته المماليك الى شخرود [1] في جهات مندلي . وأعلن العصيان فيها . والتحق به هناك من بقي من المماليك ومن يناصرهم . أو ينقم على العهد الجديد . فألف منهم جيشاً قوياً أخذ يتحدى به بغداد ومن فيها . واحتل بعض المواقع المهمة في الولاية . وحينما حاول مصطفى الاسبيناقجي تأديبه . وتشتيت شمل القوات الملتفة حوله . فشل فشلاً ذريعاً أصبحوا بنتيجته يهددون بغداد نفسها بخطر السقوط .

أما من ناحية أخرى . فقد راقت للاسبيناقجي حياة بغداد ولياليها الحمراء على ما يبدو . فقد استولى عليه عجم محمد . وأوقعه في حبائله وشراكه . كما استولى على عمر باشا من قبل . وراح يزين له حياة الأنس والقصف ويثنيه عن الشق الثاني من المهمة التي انتدب لها منذ البداية . وهي مهمة انجاد البصرة . ولأجل أن يبقى حراً في تصرفه وعبثه . بعيداً عن أعين الرقباء .

---

(١) لعلها شاه رود .

طلب الى زميليه أوزون عبدالله باشا وسليمان باشا الجليلي أن يغادرا بغداد لأن مهمتهما قد انتهت على حد قوله ، فتم له ما أراد وعاد الزميلان مع قواتهما من حيث جاءا .

وليت الاسپيناقجي اكتفى بهذا التدبير الأثيم وحده ، لكنه ارتأى بتحريض من عجم محمد في أغلب الاحتمال أن يتمادى في خيانته فيكذب على أولي الأمر في استانبول ويخبرهم بأن البصرة قد أصبحت تابعةً له ، وأن الايرانيين قد جلت جيوشهم عنها . ولعل الإيرانيين أنفسهم قد أوهموه بالصلح ، وكفهم عن القتال ، على لسان عميلهم عجم محمد . لكن البصريين ومتسلمهم سليمان أغا كرروا استغاثتهم به، ثم أغلظوا له القول وأنذروه بسوء العاقبة بعد أن ضاقت بهم سُبُل الحصار وتعذرت عليهم وسائل العيش البسيط فاكلوا لحوم الخيل والكلاب . لكن مصطفى باشا الاسپيناقجي أبى إلا أن يكمل دوره الرفيع في الخيانة، فقد كتب الى البصريين بعجزه عن امدادهم بشيء ونصحهم بان يستسلموا للإيرانيين أو يسترضوهم بشيء من المال ليرفعوا عنهم الحصار المميت ويخففوا عنهم الضائقة . فانقطع أمل البصريين بذلك ، وخاب رجاء المتسلم سليمان أغا ، ففاوضوا صادق خان بالتسليم ودخلت الجيوش الايرانية الى البصرة في منتصف نيسان سنة ١٧٧٦ . وعندئذ تم القبض على المتسلم سليمان أغا مع الدفتردار ومأمور الكمرك وبعض وجوه البصرة وأعيانها ، وسيقوا أسرى الى شيراز بعد أن استصفيت أموالهم .

وحينما استفحل أمر المماليك وثورتهم بزعامة عبدالله أغا الكهية لم يجد الاسبيناقجي بداً من الاستنجاد بالباب العالي وطلب المعونة العسكرية منها . لكن السلطان ، ومن يحيط به من أولي الأمر في استانبول ، وقفوا على جميع تصرفات الاسبيناقجي وساءهم ما بدر منه بعد أن وضعوا ثقتهم فيه ، ثم تلقوا شكاوى متتالية من الأهلين وعبدالله أغا زعيم المماليك ، فتقرر عزل الاسبيناقجي وسوقه مخفوراً الى ديار بكر .

وهكذا تفعل الخيانة فعلتها الشنيعة ، فيلقى الباشا الاسبيناقجي مصيره المحتوم بسببها . فقد غادر البلاد مذموماً مدحوراً ، وما وصل ديار بكر حتى وردت الأوامر المستعجلة باعتقاله هناك وإعدامه ، فاعدم غير ماسوف عليه .

٢١

عجم محمد[1]

كان العراق في عهد المماليك قد أصبح ملجأ للمتشردين ، وملاذاً لشذاذ الآفاق والمغامرين ، من أبناء الأجناس والقوميات الغريبة المختلفة . فقد توارد اليه الأتراك والإيرانيون ، وقصده الأرمن واليونانيون . وجيء اليه بالقفقاسيين من كل فج عميق .

وكان من بين من جاء في أيام الوالي المملوك سليمان باشا ابي ليلة من هؤلاء شاب أمرد ايراني الأصل ، جميل الخلقة حلو المحيا ، تصحبه أمٌ مدبرة وأختان جميلتان تجيدان الرقص. وكان مجتمع بغداد في تلك الأيام قد تطورت به الأحوال ، وأصبح يستسيغ حياة التقصف واللهو ، وتحسنت أحوال الطبقة الحاكمة فيها فراح الكثيرون من أبنائها يحيون حياة الدعة والثراء ويتوسعون في سبل العيش حتى أصبحت سوق الرقص والغناء نافقةً فيما بينهم. فلم يكن من هذا الشاب الطارىء، وقد ضاقت به سبل العيش ، إلا أن يؤلف جوقة ترفيهية يتولى فيها هو الغناء والتدبير ، وتختص فيها أختاه بالرقص، بينما تقوم الأم بالدق والضرب . وصارت هذه الجوقة «العائلية» تغشى المحافل والأندية ، وترتاد بيوت كبار القوم وعليتهم ، حتى نُبه ذكر الشاب الإيراني وأقبل الناس عليه فصار يعرف في كل مكان بإسم « عجم محمد » ، أي محمد العجمي .

وقد عظم شأنه بالتدريج ، فصار يُندب للملمات ويقضي للناس الحاجات ،

---

(١) المراجع : دوحة الوزراء ، مطالع السعود ، مرآة الزوراء ، أربعة قرون ، مختصر تاريخ بغداد لعلي ظريف الاعظمي .

بالتوسط عند كبار الشخصيات والرجال ، وفي دواوين الحكومة ودوائرها ، لقاء أجور فاحشة وهدايا ثمينة . فازدادت ثروته وكثر ماله ، وما مرت عليه سنين معدودة حتى تفتحت له الآفاق وترعرعت في نفسه المطامع ، وأخذ ينشد المناصب الحكومية المرموقة ويسخّر لها بضاعته المرغوبة وأساليبه المعروفة. فاستطاع بهذا أن يستحوذ على عدد من باشوات المماليك وغيرهم ، ويعبث بمقدرات الحكومة والبلاد من ورائهم . حتى قُدر له أن يشغل البلاد وأهلها ، خلال فترة تناهز العشرين عاماً ، بدسائسه واطماعه . ويشق بغداد ومن فيها ردحاً طويلاً من الزمن .

فقد استولى على الوالي المملوك عمر باشا ببضاعته المغرية وأخذ بلبه فعينه دويداراً في حكومة الولاية . وبهذا صار يظلم الناس ويشي بالتجار فهرب منه الكثيرون ، وانحطت سمعة الباشا بسببه الى أسفل الدركات . وعينه عبدالله باشا (المملوك) في منصب الكهية بعد أن عزل كهيته السابق اسماعيل أغا . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى منصب الوالي الوزير ، الذي سرعان ما أخذ يحوك الدسائس للوصول اليه . ويغامر بالمؤامرات ليحصل على المنصب الأول في الولاية .

وقد كان عجم محمد ، وهو يصرّف نفوس الباشوات الضعيفة بأخس العواطف ، يتلاعب بمقدرات الدولة العثمانية ويعبث بمستقبل العراق وولاياته . فحينما استولى على عقل عمر باشا كانت الأحوال قد تأزمت بين هذا الباشا وكريم خان زند ، عاهل ايران ، فأدت بالخان الى أن يسوق الجيوش على العراق من الشمال والجنوب ، ويهاجم البصرة الفيحاء فيضرب نطاقاً قوياً من الحصار حولها . وأخذت البصرة تستغيث وتستنجد بعمر باشا فلم يحاول انجادها بصورة جدية . وشاع في الأوساط والأندية أن عجم محمد هو الذي زيّن له التماهل والقعود عن انجادها ، وصرفه عن نصرتها فألهاه بملذاته وألاعيبه الشيطانية . وبقي على حالته هذه حتى صدر الفرمان بنقله ، ووقعت حادثة قتله . فتسلم الحكم في الأيالة من بعده الحاج مصطفى باشا الاسبيناقجي والي الرقة . فانبرى عجم محمد للوالي الحاج هذا بكل ما عنده

من سلاحٍ مغرٍ وأساليب جهنميّة ، وراح يحيي له الليالي الحمراء ويتحفه بالهدايا الثمينة من غير حساب . وطفق يقدم له المشورة الخبيثة كما يُقدم السم بالدسم . وما زال به حتى صرفه بالكلية عن إغاثة البصرة التي ظلت صامدة للحصار شهراً بعد شهر ، وجعله يوعز في الأخير الى متسلم البصرة سليمان أغا بالاستسلام . فاستسلمت البصرة واصبحت تابعةً لشيراز. ثم أقنعه بأن يعينه خزنة داراً للولاية ، فتسلم الخزانة وما فيها .

وقد لقي الاسبيناقجي جزاءه العادل لقاء تصرفه المشين وانقياده الأعمى لهذا العميل . فعاد الحكم للمماليك بشخص عبدالله باشا . ومع أن هذا الوالي كان يتصف بالكثير من الخور وضعف العزيمة ، فقد كان الأمل معقوداً عليه في سوق الجيوش الى البصرة واستعادتها الى حظيرة الحكم العثماني . لكن عجم محمد كان يقف له بالمرصاد . ولما كان عبدالله باشا هذا ميالاً بطبيعته الى اللهو والفجور ، كان من السهل على عجم محمد وهو يشغل منصب الخزنة دار في الوقت نفسه أن يستحوذ عليه ويلهيه عن شؤون الولاية ومشاكلها . فزيّن له التقاعس عن استرداد البصرة والمماطلة في أمر انقاذها . وذهب الى أبعد مما كان يمكن أن يذهب اليه ، فأغفل الباشا العليل كذلك ، حينما جاء المدد من استانبول لهذا الغرض ، وفرق الجيش على الحاميات بحجة جلاء الايرانيين عن البصرة وانسحابهم منها . وزوّر كتاباً بهذا المعنى فمهره بختم الوالي من دون علمه فأرسله الى المراجع المختصة في استانبول .

ولم يكتف عجم محمد بذلك فقط ، بل كان يغتنم الفرص والمناسبات لتكديس الثروات ، واكتناز الذهب والمجوهرات ، من دون أن يردعه رادع أو يحول دونه وازع . ولا غرو . فقد كان يدرك تمام الادراك أن الثروة والمال هما اللذان يذللان له الصعاب ويحلان له العقد ، سيما في مجتمع تدهورت أحواله . وانحط مستواه الخلقي فضاعت المقاييس فيه بحيث صار من الممكن لشخص مثل عجم محمد نفسه أن يتسنم منصب الكهية ، ويطمع حتى بالوزارة . وكذلك فانه لم يتورع عن اختلاس المبالغ التي بعثت بها الدولة لتلافي نفقات الحملة التي كان يجب أن تساق الى البصرة من دون أن يستطيع عبدالله باشا محاسبته عنها .

وكان لا بد للجهات المختصة في الباب العالي من أن تدرك فساد الوضع في بغداد . ولو في وقت متأخر . وتشعر بضعف عبدالله باشا أو عجزه عن استرداد البصرة . فانتدبت لمعالجة الموقف سليم أفندي أحد رجال الحاشية الذي كان مسؤولاً عن ترشيح عبدالله باشا للولاية في بادىء الأمر . فقدم الى بغداد واستبشر الناس بقدومه . وهم يؤملون نجاحه في أن يزيل عنهم كابوس عجم محمد وتأثيره السيء في البلاد . غير أن ذلك الأمل ما لبث أن تبدد . لأن المبعوث الهمايوني المبجل كان ميالاً لا بل شغوفاً بالملذات وعاكفاً على معاقرة بنت الحان . وسرعان ما وقع فريسة لشباك عجم محمد وشراكه . كما فعل الباشوات من قبل . فقد أخذ يداريه ويداوره . ويمهد له سبل الأنس والملاذ . ثم قدم له كيساً من المجوهرات الثمينه . وهكذا نسي سليم أفندي . في غمرة هذا النعيم الذي وجد نفسه مغموراً به . المهمة الخطيرة التي انتدب لها . لكنه صحا من غفوته بعد مدة . وتذكر الوعد الذي قطعه على نفسه بحضور المسؤولين في الباب العالي حول استرداد البصرة . فقرر بعد التداول والمذاكرة . مع عجم محمد بطبيعة الحال وعميله عبدالله باشا . أن يسلك أسهل الطرق لحل المشكل فانتدب لمفاوضة العاهل الايراني في شيراز الوجيه العربي المعروف يومذاك محمد بك الشاوي . ثم عاد الى مسراته وملذاته يعب من أفاويقها عبا .

وقد كان استيلاء عجم محمد على سليم أفندي هو الذي أدى به الى تسنم منصب الكهية . لأن سليماً أقنع عبدالله باشا في أواخر أيامه التي كان طريح الفراش فيها بعزل الكهية أسماعيل أغا وتعيين عجم محمد في مكانه . فتم له ما أراد . وبذلك أصبح ذلك « الراقوص » المحترف الذي كان يعرض بضاعته المنحطة على الناس في الحفلات والأفراح . ويسلي السكارى في الليالي الملاح . الشخصية الأولى في الولاية بعد الباشا الوزير . وأخذ بيده مقاليد الأمور في الدوائر الحكومية كلها . وليت الأمر اقتصر على هذا فقط . لأن عجم محمد ظل يبتغي المزيد وصار يطمح بالوزارة نفسها . ولمَ لا يفعل ذلك وقد وجد نفسه بين عشية وضحاها يرتفع من الحضيض الى الأوج في ظروف قلما يجود الزمان بها على لكع من مثله . وأحوال ارتبك فيها ميزان القيم فصيرت المملوك حاكماً مسيطراً والقرض البغيض جباراً ترنو اليه الابصار وتنحني له الرقاب .

وتطور الأمر في بغداد تطوراً خطراً ، بعد أن ظلت نذر العاصفة تتجمع بالتدريج لتنفجر انفجاراً يزج البلاد في فوضوية مضطرمة عدة سنوات . فقد توفي الباشا المنحط عبدالله التوتونجي بداء الاستسقاء [1] ورحل الى الدار الآخرة مثقلاً بالمآثم والأوزار . فتولى في مكانه بالوكالة المبعوث الهمايوني سليم أفندي ريثما يتسنى للمسؤولين في الباب العالي تعيين باشا آخر في محله . غير أن هذا الترتيب لم يرق لعجم محمد الذي كان يريد أن يتربع هو في دست الحكم بالوكالة ، الى أن يتمكن من اقناع من بيده الحل والعقد في استانبول بتعيينه للولاية أصالةً بعد أن يبذل لذلك ما يقتضي بذله مما كدسه من مال ونفائس . ولم يرق هذا الترتيب كذلك للكهية السابق اسماعيل أغا الذي نُحي عن منصبه ظلماً وعدواناً . وهو ما يزال مدعوماً بالكثير من الأشياع . وما حصل ذلك حتى اشتعلت نيران الفتنة في بغداد ، وراح الفريقان يتسابقان الى جمع الأصحاب والأتباع حتى اقتسما المدينة فيما بينهما . فانقسم الناس فيها الى حزبين متناحرين : حزب منحاز الى عجم محمد وآخر الى اسماعيل آغا الكهية المعزول . وكان سليم أفندي مبعوث الدولة العلية من مؤازري الأول بطبيعة الحال ، وبتأثيره هو انحاز أهالي الميدان والمهدية والقراغول والفضل اليه . بينما انحاز أهالي باب الشيخ ورأس القرية والشورجة وما جاورها . مع بعض الأتراك الى اسماعيل أغا . كما انحاز الى عجم محمد كذلك قائد الحامية الانكشارية محمد أغا ، الايراني الأصل ، ومن معه من رؤساء الانكشارية وضباطهم في القلعة فساعده هذا على الاعتصام فيها وتهديد بغداد بمدافعها . ثم راح اسماعيل أغا يستميل اليه أهالي « صوب عكيل » أي جانب الكرخ وكانوا قد وقفوا على الحياد في بادىء الأمر. فعلم عجم محمد بذلك وحسب أنهم قد انضموا الى خصمه بالفعل فسلط على الكرخ وابلاً من نيران القلعة وقنابرها . لكن عمله هذا دفعهم الى الانحياز بكليتهم الى اسماعيل .

وهكذا ارتبك الأمر على المبعوث الهمايوني سليم أفندي . ولم يعد قادراً

---

(١) أو السل في بعض المراجع .

على شيء بعد أن أضاع احترام البغداديين له بسلوكه المعيب وتصرفه الشائن ، ودنس سمعته فلطخها بالرغام . لكنه تذكر أن الباشا الراحل كان يستعين بوجيه بغداد وكبير سراتها الحاج سليمان الشاوي حينما تتأزم الأحوال وتضيق به الأمور . فاستدعاه اليه وناشده العمل على حل المشكل واخراجه من المأزق . وقد تمكن الحاج سليمان من تهدئة الاضطراب تهدئةً مؤقتة لأيام معدودة فقط ، وصار الناس يأملون عودة المياه الى مجاريها الطبيعية .

وفي غمرة هذه الحوادث المؤسفة تناسى سليم أفندي أمر البصرة التي ظلت ترزح في ظل الحكم الايراني البغيض لها ، وتنوء بأثقاله . وهو ما كان يريده عجم محمد والمخططون له . لكن محمد بك الشاوي مبعوث العراق الى العاهل الايراني عاد الى بغداد في تلك الأثناء وفي معيته السفير الإيراني حيدر خان يحمل كتاباً الى الوالي المتوفى ، ينطوي على شروط ثقيلة لقاء إخلاء البصرة والجلاء عنها . وبعد أن اطلع سليم افندي وحاشيتهالمختصة على الشروط أحجم عن البت فيها ، وترك أمرها الى الوالي الجديد الذي لم يكن قد عُين بعد . وهكذا تأجل مصير البصرة وبقيت في قبضة صادق خان ورجاله .

وقد تجدد القتال بين الطرفين المتنازعين في بغداد الحائرة ، واستؤنفت المناوشات بمقياس أوسع هذه المرة ، فعاد سليم أفندي الى الاستعانة بالحاج سليمان الشاوي مرةً ثانية . فكان من رأيه أن يطلب الى الكهيتين المتخاصمين ، عجم محمد واسماعيل ، ترك بغداد والتوجه الى كركوك للاقامة الوقتية فيها برعاية واليها حسن باشا لأن كلاً منهما مسؤول عن اثارة الفتن والقلاقل. لكن عجم محمد الذي كان سيد الموقف ظل يماطل في الأمر ويعرقل الحلول . حتى انحاز الشاوي الى خصمه اسماعيل أغا وجنّد في جانبه فئات الكرخيين المقاتلة من النجادة (أي عگيل) والمواصلة ورجال العُبيد أبناء قبيلته . وبهذا أدخل في النزاع دم جديد فاختل التوازن . واشتد القتال فاتسع مداه بحيث عبر الكرخيون الى المولة خانه وأنشأوا متاريسهم فيها ثم جمعوا جموعهم في خان جغان . ولذلك ظلت نيران الفتنة تشتعل في بغداد مدةً تقارب الخمسة أشهر ، سفكت فيها الدماء بغير حساب وانتهكت الحرمات ، ثم نهبت البيوت والأسواق.

وقد تدنت منزلة سليم أفندي وكيل الوالي في هذه الأثناء الى الحضيض ، فاضطر الى أن يهرب من منزله للاحتماء في دار الوالي الأسبق عمر باشا الكائنة في الدنگچية (شارع المأمون) . ويعود فيهرب من هذه مرة أخرى الى دار عبد الله باشا في محلة الميدان .

غير أن عجم محمد . وهو الماكر الماهر ، كان من الصعب أن تضيق به الحيل على ما يبدو . فقد اضطر حينما ضويق ولاحت تباشير النصر لخصومه الى أن يتصل بصاحبه القديم باش أغا اللاوند أحمـــد أغا بن محمد أغا الخليـــل وكان يرابط وقتذاك بقوته في بعقوبة . لانه كان قد جاء الى مقره هذا ليعرض خدمته على الوالي المتوفي لعله يستطيع العمل في قواته بعد أن اختلف مع والي كركوك حسن باشا فطرده من ولايته ، ولما كان أحمد أغا أفاقاً مغامراً يحترف القتال ويتصيد له المناسبات والفرص خف الى نجدة صديقه القديم فأمده بثلة من قواته اللاوند . وجاءت على عجل فخيمت في منطقة الشيخ عمر ، وراحت تشترك في القتال بجانب أهل الميدان .

ولا شك أن هذا التطور في النزاع هو الذي أدى الى تطاوله وتوسعـــه . وحينما تطاول على هذه الشاكلة ابتدأت في بغداد الى جنب القتال الحامي « حرب باردة » شنها الفريقان لتنظيم المضابط وجمع التواقيع عليها بقصد تقديمها الى المسؤولين في استانبول عاصمة السلطان . وترشيح الكهيتين المتخاصمين للمنصب السامي الشاغر في الولاية . لكن عنصراً جديداً لم يكن في الحسبان دخل الى الحلبة في هذه المرحلة . إذ ظهر على مسرح الحوادث منافس ثالث للكهيتين المتناحرين . وهو حسن باشا والي كركوك . فقد كان حسن باشا هذا من كهيات الولاية السابقين في بغداد، فترفع وعين لولاية كركوك . ولكن بصره ظل يرنو الى سراي بغداد طوال المدة التي فارقها فيها . وحينما تطورت الأحوال في بغداد بحيث صار أناس من أمثال عجم محمد يطمعون في وزارتها تجرأ على الحركة واغتنم الفرصة فقدم تقريراً مسهباً الى استانبول عن الحالة السيئة في عاصمة الأيالة ، ورشح نفسه لوزارتها . فنجح في مسعاه وأصدر السلطان الپادشاه فرمانه العتيد بتعيينه والياً لبغداد والبصرة سنة

ثمانٍ وسبعين وسبع مئة وألف (منتصف ١١٩٢ هـ) .

وما أن وصل هذا الفرمان الى بغداد حتّى انطفأت نيران الفتنة وخمدت . وتفرق الكثير من اتباع الطرفين ، ومن جملتهم أغا الانكشارية والمطرجي . فهربوا الى القرى والأرياف ، ثم عاد اللاوند الى رئيسهم في بعقوبة . لكن عجم محمد لم تسنح له الفرصة للفرار وبقي مقيماً في القلعة مع عدد من أعوانه بانتظار الوالي الجديد . وقد تكفله أهالي الميدان وضمنوا عدم فراره الى جهة من الجهات . وحينما توجه حسن باشا الى بغداد استقبله على مسافةٍ بعيدة منها الحاج سليمان الشاوي مع ثلةٍ كبيرة من أتباعه ؛ وبذلك قدم له الحماية المطلوبة تجاه ما كان يريد أن يتحركّ به أحمد أغا المرابط فيما يقرب من الطريق ضده . ثم دخل الباشا الى عاصمة أيالته وفي معينة الحاج الشاوي ، وأحمد الخليل نفسه، بعد أن اضطر الى أن يقدم دخالته في الطريق ويقبل بها الباشا ليجرد عجم محمد من اتباعه المهمين .

وقد باشر الوالي الجديد بنية حسنة وآمال معسولة . ولكن من دون أن يكون واثقاً من القوات المسلحة العائدة للولاية ؛ وتنفس أهالي بغداد الصعداء فأخذوا يتفاءلون بانفراج الكربة وزوال الأزمة . وراح حسن باشا يصرّف الأمور في ديوانه خلال اليومين الأولين من دون أن يلتفت الى عجم محمد أو يبت في أمره ، ثم تجاهله حينما جاءه آمر حرس القلعة أحمد أغاطيفور مرسلاً من عنده يطلب الاسراع في البت بأمره لأنه بقي « لا للموت ولا للحياة » . وعند ذاك صار عجم محمد يوجس خيفة من الباشا ، فأخذت نفسه تحدثه بالفرار وترك منصب الكهية وواجباته المنوطة به . فاتصل سراً بأعوانه في محلة الميدان وبأحمد أغا الخليل الذي كان . برغم استسلامه لحسن باشا ودخالته عليه، يخضر بنفرٍ من اتباعه خيالة اللاوند في كل ليلة تحت أسوار القلعة بانتظار سيده العجمي . وبعد ستة أيام من وصول الباشا داهم أحمد أغا القلعة في ظلمة الليل فأنقذ عجم محمد منها وأخذه الى المخيم الذي كان يعسكر فيه . وهناك أعلن تنصيبه والياً في بغداد ومنحه لقب « باشا » ، على قاعدة « وهب الأمير ما لا يملك » . وبهذا عادت نار الفتنة الى الاشتعال وأعلنت الثورة على الوالي الجديد في هذه المرة . وسرعان ما انضوى تحت راية هذه الثورة عدد كبير من الأتباع

والمغامرين ، وراحوا يقطعون الطرق ويعتدون على الناس أو يغيرون على القرى والقوافل بين بغداد وبعقوبه على الأخص .

ومع أن قسماً من قوات الثوار (سبعون بيرقاً) قد انشق عنهم بزعامة خالد أغا الكيكي ، وانحاز الى قوات الباشا الذي رحب بهم ، فقد اشتد أمر العصيان وامتد لهيب الثورة فاتسع نطاقها . فحاول حسن باشا الاستنجاد بأحمد باشا متصرف لواء بابان ، غير أن اتساع الخرق لم يكن يتحمل الانتظار . فارتأى أن يجرد على الثوار العابثين قوة غير كبيرة بقيادة كهيته عثمان باشا يسير فيها الدلي باشي معه وفريق من خيالة عشائر العبيد . وقبل أن يتحرك الكهية لمقاتلة العصاة أوصل أهالي محلة الميدان خبر تحركه الى عجم محمد وعضيده أحمد الخليل . فما كان منهما الا أن يستعدا للأمر وينقضا بقواتهما على الكهية قبل أن تخف لنجدته خيالة العبيد ، فيقضيان على قواته التي أنشق عليها الدلي باشي في أثناء المعركة وانضم الى صفوف الثوار . وبعد مقاومة باسلة رجع عثمان كهية الى بغداد وليس معه أكثر من خمسة عشر خيالاً من قواته .

وقد أحدث انكسار عثمان كهية ، وعودته الى بغداد بهذه الحالة ، كثيراً من الذعر والفزع في مقاهي بغداد وأزقتها ، وشيئاً غير يسير من خيبة الأمل في أنديتها ، وأوساطها المسؤولة ، لا سيما وأن قلعة بغداد كانت ما تزال في تلك الآونة في أيدي أهالي الميدان المؤازرين للثوار وخاضعة لحراستهم . فلم يكن من الباشا المتورط سوى أن يلحّ في طلب النجدة من أحمد بابان ويضاعف عدد الرسل التي عجلت بالسفر الى بلاد الجبال لتستحث محمد بك الشـــاوي ، الذي كان قد أوفد من قبل في هذه المهمة ، في التوجه بالمدد على جناح السرعة . وحينما تهيأ أحمد باشا للأمر ، وتوجه لانقاذ حسن باشا من خطر العلج الثائر ، أصابته يد القدر الساخر ببلوى من عندها فوقع مريضاً في قره طاغ وقضى نحبه بعد أيام . لكن أخاه محمود باشا تولى في مكانه وأقرته الحكومة على ذلك ، وحينما اقترب من بغداد بقواته التحق به عثمان كهية على رأس قواته الجديدة ، والحاج سليمان الشاوي مع ثلةٍ من عشائر العبيد . وفي مكان يقع على طريق الخالص كان يدعى « تل أسود » يومذاك اشتبكت هذه القوة مع قوة تقدر

بألف مقاتل من الثوار . فدارت على الأخيرين الدوائر وأبيدوا عن آخرهم . لكن « الباشا المزيف » عجم محمد و « قائد قواته » أحمد أغا الخليل . سرعان ما وليا الأدبار مع فريق كبير من أتباعهما الى جهات مندلي . وحينما تعقبتهم قوات الحكومة الى هناك ظفرت بهم في مكان يقال له « السبع رحي » أو « يدي د گرمان » بالتركية ، فوقعت هناك معركة حامية قُضي فيها على الثوار أو معظمهم وأسر مئة منهم . وهنا أيضاً استطاع عجم محمد أن يفلت من الأسر أو القتل مع رفيقه أحمد أغا ، ويخلف وراءه في ميدان المعركة جميع ما كان معه من أموال وذخائر فوقعت غنيمة في أيدي القوات الظافرة .

وبعد شيء غير يسير من المغامرة والتطويح التجأ الشريدان الطريدان الى بلاد اللور التابعة لايران ، وأقاما في كنف اسماعيل خان أمير الفيلية هناك . وقد كان من حظ عجم محمد ، وحسن الطالع الذي ظل يلازمه معظم أيام حياته . أن تتطور الأحوال في ايران من جديد فيقتل زكي خان الذي هيمن على شؤونها بعد كريم خان زند (وكان ابن عمه) ، ويتولى الأمور فيها من بعده علي مراد خان ابن أخي كريم خان . وكانت لعلي مراد هذا صحبة قديمة مع عجم محمد توثقت أواصرها حينما كان علي مراد أسيراً في بغداد على عهد واليها الأسبق عمر باشا ، وظلت قائمة الى ما بعد عودته الى ايران . ولما كانت نفس عجم محمد ما تزال تطمع في باشوية بغداد المتقلقلة من تحت واليها الضعيف حسن باشا ، ارتأى أن يتصل بصديقه القديم هذا ويطالبه بالعون والمؤازرة ، ليعيد الكرة عليها وينتزعها بالقوة . فكان له ما أراد ، فقد جهزه علي مراد خان بالمال والسلاح وخصص قسماً من رجاله واتباعه للعمل معه .

ولم يكن حسن باشا والي بغداد الجديد ذلك الشخص الذي يستطيع فرض شخصيته في الأزمات ، ويصرّف الأمور بحزم وقوة ، ولا سيما في ذلك الوضع المضطرب . فقد تهاون في اعداد القوات المطلوبة للمحافظة على هيبة الحكومة وأمن البلاد ، بعد النصر الذي أحرزته له على الثوار قوات الأكراد وعشائر العبيد العرب ، وظل عديم الثقة بما كان موجوداً في القلعة من قوات . وبقيت الحكومة في وضع ضعيف متقلقل عل أيامه حتى شعر بضعفها الصغير

والكبير في بغداد وما حولها . ولذلك سرعان ما التف الأعوان والأتباع حول عجم محمد ، وأحمد الخليل ، مرة ثانية حينما ظهرا في أطراف بعقوبة من جديد وراحا يستوليان على المناطق والقرى المجاورة لها ويعبثون فتكاً وفساداً في البلاد . وحينما تعرضت قوات العبيد لهما في منطقة « محمد سكران » كسراهم شر كسرة وظلا يطاردانها الى ما يقرب من الأعظمية . وعند ذاك فرض عجم محمد شبه حصار على بغداد نفسها ، اذ انقطعت الطرق المؤدية اليها ، ومنعت القوافل ، وتوقف سير السابلة . ولذلك ضاق الأمر بسكان بغداد ، وملّ الناس فيها من ضعف الوالي وعجزه عن معالجة مشكلة عجم محمد المستعصية . واستغل « الرتل الخامس » المندس في محلة الميدان . بانتظار عودة حاميهم وولي نعمتهم عجم محمد ، هذا الوضع المتأزم فتهيأت الأفكار لاشعال نار الفتنة في الداخل . اما حسن باشا فقد ظل حائراً في أمره . وبقي في سرايه المطل على دجلة يحرق الأرم . فلا هو قادر على طلب المساعدة العاجلة من أمراء الأكراد ولا هو يجرأ على الاستعانة بالعشائر العربية خوفاً من أن يحل بها ما حل بقوات العبيد مؤخراً فيحصل انهيار تام . ولم يكن يثق كذلك بجيشه وقواته القابعة في القلعة من دون أن تشعر بالمسؤولية ، أو تهزها الهزاهز . وهكذا تصل الدراما الى الأوج فينتهي أمر حسن باشا بانفجار الوضع في بغداد نفسها .

فقد وقع في تلك الأثناء (٣ شوال ١١٩٣) شجار بسيط بين شخصين في جهات الشيخ عمر فاستغله أهالي الميدان . وهم من أنصار عجم محمد ، وأخذوا يشغبون وينادون بسقوط الوالي حسن باشا ، ثم أقاموا المتاريس في الحواري والمحلات المحيطة بالسراي وهاجموا الباشا الموجود فيه . وكادوا يفتكون به لولا أن يخف الى نجدته ناظر خزينته خالد أغا فيحميه . وعند ذاك انتظر الى أن خيم الليل بظلمته البهيمة فانتقل محتمياً به الى القلعة الداخلية . ثم خرج في صباح اليوم التالي ، وكان يوم جمعة ، من باب القلعة الحديد القريبة من الشط واستقل زورقاً عبر به الى جانب الكرخ . وهناك نصبت له خيمة خاصة على مقربة من الحديقة العامة (البقچة) . وبعد أن أقام فيها عدة أيام

شد رحاله[1] هارباً الى ديار بكر فقضى نحبه فيها بعـــد وصوله اليها بأيام معدودة. وبذلك شغر منصب الوالي في بغداد من جديد . وهو ما كان يريده عجم محمد نفسه ، لعل الحظ يؤاتيه فيحل فيه .

وكان سكان بغداد وأعيانها قد عمدوا منذ أن ظهر عجم محمد في أطراف بغداد من جديد الى مراسلة المسؤولين في الباب العالي . وبينوا لهم الموقف الضعيف المتخاذل الذي كان يقف فيه حسن باشا ، ولا سيما تجاه مشكلة العلج الثائر الذي استعصى أمره على الحل كما يظهر . وحينما غادر بغداد هذا الوالي على أثر الحوادث الأخيرة بقيت من دون والٍ . فاستقر الأمر فيها على أن يشغل المنصب بالوكالة (أي أن يكون قائمقاماً) إسماعيل أغا الكهية الأسبق ، غريم عجم محمد وخصيمه . وقد نُظم محضر رسمي بذلك وأرسل الى استانبول عن طريق الـ (باش جوخه دار) الذي كان موجوداً في بغداد . بمهمة خاصة من الاستانة . لكن المسؤولين في الدولة العلية وردهم في الوقت نفسه طلب من سليمان أغا . بطل حصار البصرة الذي عاد من أسره في ايران الى منصبه بعد أن جلت القوات الايرانية عنها في عهد زكي خان . يلتمس فيه إناطـــة شؤون الولاية به فتمت الموافقة على طلبه في الحال وصدر الفرمان من السلطان البادشاه بتعيينه والياً[2] لأيالات بغداد والبصرة وشهرزور معاً . وجاء بالفرمان الى بغداد نفس الجوخه دار الذي أخذ محضر التوكيل الى استانبول في بادىء الأمر. فسرت فيها موجة عارمة من الفرح والابتهاج . لأن أهلها كانوا على يقين بأنه أقدر من يستطيع القضاء على غائلة عجم محمد وتخليص البلاد من شره .

وقد كان حسن ظنهم في محله . فلم يشأ سليمان باشا (الذي صار يسمى الكبير أو بيوك سليمان بعد ذلك) حينما وصل الى بغداد من البصرة في سنة

---

(١) بلغت مدة حكمه سبعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً ، على ما يذكره مؤلف دوحة الوزراء ، غير انه ورد في تاريخ العراق بين احتلالين انها بلغت سبعة عشر شهراً و ثمانية وعشرين يوماً وهو الأصح لأنه تولى الحكم في ربيع الأول ١١٩٢ وغادر البلاد بعد ٣ شوال ١١٩٣ .

(٢) تذكر المراجع المطلعة ، ومنها لونكريك ، ان الانكليز ساعدوه كثيراً في نيل هذا المنصب ، وقد ظل معترفاً لهم بهذا المعروف طوال مدة حكمه .

١٧٨٠ أن يدخل اليها قبل أن يبادر الى القضاء على عجم محمد وفتنته . إذ عبرت الجسر قوته المنتقاة التي جاءت معه الى الرصافة واتجهت الى « باب المعظم » فخيمت ليلةً في خارجها . واستقل سليمان وحاشيته بعدها زورقاً من شريعة تقع في « المنطقة » فعبر الى الرصافة ملتحقاً بها في اليوم الثاني . وقد تحرك على رأس قواته في اليوم نفسه الى جهات (الباب الشرقي) ، وبعد أن بات ليلةً فيها توجه في صباح اليوم الثالث الى منطقة ديالى الخاضعة لسيطرة العصاة . وبعد أن التحقت به بعض القوات من الشمال عبر جسر ديالى الى الجانب الثاني منه فتلقته قوات عجم محمد وجحافله التي وصل عددها الى عشرة آلاف مقاتل . غير أن سليمان باشا استطاع ، وهو القائد الخبير ، أن يمزق قوات البغي هذه شر ممزق بقوته التي لم تكن تزيد على أربعة آلاف مقاتل . وقد قتل في هذه المعركة الحامية عضيد عجم محمد المغامر أحمد أغا الخليل ، وعدد من كبار رجاله ، أما رأس الفتنة فقد استطاع أن يهرب الى ايران كالمعتاد مع عدد من خيالة أتباعه .

وهكذا بدأ نجم عجم محمد يأخذ بالأفول حينما ظهر سليمان باشا على مسرح الحوادث في بغداد . فقد خسر نصيره الافاق المغامر أحمد أغا الخليل ؛ وفارقه حسن الطالع الذي بقي ملازماً له مدة طويلة من الزمن ، فعبست في وجهه الأيام حتى في ايران موطنه وملاذه ، ومصدر وحيه وقوته ، وصار لا يستقر به موطن ولا يثبت به حال . لكن روح المجازفة التي جُبل عليها ، وطموحه الغريب في شتى أحواله وأطواره ، ظلا يلازمانه ويدفعانه الى العمل على ما يظهر برغم تناقص الفرص وتضاؤل المناسبات . ولذلك أقدم على مغامرة جديدة يورط فيها طرازاً آخر من الرجال بعد أن يئس ممن في ايران وأعيته الحيل فيها . فقد استطاع أن يتسلل بصورة خفية الى محيط بغداد عوداً على بدء ، ويقصد سريّ بغداد وكبير وجهائها الحاج سليمان الشاوي فيدخل فجأة « الى مضيفه الكائن في « قره أورمان » ويقع « دخيلاً » عليه . وكان الحاج سليمان أو أنئذٍ قد خاصم سليمان باشا الكبير وثار عليه عدة مرات ، فظل يقاتل كنهيته وقواته ويفر من وجهه مرة بعد أخرى ، حتى عفى عنه واشترط عليه أن لا يدخل بغداد بل يقيم في خارجها فقرر السكن في منطقة تقرب من « جسر

الحر » القريب من بغداد تسمى منطقة « تل أسود » أيضاً ، وكانت تقع في جوارها غابة تسمى « الغابة السوداء » أو « قره أورمان » حينذاك. فاضطر العربي النبيل الى أن يقبل دخالته على ما فيها من مجازفة ومسؤولية بالنسبة لظروفه . وأن يؤاويه برغم خسته وحقارته ، ويحميه على ما كان بينهما من خصومة واختلاف .

وسرعان ما شاع الخبر في بغداد ، ودواوينها ، وأخذت الشائعات تملأ الجو البغدادي المشحون بالطرائف والغرائب على الدوام . وعلم الباشا الوالي ومن يحيط به من رجال الولاية بالأمر فانتبهوا له ، وصاروا يخشون الفتنة وتجددها ، لا سيما وقد أصبح للشخصيتين المتناقضتين سجل حافل بأساليبها وألاعيبها . فكتب سليمان الى سميّة الشاوي يطلب اليه تسليم عجم محمد مخفوراً الى السلطات الحكومية في الحال . ولكن كيف يفعل الحاج الشاوي ذلك وقد أصبح المطلوب في حماه،وماذا يقول للناس اذا ما سلّم ضيفه لعدوه ، وآذى « دخيلاً » التجأ اليه ، وهو العربي الأصيل ؟ ولذلك أخذ يماطل في الأمر ويقترح تسريحه الى جهات أخرى حتى يبلغ مأمنه ، فتتخلص الحكومة والبلاد من شره . غير أن الباشا المملوك لم يستطع ادراك عقلية الوجيه العربي ، ولم يكن بوسعه تقدير حراجة موقف سميّه الشاوي وحساسيّة الأمر ، برغم ما كان يعرف عنه من مكر ودهاء . فركب رأسه وبالغ في العناد ، وأخذ يهدد بالبطش والعقوبة اذا لم يُسلم عجم محمد اليه في الحال . ولما لم يجد الوالي سبيلاً الى ما يريد ، ولم يتزحزح النبيل العربي عن موقفه الشهم ، أصدر أمره الى كهيته ومعتمده أحمد أغا ابن الخربندة . وكان من خصوم الشاوي العنيدين يومذاك ، بان يسير اليه فينتزع ضيفه منه بالقوة ، وأن ينكّل بالحاج الشاوي ويطرده من مكانه اذا ما بدرت منه أية مقاومة أو اصرار .

وهكذا عاد الحاج النبيل ، والعربي المؤمن ، الى حياة التشرد والكفاح بعد أن لم يذق طعم الراحة والهدوء ، الا اشهراً معدودة . ومن سخرية القدر أن تجعل منه المصيبة في هذه المرة قريناً لخسيس منحط مثل عجم محمد ، ويضعه الأباء العربي مع مدجّل أفاق في ميزان واحد . ولكنه ماذا يفعل بعد أن اصبح

مضطراً لأن يركب هذا المركب الخشن . وللضرورة احكامها ؟ فقد خرج الحاج الشاوي هارباً من خصمه العائد لخصومته . وهو ينوي التطويح في أرض الله الواسعة مع ضيفه الملتجىء الذي اضطرته التقاليد العربية الى بسط حمايته عليه . ومع حلاله وأهله وعياله . لكن أحمد أغا الكهية ظل يتعقبهما بقواته ويقتفي أثرهما برغم شدة الحر ولفح الهجير حتى وصل الى منطقة الرحبة في البادية . في مكان يسمى « عين القير » . وهناك استولى على جميع ما كان معهم من متاع وخيام وأغنام تعد بالألوف . والقى القبض على عيال الشاوي وأهل بيته . بعد أن استطاع الشاوي وعجم محمد أن يفلتا من قبضة ابن الحربندة بأعجوبة.

وبهذا تقترب حياة عجم محمد من نهايتها بعد أن أثرت تأثيراً غير قليل في تاريخ العراق المملوء بالمآسي والعبر . فقد طوحت به الأقدار بعد هزيمة مثل هذه ورمت به في وادي الكنانة وأرض النيل . التي ظلت رحيبة الصدر بالأغراب القادمين عليها والمماليك المرتقين الى دست الحكم فيها ردحاً أطول من الزمن . لعله يحظى بدوره فيها . أو يبتسم له الحظ في أرجائها . لكن ذلك لم يحصل على ما يبدو . فقد مات طريداً شريداً هناك غير مأسوف عليه .

٢٢

حصار البصرة[1]

كانت البصرة الفيحاء في أوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد قد توسع اتصالها بالخارج ، وأخذ دولاب الحركة التجارية بالدوران فيها . فقد فتحت وكالة فرنسية في مينائها وصار لها مركز ثابت فيها ، وازدادت أعمال شركة الهند الشرقية (الانكليزية) في أسواقها فقوي شأن وكيلها حتى أصبحت له صبغة قنصلية رسمية ايضاً . وعمدت الى مقاطعة الموانىء الايرانية بعد ذلك فحصرت معاملاتها التجارية بالبصرة في الدرجة الأولى . وأخذ التجار الايطاليون والهولانديون ، بالاضافة الى التجار العرب من غير العراقيين ، يكثرون التردد عليها فيقضون مآربهم التجارية فيها ، ولا سيما بعد ان انتقل المركز التجاري الهولاندي الى جزيرة خرق الكائنة في الخليج سنة ١٧٥٢ . وقد أدى هذا الرواج التجاري في البصرة واستقرار الأمور فيها بعد سنين الى تدني الأهمية التجارية لبندر بوشهر الايراني في الخليج العربي وتقلص أعمال الشركات الأجنبية فيه . ومع ان هذا الرواج التجاري ، والازدهار الذي أخذت تباشيره تلوح في ربوع البصرة الفيحاء ، قد نُكب وتوقفت حركته ردحاً من الزمن بحدوث الطاعون المروع الذي اكتسح البلاد سنة ١٧٧٣ فقد كان باعثاً على استياء المسؤولين في عاصمة الجارة ايران ، وصار الوصي على عرشها كريم خان زند يتسقط أغلاط

---

(١) المراجع : رحلة المستر ابراهام بارسنز الذي كان في البصرة وقت الحصار ، واشترك في مساعدة المتسلم على تنظيم شؤون الدفاع لأنه كان بحاراً في الأصل . ثم كتاب لونكريك الذي يستند على ما كتبه بارسنز هذا والرحالة الأجانب الآخرين مثل أوليفييه وكيبر وأروين وجوزيف أمين الأرمني . وكذلك كتاب (القوى البحرية في الخليج العربي) للدكتور عبد الأمير محمد أمين ، ومختصر مطالع السعود ، ودوحة الوزراء ، والمماليك في العراق .

حكام العراق المماليك ويتربص بهم الفرص والمناسبات للتحرك ضـــدهم والانقضاض على ولاياتهم .

وقد شاءت الصدف ان يتولى الحكم في بغداد على هذا العهد عمر باشا ، مملوك سليمان باشا أبي ليلة . وكان هذا الوالي رجلاً متهوراً غير متعقل ، فأخذ يحكم البلاد في مثل هذه الأحوال التي تستدعي اليقظة والحذر . وكان أفراد الأسرة البابانية المتناحرة في شمال البلاد يناوىء بعضهم الآخر ، ويتيحون الفرصة لذلك العاهل المتربص فيما وراء الحدود بالتدخل وتعقيد الأمور في أحوال ومناسبات كثيرة . وكانت الدولة العثمانية من جهة أخرى غير قادرة على إمداد العراق بالعون والمساعدة ، أو الوقوف في جانبه اذا ما اعتُدي عليه أو أصابه مكروه ، لأنها كانت قد خرجت من حربها مع روسية وهي منهوكة القوى مهيضة الجناحين .

لكن عمر باشا لم يدرك هذا كله ، ولم يقدر حراجة الموقف . فقد أساء التصرف في معاملة الرعايا الايرانيين الموجودين في العراق بكثرة ، وأخــذ يصب جام نقمته عليهم ، ويعامل زوّار العتبات المقدّسة والحجاج المارين بالعراق الى الحج معاملةً خشنةً قاسية لم تشأ ان تسكت عنها دولتهم . وقبض على جماعة من الرعايا الايرانيين في الكاظمية فضربهم ضرباً مبرحاً توفي[1] فيه أحدهم . ثمّ حدث الطاعون الرهيب فقضى على أسر ايرانية كثيرة تعد بالمئات وأزالهم من الوجود ، فصادر عمر باشا أموالهم ومخلفاتهم وابتزها لنفسه ، وحينما بعث العاهل الايراني رسله للمطالبة بها لم يلتفت اليهم ، ولم يحصلوا منه على شيء . وقد أنذر كريم خان الوالي بسوء العاقبة وهدده بقطع رأسه فلم يرعو . وبلغ به الأمر في هذا الشأن انه لم يلتفت حتّى الى حيدر قلي خان أمير الزنگنة حينما أوفده الوصي الايراني ليمحضه النصح ويحذره من العواقب . ثم عالج مشاكل البابانيين بخرقٍ وطيش ، وفشل في التوفيق بين أبنائهم المتخاصمين ، حتى أغضب العاهلَ الايراني وأثار حفيظته .

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين .

وبعد ان تجمع كل هذا الاستياء في صدره ، اهتبل فرصة اندحار بعض قواته المؤازرة لمحمد باشا بابان في قتاله مع أخيه المؤيد من عمر باشا ، فقرر سوق الجيوش الى الحدود الشمالية والجنوبية ليحتل بهـا البصرة والاصقاع الشمالية من مكانين في وقت واحد . وقد جاء زحفه هذا في أحرج الأوقات بالنسبة للظرف الدولي الذي كانت تعاني منه الدولة العلية في تلك الأيام ، ولأن البلاد كان قد داهمها طاعون مهلك قبل مدة وجيزة فقضى على معالم الحياة فيها تقريباً وسبب كثيراً من الفوضى في شؤونها .

وقد عهد كريم خان بمهمة احتلال البصرة الى أخيه صادق خان ، فزحف عليها بجيوشه من شيراز ، واتفق مع عشائر كعب على ان يكون اسطولها الكبير في جانبه بعد ان اتفق رئيسها مع المتسلم على ان ينضم اليه . وكان البصريون قبل ان يسير صادق خان على رأس جيشه اليهم قد ظلوا طوال سنة ١٧٧٤ فريسةً للخوف والفزع من الهجوم الايراني المنتظر ، لأن الاشاعات الكثيرة كانت تروّج أخباراً مثيرة عنه . وقد سرى هذا الخوف حتى الى مقر شركة الهنـد الشرقية ، التي قرر وكيلها المستر مور ان يفرغ خزائنه منها وينقلها الى الخارج. ولم يعدل عن رأيه هذا الا بألحاحٍ من متسلم البصرة ورجلها النفذ سليمان آغا .

وحينما توسط الشتاء في أوائل السنة التالية تجددت اشاعات الخطر الداهم ، فانبرى سليمان آغا المتسلم يعد العدة بكل ما أوتي من عزم وقوة لصد الهجوم والتهيؤ للحصار عند الحاجة . فلم يكن في الحامية كلها غير خمسة عشر ألف مقاتل غير مدربين ، الى جانب بضعة آلاف من رجال العشائر العربية والجنود الأجيرة . وكانت معظم المدافع الموجودة غير قابلة للاستعمال ، وكان السور متداعياً ، والاستخبارات مقتصرة على المخبرين الاعتياديين لا غير . ولذلك راح المتسلم الفعال يعقد اجتماعات يومية مع القبطان باشا ، وأشراف البلد ، ويشاور الوكيل البريطاني ، تداركاً لما قد يحدث من الحوادث . فاستطاع أولاً بأول ان يتلافى النواقص ويعبيء الجهود ، استعـداداً لليوم الموعود . ثم أخبر الجهات المختصة في بغداد بالأمر وطلب منها المدد . لكنه ارتأى ان يحتمي في داخل المدينة الى ان يأتيه المدد من بغداد ، لأن القوات المتيسرة لديه لم تكن تكفي للاشتباك مع العدو المهاجم في حربٍ مكشوفة .

وفي اليوم السادس عشر مـن آذار سنة ١٧٧٥ وصل الى شط العرب ، بالقرب من مصب نهر السويب في الجهـة المقابلة من القرنـة ، العـدو المنتظر بخيله ورجله . وما ان لاحظت عشائر المنتفك برآسة عبد الله السعدون قوات العدو الزاخرة ، وكانت تبلغ ثلاثين ألف مقـاتل ، واستعداداته الكثيرة حتى تخلت عن واجبها في مقاومته والحيلولة دون عبوره الى الضفة الغربية ، وتراجعت من غير انتظام الى مختلف الجهات بعد ان كانت مرابطة في جنوب القرنة . فاستطاع الايرانيون ان يعبروا شط العرب بسهولة ويتقدموا نحو البصرة. وسرعان ما وصلت رسل صادق خان الى سلطات البصرة ، فكان من ضمن ما طالبوا به دفع دية كبيرة في مقابل سلامة البصرة ومن فيها لكنهم لم يحصلوا عـلى جواب . ثم وصل وفدٌ آخر منه بعد أسبوع وطالب بدفع لكين[1] من الروبيات لانهاء المشكل بسلام فرفض الطلب كذلك .

غير ان صادق خان لم يستطع تعبير أثقاله ومدافعه الى الضفة الغربية من شط العرب ، لأن السفن الكبيرة التي يحتاجها في هذا الشأن لم تكن متيسرة لديه . ولذلك ظل ينتظر وصول السفن الكعبية التي كان قد اتفق مع رئيس بني كعب عليها قبل مسيره . لكن وصول هذه السفن لم يكن من السهل تحقيقه ، فقد كان عليها ان تصعد شمالاً في الشط من جهات المحمرة الى ما حول القرنة والسويب . وكان هذا لا بد من أن يؤدي الى الاصطدام بسفن القبطان باشا في المناوي وقوته البحرية ، مع سفن الشركة الانكليزية التي خفت الى مساعـدة المتسلم في محنته خلال هذا الدور من أدوار الحصار . فقد كان اسطول القبطان[2] باشا يتألف من سفينتين مسلحتين جديدتين كان سليمان آغا المتسلم قد أوصى بانشائهما في بومبي لتعزيز اسطوله من قبل فوصلتا قبيل وقوع الحصار . وسميتا « دجلة » و « الفرات » . وكانت كل واحدة منهما مجهزةً بأربعة عشر مدفعاً . وكان هناك عداهما عددٌ من الغلاّفات والسفن الصغيرة . كما كانت ترسو يومذاك في ميناء البصرة سفينتان مسلحتان من سفن الشركة الانكليزية ، وهما السفينة

---

(١) اللك الواحد يساوي مئة ألف .   (٢) أو القبودان .

« ايكل » وتحمل ستة عشر مدفعاً والسفينة « سكسيس » وتحمل أربعة عشر مدفعاً . وقد قرر الوكيل البريطاني المتقلب المستر مور ، بدافع كرهه الشديد لكريم خان زند ، أن ينشط للعمل في مؤازرة المتسلم عند الدفاع عن البصرة . فأوعز للسفينتين بالاشتراك في حمايتها ، بعد ان أعلن في بداية الأمر انه سيلتزم الحياد التام في النزاع وعدم اشتراك السفن الانكليزية ورجالها في الأمر . وبالنظر لعدم وجود بحارة مدربين في البصرة أوعز لعددٍ من البحارة الانكليز بــأن يقودوا السفينتين الحديديتين دجلة والفرات ، ويقودوا غلافتين من غلافات القبطان باشا اللتين كانت كل منهما مجهزة بثمانية مدافع .

ولأجل أن يحول المتسلم دون وصول الاسطول الكعبي الى جيش صادق خان في شمال البصرة اتفق مع القبطان باشا وقواته النهرية على مراقبة الشط مراقبةً دقيقة وإحباط أية محاولة يبذلها بنوكعب للمرور الى شمال المدينة والاتصال بالمعسكر الايراني بعدها . غير انه مع كل ما بذل من جهد وتدبير في هذا الشأن فقد حدث في الهزيع الأخير من ليلة الثاني من آذار ان استطاعت سفن الأسطول الكعبي الافلات من الخطر المفروض عليها بوسيلةٍ من الوسائل . ولعل ذلك قد تم بحيلةٍ مدبرة أو خيانة ارتكبتها جهة من الجهات . إذ مرت أربع عشرة غلافة مسلحة من غلافات الكعبيين وأسرعت مصعدة الى حيث كان ينتظرها الجيش الايراني . ولم يكتشف أمرها الا بعد ان قطعت مسافة غير يسيرة في اتجاهها نحو المعسكر . ولم تؤدِ محاولات تعقيبها الى فائدة تذكر . سوى ان السفينة سكسيس أسرت غلافة كعبية . وأنزلت أضراراً بعدد آخر من الغلافات الأخرى .

على ان هذا النجاح الذي أحرزه الكعبيون في التغلب على الحاجز النهري والالتحاق بالجيش الايراني لم يؤثر كثيراً على معنويات المدافعين في داخل أسوار البصرة . وقد فكر المتسلم وهو في وضعه ذاك ان يقطع الامدادات التي كان لا بد من أن يحتاج الايرانيون الى تمريرها من الشط . وكانت سفنهم قد أخذت تتوارد في الحقيقة من بوشهر وتتجمع في جنوب البصرة بقصــد المرور

الى شمالها والاتصال بمعسكر صادق خان الذي كان ينتظرها . وقد خطر في بال المتسلم سليمان آغا ان يقطع الطريق عليها بوسيلة فعالة فأشار عليه الرحالة بارسنز باقامة حاجز عبر الشط من السفن الكبيرة التي تربط ببعضها بالحبال وسلاسل الحديد . فأنشىء الحاجز في شمال صدر العشار بعد أن تآزر عليه الجميع ، وأنجز في مدة يومين فقط . وبذلك اطمأن البصريون الى هذا التدبير الذي كان من المؤمل ان يحرم الايرانيين من الامدادات التي يفتقرون اليها .

وحينما وصلت طلائع الجيش الايراني في أوائل نيسان لتخيم على بعد ثلاثة أميال من شمالي البصرة كانت معنويات البصريين عالية . وكانت جميع طبقاتهم بما فيهم الشيوخ والنساء مستعدة للاشتراك في أعمال الدفاع . كما كان الجميع يؤملون وصول الامدادات المرجوة من بغداد بين حين وحين . وقد أخذ العدو يبث دورياته النشطة حول المدينة . ويعمل على إحكام الحصار البري من حولها. ثم تحرك اسطول بوشهر الايراني المؤلف من خمس عشرة غلافة[1] مجهزة بالمدافع واقترب من البصرة يوم ٨ نيسان محاولاً اقتحام الحاجز المقام عبر شط العرب ومهاجمة السفن الموكلة بحراسته . فتصدت له سفن القبطان باشا ، بالتعاون مع السفن الانكليزية ، وردته على أعقابه ففشل في إداء مهمته . وفي التاسع عشر من نيسان هاجمت القوات الايرانية القسم الشمالي من البصرة في ليلة حالكة الظلام ، وحاول جنودها تسلق السور عدة مرات ففشلوا في مسعاهم . لأن البصريين الذين كان يساندهم المنتفكيون من أتباع ثامر السعدون أبلوا بلاءً حسناً في الذب عن المدينة والدفاع عن عزتهم وكرامتهم . وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين الذين تسلقوا السور معلقةً على أبوابه . وقد برهن

(١) الغلافة ، أو الكلافة ، نوع خاص من السفن الحربية التي يتم تحريكها بالمجاذيف عادة ، وتتميز بانها تستطيع السير في مياه ضحلة قليلة العمق . ويرى الدكتور عبد الأمير محمد أمين في حاشية له أن إطلاق اسم « غلاف » على صانع السفن حتى الآن في البصرة وبعض جهات الخليج العربي قد يدل على ان الكلمة عربية الأصل . وقد لعب هذا النوع من السفن دوراً مهماً في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وظل يشيع استعماله في سواحل الهند الغربية والخليج حتى نهاية القرن المذكور .

البصريون الأشاوس في المقاومة هذه على صلابتهم ووحدة كلمتهم . فقد كان رجال البلد على الاطلاق مشاركين في الدفاع ، وكانت المدفعية التي جمعها المتسلم تتألف قوتها من الأرمني والزنجي والانكشاري على حدٍ سواء . وقد انضم حتى الرهبان الكرمليون الى القوات المدافعة هذه ، وأسهموا في شؤون القتال ، على ما يقول أحد الرحالة الأجانب.

ومع أن البصرة الباسلة كانت قد صمدت في هـذا الهجوم الليـلي وردت العدو المهاجم على أعقابه ، فقد تكبدت جبهتها في هذه المعركة شيئين مهمين . إذ فرت القوات المنتفكية التي كانت في الزبير برآسة عبد الله السعدون وتخلت عن حمايتها ، كما فعلت من قبل حينما فرت من القرنة فأدى فرارها الى عبور الجيش الايراني من السويب الى الضفة الغربية من الشط . وارتكب الوكيـل البريطاني المستر مور مع حاشيته خيانةً تنطوي على الكثير من الغدر واللؤم . فقد فترت حماسته في الدفاع عن البصرة وقل اندفاعه بصورةٍ مفاجئة . ثم قرر الانسحاب من الميدان مع حاشيته من دون ان يخبر احداً في الموضوع . فبمجرد ظهور الجيش الايراني سارت سفينة بريطانية الى الشمال واتصلت بصادق خان في رابعة النهار ، ثم أمر باعداد السفن جميعها لمغادرة البصرة . فأقلعت متجهةً الى الجنوب ، وفي معيتها سفن البصرة المسلّمة بأيدي البحارة الانكليز كذلك . وكانت السفينتان البريطانيتان تقلان الوكيل نفسه ، والرحالة بارسنز مع موظفي الشركة جميعهم . وفي طريقهم الى الخليج اصطدموا بأسطول بوشهر فاضطروا قطعاته الى الاختناءمن حوالي مصب كارون . وقد شاهد بارسنز في خلال ذلك ان اثنتي عشرة غلافة ، وثلاثة عشر ترانكي [1] ، من هـذا الاسطول كانت محملة بالأطعمة والأقوات والذخيرة الى الجيش الايراني الذي كان يكاد يطوق البصرة بحصاره . وحينما وصلت قافلة مور هذه الى الخليج أمر بجمع العرب والاتراك من بحارة السفينتين دجلة والفرات في الغلافتين العائدتين لاسطول

---

(١) الترانكي نوع من السفن البحرية التي كانت تسير بالشراع والمجذاف معاً ، والتي كانت تستعمل في الحرب والتجارة . وكان يشيع استعمال هذه السفن في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر .

البصرة ، وبعث بهما الى الكويت . ثم أخذ دجلة والفرات وتوجه بهما مع سفينتيه الى الهند . ومن هناك كتب الى سليمان آغا المتسلم أنه أخذ معه « دجلة » و«الفرات» لئلا يستولي عليهما العدو . والظاهر ان تبدل وضع المستر مور المفاجىء وسلوكه هذا المسلك الشائن المجافي لكل ذوق ولياقة . كان بايعازٍ من رؤسائه في بومبي . وربما كان قد تسلم اشعاراً به منهم [1] . لأن الملحوظ انه وجد حينما مر ببوشهر في طريقه الى الهند ان روبرت غاردن كان قد وصل اليها من بومبي لاجراء مفاوضات مع كريم خان فيها بقصد تسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين. فقد بدأ الانكليز يعتقدون حينذاك أن كريم خان زند سيستولي على البصرة في النهاية ، ويفرض سيادته على منطقة الخليج بأجمعها .

وقد كان من الطبيعي ان يؤدي انسحاب السفن المدافعة عن البصرة من الميدان على هذا المنوال الى تطور الوضع الدفاعي فيها ، وانقلابه لصالح الجيش الايراني المهاجم . فبعد ان كانت تلك القوة النهرية قد فرضت عليه شيئاً أشبه بالحصار ، وقيدت حركة حلفائه الكعبيين وتنقلهم . ثم حالت دون اقدام اسطول بوشهر على ايصال الامدادات المطلوبة له . أصبح الآن غير مقيد بأي قيد تقريباً . ولم تبقَ أهمية كبيرة للحاجز المقام في شط العرب . بعد ان أصبح أمر حراسته والمحافظة عليه شيئاً يكاد يكون متعذراً . فهاجمته قطعات الأسطول البوشهري [2] وأزاحته عن طريقها وراحت السفن الكعبية والبوشهرية تسرح وتمرح في الشط بملء حريتها . وبذلك انقلبت الآية فأصبح طوق الحصار حول البصرة كاملاً من جميع الجهات . وازدادت مشاكل المدينة المحاصَرة ومتسلمها ازدياداً مخيفاً لم تعد تخفف منها شيئاً يذكر وعود باشا بغداد المتكررة بالمدد والمساعدة الموهومة . وبات البصريون في وضعٍ سيء أثار عطف الرحالة

(١) تذكر المراجع الانكليزية القديمة ، ومنها مراسلات شركة الهند الشرقية مع وكلائها ، ان المستر موركان قد تلقى أوامر مشددة من بومبي بالتزام الحياد في النزاع القائم بين باشا بغداد وكريم خان . وحينما تجاهل هذه الأوامر وتدخل في الأمر الى جانب البصريين ومتسلمهم ، وسئل عن ذلك دافع عن نفسه مبرراً هذا التدخل بقوله انه ساعد على انقاذ البصرة التي قد يؤدي احتلال الايرانيين لها الى تعرض ممتلكات الشركة فيها الى الخطر .

(٢) يلاحظ ان بحارة اسطول بوشهر كان معظمهم لا بل كلهم من عرب الخليج ، وان قطعاته كانت تعود الى شيخ ورجال بوشهر العرب وما حولها ، التابعين لايران في الحكم يومذاك .

بارسنز الانكليزي عليهم ورثائه لحالتهم ، فكتب يقول « مساكين هؤلاء البصريون ، لقد تخلى عنهم أولئك الذين كانت واجباتهم ومصالحهم تقتضي مساعدتهم بكل ما أوتوا من حولٍ وقوة . وهم لو كان من الممكن لهم ان يحصلوا على مثل هذه المساعدة لعجزت ايران برمتها عن أخذ مدينتهم والاستيلاء عليها » . ومع ان سليمان آغا ظل وحيداً في الميدان ازاء هذه الانتكاسات . وقلة الزاد والعتاد ؛ فقد كان يرفض جميع عروض الصلح والاستسلام التي كان يتقدم بها العدو ، وتمكن بمؤازرة البصريين وعزيمتهم من الصمود في وجه العدو الغشوم مدةً طويلة من الزمن ؛ وإطالة أمد الحصار لمدة أربعة عشر شهراً في النهاية . ويلاحظ أنه راح يجرب جميع الطرق والتدابير التي تمكنه من هذا الصمود الرائع . فولّى وجهه مثلاً شطر إمام عُمان الذي كان حاقداً على العاهل الايراني ؛ واستنجد بأسطوله ورجاله ، واستطاع بنتيجة ذلك إجراء نوع من الترتيب معه . فجاء اسطوله [1] القوي وأمسكت سفنه الكثيرة عنان الشط وضبطته ضد العدو عدة أشهر ؛ وبذلك تسنى لها فك الحصار التام عن البصرة وإمدادها بالذخائر والأقوات . غير أن أسباباً غامضة حالت دون بقاء هذا الأسطول المهاب ؛ وانسحب عائداً الى بلاده .

واستعان المتسلم كذلك بكسر السدود وإحاطة المدينة بالماء . ثم حصل على مساعدة جماعات أخرى من قبائل المنتفك وبني خالد في خارج المدينة ؛ فاستطاع بذلك ايصال القوافل اليها في تلك الظروف العصيبة . وقد تمكن بمثل هذا من تحمل أهوال الحصار مع سكان البصرة وإطالة أمد الصمود بانتظار المدد من بغداد الى ان انتهى شتاء ١٧٧٥ ؛ ولكنه لم يتم له ذلك الا بشق الأنفس . وما بكّر الربيع حتى كانت الطبقات الفقيرة من السكان على آخر دركات اليأس والقنوط . فقد باعوا كل ما يملكون للحصول على القوت ، واضطروا الى أكل لحوم القطط والكلاب وما أشبه . ويئس الجميع من أمل المساعدة التي كانوا

---

(١) يفهم مما جاء في مراسلات شركة الهند الشرقية يومئذ ان الأسطول العماني هذا حينما مر ببوشهر وهو في طريقه الى انجاد البصرة كان يتألف من عشر سفن كبيرة ، وعدد هائل من الغلافات والترانكي والسفن الصغيرة الأخرى . وكان من المعتقد ان هذا الأسطول لو هاجم الايرانيين عند أول وصوله الى شط العرب لقضى على جيشهم وتغلب عليهم لأنهم لم يكن لهم علم بمجيئه .

يتوقعون وصولها من استانبول وبغداد. وكانت الخيانة قد لعبت دورها الرفيع فيها على ما يظهر فتقاعس رجال الباشوية المسؤولون عن انجاد البصرة وإنقاذها من محنتها .

اما صادق خان فقد بقي مرابطاً ينتظر استسلام البصرة له بكل ما عنده من صبر وأناة . ومن عقيدة بالاستخارة والنجوم . وقد عجزت مدفعيته الخفيفة عن إلحاق أي ضرر بالسور ، برغم المهارة التي أبداها الضباط الأوربيون الذين كان يستصحبهم معه من أجلها . فساعد ذلك على إطالة مدة الحصار ومقاومة البصريين .

وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ لم يبقَ في قوس الصبر منزع . فقد استهلكت الذخائر والمؤن ونفدت الحيوية من النفوس في داخل المدينة المحاصَرة ، فأصبحت المقاومة إزاء هذا كله شيئاً لا يجدي نفعاً ولا يغني فتيلاً تجاه البطون الجائعة . والنفوس الخائرة ، والهمم التي أخذت تفتر . وفي هذا الوقت بالذات كان مصطفى باشا الاسبيناقجي . الذي تولى الحكم في بغداد بعد عمر باشا في ذلك الوقت العصيب ، متواطئاً مع الايرانيين عن طريق عجم محمد على عدم إنجاد البصرة فكتب الى الباب العالي في استانبول يقول انه قد اتفق مع الايرانيين على حل المشكل ففكوا الحصار عن البصرة وتراجعت جيوشهم عنها . لكنه كتب الى متسلم البصرة في الوقت نفسه يخبره بأن « المدد اكم بعيد عن الدولة . فأما ان تصطلحوا مع العجم ، وإما ان تسلموا البلدة لهم . » فتُلي هذا الكتاب على أعيان البلد ووجهائها المجتمعين . وتقرر مفاوضة صادق خان بالاستسلام وأخذ الأمان . فتم ذلك في الحال . ودخل الايرانيون البصرة بقيادة محمد خان وعلي نقي خان . وبعد أسبوع دخل صادق خان نفسه دخولاً رسمياً . وأخذ سليمان آغا المتسلم وجماعة من أعيان البلد ووجوهه مأسورين الى شيراز . وقد ظلت البصرة بعد هذا الاحتلال خاضعة للحكم الايراني البغيض مدةً تناهز ثلاث سنوات ، تحملوا في أثنائها أنواع التعسف والابتزاز . فقد أمر صادق خان بعد دخوله بأيام قلائل بأن يجمع له مبلغ مئة وخمسة وعشرين ألف تومان . أو ما يعادل مليوناً وثمان مئة ألف روبية . وحينما تولى محمد علي خان من بعده تمادى في إرهاق الناس بمثل هذا الابتزاز حتى اضطر معظم التجار الى مغادرة البصرة والهرب منها .

٢٣

طواعين بغداد وأطرافها[١]

كان من خصائص المجتمع العراقي في أيام الحكم العثماني معظمه العيشة البسيطة في الريف والمدن . والتأخر الملحوظ في شتى المرافق الحياتية ، والجهل المستحوذ على أكثر السكان بكل ما يصحبه من خرافات وتقاليد بالية . ومع ان المدنية الحديثة كانت قد بزغت أنوارها في أوربة وامتد تأثيرها الى قسمٍ غير يسير من أنحاء العالم الأخرى في تلك الأيام فقد بقي العراق معزولاً عن سائر البلاد . وظل الجهل والاهمال مخيمين في أرجائه .

ولم يكن غريباً والحالة هذه ان تكثر المجاعات في مدنه وأصقاعه بين حينٍ وحين ، وتفتك الأمراض والأوبئة بسكانه وأهليه فتودي بحياة الألوف المؤلفة منهم . فقد باتت الأوبئة والطواعين شيئاً مألوفاً عند الناس يومذاك . ولم تعد أية حقبة من الحقب تخلو من انتشار الطاعون هنا أو هنـــاك أو تسرب الهواء الأصفر (الهيضة) في هذه الجهة أو تلك .

ولقد وقعت في العراق على ما يذكر التاريخ طواعين فظيعة تقشعر من هولها الأبدان ، ما بين العقد الأخير من القرن السابع عشر وأواسط القرن التاسع عشر . فقد حدث قبيل وصول والي بغداد المشهور حسن باشا الى العراق ان تفشى الطاعون في بغداد سنة تسع وثمانين وست مئة وألف للميلاد . وظل يفتك بالناس وتشتد وطأته عليهم مدةً تزيد على خمسة أشهر . وبلغ مـــن

(١) تاريخ العراق بين احتلالين الذي يستند الى « كاشن خلفا » في كثير من رواياته في هذا الموضوع ، وغرائب الأثر لياسين خير الله العمري ، ورحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ورحلة عبد اللطيف أبي طالب الشوشتري .

ضراوته وكثرة ضحاياه ان صار يسميه البغداديون « أبو طبر » ولذلك تقدر بعض المراجع ان هذا الطاعون قد فتك بمئة ألف نسمة من السكان وقضى عليهم خلال ثلاثة شهور أو أربعة . والمعتقد ان عدواه قد تسربت الى بغداد من مندلي على أثر مجاعة كبيرة بدأت بالموصل والمناطق المجاورة لها ثم امتدت الى العراق الأوسط والجنوبي ، نظراً لقلة الأمطار وجفاف الحقول . فأدى تقاطر السكان على بغداد بسبب ذلك الى انتقال المرض اليها .

ثم عاد هذا الطاعون الى بغداد في السنة التالية . أي في سنة تسعين وست مئة وألف فكان أشد فتكاً وضراوةً من قبل ، واستقام لمدةً تناهز ثلاثة أشهر فكانت ضحاياه تقدر بألف نسمة يومياً ، ومات من جرائه خلق كثير على هذه الشاكلة . ثم سرت عـدواه الى الأصقاع الجنوبيـة من العراق حتى وصل إلى البصرة الفيحاء فأهلك الناس فيها بالآلاف . وقد قيل ان ضحاياه فيها قد زادت على عدد الضحايا التي أجهز عليها في بغداد بحيث ان الناس في البصرة قد عجزوا عن دفن موتاهم ، فصاروا يوارونهم التراب ويدفنونهم في المحل الذي كانوا يقعون فيه . ومن المؤسف المحزن في هذا الشأن ان الطاعون قد أدى الى وقوع اختلاف تطور الى اشتباك وقتال بين اهالي البصرة وواليها أحمد باشا عثمان باشا حول بعض الرسوم والضرائب في مثل تلك الظروف .

وفي أواخر سنة سبعٍ وثلاثين وسبع مئة وألف تفشى الطاعون في الموصل وبقي مقيماً فيها الى السنة التي تلتها ، وكان خلال تلك المدة كلها يفتك فتكاً ذريعاً بالناس حتى بلغ عدد إصاباته ألف إصابة في اليوم الواحد أو يزيد أحياناً. ولم تمض سنتان على هذا الطاعون حتى ظهر في بغداد كذلك فقضى على خلقٍ كثير من أهاليها .

وفي سنة اثنتين وسبعين وسبع مئة وألف تسلل الطاعون من استانبول الى بغداد . وظل ينشر ظله الثقيل فوقها مدةً تناهز الستة أشهر . ومن أجل هذا خرج الوالي المملوك عمر باشا هارباً منه وخيّم معتزلاً في ضواحي الاعظمية مدةً تزيد على شهرين . وقد جاء في رحلة عبد اللطيف ابي طالب الشوشتري ان سبعين ألفاً من الناس قد ماتوا في أول أدوار الاصابة بتأثير هذا الطاعون ،

ولم يحصَ عدد الموتى في الأيام التي أعقبت ذلك الدور . والمعروف في تلك الأيام أن عدداً غير يسير من البيوتات والأسر العراقية وغير [1] العراقية قد قضى عليهم هذا المرض الوبيل . وان أحوال البلاد قد ارتبكت بتأثيره فانعدم الأمن وتوقفت التجارة . ثم انقطعت الحركة تقريباً . ومع هذا فقد سرت عدواه بعد ذلك الى البصرة وبوشهر . وإلى القرى والبوادي أيضاً . وكان ممن قضى نحبه واختفى من الوجود عدد كبير من الموظفين الأكفاء الذين كان يُعتمد عليهم في تمشية شؤون الولاية ومصالحها . ولذلك توقف العمل في دوائر كثيرة مدة من الزمن بسبب هذه الكارثة فاختلت أمور الديوان وارتبكت أحواله .

ويقول الرحالة الايطالي سيستيني [2] . الذي زار بغداد في ١٧٨١ ، عن هذا الطاعون انه منذ أن حدث الى حين زيارته لبغداد لم يبقَ في قيد الحياة من سكان بغداد أكثر من (٢٥٠٠٠) نسمة . لأن الطاعون أفنى ثلثي السكان . بحيث بقيت أحياء كثيرة من بغداد مقفرة الى حين مجيئه اليها . وكان من جملة من مات في هذا الطاعون « أسقف بابل » فدفن في الكنيسة .

وقد أمحلت الدنيا وانقطعت الأمطار في شتاء سنة ١٧٨٥ فعم القحط بسرعة لان انقطاع الأمطار في هذه السنة كان قد حصل في السنة التي سبقتها أيضاً . ولذلك ارتفعت أسعار الطعام في بغداد ارتفاعاً فاحشاً بلغ فيه سعر الوزنة الواحدة من الحنطة ثمانية قروش . وسعر الوزنة من الشعير ستة قروش . فاضطر الوالي سليمان باشا الكبير الى توزيع المخزون من الأطعمة على الأهلين بأسعار واطئة . ومع هذا كله لم يكن في هذا التدبير نفع كبير على ما يظهر ولم تهدأ أحوال الناس . فهاج البغداديون وماجوا ، ثم هاجموا سراي الحكومة فاضطرت الى ردهم بالسلاح وتأديب المحرضين منهم . وفي نهاية هذه السنة تفشى الطاعون

(١) وكان من جملة الأسر التي أتى عليها الطاعون فأزالها من الوجود كلها ، على ما هو مذكور في تاريخ جودت ، سبع مئة أسرة أو يزيد من الأسر الايرانية التي كانت تسكن بغداد والبصرة والمدن المقدسة ، وكان من بينهم علماء ورجال دين مشهورون فاختفوا مع أسرهم . وقد صادر أموال هذه الأسر الوالي عمر باشا وابتزها لنفسه ، فكان عمله هذا من جملة أسباب الخلاف الشديد الحاصل بين هذا الوالي وعاهل ايران كريم خان زند . وأدى هذا الاختلاف الى احتلال البصرة في النهاية .

(٢) Sestini - Voyage de Constantinople à Bassora en 1781 (Paris).

فكان فتكه بالناس ضغثاً على أباله . وقد استقام عدة أشهر ، ولم ينقشع ظله الثقيل الا بعد ان أتى عل الكثير من الأرواح البريئة .

وفي آخر سنة من سني القرن الثامن عشر اشتد طاعونٌ مفجع وقع في ديار بكر ففتك ودمر حتى قضى على عشرين ألف نفس (بتقديرات تلك الأيام) وأغلق ألف دار لم يبقَ فيها أحد على ما قيل . فانتقل من هناك الى السليمانية وما حولها في عهد ابراهيم باشا بابان بن أحمد باشا ، فأهلك ثمانية عشر ألف نفس ، حتى صار يدفن ثلاثة أوأكثر من الموتى في كل قبر ،ولم يتم دفن الكثير منهم فصارت تأكلهم الكلاب . وبهذه الوسيلة اشتدت ضراوتها وازدادت وحشيتها فأخذت تهاجم الأحياء حتى بلغ عدد من ماتوا بهذه الوسيلة أربعين نفساً . وقد اضطر الباشا إزاء هذا الى تجريد حملة خاصة لقتل الكلاب وتدميرها.

وفي سنة ثمان مئة وألف ، أي في الشهرين الأخيرين من سنة خمس عشرة ومئتين للهجرة ، اشتد الطاعون في الموصل فسرى الى أكثر محلاتها وصار يموت فيها من المصابين حوالي مئة وخمسين شخصاً في اليوم . فغلت أسعار الأطعمة والمواد في الموصل على أثر ذلك لانقطاع القوافل القادمة اليها من بغداد وبلاد الأكراد حتى بيع التمر بأربعة دراهم ونصف للرطل الواحد فيها ، وبيع الزبيب والتين بثلاثة دراهم . وقد صادف قبيل وقوع الطاعون سير الوالي محمد باشا الجليلي الى تأديب العصاة في سنجار ، وحينما عاد منصوراً في حملته كان الطاعون ما يزال منتشراً في المدينة المرزءة به فخاف أفراد الجيش من الدخول اليها وظلوا مخيمين في خارجها مدةً من الزمن .

وحينما بدأ القرن التاسع عشر ظهر الطاعون في سنته الأولى ببغداد أيضاً فقضى على الكثير من معالم الحياة فيها . وقد صادف ظهوره قبيل وفاة الوالي سليمان باشا الكبير ، فاضطر الى الفرار منه والتوجه الى الخالص ، فخرج الى ظاهر بغداد اولاً وخيّم مع حشمه وحاشيته في « ميدان السلق » حيث انه كان يشكو من داء المفاصل الذي اشتد عليه في وقت ظهور الطاعون ، ثم توجه من مخيمه الى الخالص[1] .

---

(١) يذكر ياسين خير الله العمري في (غرائب الأثر) عن هذا الطاعون انه بدأ في « قرش ياخا »=

ولم تمض سنتان على ظهور الطاعون هذا في بغداد حتى داهمها من جديد في سنة ثلاث وثمان مئة ألف ، واستقام فيها مدة تزيد على ثلاثة أشهر . وقد عاث فساداً وتخريباً في بغداد وما جاورهـــا وأزهق الألوف من الأرواح[1] . ولذلك اضطر الوالي علي باشا الى ان يؤخر عودته الى عاصمته المنكوبة من حملته المشهورة التي هاجم فيها منطقة سنجار فأدب من فيها ، وقضى في أثناء ذلك ظلماً وعدواناً على الأخوين الشاويين محمد بك وعبد العزيز بك ، فاستغرق غيابه أربعة أشهر ونصف .

على ان اعظم الطواعين ، وأشدها فتكاً وتأثيراً ، كان الطاعون الذي انتشر في بغداد وأجهز على معالم الحياة فيها خلال الأشهر الأولى من سنة إحـــدى وثلاثين وثمان مئة وألف . فقد مات خلال الخمسة عشر يوماً الأولى من أيام الاصابة به سبعة آلاف نسمة ، ثم هلك في اليوم الذي تلى ذلك ألف ومئتان ، وفي خلال الستة عشر يوماً التي حلت بعد هذا بلغ عدد المائتين في كل يوم عدداً يتراوح بين ألف وخمس مئة وثلاثة آلاف نسمة . حتى قال أحد الذين كتبوا في وصف النكبة المذهلة تلك الأيام : وكثر الموت فما بقي شعور عند الأحياء من دهشة ما حل بهم ومن هول الفناء . يكفيك الوالدة لفظت ولدها في الطريق . ولم يبقَ أحد ليغسل الموتى ،ولا بقي من يحفر الحفائر حتى يلقون الأموات فيها[2] ...

وقد تعاون على بغداد المنكوبة مع هذا الطاعون الفتاك طغيان المياه في دجلة وفيضانها عليها حتى أغرقت قسماً كبيراً منها ، وهدمت معظم بيوتها وأبنيتها . ثم أعقبت هاتين الكارثتين المجاعة المخيفة فقضت على نسبة كبيرة من السكان

=اي في الجانب المقابل من المدينة وهرب غالب أهلها ، ثم سرى الطاعون الى بغداد وجعل الناس يهربون . وخرج من بغداد الوالي سليمان باشا وقدم الى سامراء وارسل الى الموصل يطلب له ذخائر واسلحة ، فارسل والي الموصل محمد باشا الجليلي (٣٠٠) طغار حنطة ودقيقاً.

(١) جاء في المرجع الأخير (غرائب الأثر) : عاد الطاعون الى بغداد وكان قد انقطع في صفر فعاد اليها في ذي الحجة ، وابتدأ في « قرش ياخا » ثم في بغداد ، فكان يموت في اليوم مئة وخمسون وأكثر...

(٢) تذكرة الشعراء .. لعبد القادر الخطيبي الشهراباني .

الذين تخطاهم الطاعون والغرق . وفي رواية لأحد الرحالة[1] الانكليز ان هذه النكبات بمجموعها استطاعت ان تقضي على ما يقرب من مئة ألف نسمة في بغداد وحدها . فاختفى بذلك عدد كبير من الأسر والبيوتات المعروفة . وقضي كذلك على الكثير من الصناعات التي كانت تشتهر بها بغداد في ذلك العصر . لكن أعظم تأثير أحدثه الطاعون والغرق هو القضاء على دولة المماليك وقد بلغت أوج مجدها في عهد داود باشا الذي وقعت هذه الكوارث في أيامـــه . فقضت على جيشه البالغ في عدده ثلاثين ألفاً من خيرة الجند المدرب . وبذلك تمهدت الأمور للاستيلاء على بغداد وزوال عهد المماليك منها الى الأبد. ودخل التاريخ العراقي في عهد جديد من عهوده الحافلة بالأحداث والنكبات .

ويشاء الحظ التاعس الذي لازم بغداد المرزءة في تلك العهود ان تتجدد زيارة الطاعون لها من جديد . فقد زارها في سنة ١٨٣٣ زيارةً خفيفة بلغ عدد ضحاياه فيها خمسة آلاف نفس فقط . وزارها في ربيع سنة ١٨٣٤ فقدمت له سبعة آلاف ضحية كذلك . وكان قد تسرب اليها في المرة الأخيرة من كرمنشاه في ايران . كما كان المسؤول عن ذلك والي بغداد نفسه علي رضا باشا الذي لم يشأ أن يمنع القادمين منها الى بغداد طمعاً في الرسوم التي كان يتقاضاها مـــن الزوار . برغم تحذير المقيم البريطاني له وتذكيره بالعواقب الوخيمة . ولئن كان عدد الضحايا قليلاً في هاتين المرتين فان السبب في ذلك يعود لأشياء عدة منها ان بغداد . وغيرها من المدن التي داهمها الطاعون . قد هبط فيها عدد السكان الى حد كبير . وان الحرية قد منحت للناس في هذه المرة بالفرار من المناطق الموبوءة والمزّيمة منها الى القرى والأرياف عند أول ظهور المرض . ولم يقف في طريق هزيمتهم أي عائق كما حصل في نكبة ١٨٣١ . فقد هربت مناطق وجماعات بأسرها الى الخارج مع جميع ما تملك من متاع ومال حالما ظهرت أعراض المرض . حتى ان اليهود قد خرجوا كلهم على الأخص من محلاتهم المكتظة . وكان من نصيبهم ان شملتهم العناية الالهية برعايتها فلم يمسسهم ضرر .

وربما كانت هذه الطواعين الثلاثة الأخيرة . بتأثيراتها المميتة واخبارهـــا

---

(١) جيمس بيلي فريزر في : رحلته الى بغداد سنة ١٨٣٤ .

المفزعة ، هي التي ما يزال أهالي بغداد يرددون اخبارها ويشيرون اليهـا بالمناسبات ، فيسمونها « طواعين بغداد » .

على أن هذا لا يعني ان بغداد وما حولها لم تعد تنتابها الطواعين وتفتك بسكانها . فقد اشتد تفشيها في العراق بين حين وحين الى أوائل القرن العشرين ، ولكنها لم تكن بتلك الشدة المخيفة . فيشير ما عندنا من المراجع [1] الى ان الطاعون قد ظهر في البصرة سنة ١٨٤٧ ، بعد ان كانت الهيضة قد ظهرت فيها قبل سنة ، فذهب ضحيتها في جملة من ذهب المسيو ريمون نائب القنصل الفرنسي فيها ، وانتشر شمالاً عن طريق دجلة حتى وصل الى بغداد فأصيب به فيها القنصل الفرنسي أيضاً . وقد كتب هذا القنصل يقول ان الطاعون في هذه المرة انتشر على طول الضفة الغربية من دجلة على الأخص ، وتفشى في المستنقعات حتى وصل الى الحلة فبلغ عدد ضحاياه فيها ثماني أو عشرة أنفس في اليوم الواحد ، كما بلغ عدد الضحايا في ضاحية من ضواحي البصرة لا يزيد عدد سكانها على (٤٠٠٠) نسمة من اثني عشر الى خمسة عشر شخصاً في اليوم .

وظهر الطاعون [2] في بغداد كذلك في أواخر آذار ١٨٧٦ بعد أن انتقل اليها من الحلة . وأول ما ظهر في منطقة باب الشيخ ، التي ظهر فيها أول مرة ايضاً سنة ١٨٣١ ، وهو الطاعون الكبير المار ذكره . فطلب الدكتور كوانيل طبيب القنصلية البريطانية ببغداد ، وكان عضواً في « لجنة الحجر الصحي الدولية » الموجودة فيها من والي بغداد أن يغلق المدارس لمدة شهر واحد . وما حل شهر أيار حتى كانت جميع البلدان بين بغداد والخليج العربي ، عدا العمارة والبصرة ، قد أصيبت به ، وما انتهى هذا الشهر حتى كان عدد ضحاياه في منطقة بغداد وحدها (٢٥٠٠) نسمة . ومما يذكر في هذا الشأن ان مشادة حادة حصلت

---

(١) « الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ – ١٩١٤) » تأليف السفير الفرنسي پيير دي فوصيل ترجمة الدكتور أكرم فاضل (بغداد ١٩٦٨) .

(٢) مقال مفصل بعنوان « كفاح الجراح كولفيل ضد الطاعون والهيضة في العراق ، ١٨٦٨ – ١٨٧٨ » كتبه الدكتور جوزيف مالون في American University of Beirut Festival Book (Beirut 1967).

بين الدكتور كولفيل هـذا والوالي عبد الرحمن باشـا لأن الوالي لم يقتنع بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية للحيلولة دون انتشار الطاعون فاضطر الدكتور كولفيل الى تقديم استقالته الى وزارة الصحة في استانبول . لكن الوالي أوقف ارسال البرقية وغيّر موقفه فراح يتعاون مع الدكتور تعاوناً تاماً . وحينما تم التفاهم بين الدكتور والوالي تبين ان الوالي كان مخدوعاً بأقوال طبيب ألماني يهودي ، يدعى الدكتور بيك ، كان يعمل في بغداد يومذاك . فقد كان هذا الطبيب يعتقد ان المرض المنتشر لم يكن طاعوناً ، وانما كان نوعاً من الحمى العفنة غير المعدية المسببة عن القذارة وسوء التغذية ، ويمكن معالجتها بالكنين . وتبين كذلك ان موقف الطبيب اليهودي هذا كان سببه ان التدابير الوقائية التي اقترحها الدكتور كولفيل كانت تؤثر تأثيراً سيئاً على أرباح وأعمال شركة يهودية تجارية في بغداد تتعاطى تصدير الأصواف والمصارين الى الخارج . ومما يروى في هذا الشأن أيضاً ان الوالي احتج خلال امتناعه في بادىء الأمر عن اتخـاذ التدابير الوقائية بأن المرض لم يكن يصيب الا الطبقات الفقيرة من الناس ، ولذلك لا يمكن ان يعتبر شيئاً خطيراً .

وكان الدكتور كولفيل يعتقد بعدم جدوى تدابير الحجر الصحي المتخذة يومذاك ، ومنع الناس عن التنقل من مكان الى آخر ، ولذلك اختلف مع اللجنة الدولية التي كان يعمل فيها اختلافاً كلياً وانتقدها بشدة . وهو يقدم الاسباب التالية لاعتقاده هذا : (١) كان الحظر المفروض على التنقل موكلاً في تنفيذه الى الجنود ، وهؤلاء كانوا يضطرون عادة ، بالنسبة لفقرهم وتأخر رواتبهم لعدة أشهر ، الى الارتشاء . وقد ازداد رزقهم بهذه التدابير بحيث صار رؤساؤهم من الضباط يتمنون لو كانوا في مكانهم (٢) ان منع التنقل لم يكن يطبق الا على الفقراء وطبقات الناس غير المتمكنة لأن الموظفين والوجوه لم يكن من الممكن لأحد ان يحول دون تنقلهم ، ولذلك كثيراً ما كان أفراد الطبقة الفقيرة يشغبون ويتخاصمون مع الجنود (٣) لقد كان من الصعب ان يمنع الناس من عبور دجلة من جانب الى آخر ، فقد كانت القفف والزوارق تعبّر الناس بكثرة خلال الليل ، وحتى في النهار ، من دون ان يستطيع منعها أحد (٤) منعت

تدابير الحجر الصحي نقل الجنائز لدفنها في الكاظمية وكربلا والنجف . لكن الدفن في مقبرتي الشيخ معروف والشيخ عمر وغيرهما لم يتعرض له أحد فكان هذا سبباً في تزايد النقمة والسخط في نفوس الشيعة . حتى هوجمت في بعض الأيام مواكب الجنائز التي كانت تتجه الى مقبرة الشيخ معروف وغيرها (٥) يضاف الى ذلك ان بيوت بغداد كانت متلاصقة بحيث يسهل الاتصال بين سكانها عبر السطوح ونقل المرضى من بيت الى آخر (٦) ومن طريف ما يذكر ان الذين كانوا يريدون السفر والتنقل من بلدة الى أخرى كان يمكنهم ان يستأجروا أشخاصاً من الفقراء ليحجروا بدلاً عنهم ، كما كان يفعل اليهود حينما يذهبون بالباخرة لزيارة العزير في المواسم الخاصة .

وعلى هذا الأساس كان الدكتور كولفيل يفضل عدم حصر الناس في أماكنهم وانما كان يدعو الى السماح لهم بالتفرق والهرب من المناطق الموبوءة . وقد جرب فكرته هذه ونجحت حينما ظهر الطاعون في بغداد خلال السنة التالية . أي في سنة ١٨٧٧ كذلك . وبدأ فيها باليهود . فقد طلب الى الحاخام الأكبر أن يتفرق اليهود ويخرجون الى الضواحي أو يخيّمون في العراء فاستجابوا له استجابة تامة . وخرج في مدة اسبوعين حوالي خمسة عشر ألف يهودي من مجموع ثمانية عشر ألف كانوا في بغداد منهم حينئذ . وقد حذا حذوهم عدد كبير من المسلمين والنصارى بعد ذلك ، ولم يمض شهر واحد حتى غادر بغداد ثلثا سكانها على هذه الشاكلة . وحينما أُجري احصاء دقيق في صيف ١٨٧٧ بعد ان زال شر الطاعون تبين ان ضحاياه بلغ مجموعها (٤٣٩٤) نسمة من مجموع سكان بغداد البالغ سبعين ألف نسمة يومذاك . وقد وجد ان اليهود الذين خرجوا لم يمت منهم سوى عشرين نسمة فقط . ومات أكثر من نصف الذين بقوا في بيوتهم ولم يخرجوا .

٢٤

ثورة عربية في عهد المماليك[١]

كان استيلاء العثمانيين على العراق في سنة ١٥٣٤ قد أدى بالتدريج الى ان يفقد العراق شخصيته العربية ، ويصبح جزءاً مهملاً من اجزاء الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف . فقد عمدت الحكومات التركية المتعاقبة في ولاياته الى تتريكه، وفرض طرز الحياة الغريبة على سكانه وأهاليه . وراحت أساليبها الجائرة في الحكم ، ووسائلها التعسفية في الجباية ، تمتص معين الحياة من أوصال البلاد العراقية لتملأ خزائن الباشوات في سراياتهم الزاهرة، وتسهم في مصاريف الامبراطورية الباهظة ، التي كانت تصرف على أدامة الجيوش الانكشارية العربيدة ، والقصور الملأى بالجواري والغلمان .

ولئن نجحت سياسة التتريك لدرجة غير يسيرة في بغداد وغيرها من المدن الكبيرة في الشمال والجنوب ، وبقي الأغوات والباشوات يصرّفون الأمور من دون خطة مدروسة أو قاعدة من قواعد الحكم المعروفة ، فان تلك السياسة الخرقاء التي كانت تستهدف فرض الحكم الغريب بالسيف والنار لم يتسن لها النجاح المطرد في خارج المدن والبلدان . فقد بقيت العناصر العربية في القسم الأعظم من البلاد مناوئة لهذا الحكم الغريب، وظلت العشائر العربية الضاربة في طول البلاد وعرضها تشق عصا الطاعة في كل شهر أو سنة تقريباً، وتمتشق الحسام في وجه الحكومة في كل حين أو مناسبة . ولذلك فقد كان الشغل الشاغل للولاة

---

(١) المراجع : دوحة الوزراء للشيخ رسول حاوي الكركوكي ، وغرائب الأثر لياسين خير الله العمري ، ومختصر مطالع السعود لعثمان بن سند البصري، ومباحث عراقية ، القسم الأول، للاستاذ يعقوب سركيس ، وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث للمستر لونكريك .

المتعاقبين شن الحملات التأديبية المتتالية . وسوق القطعات والجيوش لاخضاع القبائل المتمردة هنا وهناك . وقمع العصيان المستفحل في منطقة بعد أخرى . فكثيراً ما أدبت شمر وزبيد . وجردت الحملات على المنتفك والسعدون وآل عليان . وكثيراً ماكانت الأرتال تساق لاخضاع جشعم والعبيد وشهوان والغرير وحمدان والخزاعل وبني لام وربيعة وكعب وغيرهم .

ومما كانت تلجأ اليه تلك الحكومات في فرض سيطرتها الواهية . أنها كانت تعمد الى الاستفادة من قاعدة « فرق تسد » الى أقصى حد ممكن . فقد كانت تستفيد من الأكراد الشماليين في تأديب العرب الثائرين في الجنوب . وتستخدم العرب لضرب العشائر الكردية التي تشق عصا الطاعة في الشمال . كما كانت تفرق بين الأخ وأخيه من الشيوخ وأبناء الأسر الحاكمة . وتحرض أبناء العم على أقاربهم وأبناء حمولتهم فتوقع بينهم . وتضرب بعضهم ببعض من دون أن تراعي في ذلك مصلحة البلاد أو حالتها العمرانية . وبصرف النظر عما كانت تؤدي اليه تلك السياسة الغاشمة من خراب وتدمير في البلاد . أو تباعد بين الحاكمين والرعايا . ولذلك لم يكن من الغريب ان تعم الفوضى في البلاد ويستفحل الاهمال في شؤونها العامة ومرافقها المهمة .

وقد اشتدت هذه الأحوال وتفاقم أمرها في عهد الولاة المماليك . الذين استأثروا بحكم العراق وكادوا يستقلون به عن الباب العالي في استانبول . وكان المماليك عبارة عن طغمة من القفقاسيين المنتمين الى الكرج والجركس وما أشبه الذين كان يأتي بهم الباشوات الأتراك خداماً وعبيداً بالشراء وجنوداً مرتزقة . وسرعان ماكانوا يتسنمون المناصب واحداً بعد آخر فيصبحون قادة في الجيوش المحلية . وكهيات وولاة في الباشوية . وقد كانوا يحتكرون الوظائف المهمة ويتمتعون بخيرات البلاد . بعد ان يقصوا أبناء البلاد الأصلاء عنها .

وقد بلغ وضع الحكم في العراق . المنكوب بالأوضاع الشاذة في كثير من أدواره التاريخية . حداً صار يطمع فيه أخس الناس وأدناهم لياقة ومرتبة في تلك الأيام . بعد ان أصبح نهباً بأيدي المماليك . وانحطت الأمور حتى صار ينشد الباشوية في سراي بغداد أفاق زنيم من مثل عجم محمد . وآغا وغد مغامر

للاوند من مثل محمد أحمد الطويل ، وغيرهما من الذين استهانوا بالقواعد والقيم فضربوها عرض الحائط ودوّخوا البلاد فحرموها نعمة الاستقرار والطمأنينة . وحينما تربع سليمان باشا الكبير على دست الباشوية ازداد احتكار المماليك للحكم في العراق ، وكثر تقريبه لأبناء جلدته وإقصاء غيرهم عن الوظائف المهمة والمراكز الحيوية في الحكومة . وصار يأتي بمئات المماليك من بلاد القفقاس فيدرّبهم ويعلّمهم ، ثم يصرف المبالغ الطائلة من أموال الولاية على إعدادهم لتولي المسئولية في أنحائها المختلفة ، حتى تكونت منهم طبقةٌ حاكمة خاصة لا راد لأمرها ولا معارض لمشيئتها . وكان وضع هذه « الطبقة الحاكمة » وهي تتمتع بخيرات البلاد وتستأثر بكل شيء فيها يحزّ في نفوس العرب من أبناء العراق في الحضر والمدر ، ويؤلمهم أن يروا أن أولياء الأمر في الباب العالي يعجزون عن تغيير الأوضاع ، نظراً لوضع العراق الدقيق ، وموقف الدولة الايرانيةالمجاورة منه . وراح الكثيرون من أبناء الأسر العربية المعروفة ، ورجال القبائل الكبيرة المتبيّنة ، يتحسسون بما يرون ويودون لو تسنح لهم الفرصة في يوم من الأيام ليثوروا على الوضع الدخيل ،ويتسلمون مقاليد الامور في بلادهم بأيديهم .

وكان يشتهر في عهد سليمان باشا الكبير هذا من سراة العرب وشخصياتهم المرموقة في العراق ذواتٌ ثلاثة كانت لهم مواقف مشهودة في هذا الشأن ، وكان من الممكن ان يضطلع كلٌ منهم بمثل هذا العمل الخطير . فقد اشتهر في بغداد منهم الحاج سليمان بك الشاوي ، الذي يقول عنه المؤرخ عثمان بن سند البصري[1] انه كان « من أفراد الدهر عقلاً وحلماً وكرماً وشجاعةً » ، وقد « أمضى عمره في الاصلاح والسفارات بين الملوك لوفور عقله وشدة ذكائه وفطنته ، وفصاحته وحسن نيته وطويته ، وشهرة صدقه وأمانته » . وكان الحاج الشاوي من رؤساء قبائل العبيد المستوطنين في بغداد منذ حقبة من الزمن ، وكان ع الى نبل الأصل ، وشرف المحتد وعلو الهمة ، الثقافة الأدبية العالية

[1] مختصر مطالع السعود .

والشاعرية المتدفقة والسليقة العربية الأصيلة . وقد مارس الشؤون العامة ، وانغمر في معمعانها منذ أيام أبيه عبد الله بك ، فأصبح يُندب للملمات ، ويُكلّف بالمهمات حينما تضيق السبل في بغداد وتشتد الفتن فيها . واتصل بالمسؤولين اتصالاً وثيقاً حتى عُين في منصب « باب العرب »[1] فظل يشغله ردحاً من الزمن فنشأت خلال ذلك بينه وبين سليمان الكبير مودّة قديمة تعود الى ما قبل تبوئه الباشوية الكبرى في بغداد . وحينما عُين لها وسار من البصرة لتسلمها خرج الحاج سليمان الى الحلة لاستقباله ، وانضم الى موكبه حتى دخل الى عاصمة ملكه . وهكذا أصبح من أخطر الشخصيات الموجودة في بغداد على عهد الباشا الكبير ، وأصبحت له كلمة نافذة في الدوائر الحكومية وسمعة شعبية في العراق وجيرانه . ولذلك فليس من الغريب ان تراود مخيلة الحاج الشاوي في تلك الظروف فكرة تولي الولاية التي كان أكثر لياقة لها ممن كان يتولاها من المماليك أو الأتراك لو لم يكن عربياً من أهل البلاد الأقحاح ! أو تولي منصب الكهية على الأقل ، الذي يؤدي الى المنصب الأكبر في الولاية في كثير من الأحيان .

وكانت الشخصية العربية الأخرى التي يشار اليها بالبنان في العراق حينذاك ثويني العبد الله شيخ مشايخ المنتفك ، من آل شبيب ، الذي أبلى بلاء حسناً ، بالاشتراك مع ابن عمه ثامر المحمد المانع ، في قتال الفرس حينما جردوا على عشائر المنتفك من البصرة (وكانوا قد احتلوها في عهد كريم خان زند) حملات قوية استطاع المنتفكيون تدميرها عن بكرة أبيها في موقعتي الفضلية وأبي حلانة . وتولى المشيخة بعد ان قتل الخزاعل ابن عمه ثامر فقام بواجبه خير قيام . وانتقم لابن عمه وعشيرته من خصومهم . وقد كان ثويني طموحاً منذ ان نشأ وانغمر في زعامة القبيلة وشؤونها ، وقد ظلت عيونه ترنو الى البصرة والاستقلال بها في كل الفرص والمناسبات . وتعرّف على سليمان الكبير حينما كان متسلماً في البصرة ، فساعده في الدفاع عنها ضد الايرانيين خلال مراحل الحصار كلها . وحينما استولى ثويني على البصرة بعد انسحاب الايرانيين منها .

---

(١) الموظف العربي في ديوان الباشا الذي تراجعه القبائل في شؤونها مع الوالي .

كان هو الذي سمح لسليمان الكبير بعد عودته من الأسر بالعودة الى منصبه بعد أن كان ثامر ابن عمه قد رفض اعادته من قبل . ولذلك نشأت بين الشخصيتين مودة خالصة وعلاقة حسنة . فآثر سليمان باشا حينما تسلم فرمان تعيينه لبغداد وهو ما يزال في البصرة . في ربيع سنة ١٧٨٠ . ان يصطحب الشيخ ثوينياً على رأس قوة جسيمة من المنتفكين ويسير بها الى حد كربلا حين تشرف بزيارة الامام الشهيد قبل وصوله الى بغداد .

اما الشخصية الثالثة فقد كانت حمد الحمود شيخ الخزاعل . الذي كان يهيمن على منطقة الفرات الأوسط وأهوارها من مقره في الحسكة . وقد نشأت الديوانية الحالية في موقعها بعد ذلك . وكان ذا شخصية قوية ونفس طموحة وثابة . تأبى الضيم والخضوع وتعاف الانقياد والخنوع . ولذلك كان كثير الاصطدام بالحكومة . سريع الخروج عليها . وقد ينطوي في سلوكه هذا التنافر الطبيعي بين حياة القبائل العربية التي يسيّرها العرف العشائري المتأصل وتقاليد العرب المعروفة . وبين الحكم الدخيل الذي كان يفرض على العشائر لتخضع له وتؤدي الضرائب الباهظة اليه من دون أن تحظى لقاءها بشيء من نعم العملية التمدينية التي كان يتوجب على الحكومات الصالحة أن تمارسها . وكان حمد الحمود يترأس فريق الحمد من الخزاعل عند وصول الفرمان بتعيين سليمان باشا الكبير والياً في بغداد . وحينما مر بتلك المنطقة قادماً من البصرة في طريقه الى بغداد خرج لاستقباله في السماوة حمد الحمود . فسُر الباشا لذلك وخلع عليه ثم جعله شيخاً لمشايخ الخزاعل كلها . أي لفريقي الحمد والسلمان . أو الشامية والجزيرة . لكنه لم يلبث سوى أشهر معدودة حتى خرج على الحكومة لأنها كانت ترهقه وترهق عشائره بالضرائب . فعزله الباشا وسار اليه بنفسه للتنكيل به ونصب الشيخ محسن الحمد في مكانه . ثم تمرد محسن بدوره على الحكومة . فعُزل وأُعيد حمد الحمود في مكانه مرةً ثانية . وقد تكرّرت هذه العملية مرات ثلاثاً بين سنتي ١٧٨١ و١٧٨٦ . وكانت الأخيرة هي السنة التي اتفقت فيها الشخصيات العربية الثلاث على الثورة ضد المماليك في حركة واحدة .

فقد أخذ الحاج سليمان الشاوي يلاحظ . وهو يماشي سليمان باشا الكبير

ويؤازره في أعماله ، ان الباشا صار يكثر من رعاية المماليك ويتعمّد تعيينهم للوظائف المهمة في بغداد وخارجها ، وراح يستورد الكثيرين من أبناء جلدته هؤلاء فيضع الخطط لتسليم البلاد بأيديهم . وكان على رأس من يضع ثقته فيهم من المماليك ويودع جل اعتماده عليهم مملوك له كثير من المواهب ، حسن الصوت ، جميل الصورة والقوام ، كان قد اشتراه منذ نعومة أظفاره ، فتعهده ورباه قبل ان يتولى متسلمية البصرة . ثم اصطحبه معه الى كل مكان ذهب اليه أو اشتغل فيه حتى تسنم منصب الباشوية في بغداد . فصار يعتمد عليه في منصبه الجديد بطبيعة الحال ، وجعله مهرداراً له في الولاية ، وسلم مقاليد الأمور اليه بحيث أصبح مسيطراً على الصغيرة والكبيرة في الباشوية . وبهذا دانت لأحمد ابن الخربندة[1] هذا الرقاب في بغداد ، وانحنت له الهام . وكان من الطبيعي ان يصطدم هذا المملوك المتجبر بالسري العربي النبيل في يوم من الأيام ، فتدب عقارب النفرة بينهما وتتسمم الصلات والعلاقات فتؤدي الى الاحتكاك في مناسبات كثيرة . وكان الباشا الكبير الى جانب تعلقه بمهرداره ، وتولهه به ، يجل الحاج سليمان الشاوي ويقدره حق قدره ، كما كان يسوؤه أن تستفحل النفرة في نفسيهما فتتوتر العلاقات بينهما . ولذلك حاول في مختلف المناسبات ان يصلح بينهما ، ويجمع النقيضين في صعيد واحد فلم يفلح في مبتغاه . فكان لا بد من ان ينفجر الوضع في النهاية .

وقد آن لهذا الانفجار أن يحصل حينما أقدم الباشا ، بعد ان تقدم به العمر وقلت همته ، على تعيين مهرداره ابن الخربندة كهيّة له في الولاية . فعرض فكرته هذه قبل تنفيذها على الحاج الشاوي نفسه ، لأنه كان معتاداً على استشارته والاستنارة برأيه في كثير من الأمور . فابتدره الشاوي بصراحته المعهودة ، وسفّه له هذا الرأي ثم تطرف في ذم المهردار وبيان وضاعته حتى أغضب الباشا الوالي وأثار سخطه عليه . وعند ذاك تبدل موقفه تجاه الحاج الشاوي وراح ينزع ثقته به شيئاً فشيئاً . وأخذ ابن الخربندة من جهة أخرى يوغر صدر الباشا عليه .

---

(١) اي ابن المكاري

ويذكره بطمعه في الباشوية واحتقاره للمماليك وطبقتهم . فتحرّج وضع العربي النبيل في بلده ، ولم يعد يقوى على البقاء في بغداد . فقرر الفرار الى منطقة عنزقوف ومحاولة اعلان الثورة فيها . وهناك ضرب خيامه . وشاع أمره بين العشائر فوافته وفودها ونجداتها واحدة بعد أخرى . وقد ارتأى وهو في وضعه ذاك أن يتصل بثويني العبد الله شيخ مشايخ المنتفك وقرمها الماجد . ويفاتحه بأمر الوقوف في وجه الحكومة التي طغى شكلها المملوكي على كل شيء في البلاد . والكف عن مساعدتها أو المبادرة الى مؤازرتها في وقت الضيق كما كان المعتاد . فلقي هذا هوى في نفس الشبيبي الأنوف . لأن نفسه كانت تعتلج فيها آمالٌ طوالٌ عراض وعيونه لا تني ترنو الى البصرة من بعيد على الدوام . ثم ازداد الملتفون حول الحاج سليمان . والتحق به أخوته الثلاثة حبيب ومحمد وعبد العزيز فبات أمره ينذر بشر مستطير .

وقد كان من الطبيعي ان يصل كل هذا الى علم سليمان باشا الكبير . ولا سيما عن طريق معتمده أحمد آغا بن الخربنـــدة . وكان يتربص بخصمه الفرص ليقنع الباشا بسوق القوات الكافية للتنكيل به . ونظراً لأن الباشا الكبير كان يعمل على ان تكون الادارة خالصةً للمماليك . وكان يهددهم وجـــود القبائل العربية المنتشرة في طول البلاد وعرضها . بالاضافة الى خطر العشائر الكردية والقوات الانكشارية العائدة للسلطان عليهم . ولما كان الحاج الشاوي بوسعه ان يكتل العشائر العربية ضده وضد أبناء جلدته بحركةٍ واحدة . فقد أدرك في الحال خطورة وضع الشاوي . وأهمية المبادرة الى القضاء على حركته في مهدها بأسرع ما يمكن . فاستدعى قوةً من الأكراد ضمها الى جيشه النظامي وجرّد على الشاوي حملةً قوية يقودها خصمه ابن الخربندة . وما أن سمـــع الشاوي بذلك حتّى انسحب الى جهات تكريت في منطقةٍ يقال لها « وشيل » . لكن أحمد آغا أصرّ على اللحاق به حتّى اضطره الى ترك أثقاله والتوجه الى جهات الخابور .

وحينما عاد ابن الخربندة غانماً مظفراً الى بغداد كافأه الباشا باسناد منصب الكهية اليه بدرجة ميرميران[1] (سنة ١٧٨٥) ، فعظم قدره وازدادت سطوته

(١) درجة من درجات الباشوية تقع تحت درجة الوزير وبيك البيكات (بكلربكي) ، =

فخلا له الجو . اما الثائر العربي المقدام فقد توجه من الخابور الى « سحول » في منطقة عانه [1] . وهناك جمع شمله والتحقت به ثلة كبيرة من قبائل العبيد وغيرها . فأفزع ذلك سليمان باشا من جديد . وساق لقتاله قوة يقودها كتخذا البوابين خالد آغا هذه المرة . وقد اصطدمت هذه بالقوات العربية التي كان يقودها احمد بك بن الحاج سليمان الشاوي بالقرب من الفلوجة . فدارت عليها الدوائر وكسرت شر كسرة . إذ قُتل وأُسر من قوات الباشا عدد كبير . وكان بين القتلى عدد من رؤساء الأكراد منهم بكر باشا الكويسنجقلي . كما كان بين الأسرى خالد آغا قائد القوات نفسه ومحمود باشا متصرف كوي سنجق . فأطلق الشاوي الثائر سراح محمود باشا . بعد أن أعاد له حصانه . بينما أبقى معه خالد آغا كتخذا البوابين لأنه قرر الانضمام اليه .

ولم يمض شهر واحد على تلك الموقعة . التي أحرز فيها الثوار العرب نصراً مدوّياً . حتى ظهر الشاوي على أبواب بغداد بغتةً . فشوهد في الكاظمية ثم دخل الكرخ بعد قتال عنيف هزم فيه قوات « عكَيل » وخيّم على مقربةٍ من منصور الحلاج . فأصبحت حتى بساتين العاصمة غير آمنة للناس . واستفحلت الفوضى بحيث لم تستطع الحكومة ان تحافظ على ضاحية الكاظمية ولا الكرخ الا بشق الأنفس . مع أنها كانت تستعين بعشائر عكَيل .

وقد ارتاع الباشا الوالي من ذلك . وشرع يجمع ما أمكن جمعه من المشاة والخيالة والمدفعية . ثم أمر بسوق عدد كبير من سكان بغداد الى الجندية ، وتولى قيادة الحملة الجديدة بنفسه . ومن المؤلم أن ينفرط عقد الأتباع عن الشاوي

= والكلمة فارسية الأصل .

(١) يروى ان الحاج الشاوي كتب من هناك الى سليمان باشا الكبير يعاتبه بالابيات التالية من نظمه ، ويعرض بتقريبه لابن الخربندة :

يـا زارعـاً بيمينـه	شجر المودة بالسباخ
ومنيمـاً بيض القطا	تحت الحدا يبغي الفراخ
ذهب الزمـان بأهله	فاختر لنفسك من تؤاخ
إن الـذين تودهـم	هم ناصبون لك الفخاخ

الثائر في مثل هذا الوقت الذي أصبح فيه على قاب قوسين أو أدنى من النصر ، وان يتخلى عنه حتى اخوته الثلاثة الذين التحقوا به قبل هذا .

لكن الثائر العربي لم يفت ذلك في عضده ، فقد تراجع مع عدد من أتباعه ومنهم خالد آغا نحو الدجيل قبل ان يشتبك في قتال مع الوالي ؛ ومن ثم قصد البادية الى جهات شفاثه ، فتعقبه أحمد آغا الكهية الى هناك ، لكنه توجه منها الى ثويني العبد الله في سوق الشيوخ . فوجد شيخ المشايخ متأهباً للثورة والقتال ، بعد ان عرف من الحوادث الأخيرة مقدار قوة الحكومة وضعفها . وكانت عشائر ثويني يومذاك قد مرت عليها مـــدة من الزمن وهي هادئة موالية ، وقد ملت من الاخلاد الى السكينة . وكانت البصرة القريبة منها لا تغيب عن بـــال رجالها ، وهي تلوّح لهم بخيراتها وغناها من بعيد . وقد قرر ثويني والشاوي بعد المداولة والتشاور ان يكتبا الى حمد الحمود شيخ الخزاعل في الحسكة ويدعواه الى الانضمام اليهما فاستجاب لطلبهما في الحال ، وأعلنت الثورة فشملت منطقتي الفرات الأوسط والجنوبي كلهما .

وكان أهم ما فعله ثويني وقواته أنه جرّد حملةً قوية بقيادة أخيه على البصرة فاحتلتها وأسرت متسلمها ابراهيم بك[1] ، ثم وُضع في سفينة وسُفّر الى مسقط . وقد هدأت البصرة على أثر ذلك في الحال حتى دخلها ثويني مع رجاله في اليوم الثالث مع ستة آلاف مقاتل ، فعادت بذلك عربيةً في حكمها .

وقد ظلت حكومة البصرة حكومة عربية مدةً تزيد على الثلاثة أشهر من دون ان يحدث خلالها أي اعتداء على الأهلين ، أو ترتبك خلالها الأمور ، كما يشهد بذلك المستر توماس هاويل[2] في رحلته خلال سنة ١٧٨٧ — ١٧٨٨ . فهو يقول عنها في تلك الأيام :

(١) وكان المتسلم هذا ، على ما جاء في مختصر مطالع السعود ، قد أقام للفسوق سوقاً في البصرة ، خصوصاً ترقيص الأولاد والفواحش من كل نوع علناً ، الى ان اقتدى به جميع أعيان البلد وصاروا يتفاخرون بذلك ، فكأن الله عاقبه على سوء فعله .

(٢) Thomas Howell ، كان صاحب الرحلة من موظفي شركة الهند الشرقية ، وقد وصل الى البصرة في شباط ١٧٨٨ (١٢٠٢ هـ) اي بعد أن استعادها سليمان الكبير ببضعة أشهر ، لأن العرب استولوا عليها في أيار ١٧٨٧ ثم استرجعت في آب من تلك السنة نفسها .

.. لم تبقَ تجارة البصرة رائجة كما كانت عليه قبلاً لكنها ما تزال أهم مخزن تجاري في هذه الجهات ، حيث يثري التاجر ويكسب كثيراً من أعماله . واما حاكمها فهو تركي وسكانها عرب ، وقد استوطنت فيها أسر تركية وأرمنية .. وكان الشيخ ثويني — الشيخ العربي القدير — قد استولى عليها في سنة ١٧٨٧ بتدابيره الصائبة ففاجأ حاميتها واحتل المدينة من دون مقاومة . والأمر الذي يجب ان يلفت النظر اليه أنه لم يُصب إذذاك أحد من سكانها بأهانة ، ولم يتجاوز أحد على مال لأحدهم . ولم يطلب الشيخ من سكانها غرامة[1] حربية . وبعد ان استولت جيوش الشيخ بنصف ساعة عادت شؤون الناس تجري بانتظام لا يشوبه ما يخل به ، فكأنه لم يقع هناك حادث غير اعتيادي ... ان الشعوب الممعنة في المدنية والعلم لتغبط هذه الحالة الداعية الى الشرف وهي ترينا أنه مع ما عليه الاعراب من ميل الى السلب والنهب فان لهم أنظمة ودساتير تبعث بهم حب السلام ويكون رائدها الطاعة القصوى لرئيسهم ، وهو روح النظـــام العسكري ... اما الشيخ فهو كهل شجاع باسل ذو إقدام على العمل ، قل من يفوقه أحد . وهو عزيز على مواطنيه لحسن تدبيره في الأمور وتوقد ذهنيته . وجنوحه الى جانب الحق . ولاعتداله الذي يتمشى عليه في شؤون إمارته . وقد جعلته هذه الصفات محترماً عند الناس كافة .

.. وقد دام الشيخ في البصرة ثلاثة أشهر . ثم علم أن باشا بغداد . وهو متبوع الشيخ في تأدية الضريبة . كان قد تحرك لمحاربته بجيش قوامه ستة آلاف جندي . فجمع الشيخ قواه واتجه بها الى شواطىء الفرات ليقابل عدوه . فالتقى الجيشان هناك على بعدٍ من البصرة . واشتبك القتال فاستمر بين الفريقين ولم تنجلِ النتيجة الحاسمة في أول الأمر بل بانت أخيراً في جانب الأتراك : وانفل جمع العرب ففر الشيخ المسكين يتبعـــه بعض ذويه ، وقـــد نجوا من القتل والنار . ثم خطب الشيخ ود الباشا مستميلاً اياه ، وطلب المعذرة عما صدر منه ولكن الباشا رفض طلبه وأقام مقامه شيخاً غيره[2] ... لقد زال حكم ثويـــني

---

(١) وهذا يكذب مع الأسف ما جاء في بعض المراجع العربية والتركية المالئة للماليك مثل مطالع السعود لعثمان بن سند البصري الذي نقل عنه كتاب كثيرون ودوحة الوزراء كذلك .

(٢) لقد عين في مكانه الشيخ حموداً الثامر .

من البصرة ولكنه بقي يرأس عشيرة كبيرة تبذل نفسها لخدمته خدمةً نصوحاً لحبها اياه وشغفها به . ولا يبعد ان يصبح عدو الباشا اللدود ان لم يعدء الباشا الى منصبه[1] .. انتهى .

وأراد ثويني وحليفاه ، على ما يبدو ، ان يحققوا مطامحهم في إنشاء كيان عربي في العراق كله يتبع للسلطان ، ويستمد شرعيته من البلاد وأهلها ، فسلكوا الطريق الذي كان من المألوف أن يُسلك في مثل هذه الأحوال حينذاك. فقد جمعوا وجوه البصرة واشرافها ، والشخصيات الملتجئة اليها ، وقسماً غير قليل من رؤساء العشائر المحيطة بها ، ونظموا « مضبطةً » أصولية يطلبون فيها تأييد تعيين ثويني والياً للعراق بأجمعه وذكروا فيها « أنه لا يصلح لولاية العراق عموماً ، ولوزارة بغداد ، وتأمين الطرق ، الا ثويني العبد الله ، فانه هو الأسد الذي يحميها من العجم[2] .. » وقد بعث بها ثويني الى المراجع المختصة في الباب العالي ، بعد أن أشفعها بمقدمة قوية متواضعة في الوقت نفسه .

فما علم سليمان باشا الكبير بكل هذا حتى فقد صوابه وثارت ثائرته لأن المماليك ودولتهم العلية كان يخيفهم تحرك العرب ، وتخيفهم ثوراتهم ، فتأخذهم الحمية العصبية ويهبون لاخمادها في الحال . وقد فعل ذلك الباشا المملوك لأنه يعرف منزلة خصومه الثلاث وقابلياتهم ، ويعلم بشدة بأسهم . كما يعلم أن بدعة القيام بحركةٍ عربية موحدة في تلك الأيام كانت شيئاً يهدد كيان المماليك بأسره ، ويقوّض الوجود التركي في هذه الديار برمته عند الحاجة . فبعث على حسب العادة إلى أكراده في درنة وباجلان ومنطقة البابانيين في الشمال ، كما استعار جماعات الانكشاريين الموجودة تحت تصرف الباشا الجليلي في الموصل . ثم عمد الى الدس المقصود ، وراح يعمل على الاستفادة من نقطة الضعف العربية المميتة التي كثيراً ما استفاد منها أعداء العرب ، وما يزالون ، في تفريق صفوف العرب وضرب بعضهم ببعض . وبذلك مارس جوهر السياسة التركية في حكم العراق خلال العهود المختلفة ، فنجح فيه الى حد بعيد ونال مبتغاه .

فقد كتب الى شيخ بني كعب القريب من البصرة طالباً معونته ضد المنتفكيين

---

(١) لقد اضطر سليمان الكبير فيما بعد الى اعادة ثويني للمشيخة مرة ثالثة ، هذا وقد نقل هذا النص عن « مباحث عراقية » للاستاذ يعقوب سركيس .   (٢) مختصر مطالع السعود .

خصوم كعب ومنازعيهم على النفوذ في منطقة البصرة . واستمال حموداً الثامر السعدون قريب ثويني ومنافسه في زعامة تلك القبائل . كما قرر عزل حمد الحمود شيخ الخزاعل في الفرات الأوسط وتعيين محسن الحمد في مكانه . ثم سار على رأس الجيش الجرار الذي جمعه من كل مكان في الوقت نفسه نحو الجنوب ودخل منطقة الخزاعل في أواخر صيف ١٧٨٧ ، فوجد حمداً متأهباً للنضال والقتال فيها . وقد أبدى مقاومةً باسلة ، بعد ان تحصن في قلاعه المعروفة بال « سيباية » . لكن قواته لم تستطع الصمود طويلاً تجاه أسلحة الجيش الحديثة فنشتت شملها وتراجع حمود مع قسم من أتباعه الى حايفيه في ديار المنتفك . وتابع الباشا تقدمه بقطعات جيشه نحو المنتفك حتى وصل إلى «أم العباس» وخيّم فيها.

اما الثوار العرب الثلاثة ، فقد جمعوا قواتهم في نهر عمر فبلغت زهاء عشرين ألف مقاتل من الخيالة والمشاة . وبعد أن عبأوها للقتال على الوجه المطلوب ، ساروا للقاء الباشا وجيوشه ، فالتحم الجمعان في موقع يقال له « أم الحنطة » . وهناك وقعت معركة عنيفة اشترك فيها سليمان باشا بنفسه ، ونزل الى الميدان منتضياً سيفه ، فأخذ يقاتل قتال المستميت ، لأن الموقعة كانت من المواقع الحاسمة التي يتقرر فيها مصير المماليك ، ويحجز فيها بين بقاء حكومتهم وزوالها من الوجود تنفسٌ واحد لا غير . واستقتلت القوات العربية في النضال والطعان ، وهي تعرف انها كانت تقاتل من أجل شرف أمتها وعروبتها في عقر دارها ، وتذب عن بلادها التي صار يحكمها بغاث الدخلاء . فنزل الى الميدان منهما عشرة آلاف فارس مرةً واحدة يؤازرهم المشاة بمجموعهم . وظل القتال سجالاً بين الفريقين ساعات طويلة ، حتى رجحت كفة الحرب بعدها في صالح القوات الحكومية . وبذلك اندحرت جيوش الثورة بعد ان سقط منها في حومة الوغى زهاء ثلاثة آلاف شهيد من الخيالة ، وعدد كبير آخر من المشاة . لكن القادة الثلاثة استطاعوا النجاة بأنفسهم ، بعد ان ظلوا يباشرون القتال بأنفسهم حتى النهاية .

وهكذا تم القضاء على ثورة عربية جريئة رائدة ، وتبدد الحلم الذي كان يعد محاولةً أولى من محاولات العرب في هذه البلاد للحصول على الحكم الذاتي في العصر الحديث . إبان التسلط العثماني التركي الذي استقام قروناً أربعة .

٢٥

عصيان احمد آغا ينيجري آغاسي[1]

في صيف سنة ١٨٠٢ آذنت شمس سليمان باشا الكبير بالمغيب ، فتوفي بداء المفاصل بعد عمر مديد جاوز الثمانين عاماً وحكم طويل في سراي بغداد استغرق نيفاً وثلاثاً وعشرين سنة [2] . وكان قبل أن يلفظ نفسه الأخير قد دعى الأغوات المقربين اليه ، وهم أصهاره ومعتمدوه ، وناشدهم بأن يكونوا يداً واحدةً وقلباً واحداً بعد موته ولا يسلطوا الغريب عليهم ، للمحافظة على الكيان الذي تعب من أجله وبذل كل مجهود في انشائه . وقد اجتمع هؤلاء بعد أن ووري التراب في مقبرة الامام الأعظم . فحضر أصهاره علي باشا الكهية ، وسليم بك متسلم البصره السابق ، والخزنه دار داود أغا ، والقبوجيلر كهيه سي (كهية البوابين) نصيف أغا . كما حضر الى جانب القاضي والمفتي أحمد آغا ينيجري أغاسي ومحمد بك الشاوي ، فأقسموا في هذا الاجتماع على البقاء في جبهة واحدة وعلى ترشيح علي باشا الكهية لتسنم منصب الباشوية بالوكالة (قائمقام) حتى ترد المصادقة على التعيين النهائي من الباب العالي . وتعهد الينيجري أغاسي علاوةً على ذلك بأن يحافظ على أمن البلاد وهدوئها بكل إخلاص وحميّة ، كما تعهد محمد بك الشاوي بتهدئة العشائر العربية وتصريف شؤونها على الوجه المطلوب . وفي نهاية اليوم الثاني ، نادي المنادي في بغداد

---

(١) المراجع : دوحة الوزراء ، مباحث عراقية ، غرائب الأثر ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، مختصر مطالع السعود ، وكتاب السربريجز Transactions of His Mafesty's Mission to the Court of Persia .

(٢) توفي بعد ظهر السبت ٧ آب ١٨٠٢ (٨ ربيع الثاني ١٢١٧هـ) .

معلناً تعيين علي باشا وطالباً من الناس أن يلزم كل منهم حده ، وينصرف الى عمله . وهكذا كان يبدو أن الأمور تسير سيراً طبيعياً في البلاد ، وأن الناس لم يكن حديثهم يخرج عن تفجعهم لوفاة الباشا الكبير وتأسفهم على فقدانه .

غير أن الهدوء هذا كان من نوع الهدوء الذي يسبق العاصفة . فقد كانت تتخلل حديث الناس في مقاهي بغداد وأنديتها عشية ذلك اليوم همسات خافته هنا وهناك تشير الى توقع حصول أحداث خطيرة في بغداد بين آونة وأخرى . فلم يكن أولاد الباشا الكبير الثلاثة[1] في سن تؤهل أياً منهم لأن يخلفه في المنصب ، ولذلك استيقظت الأطماع في نفوس الكثيرين من الطامعين الطامحين منذ أن مرض مرضته الأخيرة ، وظل هؤلاء يترقبون بعاطفة وطمع حياته الآخذة بالانطفاء ساعة بعد أخرى خلال الأثني عشر عشر يوماً التي ظل طريح الفراش فيها ، قبل أن يغمض جفنيه فيفارق هذه الدنيا الفانية . وكان أبرز الطامحين وأليقهم للمنصب صهره لابنته خديجة وهو كهيته علي باشا ، لكن سليم بك صهره الآخر الذي عزله عن متسلمية البصرة في أواخر أيامه وصهره الثالث نصيف أغا كهية البوابين كانا ينافسانه في ذلك ويعملان على الحيلولة دون تسنمه المنصب . ومع أنهما وافقا بصورة ظاهرية ، في الاجتماع الذي عقد لترشيح الوالي الجديد ، على تعيين عديلهما الكهية في المنصب الأكبر بالولاية ، وأقسما على الاخلاص له والأخذ بيده تنفيذاً لرغبة سيدهم الراحل فقد راحا يدسان له من طرف خفي ، ويعملان مع الطامعين الآخرين بخلاف ذلك ، لا سيما وأنهما لم تكن لهما تلك المنزلة أو الشعبية التي تؤهلهما لمنافسته ولم تكن تحت تصرفهما القوة اللازمة ، أو المقدار الكافي من المال للسيطرة على الوضع بهما .

وكان هناك الى جانب اولئك الأصهار رجل لم يكن من المماليك في أصله ، لكنه كان معتمد الباشا الكبير وموضع ثقته ، ولذلك عهد اليه بقيادة القوة العسكرية الضاربة ، والحامية الموجودة في بغداد ، وهو رئيس الانكشاريين

---

(١) وهم سعيد (أو أسعد) وصادق وصالح ، وكان سعيد أكبرهم يبلغ الثانية عشرة من العمر يومذاك .

أحمد أغا ينيچري أغاسي[1] . وقد كان لهـذا الرجل سجل خاص حافل بالأطماع ، وطموح لا تحده حدود برغم أصله المتواضع ومنبته المغمور . فرأى أن يهتبل هذه الفرصة الذهبية وهو صاحب الحول والطول فيحصل على ما يريد ، وراح يعد العدة للاستيلاء على الحكم قبل أن ينتقل الباشا الكبير الى دار البقاء بعدة أيام . ولما كان على علم بمنويات الصهر الثاني سليم بك ودخائله فقد فاتحه في الموضوع وأوهمه بأنه يريد أن يعمل على تعيينه للباشوية بدلاً من علي باشا ، فلقيت معروضاته هذه هوىً في نفس الصهر الطموح بطبيعة الحال. واتصل من جهة أخرى بالمقيم البريطاني في بغداد فطلب اليه أن يكتب الى السفارة البريطانية في الاستانة لتستخدم نفوذها في تعيينه . وقد كانت الجهات المختصة في الباب العالي على استعدادٍ تام لتقبل هذه الوساطة على ما يبدو . لأنها كانت تؤمل الاستحواذ على كنوز الباشا الراحل ، ومخلفاته بواسطة أحمد أغا نفسه ، على ما يذكر السر بريجز في كتابـه[2] (الص ٢٠٥) . ثم أعد أتباعه الانكشاريين ونظّمهم . ليكونوا على أهبة الاستعداد في اليوم الموعود .

وكان أحمد أغا هذا في بداية أمره بالحياة شاباً معدماً من أغمار الناس ، ينتمي الى أسرة من الأسر البغدادية الفقيرة ، وقد ضاقت به سبل العيش فعُين قواساً في احدى الدوائر الحكومية ، وكان مع فقره هذا يحمل بين جنبيه نفساً طموحة ، وطبعاً مشاكساً كثيراً ما كان يؤدي به الى الاصطدام بالناس والتورط بالمشاكل . وقد حصل ذات يوم أن اشتبك في شجار مع رجل من ذوي قرباه لأسباب تافهة ، فأدى به ذلك الشجار الى أن يقتل الرجل ويتوارى عن الأنظار . وبعد أن ظل مختفياً في الزوايا والخبايا ، بعيداً عن أيدي العدالة والقانون ، ردحاً

(١) أي رئيس الينيچرية والينيچرية هم الجند الامبراطوري الذي كان عائداً للسلطان ، وكانت تنتشر حامياته في أنحاء الامبراطورية العثمانية الى ان قضى عليهم السلطان محمود الثاني . وكانت هؤلاء تشكيلات وتقاليد خاصة . وتعني الكلمة المتألفة من مقطعين «الجند الجديد» ولذلك تكتب بالتركية « ينكيجري » ومن دون أن تلفظ الكاف ، وقد حرفت بالعربية حتى أصبحت تلفظ على شكل « انكشاري » او « انكشارية » .

(٢) Brydges, Sir H. g. - Transactions of His Majesty's Mission tothe Court of Persia. (Lowdon 1834).

من الزمن طوحت به الأقدار فوصل الى دمشق الشام . وهناك انخرط في سلك القوات المسلحة ، وأصبح جندياً من حملة البنادق (تفنكچي) . ثم أظهر قابليةً وبراعةً في هذا المسلك وتفوق على أقرانه . فرفع الى رتبة « تفنكچي باشي » . وتطورت به الحال من بعد ذلك فارتقى الى رتبة «ينيجري أغاسي » ، أي رئيساً للانكشارية في حامية الشام .

وبذلك أصبحت له منزلة اجتماعية مرموقة وشأن بين الناس بالاضافة الى منزلته العسكرية المرهوبة ، وازدادت ثقافته الأدبية والعامة فصار ينظم الشعر ويتذوقه ، ويتصل بالأدباء والشعراء حتى مدحه قسم منهم وخطب وده آخرون[1]. ولم ينقطع وهو في بلاد الغربة عن الاتصال ببغداد ومن فيها من أهلٍ وأصدقاء . حتى أن ابناً من أبناء أخيه تبعه الى بلاد الشام وانخرط في سلك الجندية الذي سلكه عمه فبرهن على كفاءته وقدرته فيها حتى ارتقت به الحال بعد ذلك وأصبح متسلماً في صور باسم (علي أغا البغدادي) ، تابعاً الى والي صيدا . ثم انتقل الى

---

(١) يفهم مما يذكره الاستاذ يعقوب سركيس في مباحثه (القسم الثاني) ان الشيخ ابراهيم يحيى العاملي في بلاد الشام ، المتوفي سنة ١٧٩٩ ، له قصائد عدة في مدح أحمد أغا هذا . منها قوله فيه :

فصيح اذا شاد القريض حسبته   يصوغ القوافي في لجين وزبرج

ومنها أيضاً الموشحة :

وفصيح المفغذ يزري بـالدرر   قوله ان قال نظماً أو نثر

منطق كالروض مطلول الزهر

وقريض ما تـلاه الأدبـا   بينهم الا هموا بالسجود

وللشيخ العاملي هذا قصائد أخرى على لسان أحمد أغا كان يبعثها الأغا الى اصدقائه في بغداد . والظاهر من مجموعات شعرية مخطوطة لدى الأستاذ سركيس كذلك أن الشعر الذي يقصده الشيخ العاملي هو الموال الذي كان يجيد نظمه أحمد أغا . وندرج فيما يأتي نماذج منه :

مدامع العين يوم نواك هليتهـا   وليالي وصلك تعود علي هليتها

الى أن يقول :

ولا بطلعـة محمد ياس ضويتهـا   وبيوت همي عليك هناك ضويتها

ثم يقول من الزهيريات :

هديت شاهين شوقي صيد لقطاتك   ودعيت حبات قلبي حب لقطاتك

ناشدتك الله قلوب الناس لقطاتك   خليتهم كالغنـم مات راعيهـا

يلي تحاكي قطاة الريم لقطـاتك

الشام وعُين متسلماً فيها على عهد سليمان باشا (١٧١٢) ، لكن نفسه حدثته بالعصيان هناك . وجال في خاطره ما كان قد جال في خاطر عمه ببغداد من قبل ، فأعلن العصيان وهيّج أهل الشام فحرضهم ضد سليمان باشا ، وحينما سيقت القوات اللازمة لإخضاعه اعتصم بالقلعة مع أتباعه وتحاصر فيها مدة من الزمن . فغلب على أمره ، وقبض عليه فقتل شر قتلة . ويبدو أن الشام في أيام علي أغا البغدادي هذا كان يكثر فيها وجود البغداديين ، لأن سليمان باشا أعقب قتل علي البغدادي باخراج جميع البغادده من الشام وأنذر بقتل من يتخلف منهم [١] فيها .

وقد ظل أحمد أغا يشغل منصب ينيجري أغاسي في الشام مدة من الزمن كان على وفاق ووئام فيها مع الوالي أحمد باشا الجزار . ولما كانت نفسه مجبولة على الخصام والمشاكسة ، ومعروفة بالطموح والمجازفة ، كان من الطبيعي أن يجد نفسه في يوم من الأيام على أختلاف مع الجزار الجبار الذي صار يوجس خيفة منه . وقبل أن ينزل الجزار ضربة من ضرباته القاسية فيه جمع أحمد أغا ثروته وماله وفر من الشام عائداً الى موطنه بغداد سنة ١٧٩١ . وفيها أحسن الوالي سليمان الكبير لقاءه ، وفتح له صدره ، لأنه كان يتوسم فيه الخير ويعهد به الشجاعة والاقدام . وسرعان ما نصبه ينيجري أغاسي في بغداد ، خلفاً لقاسم أغا ، فبقي على وضعه هذا حتى آن للباشا الكبير أن يرحل الى الدار الآخرة .

وقد كان مدار الخطة التي وضعها أحمد أغا للعصيان على علي باشا المرشح للباشوية ، والخروج على الاجماع في تعيينه ، أن يستولي على قلعة بغداد فيحاصر فيها عند الحاجة ، ويوجه نيران مدافعه منها الى مقر الوالي في سراي الحكومة . ذلك لأن الانكشاريين في أيام سليمان الكبير كانوا قد وُزعوا على الثكنات المختلفة في بغداد ، ومنها ثكنة الشورجة ، ولم يبق أحد منهم في القلعة خوفاً من قيامهم بحركة مثل هذه والاعتصام بها . فواجه علي باشا وأقنعه بأن أهالي بغداد أناس لا يؤمن شرهم ، وأن الحيطة والحذر يستدعيان استيلاء الانكشاريين

---

(١) الامير حيدر الشهابي — لبنان في عهد الأمراء الشهابيين (بيروت ١٩٣٣) .

اعلى القلعة استعداداً للطوارىء وتحسباً لما قد يحدث ، فما كان من الباشا الغافل ألا أن يؤيد طلب أحمد أغا ويشكره على التفاته الحسن الى هذه الناحية . غير ن أحمد أغا عبأ في الحقيقةأنصارهالانكشاريينوغيرهم ،وحشدهم في القلعة . ثم أغلق أبواب السور وقطع الجسر ، فراح يصلي سراي الحكومة ومن فيه بنيران مدافعه وقنابله من معقله الأمين ، بينما أخذ أتباعه والمنضمون اليه يشغبون في ساحة الميدان ويتظاهرون فيما حولها من أزقة وطرق . وكان لدوي المدافع واطلاقها على حين غرة تأثير كبير مرعب في المدينة الغافلة . فقد أغلقت الدكاكين والمخازن بعد أن نقلت محتوياتها الى البيوت والخانات المقفلة خوفاً من النهب ، وامتلأت الأزقة والدرابين بالأهالي المسلحين . وسرعان ما تألفت الجماعات والأحزاب . فانحازت الى الينيجري أغاسي الثائر ، الى جانب أكثرية الانكشارية ، معظم محلات بغداد في جانب الرصافة ، عدا محلة باب الشيخ ، ومحلات الباب الوسطاني . كما انضم اليه عدد كبير من ذوي الأطماع والمغامرين من أمثاله ، وكان منهم حسين أغا كوسه وهو من التجار المنتمين الى أحد « أوجاغات » الانكشارية ، وباش أسكي [1] ابراهيم ، وصالح أغا القيوجي . وجاووش أوسطه ، وأبناء القصبجي .

وفي مقابل ذلك نشط علي باشا وكيل الوالي (القائمقام) للعمل ، وأوفد الى أحمد أغا في القلعة وكيل الكهية خالد أغا لعله يثنيه عن هذه الحركة الطائشة فلم تثمر تلك الوفادة شيئاً . وعند ذاك أقيمت المتاريس في داخل الطرق والأزقة المحيطة بالسراي ، واتخذت العدة للحصار من جميع الوجوه . ثم اشتدت المناوشات بين الطرفين ، وهاجمت الغوغاء بعض الدور والأسواق فنهبت دكاكين البزازين والعطارين والبقالين ومخازن التجار .

وكان سليم بك الصهر الثاني قد امتنع عن كشف نواياه الى أن حلت هذه المرحلة . وحينما تطورت الأمور الى هذا الحد زج بنفسه في الميدان وتحصن مع

(١) باش أسكي تعني التقديم في الجندية ، اي أقدم جندي في الفوج (أورطة) ، وكانت له في العادة منزلة محترمة ، ولذلك كان يقود الحرس (قره قول) .

جماعته في الجهات المحيطة بمرقد كنج عثمان [1] ، وفيما يقرب من جامع الوزير ، وانضم الى شريكه في المؤامرة أحمد أغا فأخذ يوجه نيران اتباعه الى السراي كذلك . بينما كان اتباع الوالي الوكيل يقابلونهم بالمثل من داخل السراي. أما نصيف أغا الصهر الآخر فقد ظل يتردد بين الفريقين ويلعب دوراً مزدوجاً يتصل فيه بصورة سرية بالقلعة تارة وبالسراي تارةً أخرى . وظلت الحال على هذا المنوال أسبوعاً واحداً حتى قرر وكيل الوالي علي باشا أن يتنازل للينيجري أغاسي ، وينسحب الى بيته .

وعند ذاك عين أحمد أغا ورفاقه الثوار سليم بك[2] في مكان الوالي مؤقتاً حتى إذا ما حان الحين ينحيه فيحل في محله ، وبعثوا الى الحلة بمن يطلق سراح البابانيين المنفيين فيها عبد الرحمن باشا وسليم بك وجيء بهما الى بغداد فانضما الى صفوف الثوار . ومع أن علي باشا كان قد انسحب من المعركة وظل قابعاً في بيته فإن أحمد أغا بقي غير مقتنع بحسن نيته في هذا الانسحاب ؛ وطلب اليه بواسطة نصيف أغا أن ينتقل من بيته الى بيت عبدالله باشا في الميدان فأذعن للطلب . وقد كان أحمد أغا محقاً في شكه ، لأن علي باشا لم يطمئن الى نوايا الثوار تجاهه فهرب بطريقة من الطرق واستطاع العبور الى جانب الكرخ حيث كان محمد بك الشاوي بانتظاره . وهناك شرح لوجوه الكرخ وأصحاب الحول والطول فيه جلية الأمر ، واطماع الانكشاريين ودسائسهم ؛ فتعهد جميعهم بمؤازرته والوقوف في جانبه . وتكونت على هذا الأساس قوة مقدامة قوامها ثلة من عشائر عكيل ، والبعض من الجبور وسائر أهالي الكرخ ؛ مع عدد من المماليك المنشقين .

وقد استطاعت هذه القوة أن تعبر دجلة بالزوارق والسفن الى شريعة

---

(١) وكان موقعه في وسط الساحة الكائنة بين يدي مدخل السراي الحالي ودوائر الشرطة .

(٢) يذكر صاحب دوحة الوزراء ان الثوار أجلسوا سعيد بك بن سليمان الكبير في مكان الوالي ، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم نادوا باسم سليم بك وعينوه ، والرأي الأخير هو الصحيح على ما نرى لأن سعيد بك كان صبياً يومذاك لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر ، وكان حسين أغا كوسه أحد زعماء الثوار غير ميال اليه .

الميدان ، وهي ترفع راية الإمام الأعظم والشيخ الكيلاني [1] بقيادة محمد بك الشاوي ، وان تنازل قوات أحمد أغا في مداخل الميدان ، وبحركة بارعة أحرق المهاجمون جهة السوق المواجهة للميدان لئلا تكون كميناً للقوات الثائرة فكانت نيرانها الملتهبة كافية للايحاء الى الكثيرين من العصاة بالهزيمة . وبعد معركة حامية دارت رحاها في وهج النيران المشتعلة تفرق الثوار ، فدخل بعضهم الى القلعة وأغلقوا ابوابها من ورائهم ، ولاذ الباقون بأذيال الفرار . وكان من جملة الداخلين الى القلعة أحمد أغا ينيجري أغاسي ، وسليم بك صهر الباشا الكبير ، والأخوان البابانيان عبد الرحمن وسليم . وما انقضى النهار حتى استطاع المهاجمون من الكرخ الاستيلاء على الميدان والسراي . لكن مدافع القلعة ظلت تهدد ، وبقيت قذائفها تمطر الكرخيين بحممها ، لأن الينيجري أغاسي ظل مصراً على المقاومة واستمر الانكشاريون على الصمود برآسة حسين أغا كوسة ، حتى خيّم الليل بظلمته ، وتأجل القتال الى صبيحة اليوم الثاني في الوقت التي كانت تعسكر فيه قوات عكَيل وغيرها من المهاجمين بين يدي باب القلعة .

وبينما كان القتال محتدماً على هذه الشاكلة كان أعوان الوالي الوكيل يعملون على احباط الثورة بالأصفر الرنان ، ويبذلون المال لاتباع أحمد أغا من أجل الانفضاض عنه . وقد استمروا على ذلك الى اليوم الثاني فتكللت مساعيهم بالنجاح وانفض عن الينيجري أغاسي عدد غير قليل من رجاله . ثم استؤنف القتال في فجر اليوم التالي بالهجوم على القلعة . وفي الوقت الذي كان القتال قائماً على قدم وساق في هذه الجهة توجه فريق من المهاجمين الى قلب بغداد فهاجموا فيه محلات اليهود والشيعة [1] ونهبوا بيوتها ، كما هاجموا

(١) على ما يذكر الشيخ ياسين خير الله العمري في غرائب الأثر (الص ٦٢) .

(٢) كما يذكر ياسين خير الله العمري الذي يسمي الشيعة بالرافضة (غرائب الأثر الص ٦٢) . والظاهر من فحجة هذا النص وغيره من النصوص التاريخية المتيسرة ، ومن قرائن كثيرة أخرى ، ان أحمد أغا ينيجري أغاسي كان من شيعة بغداد في الأصل ، وان المحلات الشيعية فيها قد انضمت اليه في هذه الفتنـــة .

بعض الأسواق والدكاكين وسلبوا ما فيها . وقد تركز هجوم اليوم الثاني على باب القلعة الصغير في الدرجة الأولى فقصف بقذائف المدفع حتى تكسر وانخلع فتدفقت منه القوات المهاجمة الى الداخل . وبعد مقاومة عنيفة جرت في داخل القلعة تفرق الثوار أيدي سبأ . فهرب قسم منهم عن طريق الشط . وهرب قسم آخر من فوق الأسوار . واستسلم الباقون فانتهى القتال .

وقد استطاع أحمد أغا أن ينجو بنفسه في هذه المعركة . ويلتجيء الى بيت من بيوت أحد أتباعه في رأس القرية . وفر سليم بك صهر الباشا وعبد الرحمن بابان الى الأعظمية فاختفيا فيها . بينما فر سليم بابان الى الموصل . وعندئذ عبر علي باشا وكيل الوالي من الكرخ الى مقره في السراي ، وأمر أغوات الداخل (أيج أغاسيلر) وقوات عكيل بالمحافظة على الأمن والنظام . وكان أول ما فعله أنه استدعى سعدالله أغا عسس باشي (رئيس العسس) من الحلة وعين ينيجري أغاسي ببغداد في محل الثائر المندحر أحمد أغا . وكان من خصوم أحمد أغا المنفيين الى الخارج . وقد كلفه في الحال بأن ينهب بيت خصمه الينيجري أغاسي ويهدمه . فلم تمض ساعة ودقائق معدودة حتى هُدم البيت وأصبح انقاضاً متراكمة ، بعد أن نُهبت منه أمواله ومقتنياته وسبيت نساؤه وجواريه .

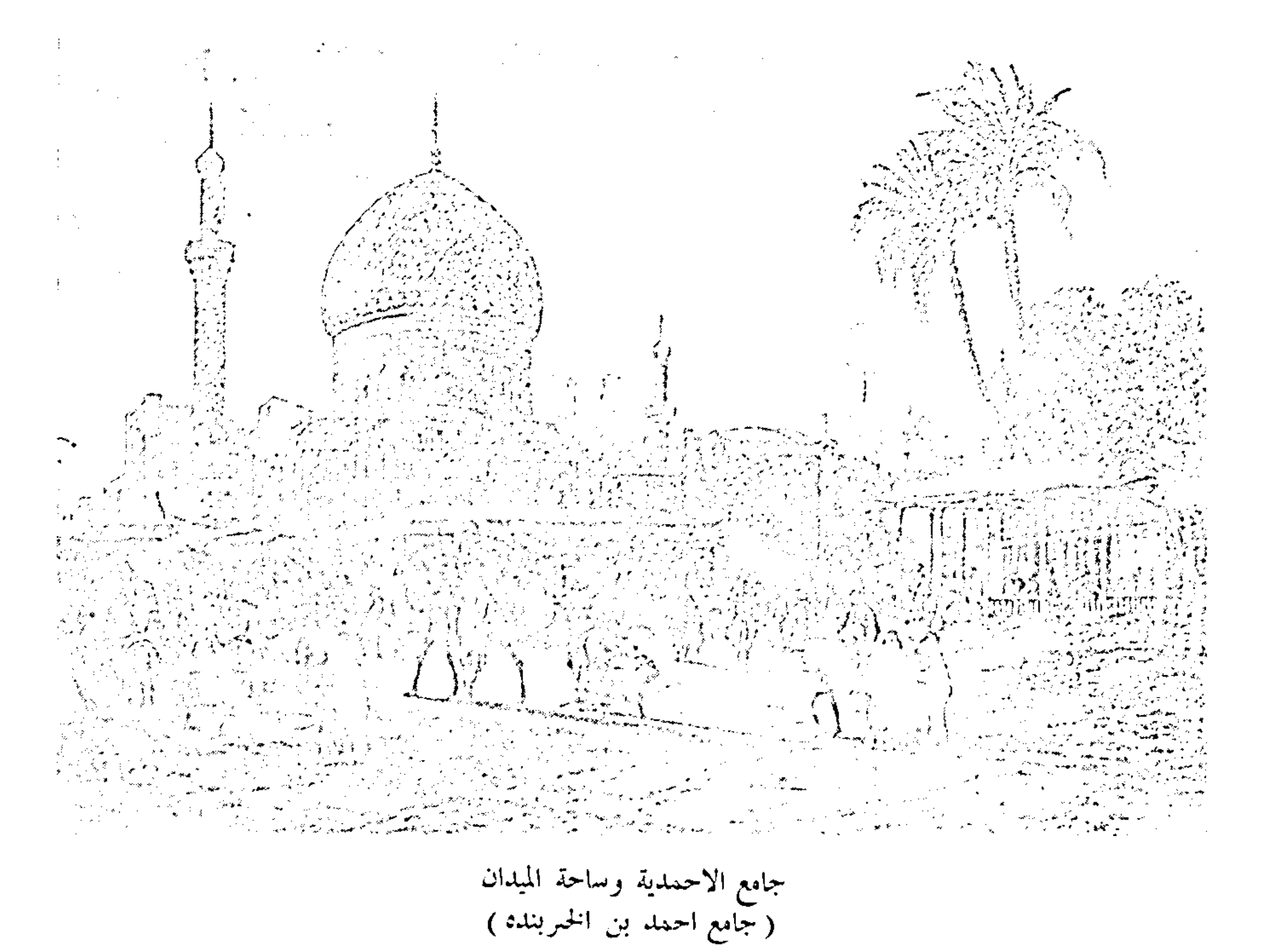
كما كُلف سعدالله أغا بأن يلقي القبض على أحمد أغا وأعوانه الفارين ، فنادى مناد في البلد بأن من يقبض عليه يكافأ بألف ليرة ذهب . فألقي القبض في اليوم الثاني على عبدٍ له أسود وجيء به الى السراي ، ثم ضُرب وعُذب حتى أقرّ عليه ودلهم على مخبأه في عقد من عقود رأس القرية . وحينئذٍ ذهبت مفرزة من الجند النظامي والعكيل الى ذلك البيت فأخرج منه بعد كثير من الضرب والاهانة ، وحمل الى السراي بحالة تستدر العطف وتدعو الى الاعتبار والاتعاظ . فقد أخذ اليه محمولاً كما يحمل شليف التبن . وهو حافي القدمين مكشوف الرأس ، تبدو عليه سيماء الفزع المتناهي وامارات الموت بشكل ملحوظ . وقد أحاط به جمع غفير وخلق كثير كان يشيعه الى مصيره المحتوم بكلمات السخرية وعبارات التشفي . وحينما القي بين يدي خصمه علي باشا قام اليه

وضربه بالغدارة ، ثم أمر بتقطيعه . فسحب ، أو « سُحل » ، من السراي الى ساحة الميدان . وكانت تنهال عليه خلال المسافة كلها الى هناك الضربات بالخناجر والسيوف من كل متطوع أو فضولي يمر به .

ثم قبض على مؤازري أحمد أغا البارزين في الحركة واحداً بعد آخر فنالوا جزاء ما فعلوه . فقد جيء بعد يومين بحسين أغا كوسة بين يدي علي باشا فأمر بضربه حتى يموت ، فضرب الفي جلدة بالعصا ولم يمت برغم الضعف الذي كان عليه ، ثم خُنق بعد أن كُسرت ثلاثة من أصابعه تنفيذاً لرغبة سعيد نجل الباشا الكبير . كما قتل من بعده الباش أسكي ابراهيم ، وصالح أغا القيوجي ، وجاووش أوسطة ، وأبناء القصبجي ، وغيرهم حتى بلغ عدد المقتولين أربعة عشر مذنباً .

أما أعوان أحمد أغا الكبار فقد قبض عليهم كذلك ، وكان من المؤمل أن يعدم عبد الرحمن بابان ويسجن أخوه سليم بك لكن محمد بك الشاوي وخالد أغا وكيل الكهية تشفعا لهما عند الباشا فصفح عنهما . ثم قُيد سليم بك صهر الباشا الكبير بالقيود وزُج في سفينة نقلته الى البصرة ، وهناك تسلمه خصمه القديم نجيب بك متسلم البصرة فأهانه وعذبه وزجه في السجن . وقد صودرت أموال وممتلكات أحمد أغا وأتباعه كلهم ، وأعلن العفو العام عن الباقين فنادى به منادي الحكومة بين الناس ، وهدأت العاصفة فاطمأنت الأحوال في بغداد .

وبعد أشهر ثلاثة وصل رجل المابين (القبوجي) ابراهيم أفندي يحمل الفرمان الهمايوني بتثبيت علي باشا في الباشوية ، وجعله وزيراً لولايات بغداد والبصرة وشهريزور ، مع خلعة السمّور المعتادة ، فعمت الأفراح واقيمت الاحتفالات ومعالم الزينة .



جامع الاحمدية وساحة الميدان
(جامع احمد بن الخربنده)

٢٦

أبن الخربندة[١]

كان سليمان باشا الكبير قد اقتنى ، قبل أن يصبح متسلماً في البصرة ، مملوكاً كرجياً صغير السن يدعى أحمد بن الخربندة[٢] ، وكانت تلوح في وجه هذا المملوك الصباحة والذكاء ، وتشع من عينيه إمارات المواهب والنبوغ ، فتعهده ورباه واتخذه خادماً في بيته . وكان هذا الخادم كلما تقدمت به السن ودرج في مدارج الحياة الناعمة يتكامل فيه حسن الخلقة والقوام[٣] ، ويتجلى فيه جمال الصورة والهندام ، وكلما مرت عليه الأيام يزداد فطنةً وذكاء ويبدي كثيراً من الشجاعة وحسن التدبير . ولم يهمل سليمان تثقيفه وتدريبه فنشأ أديباً يتذوق الشعر ويقرضه ، ومتعلماً يلم بالكثير من شؤون الحياة ومعارفها . وشجاعاً يجيد الرماية وشؤون الحرب .

وكان من الطبيعي أن يزداد اعجاب سليمان بخادمه هذا فيوكل أموره اليه ويضع جل اعتماده عليه . فقد جعله سكرتيراً له ، وصار يصطحبه الى كل مكان يذهب اليه أو يشتغل فيه ، فصحبه معه الى البصرة حينما عُين متسلماً فيها سنة ١٧٦٥ ، وبقي معه طوال مدة مكثه فيها فكان مخلصاً له جاداً في خدمته . وكان من سوء حظ سليمان أغا أن يهاجم العاهل الايراني البصرة على

(١) المراجع : مرآة الزوراء (تاريخ بغداد) ، دوحة الوزراء ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، غرائب الأثر ، مختصر مطالع السعود ، رحلة جاكسون (١٧٩٧) ، ورحلة أوليفييه (ج ٤) :
Olivier, G. A- Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypt, et la Perse, Vol Iv (Paris 1791).

(٢) أي ابن المكاري .

(٣) كان ابن الخربندة حسن الصوت رخيمه ايضاً .

عهده فيحتلها أخوه صادق خان بعد حصار طويل كان بطله سليمان أغا نفسه ، فيُقبض عليه ويؤخذ أسيراً الى شيراز . غير أن سليمان لم يتخل عنه سكرتيره الوفي حتّى في هذه المحنة،فأخذه معه وأصبح أنيسه في وحدته وجليسه في منفاه وغربته . ومع أن سليمان أغا قد أبعد عن البصرة بهذا الأسر وأخرج منها فقد ظل على اتصال مستديم بها ، وبقي يخابر وجوهها وأعيانها ويتصل بشخصيات استانبول [1] عن طريقها خلال مدة أسره الطويل كلها . وكان واسطته في هذا جميعه سكرتيره الأمين أحمدبن‌الخربندة ووكيله اليهودي المؤتمن الخوجة يعقوب الصراف .

وقد تطورت الأحوال بسليمان أغا بعد الأسر ، وابتسمت له الحياة بعد أن تجهمت له ، وعبست في وجهه مدة من الزمن . فعُين والياً في بغداد ، وكان من الطبيعي أن تبتسم الحياة في الوقت نفسه لابن الخربندة أيضاً فيرافق سيده اليها ويبدأ حياةً جديدة فيها . فقد وضعه تسنم سليمان باشا الكبير منصب الوزارة ببغداد في بداية طريق الشهرة والمجد، وجعله يقف في أسفل السلم الذي كُتب له أن يرتقيه من دون أن يصل الى قمته . اذ كان سليمان باشا حينما أسندت اليه الوزارة قد ناهز الستين من عمره ، فشرعت همته تأخذ بالوهن وبدأ نشاطه يدب اليه الفتور ، برغم ازدياد خبرته ونضج مداركه ، وبات من الضروري له أن يركن الى عضيد عالي الهمة شديد البأس ، يحسن التدبير ويخلص له في عمله ، فوجد ضالتهً في ربيبه ابن الخربندة الذي صحبه طوال هذه المدة البالغة ثلاثين سنة حتّى أوصله الى هذه المرحلة من الطريق . فبادر الى تعيينه مهرداراً [2] له،فكان هذا التعيين أول خطوة يخطوها ابن الخربندة في طريق الحياة العامة وكان هذا المنصب أول وظيفة يتولاها في ديوان الولاية .

وصار ابن الخربندة يطلع على أسرار الدولة في وظيفته هذه ، ويصرّف شؤون الوالي على الوجه المطلوب . وقد ازداد اعتماد الباشا الكبير عليه وكثر

---

(١) كان سليمان أغا وهو في الأسر يتصل باستانبول عن طريق القنصل الانكليزي في شيراز أيضاً .
(٢) المهردار هو حامل الأختام .

تعلقه به يوماً بعد يوم حتى أصبح ناموسه [1] الحظي وخله الوفي . ذلك لأنه ما كان يعهد اليه بشيء الا ويحسن القيام به . وما يكلفه بمهمة إلا ويخلص له فيها ويبدي مقدرة ولوذعية في تأديتها . وكان عند حسن ظن سيده به على الأخص في تنفيذ الخطة التي وضعها منذ أن تبوأ المنصب السامي في العراق ؛ وهي تمكين المماليك في البلاد وجعل الحكومه ومن فيها خالصةً لهم . فلم يكن من المستغرب ، وهو في وضعه هذا ، أن يسيطر على كل صغيرة وكبيرة في الولاية ويراجعه الجميع في شؤونهم وحاجاتهم .

على أن أحمد أغا كان كلما مرت عليه الأيام وتقدم شأنه عند الباشا والناس يزداد حسّاده ، ويكثر مناوئوه ، من المماليك وغيرهم . وكانت حقارة أصله ، ووضاعة منبته ، تزيد في حراجة موقفه وتكثر من خصومه وشانئيه . لا سيما بين أبناء الطبقات المتبينة في المجتمع . وكان قسم من هؤلاء يحسده ويخشى أن يؤدي به هذا التقدم المطرد في يوم من الأيام الى إشغال منصب الباشوية في سراي بغداد فيضطرون عند ذاك الى الانحناء له والخضوع لحكمه ومشيئته . وكان أبرز هؤلاء وأعظمهم شأناً ومنزلةً في البلاد ، وجيه بغداد وكبير سراتها الحاج سليمان بك الشاوي . فقد كان الحاج الشاوي يحتقر ابن الخربندة المهردار ، ويعرّض بحقارته في المجالس والأندية ، ولا يتورع عن انتقاد الباشا الوالي على تقريبه اياه في كل فرصة ومناسبة . ومع ما كان هناك من تجافٍ ونفرة بين الشخصيتين المتناقضتين ، فقد كان الوالي يقدر كليهما حق قدره ويود لو تزول النفرة المستهجنة بينهما ليستفيد منهما في العمل على إعلاء شأن الولاية ومصلحتها . وقد حاول إصلاح ذات البين بينهما مرةً وأخرى ، فلم يتوفق في مسعاه . وظل هذا الخلاف يشتد ويتزايد حتى شاءت الظروف أن ينفجر ، فيؤدي الى تنحية الحاج الشاوي عن طريق المهردار .

فقد تقدمت السن بسليمان الكبير ، وتناقصت همته بحيث صار يفكر في ترقية أحمد أغا المهردار هذا وجعله كهيةً له حتى يتحمل قسماً كبيراً من

---

(١) أي موضع أسراره .

أعباء الولاية الجسام ، ويتولى تصريف الأمور بحزمٍ وقوة بالنيابة عنه . وقبل أن يقدم على وضع الفكرة في موضع التنفيذ أحسن الباشا النيّة فعمد الى مفاتحة الحاج الشاوي بها . فلم يكن من الحاج الشاوي ، وهو الذي كان يطمع بالمنصب نفسه ويحتقر المهردار احتقاراً لا مزيد عليه ، الا أن ينبري الى استهجان الفكرة وتسخيفها والى التأكيد على وضاعة ابن الخربندة وحقارة أصله . فكان هذا سبباً في نفرة الباشا من الشاوي ونشوء الكراهية له في نفسه ، بحيث أصبح أكثر تقبلاً لتحريكات ابن الخربندة وايغار صدره عليه ، لا سيما وقد كان خصمه المهردار يذكر الباشا على الدوام باحتقار الشاوي للمماليك وطبقتهم ، وبطمعه في تولي الباشوية بنفسه . فآل ذلك الى التضييق على سليمان بك الشاوي وتربص الفرص به حتى اضطر الى مغادرة بغداد واعلان الثورة على الحكومة في النهاية . وبهذا انقلب ابن البلاد الوجيه السري الماجد ، الذي خدم البلاد في أحرج الأوقات وأصعبها ، الى ثائر طريد شريد سنين عديدة ، وبات خصمه ابن الخربندة الغريب الوضيع يقوم بملاحقته ومطاردته .

وهكذا تنحى عن طريق المهردار خصم عنيد ، وتذللت له عقبة كؤود ، وخلا له الجو فآن له أن يرتقي درجات أخرى في سلم التقدم . فقد نفذ الباشا الكبير فكرته القديمة ورفعه الى منصب الكهية برتبة ميرميران ، بعد عودته من أولى حملاته الموفقة ضد الشاوي الثائر ، وأصبح بذلك ابن الخربندة باشا كبيراً تعفر له الجباه ، وبات وهو الرجل الثاني في الباشوية من حيث المنصب والرجل الأول من حيث القوة والسطوة . وانفتحت لأحمد باشا الكهية ، كما أصبح يسمى ، صفحة جديدة من صفحات مآثره [1] وأمجاده ، لأنه وجّه نشاطه الفذ في منصبه الجديد الى قيادة الحملات في طول البلاد وعرضها وتوطيد دعائم الأمن خلال مدة تناهز العشر سنوات ، بحيث رفع العبء الأكبر عن كاهل سيده ، وكان يسير بخطوات حثيثة نحو نهايته المحتومة .

وقد أصبحت تحدثه نفسه وهو في موقفه هذا بالوصول الى المرحلة الأخيرة

---

(١) من أعمال احمد باشا الكهية انه بدأ بتعمير جامع الأحمدية في الميدان ببغداد فلم يتمه ، فأكمل تشييده أخوه عبد الله بك وأوقف له املاكاً من تركته .

في أعلى السلم ، ولم تبق بينه وبينها الاّ درجة واحدة . لكنه فضّل الانتظار على أي شيء آخر ، وآثر أن لا يسارع الى قطف الثمرة قبل نضجها . وكان يفضل من أجل هذا الخدمة في بغداد على غيرها ، لا سيما وقد قضى زهرة شبابه فيها ، ولذلك رفض أن يشغل منصباً كبيراً في استانبول حينما عُرض عليه . وكان سيده الكبير من ناحيةٍ أخرى يزداد شغفاً به ويكثّر اعتماده عليه كلما تقدمت به السن ، وتواترتْ عليه الأحداث ، حتّى أرسل الى الدولة العلية في استانبول سنة ١٧٩٣ يستعفي من الحكم لانحراف صحته وتقدمه في السن ،ورجا أن يعين في مكانه كهيته أحمد باشا نفسه،فلم يُقبل منه ذلك ولا أجيب عليه . لكن الكهية العصامي لم يعد يقوى على الانتظار ، ولم يبق في قوس الصبر عنده منزع ، فراح يضغط على الباشا الشيخ بالاستقالة ثانيةً ، غير أن الباشا رفض أن يفعل هذا [1] ، وأراد ان يعوّضه عن ذلك بأن يزيد من فضله عليه فيزوجه من ابنته الكبرى خديجة خانم . لكن أحمد لم يتحمس للفكرة ولم تصادف هوىً في نفسه ، وظل يماطل ويسوّف لأنه لم يشأ التخلي عن زوجته الجميلة وخليلته الأثيرة من أجل ابنة الباشا [2]. فسعى بعمله هذا الى حتفه بظلفه . لأن ابنة الباشا التي كانت تهواه على ما يبدو أغاظها رفضه التزوج منها ، ومسها بكبريائها ، فانبرت تتآمر عليه وتحيك الدسائس لقتله بعد أن انتخبت لنفسها خاطباً جديداً هو الخزنهدار المملوك علي أغا .

وكان من سوء حظ الكهية أن لا تتحمل شخصيته جميع هذه الانعامات والألطاف فيفيض وعاؤه بها، فقد أصبح يظلم الناس ويحيط نفسه بالجهال وحاشية السوء بينما يقصي الموظفين الأكفاء ، وتكثّر اهاناته للناس ومقابلته لهم ببذيء الكلام وخشونة الطباع ، حتّى ضج منه الجميع . فأخذ المماليك يتكتلون ضده ، ويأتمرون للقضاء عليه ، خوفاً من أن يتوفى الباشا الذي جاوز

---

(١) على ما يقول الرحالة الفرنسي اوليفييه في رحلته (مجلد ٤ ، الص.ص ٥٥) .

(٢) وفي رواية أخرى ان الباشا استشار الكهية في تزويج ابنته خديجة خانم من علي أغا الخزنة دار فلم يحسن الكهية له هذا الرأي ، وبين له المحاذير التي تحول دون ذلك حتّى صرفه عن الفكرة . وقد أغضب بهذا علي أغا الخزنة دار ودفعه الى التآمر على قتله مع أصحابه المماليك .

الثمانين من عمره فيتربع على دست الحكم في مكانه هو [1] .

ولذلك وجد علي أغا الخزنه دار الجو مهيأ لمؤامرته . واستطاع بالدعم الذي صار يلقاه من أبنة الباشا خطيبته إنضاج الخطة وحبك المؤامرة . فجلب مرافقي الوالي الخاصين الى جانبه وجانب أتباعه . وعُينت الفرصة الملائمة لقتله ، وهي صبيحة أحد الأيام التي كان يجلس فيها الباشا في مجلسه العام . وما حان صباح اليوم الموعود حتى خرج الوالي على جاري عادته من منزله الى الديوان . فدخله وجلس في محله المعتاد . وما كاد الكهية ابن الخربندة . وقد جاء بعده . يعتلي السلم حتى خرج له علي أغا الخزنه دار وعبد الله أغا التوتونجي فضرباه بسيفيهما ، وتبعهما الباقون فأغمدوا فيه عشرين خنجراً في وقت واحد . ثم رميت جثته المثخنه بالجراح القاتلة الى أسفل . فبقيت فرجةً للناس عدة ساعات .

أما الباشا الكبير فقد سمع الجلبة والصراخ فذعر من وقوع الحادث ، ونهض هارباً الى غرفته الخاصة . وهناك استدعى اليه مشاوريه المعتادين محمد بك الشاوي وصرافه اليهودي عبدالله . وتداول معهما في الأمر . وسرعان ما صدر الأمر لأغا الانكشاريين بأن يركب في شوارع بغداد وأزقتها ويعلن للملأ قتل الكهية الخائن ! وقد اختلفت الروايات في علاقة الباشا في هذا الحادث الأليم . فيذكر بعضهم [2] أنه كان على علم به وأنه هو الذي أمر بقتل كهيته أحمد باشا ، لكن المراجع الموثوق بها [3] . التي تؤيدها قرائن الأحوال ، تذهب الى ان سليمان باشا نهض من مكانه حينما سمع الضوضاء وأسرع بالخروج لمعرفة الخبر ، غير أن محمد بك الشاوي ومن كان معه أشاروا عليه بعدم الخروج بعد أن وقع ما وقع . فتأثر لمصرع كهيته ومعتمده ابن الخربنده ،

(١) يذكر الرحالة الانكليزي جاكسون ، الذي زار بغداد سنة ١٧٩٧ ، ان احمد باشا كانت له قابليات ممتازة ، وكان يراقب الضباط والموظفين مراقبة شديدة فضجوا منه وتآمروا عليه . كما يقول انه كان شديد البخل كثير الطمع بحيث كان يبتدع وسائل مختلفة لجمع المال .

(٢) من مرتزقة علي باشا ومداحيه مثل ياسين خير الله العمري صاحب « غرائب الأثر » ، ومثل مؤلف دوحة الوزراء الذي كان يخشى ان تترتب المسؤولية على أبناء المماليك فيما لو كتب الحقيقة .

(٣) مثل سليمان فائق بك في « مرآة الزوراء » .

ثم أمر في الحال بأجراء التحقيق للاقتصاص من القتلة . وعقد بعد انتهاء التحقيق مجلس عام موسع حضره الى جانب الانكشارية والضباط العلماء ووجوه بغداد للمداولة في الأمر . فتقرر اعدام علي أغا لأنه كان رأس الفتنة ، لكن القرار لم ينفذ لأن المماليك بأجمعهم تضامنوا على الوقوف ضده ، وهددوا الحكومة باعلان الثورة . وبالنظر لخطورة الوضع في البلاد ، وللضرر الذي يمكن أن يحدثه المماليك فيها ، ولما كان فتح مثل هذا الباب يعتبر أمراً خطيراً يعود وباله على الجميع ، فقد الغي تنفيذ القرار .

ولم يحصل هذا فقط بل اضطر الباشا أيضاً الى تعيين الخزنه دار القاتل في منصب الكهية القتيل ، وعقد له في الوقت نفسه على ابنته خديجة خانم . لكنه لم يبلّغه بأمر تعيينه كالمعتاد ، وبقي علي أغا خجلاً من مقابلة الوالي ، ولم يجسر على المثول بين يديه بعد أن ارتكب هذه الجريمة الشنعاء ما لم يبعث اليه بنسخة من المصحف الشريف مختومةً بختمه ومشفوعةً بأمر التعيين . وقد انّبه الباشا تأنيباً مؤثراً عند أول مقابلته له ، وبيّن له أنه غير راضٍ عنه لأنه خرج على قواعد الحكم الطيبة التي وضعها لحكم المماليك طوال هذه المدة ، وارتكب سابقة لا تحمد عقباها ، ولا بد من أن ينيله الله سبحانه وتعالى جزاءه عنها في قابل الأيام . هذا وقد روي عن الباشا الكبير أنه كان يزور قبر الكهية القتيل في « مقبرة الشيخ عمر » بين حين وآخر فيستعبر وتغرورق عيناه بالدموع ، ثم يدعو الله « بأن يسلط على القتلة المعتدين من يعتدي عليهم بمثل ما اعتدوا عليه » .

وقد أعقب هذا الحادث المفجع مصادرة أموال ابن الخربندة حسب المعتاد، وأموال أخيه عبدالله بك ، فبلغت ما يزيد على سبع مئة كيس [1] ، كما أخذ مماليكه ومماليك أخيه الذين بلغ عددهم سبعين مملوكاً .

---

(١) وصل الرحالة الانكليزي جاكسون بعد قتل ابن الخربندة ببضعة اشهر ، وهو يقول ان كميات كبيرة من النقد والسبائك وجدت في بيته بعد ان قتله المتآمرون بايعاز من الكهية الحالي (علي أغا) ، وان الباشا حينما استولى على أمواله تبين له أنه كان يملك ما يزيد على ثلاثة ملايين باون استرليني .

وهكذا تنتهي حياة ابن الخربندة الحافلة بخدمة حكومته وسيده من دون أن يقتص له أحد غير الله العلي القـــدير ، الذي سلّط على علي أغا [1] رجلاً من أبناء جنسه يقتاله غيلةً بعد سنوات ، وعلى عبدالله أغا التوتونجي الذي تولى الباشوية فقتلته العشائر في المنتفك شر قتله ، ونبشت قبره بعد دفنه .

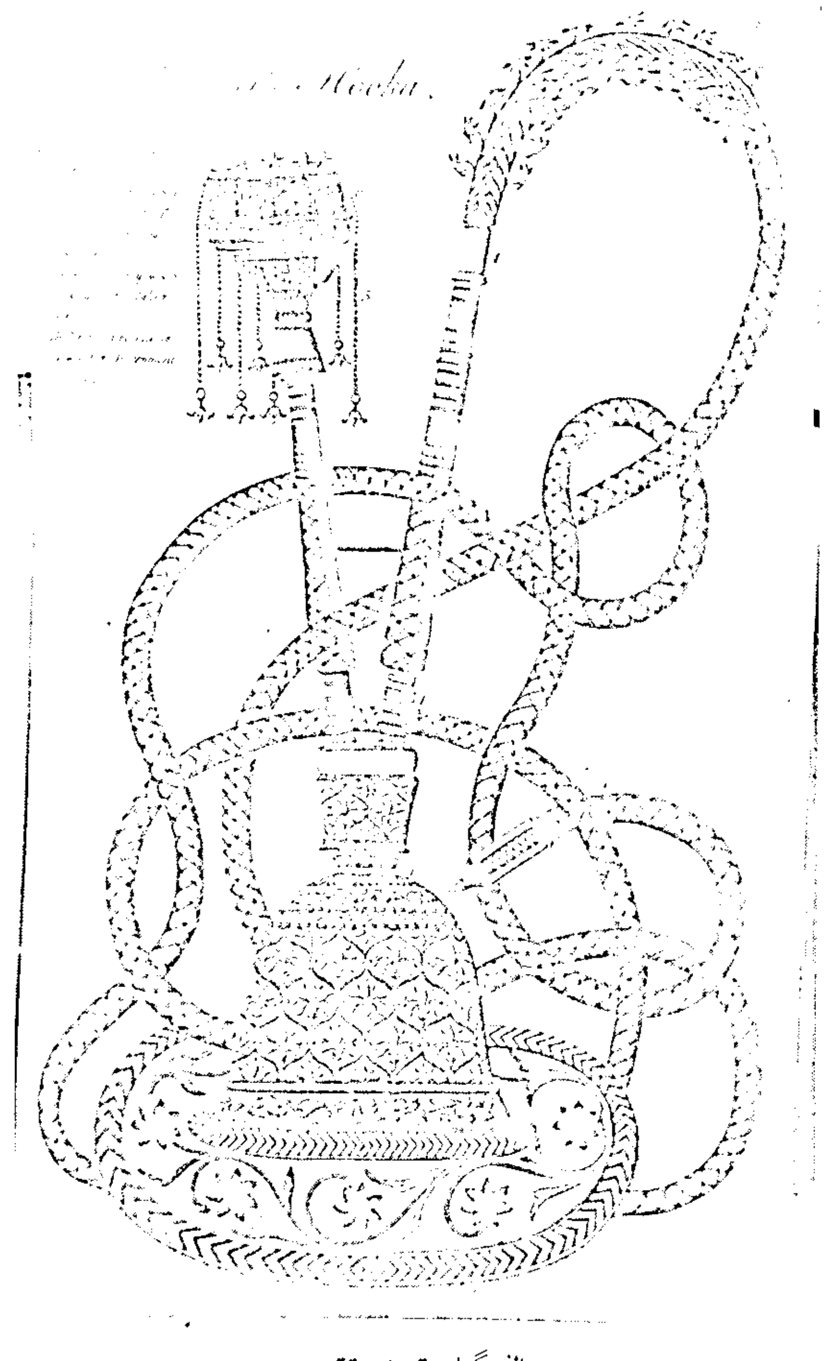
(١) ويقول جاكسون كذلك انه كان يشاهد الكهية علي باشا خلال مدة وجوده في بغداد فكان يبدو له انه جميل الخلقة صبيح الوجه لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، ولكنه يحتمل جداً ان لا يعمر كثيراً في منصبه هذا لان حياة الأمراء في هذه البلاد عزيزة جداً ، فان سبعة من هؤلاء قد اغتيلوا خلال الاثني عشرة السنة الأخيرة .. كما يقول أنه كان رجلا أمياً لا يقرأ ولا يكتب .

٢٧
حالت افندي[١]

اعتاد المسؤولون في الباب العالي عند ادارتهم للأمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف . والاشراف على ولاياتها النائية والقريبة . أن يوفدوا كلما تطلب الأمر موفداً ذا شخصية مرموقة وخبرة في شؤون الدولة الى مختلف جهات الأمبراطورية لحل المشاكل المستعصية . أو إبداء المشورة المطلوبه ، أو توجيه الأمور توجيهاً يكفل مصلحة الدولة العلية واجزائها المتباعدة . وقد كثر ايفاد هؤلاء الموفدين الى العراق وولاياته طوال المدة التي حكم فيها باشوات المماليك في سراي بغداد . لأن الدولة العثمانية لم تكن مرتاحة من حكمهم في العراق . وكثيراً ما كانت تضيق ذرعاً بهم وتتحين الفرص لأقصائهم عن الحكم والتخلص منهم .

وقد وجد السلطان محمود الثاني ، حينما تسنم عرش آل عثمان في سنة ثمان وثمان مئة والف . أن والي بغداد سليمان باشا الصغير لم يكن يسير في الخطة التي ترتضيها الدولة العلية ، ولم يف بالالتزامات التي التزمها حينما تمت المصادقة على تعيينه في منصبه . والوعود المغرية التي بذلها من أجل الحصول عليه . وكان من جملة ما وعد به أن يؤدي الى خزانة السلطان ، علاوةً على الأتاوى السنوية المعتادة ، خمسة آلاف كيس من تركة الباشا الراحل سليمان باشا الكبير التي كان قد استحوذ عليها من قبله خاله علي باشا ، وخمسة آلاف أخرى من تركة خاله وسلفه القتيل علي باشا كذلك . ولم يكتف بهذا فقط بل أخذ يتجاوز على الولايات المجاورة . ويتدخل في شؤونها من دون أن يكون

(١) المراجع : مرآة الزوراء ، دوحة الوزراء ، مختصر مطالع السعود ، أربعة قرون .. ، دائرة المعارف الاسلامية Encyclopedia of Islam ، وغرائب الأثر .



النركيلـة (حقة)

نقلا عن رحلة آيفز (١٧٥٨)

من حقه أن يفعل ذلك ، حتى ضجت منه عدة جهات وحرّك عليه الجليليون في الموصل . فقدمت الشكايات عليه الى استانبول بكثير من المبالغة والتهويل .

فلم يكن من السلطان محمود الثاني . وهو السلطان القوي المصلح الذي اضطلع بمهمة القضاء على الدره بيكَيات [1] في انحاء الأمبراطورية وتمتين ارتباط أجزائها بأمها الدولة . إلا أن يستغل الفرصة فيحيي الفكرة التي كانت تفكر فيها الدولة من قبل وهي فكرة التخلص من المماليك في بغداد ، وتعيين ولاة من غيرهم فيها . لكنه آثر في الوقت نفسه أن يستحصل حق الدولة من سليمان باشا الصغير بالحسنى أولاً . وأن يفعل ذلك بالقوة عند الحاجة . فانتدب لهذه المهمة رجلاً يعتمد عليه من رجال بلاطه الهمايوني يدعى حالت [2] افندي محمد سعيد . ويكنى « رئيس أفندي » . وخوّله صلاحيات واسعة في معالجة الموقف وسوق الجيوش ان اقتضى الأمر .

وكان حالت أفندي هذا قد تقلب في مختلف الوظائف والمسؤوليات حتى أصبح من الشخصيات العثمانية المرموقة في استانبول يومذاك ، وكان اضطلاعه بهذه المهمة في بغداد وهو في منزلته هذه يدل على أهمية ما كُلف به . فقد نشأ حالت أفندي في أسرة من أهالي القرم تسكن استانبول ، في كنف رجل خيّر متدين هو والده القاضي حسين أفندي . وتلقى العلم في بيت شيخ الاسلام يومذاك شريف أفندي . وبعد أن اشتغل موظفاً مع عدة ولاة في الروم أيلي عاد الى مسقط رأسه استانبول . واتصل اتصالاً وثيقاً فيها بغالب دده شيخ التكية البكتاشية في غلطة . فتسنى له بهذا أن يكمل دراسته الأدبيه . وقد تسنى له في هذا الدور أن يتصل بكثير من الرجال والشخصيات ، ومنهم شخصيات يونانية . حتى تمكن بمساعدةٍ من رشيد أفندي « كتخدا الركاب

(١) دره بيكي كلمة تركية صفة لحكام (العشائريين بعضاً) المستقلين في مناطق تدخل اسمياً في ولاية من الولايات التركية .

(٢) لقد أخطأ الدكتور عبد العزيز نوار في كتابه الموسوم « داود باشا والي بغداد » حين سماه « خالد افندي » ، ولعل الخطأ حصل في نقله عن الانكليزية ، في حين أن المراجع العربية والتركية كلها تسميه بالاسم الحقيقي وهو حالت أفندي .

الهمايوني » أن يحصل على مكان بين طبقة الخواجه كان المعروفة .

وفي سنة ١٨٠٢ عين سفيراً لدولته في فرنسة ، ومع أن سفارته هذه استقامت الى سنة ١٨٠٦ فقد اعتبرت سفارة فاشلة لأن الدولة الفرنسية شكت في سلوكه السياسي فطلبت استدعاءه الى بلاده . وعند ذاك تعين « بيكلكجي وكيلي » ، وما أن وقعت الثورة التي أدت الى خلع السلطان سليم الثالث في ١٨٠٧ حتى عُين وزيراً للخارجية ، أي « رئيس كتاب » كما كان يسمى ، وبهذا صار يلقب بلقب « رئس أفندي »[1]. ولم يعمر حالت أفندي طويلاً في هذا المنصب لأن المسيو سباسياني السفير الفرنسي في استانبول على عهد نابليون اكتشف اتصالاته بالانكليز وأثبت اشتغاله ضد الفرنسيين منذ أن كان سفيراً لبلاده في باريس . ولذلك طالب السلطان باقصائه عن وظيفته ، فأقصي عنها في ١٨٠٨ .

وقد كلف بالمهمة التي جاء بها الى العراق في عهد السلطان محمود الثاني ، فوصل الى بغداد في حزيران ١٨١٠ (٢٥ جمادي الأولى ١٢٢٥) . وبعد عودته الى استانبول ظل مكلفاً بالنظر في شؤون العراق ، وبقي يتحكم في مقدرات هذه البلاد عن بعد ردحاً من الزمن الى جانب اضطلاعه بأعمال أخرى في استانبول . فقد تعين في التشريفات الملكية سنة ١٨١١ ،وتطورت به الحال فتعالى نفوذه ، وتوالت عليه الطاف السلطان محمود الثاني يوماً بعد يوم . وكان السلطان يستشيره في شؤون الدولة وسياستها ، كما كان هو يؤيد السلطان في اصلاحاته الكثيرة ، لكنه لم يكن يؤيده في القضاء على فيالق الجيش الانكشاري وانشاء جيش جديد عوضاً عنها . لأنه كان على اتصال وثيق بالانكشاريين وقادتهم ، وكان يستخدمهم آلةً بيده للمحافظة على نفوذه عند السلطان. فأصبح حالت أفندي بهذا في وقت من الأوقات على درجةٍ من السطوة والنفوذ بحيث كان يسيطر حتى على ترشيحات الأشخاص للصدارة العظمى وشيخية الاسلام . واستطاع أن يحافظ على منزلته هذه بتعيين أصحابه وأعوانه في المناصب المهمة

---

(١) ظل هذا الاسم يطلق على الوزير العثماني المختص بالشؤون الخارجية حتى القرن التاسع عشر .

والمراكز الحساسة ، وينفي مناوئيه والمعارضين له الى الأماكن البعيدة وقتلهم أو التنكيل بهم .

ولما كان دوام الحال من المحال فقد أخذ السلطان محمود الثاني ، الذي قرّبه كل هذا التقريب اليه ، يشك في الكثير من أحواله وتصرفاته ويشم منها رائحة اتصاله المريب بالانكليز والعمل على ترويج مصالحهم في دوائر الدولة وانحائها ، كما أخذ اتصاله الوثيق بالشخصيات اليونانية يثير حوله الكثير من الشبهات والريب . وكان آخر ما فعله من هذا القبيل الدور الذي لعبه في إقصاء علي باشا تپه دلنلي في يانيه سنة ١٨٢٠ . فقد أدت تصرفاته في هذا الشأن الى نشوب الثورة اليونانية في بلاد المورة (آذار ١٨٢١) واصابة الدولة العثمانية بالكثير من الكوارث بسببها . وعند ذاك نُفي الى قونية في تشرين الثاني ١٨٢٢ وشنق فيها ، ثم جيء برأسه وجثته الى استانبول .

على أن الأعمال التي صدرت من حالت أفندي في العراق حينما أوفد اليه ، والفشل الذي مني به في بعض ما أقدم عليه فيه ، لم يكن يدل على الصفات والمؤهلات التي لا بد من أن يتوفر وجودها في من يصل الى كل هذه المناصب والمكانة السامية . ولعل ما أحرزه من تقدم ونفوذ في الباب العالي ، وهو في مثل هذه المؤهلات المحدودة ، هو الذي يدل على مقدار النفوذ الذي أخذ يمارسه حينذاك الانكليز وغيرهم من الأجانب في البلاط العثماني ودوائر الدولة لدفع عملائهم الى الأمام ودعمهم بكل الوسائل ، كما يفعلون في كل عصر ومكان . فقد توجه حالت أفندي الى بغداد ، حينما كلف بمهمته ، وهو يضمر الشر لسليمان باشا الصغير قبل أن يلتقي به أو يطلع على وجهة نظره ، لأنه كان يعلم أنه حصل على باشوية بغداد بسعيٍ من خصمه السفير الفرنسي سباسياني ، وهو نفس السفير الذي طلب إقصاءه عن وزارة الخارجية لاتصاله المريب بالانكليز . وقد عزم على أن يقضي على هذا الباشا الباسل وهو متأثر بموقفه هذا منذ البداية ، فصار يتجسس عليه ، ويتسقط زلاته وأخطاءه فيجسمها للمسؤولين ويعيرها أهمية لا تستحقها ، ثم انقاد لخصومه واعدائه واستمع الى كل ما يلفقونه من تهم أو يذكرونه من مثالب .

فقد وصل الى الموصل وهو في طريقه الى بغداد ، فاستقبله الجليليون

بحفاوة بالغة وأكرموه غاية الاكرام . إذ انتدب واليها محمود باشا الجليلي من يستقبله ويهتم بأمره وهو على مسافة غير يسيرة منها ، وخرج هو للقائه عند الوصول وأنزله في سراي حرمه ، ثم وكل به جماعة خاصة تخدمه وتسهر على راحته . واستطاع محمود باشا أن يملأ أذني ضيفه خلال أيام بقائه في الموصل بكل ما يشين سليمان باشا الصغير ويطعن في شخصيته وكفاءته . كما دبر تقديم الشكاوى والعرائض من أهالي ماردين وديار بكر والموصل ضده . وكان السبب في كل ذلك أن سليمان الصغير كان يناوىء الجليليين ويعمل على تنحيتهم عن الحكم . حتى انه عين كاتبهم أحمد باشا متصرفاً في الموصل عوضاً عن أحدهم . وحينما ثاروا على أحمد باشا وتسببوا في قتله غضب سليمان عليهم ولم تعد المياه الى مجاريها بينه وبينهم الا بعد أن استرضوه بمبلغ كبير من المال (٢٠٠ الف قرش) ، وتعيين رجل من أبنائهم في باشوية الموصل من جديد .

وحينما وصل حالت أفندي الى بغداد في حزيران ١٨١٠ استقبل استقبالاً أصولياً يليق به فيها . وخُصص قصر خاص لإقامته وضيافته . لكنه بادر لتوه الى مفاتحة الوالي بوجوب الانقياد لأوامر السلطان ودفع المبالغ المترتبة عليه لخزينته . وحاول التدخل في شؤون الولاية المالية والاطلاع على بعض حساباتها ، لكن الوالي لم يسمح له بذلك وقابله بكل متانة وصلابة. ثم تباطأ الوالي في الرد على قضية تقديم المبالغ المترتبة عليه . وظل يماطل ويسوف من دون نتيجة . وهو مع ما كان يترتب عليه من الخضوع لأوامر السلطان ، بصفته المرجع الأعلى في الدولة ، قد يكون محقاً في موقفه هذا لأنه منذ أن تولى مقاليد الأمور في الولاية قرر أن يسير في بعض الاتجاهات الدينية ، فألغى بعض الضرائب [1] والرسوم الجائرة التي كانت تجبى طوعاً أو كرهاً من الناس باسم الحسبة . وأدى مسلكه هذا الى انخفاض الواردات بالنسبة للمصروفات التي كانت تصرف على ادارة البلاد وقواتها المسلحة . وأصبح من الصعب عليه أن يضغط على الناس ليستحصل منهم ما تريده استانبول منه .

---

(١) لقد ألغى سليمان الصغير عشور المحاكم ، وأبطل رسم القسام والساليانة ، ثم أخذ يدفع الى القضاة ونوابهم رواتب معينة من خزانة الولاية بعد ان كانوا يتقاضون ذلك من الناس ودعاواهم .

ومع أن حالت أفندي ظل يلهو ويقصف في بغداد ، ويحيي الليالي الحمراء مع صديقه الدفتردار محمد سعيد بك الذي أنزله في بيته وشاركه في مجالس أنسه وطربه بادىء ذي بدء ، فقد كان يعد الأيام والليالي بانتظار النتيجة التي جاء من أجلها ، لكنه لم يستطع الحصول على ما كان يريد . وبدلاً من أن يبادر الى اتخاذ تدابير معقولة لإقناع الباشا الشاب المتعند بالانصياع لأمر السلطان وتقديم المبالغ المطلوبة بالحسنى ، أو الطلب الى وجوه البلد المقربين منه من أمثال الشيخ علي السويدي وغيره بوجوب بذل النصح اليه في هذا الشأن ، أخذ حالت أفندي يتصل بخصومه ويذاكرهم بأمر القضاء عليه . فاتصل بالمقيم البريطاني في بغداد المستر ريتش عدة مرات ، وشاوره في أمره وهو خصمه الذي كان يعتبره ممالئاً للفرنسيين فضلاً عن كونه غريباً لا يمت الى الدولة العثمانية بصلة . وتشير جميع الدلائل الى أن المستر ريتش هو الذي شجع حالت أفندي على المضي في أمر اقصائه عن منصبه وتخليص بغداد منه . واتصل حالت أفندي كذلك بعدد من وجوه بغداد وموظفيها الذين لا يرتاحون الى كوچوك سليمان. وكان من جملة هؤلاء نقيب بغداد السيد رمضان الكيلاني الذي سبب له هذا الاتصال نقمة الوالي عليه في الحال . فقد استدعاه اليه ، وسقاه السم في القهوة فمات متأثراً به بعد وقت قريب . وكان حالت أفندي يحاول أن يفعل ذلك بتحفظ وكتمان خوفاً من الدس والوقيعة ، لكن كوجوك سليمان كان له بالمرصاد ، وبقي يراقبه ويحصي عليه أنفاسه حتى وصل الأمر بهما الى التخاشن ، ولم يجد حالت أفندي بداً من مصارحته بأنه سوف يندم أشد الندم على هذه المماطلة ، وتهديده بالنتائج الخطيرة التي تترتب عليها . وعند ذاك غضب الباشا الشاب ، وقابل المبعوث الهمايوني بخشونة ، ثم طلب اليه أن يعود من حيث أتى لأنه سوف يجيب الدولة على ما تريد بصورة رسمية .

وهكذا عاد حالت أفندي من بغداد الى الموصل بخفي حنين . وهناك أعدّ تقريراً مسهباً في الموضوع بعث به الى أولياء الأمر في الباب العالي ، وظل ينتظر الجواب عليه في ضيافة الباشا الجليلي . وقد صادف وصول التقرير بُعَيد وصول عرائض الشكاوى من ماردين وديار بكر والموصل ، فازداد الطين بلة واقتنع المسؤولون في الحال بعزل كوجوك سليمان ومصادرة أمواله وأملاكه . ثم

أودع الأمر الى حالت محمد سعيد لتنفيذه بالطريقة التي يراها والتدابير التي يرى من المناسب اتخاذها . كما طلب اليه أن يعين في مكان كوجوك سليمان من يراه مناسباً من غير المماليك ، وأرسلت اليه الأوراق والوثائق المطلوبة لذلك وهي موقعة وجاهزة لكنها خالية من الاسم . ليملأها هو بالاسم الذي يقع اختياره عليه .

وعندئذٍ راح حالت أفندي يعمل على اعداد قوات كافية يزحف بها على بغداد . لينحي سليمان الصغير عن منصبه السامي في الولاية . فتداول في الأمر مع محمود باشا متصرف الموصل . ثم اتصل بعبد الرحمن [1] باشا بابان متصرف السليمانية . وكان يومذاك منتقضاً على الباشا الوالي في بغداد ومخاصماً له . كما اتصل برؤساء العشائر المحيطة بالموصل وكركوك . ولأجل أن يأمن جانب المماليك ، الذين كانوا يعتبرون القوة الأولى في بغداد . اتصل بالساخطين الناقمين منهم مثل عبدالله أغا التوتونجي وطاهر أغا اللذين كان سليمان الصغير قد غضب عليهما ونفاهما الى البصرة وهربا منها الى السليمانية . وقد انضم اليه في هذه الفرصة كذلك داود افنـــدي (داود باشا بعد ذلك) بعـــد أن خرج من عزلته الطويلة واعتكافه في الحضرة الكيلانية .

وقد تكونت من هذا كله قوة كبيرة قوامها خمسة عشر الف مقاتل تتألف من قوات عبد الرحمن بابان الكردية . وبعض قوات الموصل ، وقوات عشائر طي برآسة شيخها فارس الحمد وعشائر شماملك وعلى رأسها طاهر بن حسن الطائي ، فجمعت هذه في كركوك ، وبعد أن التحق بها فريق كبير من عشائر العبيد (برآسة الشيخ علي بن حمد) والبيات والغرير . بدأت بالزحف على بغداد وعلى رأسها حالت أفندي . وفي معيته محمود باشا الجليلي وعبد الرحمن بابان وعبدالله أغا وطاهر أغا .

أما سليمان باشا الصغير في بغداد فقد قرر المقاومة والدفاع عن عاصمته

(١) كان عبد الرحمن بابان يحقد على سليمان الصغير لثأر له عند خاله وسلفه علي باشا لأنه دبر قتل أخيه عثمان بابان بالسم بعد ان تآمر على المماليك مع مصطفى الكردي متسلم البصرة . كما أنه سار لتأديبه حينما اتصل بالسلطات الايرانية وراح يتحدى الحكومة ويخلق لها المشاكل .

وملكه ؛ فجهز قوة ً لا يستهان بها عهد بقيادتها الى كهيته فيض الله أغا . وقد سارت هذه القوة الى جهات ديالي فاستحكمت في خرنابات بانتظار الجيش الزاحف . وحينما التقى الجمعان جرت بينهما مبارزات واشتباكات غير مهمة . من دون أن تؤدي الى شيء يذكر في بادىء الأمر . لكن المهم في هذه المرحلة أن حالت أفندي أخذ يتصل من مقره هنا بأهالي بغداد وبعض الشخصيات العسكرية فيها ممن كان قد تعرف عليهم في سفرته اليها من قبل ، وأخبرهم بصدور أوامر السلطان بعزل سليمان . وطلب اليهم أن يقوموا بحركة ٍ في الداخل تساعد القوات الزاحفة على بغداد في مهمتها . فتم له ما أراد . وتكونت في بغداد سراً جماعة مجازفة يرأسها عبد الرحمن أغا الأورفلي الموصلي وتتألف من المواصلة المقيمين في صوب الكرخ . وأهل المحلات في بغداد . فهاجمت القوات الانكشارية المرابطة في العاصمة وقتلت رئيسها اسماعيل أغا . ثم داهمت القلعة واحتلتها . وتابعهم أناس آخرون من محلات بغداد المختلفة بعد ذلك فساروا الى الميدان واستولوا عليه وعلى المناطق المحيطة به . ثم أقاموا المتاريس وأخذوا يقاتلون أتباع الوالي وأعوانه من المماليك .

ومع أن هذه الحركة كان لها وقع سيء على وضع الباشا الوالي وأعوانه في الداخل . لأنها أدت الى تخلي عدد غير قليل من قواته وأفراد جيشه عنه ؛ فقد صمدت معه قوة باسلة فادية قوامها مئتا أغا من أغوات الداخل . وراحت تقاتل المتمردين قتالاً مستبسلاً مستميتاً طوال نهار كامل امتد من الضحى حتى العصر . وقد كوفئوا على ثباتهم هذا بالنصر في النهاية ، ففر عبد الرحمن أغا الأورفلي مع البعض من أتباعه الى جيش حالت أفندي . وبذلك تشجع حالت وقواته فتابعوا زحفهم حتى وقفوا في « جديدة الأغوات » . وحينما لاحظ فيض الله الكهية حصول مثل هذا التطور سحب قواته من خرنابات الى جهات بغداد فخيم على مقربة من شمالي الأعظمية . أما سليمان باشا في الداخل فقد أعقب انتصاره على حركة المتمردين في بغداد بتأديب الموصليين المقيمين فيها وطردهم منها . بعد أن جمع عدداً منهم وضربهم ضرباً مبرحاً بالسياط . ثم خرج مع القوة الموجودة تحت تصرفه وانضم الى قوات الكهية في شمالي الأعظمية .

وقد وقعت على أثر ذلك معركة حامية الوطيس بين الفريقين بدأها الأكراد بالقتال فانتصر فيها الباشا المستبسل على خصومه ، ومهاجميه في عقرداره . اذ تكبد فيها الأكراد وحدهم خسائر في الأرواح تعد بثمانين قتيلاً ومئة وخمسين جريحاً ، وكان من بين القتلى عزيز بك ابن عم عبد الرحمن باشا بابان ، وتقهقروا من ميدان المعركة يريدون الهر ب . لكن الظلام أدركهم فلم تلاحقهم قوات الباشا المنتصر ، وتأجل القتال الى اليوم الثاني . غير أن تطورات أخرى حصلت في هذه الأثناء فقلبت الوضع رأساً على عقب . فقد أخلدت قوات الوالي الى الراحة ، وأخذ أفرادها يؤدون صلاة المغرب . وبينما هم في وضعهم هذا انتشر بينهم نبأ صدور الفرمان بعزل الوالي سليمان باشا انتشاراً سريعاً كان له أسوأ الأثر فيهم . فما حل العشاء حتى انفرط عقدهم وتفرق ما يزيد على نصفهم تحت جنح الظلام . لكن الباشا الشجاع عاد الى بغداد خلال الليل بمن بقي من قواته ، وفي نيته أن يحاصر فيها ويقاوم حتى النفس الأخير . غير أن البقية الباقية من قواته اخذ أفرادها يتفرقون بالتدريج كذلك ، ولم يثبت معه سوى خمسة عشر رجلاً من أغوات الداخل . وبذلك فعلت دسائس حالت أفندي فعلها وقاربت سياسته أن تأتي أكلها .

فلم يجد الباشا الصغير ، وهو في موقفه هذا ، بداً من الهزيمة والهرب قبل أن يداهمه خصمه وتوجه نحو الجنوب ليلتجىء الى صديقه وعضيده حمود الثامر السعدون في المنتفك . فعبر نهر ديالى من قرب موقع جسره الحالي ، وآثر أن يقضي ليلته عند علي الشعيب شيخ الدفافعة لكن هذا الشيخ اللئيم حدثته نفسه بالشر ففضل فائدة الحظوة عند مبعوث السلطان حالت افندي على الالتزام بشرف العرب وتقاليدهم في اعزاز الضيف واغاثة الملهوف . وسجل العار على نفسه وقبيلته فقتل ضيفه الباشا وقطع رأسه وهو يغط في نومه خلال تلك الليلة من ليالي رمضان الفضيل ، ثم جاء به مفتخراً الى حالت أفندي . ولم يطمئن حالت أفندي الى تلك النتيجة الرائعة الا بعد أن فحص الرأس المقطوع ملياً وتأكد من أنه رأس خصمه المطلوب بغسله وتنظيفه . وعندذاك وضع الرأس في صندوق خاص وبعث به هدية الى المسؤولين في استانبول ، فوصل اليهم في العاشر من شوال ١٢٢٥ .

ولئن نجح حالت أفندي في دور القتل والدس والوقيعة هذا ، وتوفق في قتل الباشا الشهم المقدام وتنحيته عن الحكم ، فقد خاب في الدور الأهم الذي كُلف بأن يضطلع به في أعقاب هذه الحركة الأليمة . وهو دور تنحية المماليك كلهم عن الحكم وتعيين والٍ من غيرهم يتولى مقاليد الأمور في البلاد بعد كوچوك سليمان . اذ وجد نفسه . بعد كل ما جرى ، في جوٍ يتحكم فيه قادة القوات التي حصّلت له هذا النصر . وكان أبرز هؤلاء واقواهم شكيمةً وحجةً عبد الرحمن باشا بابان الذي قدم أرواح الكثيرين من أقربائه وأعوانه ضحية لخطط المبعوث الهمايوني ودسائسه في المعركة الأخيرة التي جرت على أبواب بغداد . وقرباناً لاطماعه هو . فراح الأمير البابافي المنتصر هذا يتقاضى ثمن تلك الضحايا والقرابين بالاستيلاء على ما يريد . واملاء الشروط التي يرى فيها مصلحة لنفسه وأعوانه . فاستأثر هو وقواته أولاً بنهب الخيام والأثقال التي خلفها جيش الباشا المتفرق . من دون أن يسمحوا لغيرهم من القوات المقاتلة في صفهم بالتقرب منها . باعتبارها ديةً لمن قتل منهم . ثم أخذ اثني عشر مدفعاً من المدافع التي تم الاستيلاء عليها وبعثها الى السليمانية ليستفيد منها في حروبه المقبلة . وقد حاول انكشارية كركوك مصادرتها عندما مرت بكركوك لكنهم مُنعوا من ذلك خوفاً من الفتنة .

وحينما جاء دور تقاسم الاسلاب والمناصب كان له القول الفصل فيه . فقد رشح الخزنه دار السابق عبدالله التوتونجي . مملوك سليمان الكبير ، الملتجيء اليه هرباً من بطش سليمان الصغير ليكون والياً بالوكالة (قائمقامـــاً) الى أن يثبت في مكانه برغم طمعه هو في المنصب نفسه [1] . فاضطر حالت أفندي الى عدم الاعتراض على هذا التدبير الموقت بعد أن فشلت الحركة التي دبرها مع الأهلين بتعيين سعيد بك بن سليمان باشا الكبير . قبل دخول قواته المنتصرة

---

(١) كان عبد الرحمن باشا قد راجع حالت أفندي حينما عاد خائباً من بغداد الى الموصل ، وطلب الباشوية لنفسه على أن يدفع خمسة آلاف كيس سنوياً الى خزينة الدولة ، فحول حالت أفندي طلبه الى الباب العالي مبدياً في شرحه عليه عدم تأييده للطلب نظراً لميل البابانيين الدائم الى ايران وخوفاً مما يمكن أن يصدر من المماليك أنفسهم في هذا الشأن ، فرفض الطلب .

الى بغداد . لكنه فعل ذلك بأمل أن يحاول محاولة أخرى في النهاية يقصي فيها عبدالله أغا التوتونجي بالقتل أو غيره ، ويعين شخصاً آخر من غير المماليك بالأصالة . وقد تسلم عبدالله أغا المنصب ، وأخذ يعين أعوانه في المراكز والمناصب المهمة ، فعين الحاج عبدالله بك (شقيق أحمد باشا ابن الخربندة) كهيةً له ، وعين عبد الرحمن أغا الأورفلي رئيساً للانكشارية ، ثم عين رفيقه طاهر أغا الجوقدار في الخزنه دارية ، وداود أفندي للدفترداريه .

وقد حلت بعد ذلك فترة شهر واحد ظل فيها حالت أفندي يحيك الدسائس ويدبر المؤامرات ، ليخرج منها بطبخة نهائية ينفذ فيها رغبة السلطان التي جاء من أجلها في الحقيقة ، وهي رغبته في اقصاء المماليك عن الحكم ، قبل أن يحزم الغنائم التي حصل عليها فيعود بها الى الاستانة . فراح يتصل بالأهلين ويذاكر كبار رجالهم ، ويعمل على تهيئة الجو للحركة الأخرى التي عزم على القيام بها لوضع ما في فكره في موضع التنفيذ . وقد رأى أن يشيّع في أوساط بغداد وأنديتها على لسان غيره بأن عبدالله أغا لم ينصب وكيلاً للوالي إلا بتأثير عبد الرحمن بابان ، وأن عبد الرحمن يميل الى ايران ويعمل على ترويج مصالحها وتحقيق أطماعها في العراق ، ولذلك لا يمكن للعثمانيين ولا لأهل العراق أن يقبلوا بتنصيب عبدالله أغا في سراي بغداد . ثم اتصل من جهةٍ أخرى بأحمد بك الجليلي كهية والده محمود باشا وقائد قواته ، وفاتحه بأن يقوم بحركة يقتل فيها عبدالله أغا وعبد الرحمن بابان لقاء تنصيبه والياً أصيلاً في بغداد نفسها . غير أن البك الجليلي تهيب من الفكرة وجبن في الاقدام على تحقيقها ، فلم يجازف بما عنده من قوات موصلية في هذا السبيل . لكن تخوفه لم يثن حالت أفندي عن عزمه في المضي بتنفيذ ما يريد بالسرعة الممكنة ، ففتش عن شخصٍ آخر أثبت جناناً وأكثر مجازفة من الأول ، فوجد ضالته في أغا الانكشاريين الجديد عبد الرحمن أغا الأورفلي . وقد قبل الأغا الأورفلي بما كُلف به ، وتصدى للمهمة الخطرة من دون تفكير بالعواقب ، فجمع لفيفاً كبيراً من الأهلين ومقاتلي المحلات و« الأطراف » وسلحهم ، ثم عين يوماً للقيام بقتل عبدالله أغا وكيل الوالي وعبد الرحمن بابان ، وتنصيب سعيد [1] بك بن سليمان الكبير في

(١) تذكر معظم المصادر العربية ان حالت افندي وجماعته كانوا يريدون تنصيب سعيد بك =

مكانه . لكن طبقة العثمانيين والموظفين الموجودين في بغداد لم يؤيدونه في حركته هذه ، وأكدوا انحيازهم للوكيل . غير أن الوكيل عبدالله بك التوتونجي سرعان ما علم بالأمر وبادر في الحال الى جمع أعوانه وأتباعه للدفاع عن نفسه ، وقد خف الى نجدته على الأخص عرب عكيل والجبور في جانب الكرخ فعبر زهاء مئة مقاتل منهم الى جهات السراي . واشتبك الفريقان في قتال متواصل امتد من الضحى حتى الغروب من دون أن تفتر حدته في بداية الأمر ، غير أن الأغا الأورفلي أخذ أصحابه بالتراجع شيئاً فشيئاً قبيل الغروب ثم انكسروا وتفرق جمعهم ، فاضطر هو الى الفرار والاختفاء ، بعد أن استجار بالباليوز الانكليزي فلم يجره . وقد سقط عشرون قتيلاً من الطرفين في هذا الحادث فراحوا ضحايا أخرى لدسائس حالت أفندي وسوء تدبيره .

وكان من الطبيعي أن تستفز هذه الحركة عبد الرحمن باشا بابان فيبادر الى أخذ زمام الموقف بيده ، ولا سيما بعد أن اطلع على تفاصيل المؤامرة وعلم بأن ما وقع كان بتحريض من المبعوث الهمايوني نفسه . فقد بعث يتهدد حالت أفندي ويتوعده ، ثم طالبه بأن يثبّت عبدالله أغا في المنصب ويعينه والياً بالأصالة ، فكان له ما أراد وعجّل حالت أفندي بتحشية اسم عبدالله أغا في الفرمان الجاهز لينقذ نفسه بعد افتضاح تحركاته ودسائسه . وبذلك تعين مملوك آخر في بغداد وتربع على دست الباشوية برغم أنف السلطان ومبعوثه . وليقطع دابر الدسيسة والفساد أذن عبد الرحمن بابان لقوات الموصل بالعودة الى بلادها بعد أن خلع على قائدها أحمد بك وأهداه حصاناً من أصائل خيله . كما طلب الى المبعوث حالت أفندي أن يرحل الى استانبول بعد أن انتهت مهمته ، فقد قصده المحضر باشي وبيّن له أن علماء بغداد ووجوهها يلتمسون منه العودة الى الاستانة قطعاً لدابر الفتنة . غير أنه أخذ يماطل في ذلك ليحضر احتفالات تنصيب الباشا الجديد ، وليستوفي من عبد الرحمن بابان المبالغ التي وعد بدفعها اليه من قبل .

= هذا باعتباره من غير المماليك ، والحال انه يعتبر من سلالة المماليك نفسها لأنه ابن كبير المماليك سليمان باشا الكبير . ولعلهم يعتبرونه من غير المماليك لأنه ولد في العراق ولم يؤت به الى العراق شراء مثل أبيه وغيره من أفراد الطبقة نفسها .

لكن الوالي الجديد كان من مصلحته أن يغادر حالت أفندي البلاد على عجل لئلا يبدأ بالدس عليه من جديد ، فعمد هو بنفسه الى دفع المبالغ المطلوبة اليه بالنيابة عن عبد الرحمن وزاد عليها من عنده .

ولم يرحل حالت افندي عن بغداد بادي الوفاض خالي الأنفاض بطبيعة الحال . بل رحل عنها تصحبه أحمال النفائس والأموال لتي صادرها ووضع يده عليها من جهة ، وحقائب الهدايا التي قُدمت اليه من جهة أخرى . فقد نزل بعد مقتل سليمان الصغير في دار حرمه تشفياً به واستولى على جميع ما كان فيها من أثاث وأموال ، ثم استولى على أموال كهيته فيض الله أغا ، وأموال خزنداره التي كانت أكثر من أموال الكهية بكثير . وعمد بعد ذلك الى مصادرة أموال عدد من الناس الآخرين . فأخذ من صراف الكمرك مئة الف قرش ومن متسلم الحلة مثل هذا المقدار . وحينما وصل الى الموصل مع جيشها العائد اليها في طريقه الى الاستانة بشّر سعدالله بك الجليلي بترشيحه للمتصرفية في مكان عمه الراحل ، وأقام أياماً يراجع فيها نفسه خلالها ويلقي نظرةً أخيرة على ما اقترفت يداه في هذه البلاد المنكوبه بحكامها في كثير من مراحلها وأدوارها التاريخية . ثم شد الرحال الى استانبول مودعاً بالهدايا والهبات .

على أن رحيل حالت أفندي عن العراق لم يقطع صلته به وبرجاله ، فإن مجيئه اليه بالمهمة الدامية الأخيرة كان في الحقيقة بداية صلته به . فقد ظل على اتصال مستمر برجال العراق وشخصياته . وأصبح في استانبول وقد ازدادت ثقة السلطان محمود الثاني به ، خبيراً بشؤون العراق وأحواله ووصياً عليه . برغم فشله في اقصاء المماليك عن الحكم في بغـــداد . وصار الطامعون في وظائف العراق ومناصبه من مماليك وغيرهم يتصلون به في قضاء حاجاتهم ويستمدون العون والمساعدة منه في نيل مآربهم . ولم يكن يتم كل ذلك لوجه الله بطبيعة الحال ، بل كان لكل شيء منه أجره الخاص وقيمته من الأموال والهدايا التي ظلت ترسل وتحوّل من بغداد والموصل وغيرهما الى صندوقه الخاص في استانبول ردحاً من الزمن . وكان يشرف على هذا الصندوق في الاستانه ، ويتولى شؤون حالت أفندي المالية ، صراف يهودي من اصلٍ بغدادي

يدعى حسقيل [1] بن راحيل . وكان من الطبيعي أن يكون لحسقيل هذا نفوذ كبير على عميله حالت أفندي ، وأن يعمل على استغلاله لمصلحته الى أقصى حد ممكن . وقد شاءت الظروف أن تؤدي حادثة من حوادث الاستغلال هذه الى تدخل حالت أفندي في شؤون العراق ، بقرته الحلوب ، تدخلاً جديداً يتسع نطاقه بمؤامرة يهودية لئيمة تقضي الى عزل باشا آخر من باشوات العراق وقتله بصورة مفجعه ، والى نصب والٍ آخر في مكانه قُدر له أن يكون من أعظم حكام العراق ومماليكه الحاكمين في ذلك العهد الغابر .

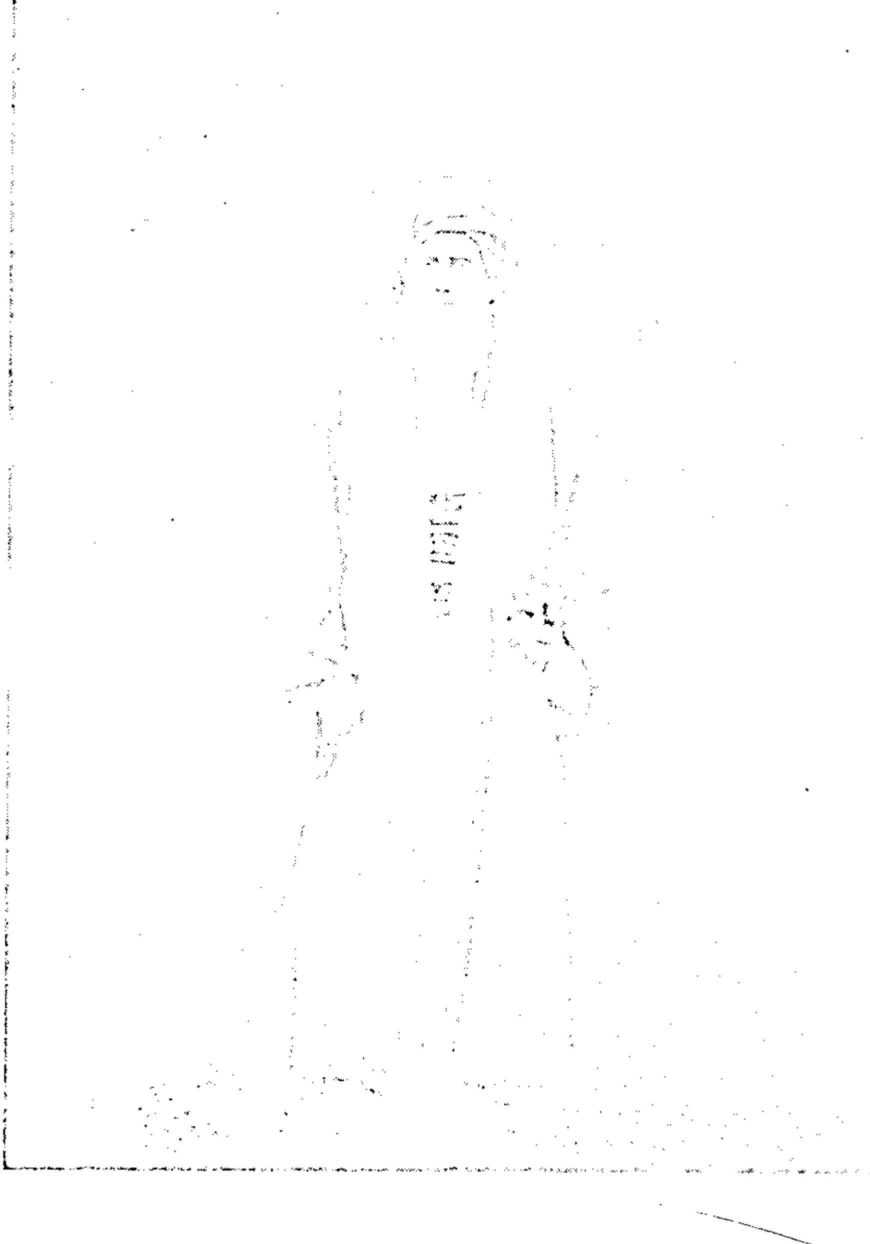
فقد كلف حسقيل الصراف في يوم من الأيام عميله حالت أفندي بأن يساعد أخاه عزرا [2] فيجعل منه رئيساً للصرافين « صراف باشي » في بغداد . وكانت قد حصلت في بغداد ، بعد أن عاد منها حالت أفندي ، تقلبات مثيرة أدت الى مقتل واليها عبدالله باشا التوتونجي وتنصيب سعيد بك بن سليمان الكبير والياً جديداً فيها . ولأجل أن يحقق حالت أفندي رغبة صرافه ووكيل خرجه حسقيل في هذا الشأن كتب الى سعيد باشا بأن يعمل على تحقيق هذه الأمنية بالسرعة الممكنة . غير أن سعيداً كان في وضع يصعب عليه فيه تنفيذ ما كان يريده حالت أفندي ، لأن بغداد يومذاك كان فيها « صراف باشي » آخر يدعى ساسون [3] أباروبين ، وكان أبوروبين هذا ملتزماً التزاماً قوياً من شخصين متنفذين كانا يسيطران على سعيد تمام السيطرة ، وهما نبي خانم والدته وحمادي أغا بن أبي عقلين عشيق الباشا وخزنداره في الوقت نفسه . ولذلك لم يمكن تنفيذ ملتمس حالت أفندي ، فاستاء جد الاستياء وأضمر الشر في نفسه لسعيد باشا ، وراح يتربص به الفرص ليوقع به في الوقت المناسب .

---

(١) لقد بقيت ذرية حسقيل في استانبول ، وكان منها بنت اسمها دينه تزوجها المحامي البغدادي حسقيل ناجي المتوفى سنة ١٩٣٢ .

(٢) كان عزرا الصراف يكنى بأبي يوسف ، ومن أحفاده عبد الله روفائيل الذي كان من تجار البصرة الى وقت قريب ، وأصبح نائباً عن الطائفة اليهودية في البرلمان العراق إبان العهد الملكي المندثر .

(٣) كان من أولاد ساسون الصراف هذا داود ساسون التاجر المعروف في لندن ، مالك الشركة التجارية المعروفة فيها . ومن أحفاده ايضاً حسقيل ناجي المحامي المار ذكره والمحامي الشاعر الاستاذ أنور شاؤول (تاريخ العراق بين احتلالين) .



التاجر البغدادي داود ساسون مؤسس شركة داود ساسون في لندن

١٧٩٢ — ١٨٦٤

ولم تمض أشهر معدودة حتى سنحت له الفرصة .

فقد كانت الدولة في تلك الأيام تسمح للولاة بسك مبالغ محدودة من عملات النقد النحاسية ذات الفئات الواطئة ، واضطرت ولاية بغداد في عهد سعيد باشا الى سك مثل هذه العملة . فكلفت ادارة الولاية عزرا الصراف بأن يقوم بهذا العمل ويشرف عليه . وعزرا هذا هو نفس الصراف الذي لم يستطع حالت أفندي تعيينه رئيساً للصرافين في بغداد من قبل ، وقد كانت هذه فرصة نزلت من السماء عليه . فاهتبلها وأتقن استغلالها لينتقم من مناوئيه فيها . ولم تمض عليه أيام معدودة حتى أغفل المسؤولين بحيلة من حيله وأخرج قطع العملة الجديدة وقد كتب عليها اسم سعيد باشا في مكان الطغراء الدالة على اسم السلطان. ثم عجّل بارسال نماذج كثيرة منها الى أخيه حسقيل في استانبول . لكن سعيد باشا ما رآها حتى التفت الى وجه الدس والوقيعة فيها ، وثارت ثائرته فأمر بجمعها في الحال وعدم توزيعها خوفاً من أن يعرف بها السلطان، فيظن أن سعيد باشا في بغداد أخذ يتحداه ويعد العدة للاستقلال فيها . غير أن ما كان يخشاه قد حصل بالفعل ، لأن حسقيلاً أخا عزرا سرعان ما أخذ النماذج المسكوكة باسم سعيد الى حالت أفندي ليبرهن له على خيانة سعيد للسلطان وتحديه للدولة .

وكان هذا كافياً للقضاء على سعيد باشا . فقد أقنع حالت أفندي المسؤولين في الباب العالي بعزله على هذا الأساس . وصدر الفرمان بذلك وبابعاده من بغداد واقامته في حلب . ومع أن هذا النبأ قد انتشر في بغداد وغيره من البلدان العراقية حتى وصل الى السليمانية ، فان سعيد باشا لم يعلم به لأنه كان منصرفاً الى لهوه وطيشه . وظل سادراً في غوايته التي غمرته بها تصرفات أمه البلهاء وعشيقه المدلل حادي [1] . وبينما هو في تلك الحالة علم بخروج نسيبه الدفتردار أفندي (داود باشا بعد ذلك) مع جمع كبير من المماليك وأولادهم ووصوله الى السليمانية . فقد ساءت الأحوال في بغداد الى درجة لم يعد داود قادراً على البقاء فيها ، وتدنت الأمور بحيث وجد الفرصة سانحة له في تحقيق

(١) كان هذا اسم المحبب الذي كان يسمى به حمادي أغا ، راجع الصورة المختصة به .

الطموح الذي كثيراً ما كان يراود مخيلته وأفكاره . وفي كنف محمود باشا بابان في السليمانية اتفق الجميع على تنظيم عريضة ترفع الى المسؤولين في الباب العالي ، لتؤيد عزل سعيد وترشح داود افندي والياً في مكانه .

وكان داود من جهة أخرى على اتصال دائم بحالت أفندي في الاستانة ، فقد تعرف عليه منذ أن جاء الى بغداد بمهمته المشؤومة الأولى ، وظل يراسله ويمده بتفصيلات الأخبار والأنباء أولاً بأول ، ثم يوافيه بالهدايا بين حين وحين ليبرهن فيها على ولائه . ولذلك سرعان ما لقيت عريضة داود وجماعته قبولاً حسناً في الاستانة ، لا سيما وقد جاءت بعد حادث سلك النقود والدس اليهودي المقصود . وكانت الجهات المسؤولة في الباب العالي تبتغي أن يتولى داود بنفسه عملية تنحية سعيد باشا عن الولاية بالنيابة عنها بعد أن امتنع عن الانصياع لأوامر اقصائه . فصدرت الفرامين اللازمة بذلك ، وكلف داود بالسير الى بغداد لتنفيذ ما جاء فيها .

وقد تم لداود ما أراد بعد حوادث وتطورات مثيرة قتل فيها سعيد باشا أبشع قتله وأفجعها ، وتولى الحكم في سراي بغداد فدشنه بسلسلة من القتول والتدابير القميعة التي كانت تمليها تأثيرات حالت أفندي عليه أيضاً ، وهي ما تزال تستظل بظله الثقيل وتخضع لتحكمه ومشيئته عن بعد . فقد كان ما يزال في بغداد أناس من أعيانها وموظفيها الكبار ممن عارضوا حالت أفندي معارضة فعالة حينما أوفد اليها في مهمته المعهودة . ووقفوا في وجهه حتى فشل في ابعاد المماليك عن الحكم واضطر الى تعيين عبدالله التوتونجي الى الولاية . فغضب عليهم ، واستاء من موقفهم بحيث طلب من الباب العالي صلاحيات واسعة تخوله اتخاذ تدابير زجرية قاسية بحقهم . فصدر الفرمان اللازم لذلك ، لكن الأحداث لم تسمح له يومذاك بالاستفادة منه . ولهذا استغل حالت أفندي وقوف نفس الأشخاص الى جانب سعيد في هذه المرة فأصدر فرماناً خاصاً لداود يخوله الصلاحيات نفسها ، وأوحى اليه بأن يضعها في موضع التنفيذ في الحال .

وعلى هذا الأساس شرع داود بعملية تصفية كبيرة يخلو له الجو فيها ،

ويقتص لسيده حالت أفندي من خصومه بتنفيذها . فأمر بالقاء القبض على الكهيتين السابقين الحاج عبدالله أغا ودرويش محمد أغا وعلى الدفتردار الحاج محمد سعيد بك وكهية البوابين عمر أغا الملي ، وعلى باب العرب قاسم بك الشاوي . والتاجر المعروف الحاج نعمان جلبي الباجه جي . وقد قرر اعدامهم كلهم في الحال ، لكن قاسم بك الشاوي استطاع أن يهرب الى البادية . وتوسط الكثيرون للكهيتين السابقين درويش أغا وعبد الله أغا لأنهما ناهزا السبعين في عمرهما فعفا عنهما ، وأخذ من كل منهما عوضاً عن ذلك ثلاثة آلاف كيس من المال . ثم ثبت له أن نعمان جلبي ، وأن كان من المقربين الى سعيد باشا ، لم يكن يعنى بالشؤون السياسية وانما كان منصرفاً في الحقيقة الى تجارته وأعماله في الغالب ، فأطلق سراحه بعد أن أخذ منه خمسة آلاف كيس . أما محمد سعيد الدفتري وعمر أغا الملي فقد أعدمهما داود في الحال . وبعث برأسيهما الى حالت أفندي في استانبول .

وهكذا بقي حالت أفندي شؤماً على العراق وحكامه ردحاً من الزمن ، وسبةً لا يصدر منه بالنسبة للعراق إلاّ الشر والاساءة . حتّى افتضح أمره عند السلطان محمود الثاني وتبين له عدم اخلاصه واتصاله بالأجانب فنفاه وأعدمه فدفن في التكية المولوية في غلطة بالقرب من البركة العامة . الى جانب المكتبه التي سعى في تأسيسها .

٢٨

الباشا القتيل[١]

في فجر اليوم الثالث المصادف ٢٤ جمادي الآخره سنة ١٢٢٢ للهجرة قتل والي بغداد المملوك علي باشا ، وهو يركع ركعته الأولى من صلاة الصبح في المسجد ، مع مهرداره عباس أغا ، فخلفه في الحكم بالوكالة كهيته الشاب وابن أخته سليمان باشا الصغير [٢] وهو في الثانية والعشرين من عمره .

وكان سليمان الكهية على صغر سنه ، ورطوبة عوده ، حسن السمعة ، محمود السيرة ، مستنير الفكر ، دمث الأخلاق ، فأجمع الناس على توليه الحكم بعد خاله الراحل . واجتمع أعيان بغداد وعدد من العلماء ، اضافة الى القاضي والمفتي ، فنظموا محضراً أصولياً رشحوه فيه للوزارة بدلاً من خاله وبيّنوا أرجحيته على غيره من الشخصيات ولياقته لها ، وبعثوا بالمحضر الى المراجع المسؤولة في الباب العالي للمصادقة عليه .

وقد كان سليمان هذا من المماليك الذين نشأوا في العراق منذ الصغر ، وتطبعوا بطباع أهله وأخلاقهم ، فحافظ عليها حتى قتل قتلته المفجعة فصار يعرف بسليمان باشا القتيل . فتثقف بثقافة ذلك الزمان العامة ، وأكثر من دراسة العلوم الدينية ، ثم تدرب على شؤون الحرب والفروسية فأبدى جسارةً

---

(١) المراجع : تاريخ جودت ، المماليك في العراق ، مرآة الزوراء ، دوحة الوزراء ، غرائب الأثر ، تاريخ المماليك « الكوله مند » في بغداد ، وكتاب : Baghad in Bygone Days by Constance Alexander (London 1928).

(٢) سمي بالصغير لتمييز بينه وبين سلفه الأبعد سليمان باشا الكبير ، وقد كانت حياته قصيرة في الحقيقة لانه قتل في حدود الخامس والعشرين من عمره .

ومهارة قلما تبدوان من أمثاله وأقرانه في هذا العمر ، فتوسم خاله فيه الخير وصار يصحبه معه كلما تقدمت به السن في حروبه وحملاته التاديبية في شمالي العراق وجنوبيه . وصار يعهد اليه بالمسؤوليات العامة ، فعينه متصرفاً في أربيل ، وحينما أخنق علي باشا في حملته على الوهابيين التي شنها بأوامر مشددة من الباب العالي ، تخير كتيبة من أحسن جنوده وأحسنهم تدريباً فوضعها تحت أمرة أبن أخته الشاب هذا وساقها الى نجد في ١٨٠٤ . فاشتبك سليمان مع فريق من الوهابين في جبل شمر بقتال ضار مزقهم فيه شر ممزق ، لكنه عاد مع جنوده في حالة يرثى لها بعد أن صادفوا الأهوال من قلة الماء وشدة العطش . وفي إحدى الحملات التي شنها علي باشا في ١٨٠٥ على عبد الرحمن باشا بابان حامت الشكوك حول سلوك الكهية خالد أغا وتصرفاته فاضطر علي باشا الى عزله واعدامه ، والى تعيين صهره وابن أخته سليمان الصغير وكيلاً في منصب الكهية . فعهد اليه على أثر ذلك كثيراً من مسؤوليات القيادة والقتال ، فكان عند حسن ظن سيده به وقام بواجباته خير قيام بحيث أنعم عليه بمنصب الكهية أصالة حالما عاد الى بغداد ، والبسه الخلعة وأصبح سيفه المسلول ويده اليمنى في تمشية شؤون البلاد وتصريف أمور العباد .

واتفق في السنة نفسها ان ازدادت تحرشات الوهابيين بتخوم العراق وبلدانه المطلة على البادية ، وكثرت هجماتهم عليها ، بحيث ارتأى الوالي ان يتوجه بجيوشه الى الحلة فيرابط فيها ويكون على أهبة الاستعداد لرد الأخطار التي قد تنجم عنها . وبينما هو في تلك الانحاء علم أن فريقاً من عشائر ربيعة وبني لام أخذ يعيث فساداً في جهات دجلة ويقطع الطرق على المسافرين والقوافل، وتناهى اليه أن عراراً العبد العال شيخ بني لام قد امتنع عن دفع « الميري » ، وأن بقايا مثل هذه الضرائب كانت ما تزال في ذمة ربيعة النازلة في تلك الجهات كذلك ، فما كان منه وهو الوالي الأهوج المتسرع الا أن يأمر كهيته الشاب من مقره في الحلة بالخروج لتأديب هذه القبائل واستيفاء حق الحكومة منها . فامتثل سليمان الكهية للأمر ، وقرر أن يداهم هذه القبائل بهجوم مباغت ، فخرج اليها من بغداد في جنح الظلام مستصحباً معه عليق يومين لخيوله ودوابه،

وظل يتعقبهم حتى وصل الى « الحباب » المعروف في طريق العمارة اليوم ، بعد أن لم يعثر عليهم في منطقة « الوادي » بل عثر على حيواناتهم فصادر منها سبع مئة رأس من الجاموس . وظل يطارد عراراً . بعد أن عزله وعين عباساً الفارس في مكانه ، فلم يظفر به لكنه وجد في طريقه اعراباً غير اعراب عرار فأحاط بهم واستولى على زهاء اثني عشر ألف رأس من أغنامهم ومواشيهم . ثم تناهى اليه أن عراراً والبعض من قبائله نزل في منطقتي الطيب ودويريج الكائنتين على الحدود الايرانية فتعقب أثره من جديد ووصل الى تلك الجهات فلم يجده فيها أيضاً . وانما وجد عندما عبر نهر دويريج فريقاً من قبائل ربيعة يقال لهم « المقاصيص » فنكل بهم وسلب منهم ما يزيد على عشرة آلاف رأس من الغنم . وقد جمع بعد ذلك جميع الحيوانات المصادرة من القبائل على هذه الشاكلة فبعث بها الى بغداد عن طريق جصان لتباع فيها بأبخس الأثمان ويساء التصرف بمبالغها ، فيذهب ما يتبقى منها الى خزينة الحكومة .

ومع كل هذه المصادرات والمطاردات . وبرغم كل هذا السلب والنهب الذي جرى بصورة رسمية علنية . لم يستطع الكهية الشاب القبض على عرار شيخ بني لام المتمرد . ولا على عباس الفارس الذي عين في مكانه فلم يكن أحسن منه بالنسبة للحكومة ، فاضطر الكهية الى أن يبعث بالأمان مع أحد موظفيه الى الشيخ عرار . وحتى في هذه الحالة لم يتجرأ على الحضور بين يدي الكهية بل طلب الدخالة بدلاً عنه بعد أيام الشيخ عباس الفارس فقلده مشيخة بني لام وخلع عليه . وقد ختم الكهية حملته غير المجدية هذه ، أو غزوته التي لا تختلف كثيراً في جوهرها عن غزوات العشائر البدوية . بغارة شنها على بعض المعدان القريبين فسلب منهم عدداً غير يسير من الأغنام والمواشي كذلك . وبعد أن اتصل بشيخ مشايخ ربيعة . وأخذ رهائن منه ، عاد سليمان الكهية الى بغداد ، وقد تدرب على ما كان يقوم به خاله الوالي على الدوام من أعمال يستغرب صدورها من أي نوع من الحكام تجاه رعاياهم . وتمرس بما كان من المعتاد أن يقوم به سائر باشوات ذلك الزمان [1] .

---

(١) أسهبنا في أخبار هذه الحملة لتكون مثالاً حياً لما كانت تقوم به الحكومات في تلك الأيام .

والظاهر أن تمرس الكهية الصغير بهذه الأعمال وتكليفه بتلك المهمات ، وهو في هذه السن المبكرة التي يعوز الانسان فيها الحذر والتروي ، قد جعلت منه رجلاً على جانب كبير من الغرور والا عتداد بالنفس ، فأدى به وضعه هذا في أول قتال اشترك به بعد ذلك الى أن يقع في أسر الأعداء . فقد اقتضت ظروف النزاع المستدم الذي كان يحتدم على الدوام يومذاك بين عبد الرحمن باشا بابان وحكومة بغداد ، فيؤدي به الى الارتماء في أحضان ايران مرة بعد أخرى ، أن يقود سليمان حملة خاصـــة يخف فيها لمساعدة خالد باشا بابان متصرف السليمانية ضد عبد الرحمن الذي طرده من منصبه . ومع أنه أبدى في هذه الحملة كثيراً من الجرأة والشجاعة ، فقد ذهب فيها الى أبعد مما يقتضيه الحزم والتروي فقارب الحماقة والهوج ، ثم جازف بقواته المنهكة من دون أن يستمع الى نصائح خالد بابان وغيره ، وتوغل في داخل حدود ايران ، فكانت نتيجة اصطدامه بقوات عبد الرحمن المعززة بالقوات الايرانية بالقرب من مريوان ان انكسرت قواته وأحيط به فوقع في أيدي خصومه . وقد نقل الى طهران فبقي أسيراً فيها ستة أشهر بذل خلالها الوالي في بغداد جهوداً مضنية لاطلاق سراحه وفكه من الأسر . اذ اقتضى ذلك الدخول في مساومات ومفاوضات صعبة اضطر فيها علي باشا الى التراجع عن موقفه تجاه عبد الرحمن وتقبل اعتذاره ، ومن ثم الى النزول على رغبته في العودة الى متصرفية السليمانية والانعام عليه بالخلعة التقليدية . وبهذا عاد الكهية الى منصبه وبلاده ، وكافأه خاله الوالي بطلب ترفيعه الى رتبة « ميرميران » فأصبح في عداد الباشوات ، وحصل الأمير البابانى على ما يريد ، ولكن بعد أن ضربت المصلحة عرض الحائط وذهب ضحيةً لطيش الكهية المتهور واطماع الاقطاعي الجشع عدد كبير من الأنفس المزهقة والأرواح البريئة .

فبسجل مثل هذا لم يكن من المستغرب ، بالنسبة لمقاييس تلك الأيام ، أن يحصل سليمان باشا الصغير على تأييد الرأي العام البغدادي ، والطبقة الحاكمة ، في ترشيحه للوزارة خلفاً لخاله الفقيد علي باشا والكتابة الى الاستانة بأمره. لكن جميع هذه الثقة ، وكل هذا الاجماع في العراق على وجوب تعيينه ،

لم يغنه فتيلاً في أوساط الباب العالي على ما يظهر . فقد تأخر نبأ تعيينه في الوزارة أصالة . ثم وافت الأنباء بعد ذلك بتعيين شخص آخر للمنصب الشاغر في سراي بغداد . وهو الصدر الأعظم السابق يوسف ضياء باشا . وكان السبب في هذا التعيين عوامل عدة تجمعت بالصدفة فعملت على احباط ما كان يريده سليمان الصغير . فقد لاحظ المسؤولون في استانبول أن المحضر الذي وصل اليهم من بغداد بترشيحه للوزارة لم يكن بلهجة يرتاحون اليها . وانه كان يحوي جملاً وكلمات لا يمكن أن تكون في صالحه . وكان المسؤول عن ذلك كاتب الديوان محمد[1] أفندي لطف الله . فقد كتب المحضر بتلك اللهجة وهو يضمر الدس على سليمان ويقصد الايقاع به . كما اتفق حصول قلاقل في جهات ماردين . وكانت ما تزال تابعة لأيالة بغداد حينذاك . تستدعي انتداب شخصية مرموقة من استانبول لتهدئتها . ولما كان أولئك المسؤولون ما فتئوا يحاولون اقصاء المماليك عن حكم العراق في كل فرصة تسنح لهم . فقد اغتنموا هذه الفرصة وبادروا الى تعيين رجل من غير المماليك في شخص يوسف ضياء باشا .

على أن سليمان باشا القتيل لم يفت في عضده هذا التعيين . بل راح يعمل في اتجاهين ليحصل على ما يريد . فقد اتخذ تدابير عدة للحيلولة دون وصول يوسف ضياء الى بغداد من جهة . ولاعادة الكرة في التشبث لدى المسؤولين في الباب العالي من أجل الحصول على كرسي الوزارة له من جهة أخرى . فأخذ يقوم بأعمال عدائية للدولة في بغداد . وتأهب للعصيان عليها فيما إذا أصرت على عدم تسليم مقاليد الوزارة له . وقد آزره وانضم اليه في هذا أهالي

---

(١) ظهر لسليمان الصغير ان محمد افندي هذا كان يعمل ضده في الخفاء فنحاه عن وظيفته واقتص منه بحبسه في القلعة . ويفهم مما جاء في بعض شروح (تاريخ العراق بين احتلالين) أنه خلف بنتاً واحدة اسمها اسماء ، وثلاثة ابناءهم عبد الحميد وعبد الله وعبد الرحمن ، وقد أعقب عبد الرحمن هيبت خاتون ذات الاملاك المعروفة في الأعظمية ، كما أعقب محموداً وزمزم وأحمد زيور . وتزوج أحمد زيور من هيبت خاتون فأعقب ابناً اسمه أمين ، ومن أبناء أمين هذا الاستاذ عبد الرحمن زيور المحامي المعروف في بغداد اليوم .

محلة « الميدان » في بغداد ، وهي المحلة التي كان يسكنها يومذاك معظم الموظفين ورجال القوات المسلحة وبعض شخصيات البلد الأخرى . ثم أخذ يتقرب من السلطات الإيرانية ويقدم الهدايا السنية للشاه نفسه . كما اتصل بأعراب نجد من الضفير والدريعي وجعلهم ينبثون في الفلوات الممتدة ما بين بغداد وسنجار . وجهز علاوة على ذلك جيشاً بقيادة أحمد بك أخيه في الرضاعة وساقه الى ماردين فرابط فيها . وحينما وصل فيض الله أفندي مبعوث يوسف ضياء باشا الى ما يقرب من ماردين قبل أن يصل الى بغداد فيتسلم الباشوية عنه تنكب عن ماردين خوفاً من هذا الجيش . وسار في اتجاه كركوك مباشرة . لكن متسلم كركوك المنحاز الى سليمان التقيل قبض عليه وحال دون توجهه الى بغداد . كما منعه من الاتصال بأحد .

أما من الناحية الأخرى ، فقد عمد سليمان باشا الى تنظيم محضر جديد في بغداد ، كُتب بلهجة مؤدبة مفعمة بالتوسل والخضوع للسلطان ووقع عليه الوجوه والعلماء مع القاضي والمفتي وغيرهم ، وبعثه الى أولياء الأمر في الباب العالي بعد أن تعهد فيه بتقديم خمسة آلاف كيس [1] من تركة سليمان الكبير الى خزينة الدولة . وخمسة آلاف أخرى من تركة خاله علي باشا . وقد طالب بأن توجه اليه ولايتا البصرة وشهرزور علاوة على أيالة بغداد . وأشفع ذلك بتوسيط المسيو سباسياني سفير فرنسة في الاستانة لدى المسؤولين عن طريق القنصل الفرنسي في بغداد . وكانت الأحوال السياسية قد تبدلت يومذاك بحيث صار لسفير هذه الدولة في الاستانة نفوذ يضارع نفوذ السفير الانكليزي أو يزيد عليه ، بعد أن ظهر نابليون بونابرت على المسرح السياسي بين الدول .

وقد ساعد على نجاح هذه التشبثات كلها حصول تطورات داخلية غير مرتقبة في استانبول . فقد ثار الانكشاريون على السلطان العثماني المصلح سليم الثالث وقتلوه . وبتأثير الحركة الرجعية هذه عزل ضياء باشا فتنحى بهذه الوسيلة عن طريق سليمان باشا التقيل . وأزاء هذا كله لم يجد المسؤولون الأتراك

(١) كان الكيس الواحد يساوي خمسة آلاف قرش ، أو ثلاثة آلاف محمدي ، وكان المحمدي الواحد يساوي عشر أقجات . كما كانت الأقجة تساوي نصف مثقال فضة .

بدأً من الموافقة على طلب سليمان باشا ، لا سيما بعد أن أخذ سباسياني يلح في التأكيد عليه . فصدر الفرمان الهمايوني بتوجيه الأيالات الثلاث له ، وحمله سلاحشور السلطان مع الخلعة التقليدية الى بغداد في أواخر ربيع ١٨٠٨ (١٢٢٣هـ) فدقت طبول البشائر .

ومع كل ما أبداه سليمان الصغير من شجاعة وبراعة في الحصول على الوزارة ومقاليد الحكم في العراق كله ، وبرغم الأعمال والاصلاحات التي اضطلع بها ، وحسن النية وقوة العزم اللتين كانتا تتجليان فيه خلال مدة حكمه كلها ، فقد بقي غرور الشباب ملازماً له بأبشع صورة . وظل الاعتداد بالنفس والتسرع في الأمور مستوليين عليه ، بحيث لم يستطع بتأثيرهما أن يتجنب الوقوع في أخطاء وأغلاط فظيعة برهنت الحوادث على كونها كانت أغلاطاً وأخطاء قاضية ومميتة في مجموعها . ولعل اضطلاعه بمثل هذه المهام الجسام ، وتوليه شؤون البلاد ، وهو في مثل هذا العمر الغض والخبرة القليلة ، من دون أن تهذبه الأيام أو يحنكه مر السنين والأعوام ، كان له دخل كبير في النتيجة المفجعة التي أدت به اليها أعماله .

فقد أضطره منطق الحوادث ومجراها الى أن يبدأ أعماله في الأيالة بمعالجة شؤون لواء بابان والحد من نفوذ متصرفه عبد الرحمن باشا ، بعد أن ظل يتحدى الحكومة في كل فرصة تسنح له . ويتردد في ولائه بينها وبين ايران فيورطها في أمور تتعدى الحدود في أهميتها . فجرد حمله تتألف قواتها من جنود المتصرفيات الشمالية ، ولاسيما جنود الموصل التي أناب نعمان باشا الجليلي المريض لقيادتها عنه كهيته أحمد أفندي بن بكر أفندي [1] . وقد تسنى لهذه الحملة ، التي كان يرافقها من البابانيين خالد باشا زعيم الأسرة البابانية حينذاك، وسليمان باشا متصرف كو يسنجق ، أن تنازل قوات عبد الرحمن بالقرب من السليمانية فتنتصر عليها بمدفعيتها القوية وتضطر عبـد الرحمن الى أن يهرب ملتجئاً الى ايران كالمعتاد فتسكنه في سنة . وبدلاً من أن يعمد سليمان القتيل

(١) ما زالت أسرة بكر أفندي موجودة حتى اليوم في الموصل وبغداد ، ومنها الاستاذ عبد الله بكر وزير الخارجية الأسبق .

الى تعيين خالد باشا بابان في مكان عبد الرحمن في السليمانية . لا سيما بعد أن أعلن قسم كبير من القوات الكردية التي كانت تحارب الى جانب عبد الرحمن ولاءه له . ويبقيه منحازاً اليه وهو بهذا النفوذ الطويل العريض في تلك الجهات بادر الى تعيين سليمان باشا متصرف كويسنجق بدلاً منه . وبذلك ارتكب أول غلطة كان لها تأثير بعيد المدى عليه . ولم يكتف بذلك فقط بل أخذ يقلل من احترام خالد وتقديره . ثم أمر باخراجه من بغداد التي كان مقيما فيها ونفيه الى كركوك . فما كان من هذا الأمير المهان والوجيه المهيب تجاه هذا الطيش الصبياني إلا أن يتوجه مع الست مئة فارس كردي من رجاله الى زهاو الكائنة على الحدود بدلاً من كركوك . ثم يعبر الحدود ويذهب الى سنه . وهناك استقبله عبد الرحمن ابن عمه وصالحه . وبذلك اتفقت كلمة البابانيين المتناحرين ضد الباشا المتهور في بغداد .

وكان سليمان باشا القتيل قد وجد خلال الحملة الأخيرة أن الكهية أحمد ابن بكر أفندي قائد القوات الموصلية فيها قد أبدى شيئاً غير يسير من المقدرة والتعقل . ولما كان نعمان الجليلي متصرف الموصل غير قادر يومذاك على القيام بواجبات وظيفته لمرضه [1] المتواصل وقلة نشاطه طلب سليمان من الباب العالي تنحيته عن منصبه وتعيين كهيته ابن بكر أفندي في مكانه . فصدر فرمان السلطان بتعيينه للموصل برتبة ميرميران في الحال . لكن عمل سليمان باشا هذا كان خالياً من التأني وبعد النظر لأنه لم يحسب الحساب للجليليين وسطوتهم في تلك الأيام . فأثار حفيظتهم بتعيين رجل من محسوبيهم كان يعمل كاتباً عندهم في منشأه . وتنصيبه حاكماً عليهم في الموصل . فانحازوا ضده وألبوا النافرين من تصرفاته عليه . ثم آزروا المبعوث الهمايوني حالت أفندي على إسقاطه فيما بعد . على أنهم ثاروا على أحمد باشا قبل قدوم حالت أفندي فحاربهم وامده الوالي بقوات من عنده . فأسر عثمان بك الجليلي خلال القتال وجيء به الى بغداد فأهانه الوالي ووبخه . كما أسرت قوات الزگاريط التي كانت

---

(١) لقد أصيب بفالج نصفي فصار يقوم بأعماله ابنه يحيى .

مــع الحكومة ؛ عثمان العمري فلم تطلق سراحه إلاّ بفــدية كبيرة من المال [1]. لكن الثورة أدت الى قتــل أحمد باشا حينما بانت تباشير النصر له ، وبذلك ازداد غضب الوالي عليهم وبقيت العلاقات متوترة بين بغداد والموصل حتى أجريت تسوية ظاهرية بين الفريقين بتعيين أحد الجليليين في الموصل ، ودفع مبلغ كبير من المال الى الوالي على سبيل الترضية تقدر بأربع مئة كيس . وقد جمع له منها أسعد بك الجليلي مئتي كيس من تجار البلد ؛ على أن يدفع الباقي بعد حصوله على المنصب .

غير أنه يبدو مما هو مدون عن سليمان الصغير أنه مع كل عيوبه واخطائه كان حاكماً ناجحاً بوجه عام لولا التسرع الذي كان يتصف به ، وقد سار خلال مدة حكمه كلها ؛ وكانت تزيد على ثلاث سنوات ؛ سيرة حسنة تمسّك فيها بأهداب الشرع والعدل والكرم ، وبرهن على كونه والياً عراقياً يفضل مصلحة البلاد التي عاش وترعرع فيها على كونه تابعاً من أتباع الدولة العثمانية التي كانت تحتل العراق وما جاوره من البلاد . ولا غرو فقد نشأ في كنف خاله علي باشا نشأة تكاد تكون دينية ؛ واطلع على أحكام الشريعة الاسلامية الغراء فشب وهو يقدرها ويجلها ؛ وقد حاول حينما تولى الأمر في سراي بغداد أن يطبق الكثير من مبادىء الشرع الشريف في الحكم ؛ ويسير في ذلك سيرة لا تحيز فيها ولا محاباه تجاه الصغير والكبير والموظف وغيره . ثم قرب علماء بغداد اليه ؛ وتخلى عما كان يحمله أبناء جلدته من الباشوات من بغض للعرب

---

(١) جاء في غرائب الأثر ان الزكاريط ابتعدوا بعثمان العمري في البادية وطلبوا اليه ان يفدي نفسه فبعث لأهله بأن يفعلوا ذلك ، فدفع محمد بك الجليلي عنه ألف قرش وبيت كبير من الشعر ، كما أعطى لمن توسط في الأمر قصعة ودستاً وقهوة وثياباً ، فاطلقوا سراحه وقد عروه من ثيابه وسلاحه وأخذوا فرسه وفرس خادمه . ومن طريف ما يروى في هذا الشأن ان الموصليين حينما أخذوا الفدية الى الزكاريط أخذوا لهم معها شيئاً من القهوة كذلك ، بقصد الانتقام منهم بحيلة بارعة . فقد أخذوا من العطار مع القهوة نصف أوقية من عقار عطاري مسهل يسمى « ماهودانه » او « حب الملوك » فخلطوه مع القهوة وقدموه لهم . وحينما جهز الزكاريط القهوة وشربوا منها حصل في جوفهم بعد ساعــة « .. مرض ووجع وقراقر حتى كان الرجل منهم لا يقدر على القيام من فرط الاسهال ، وعلموا انها ممزوجة .. وأقاموا على ذلك يوماً وليلة ثم رحلوا وقد ضعفت قواهم وآيسوا من الحياة .. »

والأكراد وتفضيل المماليك والأكراد عليهم . ومن هذا المنطلق أخذ يدخل الكثير من الاصلاحات في طريقة الحكم وبسط المعدلة بين الناس . فقد الغى رسوم التحصيلية ، وخدمة المباشرية ، ومصادرة المخلفات من دون مبرر شرعي ، وعشور المحاكم ، وأبطل رسم القسام ، والساليانه ، وما أشبه[1] . ثم منع تطبيق الكثير من العقوبات سوى ما تقدره منهـــا المحاكم الشرعية ، وقرر دفع رواتب منتظمة للقضاة ونوابهم في جميع أنحاء البلاد من خزانة الحكومة بعد أن كانوا يتقاضون في مكانها رسوماً وأجوراً معينة لأنفسهم من الناس ودعاويهم . ولم تكن تأخذه في الله لومة لائم ، فانمحت السرقات في أيامه وساد الأمن والنظام في ربوع البلاد ، ودار دولاب العمل فيها على الوجه المطلوب ، فشملت عقوباته المذنب مهما كانت درجته ومنزلته . ولذلك لم يكن من الغريب في أيامه أن يعزل الكثير من المسيئين بين وحين وحين . فقد عُرف في أيامه أنه أبعد قاضي بغداد فخري أفندي (أو مفتي زاده محمد فخر الدين) الذي عرف بارتشائه وسوء تصرفه ،والخزنه دار عبدالله أغا ، والجوقدار طاهر أغا ، ومتسلم البصرة سليم أغا ، وغيرهم لحركاتهم المريبة ومحاولاتهم المتكررة في احداث القلاقل والفتن .

على أن تطبيقه لمثل هذه القواعد المقبولة في الحكم سبب سخط الكثيرين عليه ، وأثار كراهية الموظفين وغير الموظفين له ، لأنه قطع أرزاقهم وحال دون انتفاعهم غير المشروع من وظائفهم . وقد كان يزيد الطين بلة في هذا الشأن ، بالنسبة لمقاييس ذلك العصر ، تشدده في تطبيق هذه القواعد وتزمته في ادارة شؤون الأيالة والبلاد ، فخلق له بذلك أعداء كثيرين ومناوئين غير قليلين سرعان ما تجمعوا وأخذوا يشغبون عليه ويلفقون الأخبار ضده فيبعثون

---

(١) وتضيف بعض المراجع الى هذا قولها انه أبطل كثيراً من البدع ، كما يذكر ياسين العمري (غرائب الأثر) في هذا الشأن ما يأتي : ثم خرج من بغداد الوزير سليمان باشا بعساكر تسد الفضاء فلما وصل مقابل قبر الامام الأعظم وقفت خدامه على عادة الملوك ليقرأوا له الفاتحة فزجرهم ومشوا ، فلما وصلوا مقابل قبر الامام موسى الكاظم وقفوا فزجرهم سليمان باشا وتكلم بما لايليق في الأمام فعثر حصان حامل الصنجق أمامه ووقع فانكسر الصنجق ولم يعتبر بذلك .

بها الى استانبول . وكان من أخطر من انحاز ضده من هؤلاء طبقة المماليك من أبناء جلدته الذين كانوا قوة لها وزنها يومذاك ، وعاملاً يجب أن يحسب له الحساب في ادارة الحكومة والبلاد . فقد كان هناك من المماليك من هم أقدم منه في الخدمة وتولي الحكم . مثل الخزنه دار عبدالله أغا مملوك سليمان الكبير وشريك خاله علي باشا في قتل إبن الخربندة . وصديقه الجوقدار طاهر أغا . وسليم أغا متسلم البصرة صهر سليمان الكبير وشريك أحمد أغا ينيجري أغاسي في الثورة ضد خاله علي باشا . وكان من الطبيعي أن يعمل كل من هؤلاء على « جر النار الى رغيفه » واغتنام الفرصة للاستيلاء على الحكم . ولذلك وجد عبدالله أغا — الذي كان يسمى بالتوتونجي — الجو ملائماً لتحريكاته وبث سمومه ، وتكتيل سائر المماليك حوله . لكن الوالي سليمان باشا سرعان ما علم بالأمر فألقى القبض على عبدالله ورفيقه طاهر فكبلهما بالقيود وبعث بهما الى البصرة ليسجنا فيها بعيداً عن بغداد . لكنه ما لبث ان ندم على ما فعل وأيقن أنه كان يجب أن يقضي عليهما في الحال ويزيلهما من الوجود . فبعث يظهر لهما التودد ويتظاهر برضائه عنهما ليعودا الى بغداد من جديد فيقضي عليهما فيها . إلا أن عبدالله أغا كان أبعد نظراً منه فأدرك ما يريد . وتوسل الى سليم أغا متسلم البصرة بأن يطلق سراحه وسراح رفيقه طاهر أغا . ولما كان سليم أغا من المتآمرين القدماء ، وقد ظل يتحين الفرص منذ مدة ليصل في واحدة منها الى دست الباشوية . ونظراً لأنه كان يروق له أن يخلق المشاكل لسليمان باشا القتيل ، فقد أطلق سراح الأغويين المسجونين وسهّل[1] لهما أمر الهزيمة والهرب ففرا الى السليمانية ليلوذا بخصم سليمان عبد الرحمن بابان . وعند ذاك نشأت مشكلة جديدة لسليمان باشا القتيل ، وهي مشكلة اقصاء سليم أغا عن متسلمية البصرة

(١) من الطريف ان نذكر هنا ان عبد الله أغا هذا قد أصبح بعد قتل سليمان القتيل والياً في مكانه ، وعين رفيقه طاهر أغا كهية له . وقد جاءهما سليم أغا من ملجئه في عربستان وطالبهما بأن يردا له المعروف فيعيداه الى الخدمة ، لكنهما فعلا معه كما يفعل لصوص العصابات حينما يخشى بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم الآخر . فقد قتلاه بدلا من ان يحسنا اليه ويردا له المعروف . وربما كانا محقين في موقفهما هذا تجاهه لأن سليم أغا لم يكن يؤمن جانبــه وكانا أعرف به من غيرهما . وتظهر لنا هـــذه الفذلكة وجهاً من الأوجه التي يتميز به حكم المماليك في العراق .

لأنه أخذ يتحرك ضده ، وصار يخابر الجهات المسؤولة في الباب العالي فيطالبها بتنحية سليمان وتعيينه في مكانه . فلم يتهاون الوالي الشاب عن ذلك ، وكتب الى حمود الثامر في المنتفك بالسير الى البصرة وطرد سليم أغا منها . وحينما تقاعس حمود عن التنفيذ انتدب اليه الشيخ علي السويدي ، فتم له مـــا أراد ونصب أخاه في الرضاعة أحمد بك في مكانه .

وربما كان جميع ما فعله سليمان القتيل حتى الآن ذا صبغة محلية في الغالب ، مما لا يمكن أن تهتم به الدولة العلية بالنسبة لنظرتها الى الأمور في أيامها تلك . لكنه قام خلال اندفاعه في تصريف شؤون الحكم بأعمال أخرى أخذت عليه وحسبت ضده ، لأن تأثيرها سرى الى الخارج فتأثرت بها الدولة وكانت استجابتها لها استجابة قاضية عليه . فقد كان سليمان باشا يحمل عقيدة سلفية في شؤون الدين ، وبتأثير من هذه العقيدة طبق الاصلاحات التشريعية المار ذكرها . وراح يقرب العلماء من أصحاب هذه العقيدة اليه . وأخصهم الشيخ علي بن محمد السويدي ، ويستشيرهم في كثير من أمور الحكم ، أو يندبهم للمهمات . وكان قسم من الاصلاحات التشريعية التي اضطلع بها يخالف ما كانت تسير عليه الدولة في قوانينها ، فقد كانت الرسوم التي الغاها واجبة التحصيل بموجب القوانين العثمانية وكان الامتناع عن تأديتهـــا يوجب سفك دم الممتنع أو مصادرة أملاكه . يضاف الى ذلك أن عناصر أخرى في البلاد كان يسوؤها هذا الاتجاه ، وتعتبر ما يبدر منه في هذا الشأن انحيازاً الى السلفية واندفاعاً وراء الوهابية ومصالحها . فصارت تعارضه وتبالغ في روايات أغلاطه وهفواته ، حتى وصل الأمر الى المسؤولين في استانبول فأجفلهم هذا الاتجاه المخطر ، وسرعان ما اتهم بالميل الى الوهابية والجنوح الى الفئات الضالعة معها والمروجة لاغراضها وأطماعها ، في الوقت الذي كانت هذه الحركة العنيفة التي عظم شأنها في الجزيرة العربية تهدد النفوذ العثماني في البلاد العربية بالتقهقر ، وتحكم عليه بالزوال .

كما كان سعي السفـــير الفرنسي في الاستانة لاستحصال الباشويـــة له ومساعدته في تبوء كرسي الوزارة في بغداد ، سبباً أساسياً في اصطدامه بالمستر

ريتش ، المقيم الانكليزي الاستعماري في بغداد ، ومخاصمته له مخاصمةً أدت به الى أن يعمد الى أهانته وطرده من البلاد . ومع أن العلاقات بين هذين الشابين المتهورين قد أعيدت الى حالتها الطبيعية بتدخل من المسؤولين في الباب العالي ، بعد أن بقيت متوترة مدة من الزمن . فقد ظلت الخصومة عالقة في القلوب حتّى النهاية . وبقي كلوديوس ريتش مع جميع المكاسب التي حصلها لدولته من سليمان القتيل يكيد له حتّى تقرر اقصاؤه عن الحكم على يد حالت أفندي في النهاية . وبرغم أن سليمان باشا القتيل لم يكن مخطئاً في موقفه تجاه هذا «الباليوز» . فقد صار المسؤولون في الباب العالي ، وعملاء الانكليز فيها من مثل حالت أفندي . يعتقدون ان هذا الوالي أخذ يسبب لهم المشاكل مع الدول ، ويوقعهم في صعوبات ومآزق هم في غنىً عنها .

يضاف الى ذلك أن سليمان القتيل لم يحسن التصرف بالسياسة العشائرية التي كانت من شؤون الأيالة الخطيرة في ذلك العهد . اذ انحاز الى فارس الجربا شيخ مشايخ شمر ضد الضفير وبعض قبائل عنزة . وكانت تـنزل في منطقة أورفة . فأدى هذا الى ان يسير اليها من بغداد على رأس جيش عرمرم حتّى وصل الى الحضر . ومنها توجه الى سنجار فنهب القرى وخرب البلاد . ثم توجه الى منطقة الخابور ونكل بعشائرها الثائرة . وأوعز من هناك الى والي الموصل أحمد باشا بالزحف على قرى ماردين وتأديب سكانها . بيد أن هذه الحملات لم تجده نفعاً ، فانه بدلاً من أن يعود منها ظافراً محملاً بالغنائم التي كان يمنيه بها فارس الجربا وجد نفسه صفر اليدين ، وقد تجاوز حدود أيالته فتدخّل في شؤون المناطق العائدة لولاية ديار بكر . وأغضب بعمله هذا أولياء الأمر في الأستانة . وأفسح المجال لاعدائه وحسّاده بالنيل من مكانته والدس عليه . ثم علم وهو في رأس العين أن احلافه من رجال القبائل العربية الكردية من الجربا والعبيد والملي وألبو حمدان والبوسلمان قد اختلفوا فيما بينهم . فأغار بعضهم على بعض وتفرقوا أيدي سبأ. فلم يرَ بدأً من انهاء الحملة والرجوع الى الموصل وهو بادي الوفاض خالي الأنفاض، مغضوب عليه من رجال الدولة .

غير أن أفظع ما اقترفه الوالي الشاب هذا من أغلاط هي الغلطة التي جعلت أغلاطه الأخرى يزداد وقعها في استانبول بحيث يتقرر العمل على تنحيته عن

الوزارة في الحال ويكتب القضاء عليه . فانه ما ان تولى الأيالة وتربع على دست الحكم فيها حتى طغى وتجبر ، وتملكه الزهو والاعجاب بنفسه ، ثم حاول أن يستقل بالبلاد عن الدولة ، وتنكر للالتزامات المالية التي التزم بها حينما طالب بالمنصب بادىء ذي بدء . فلم يعد يهتم بـدفع العشرة آلاف كيس الى الدولة من تركة [1] سليمان باشا الكبير وخاله علي باشا ، حتى ولم يعد يعبأ بتحويل الأتاوى السنوية التي كان لا بد للأيالة من أن تدفعها الى الخزانة الهمايونية في استانبول ، وقدرها ألف كيس من العملة .

ولا ريب أن قضايا الأتاوى والمال قضايا حساسة عند البشر والحكومات على الدوام . ولا سيما بالنسبة للدولة العثمانية وظروفها في تلك الايام . فقد كانت مصاريفها باهظة . وحروبها كثيرة . وأمورها مرتبكة ، وسوء التصرف متفش بكثرة في أنحائها وأطرافها ، وكان أولياء الأمر فيها من السلطان الى الوالي والمتصرف ، ومن شيخ الاسلام الى القاضي والنائب يعتبرون العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، أو بين الراعي والرعية ، علاقات جباية وجباة في الدرجة الأولى . ولم تكن الولايات والأيالات إلا بقرات حلابة تُحلب ضروعها أبداً ودوماً لتسمين السادة المتنعمين في عاصمة الامبراطورية من دون التفات الى ما تعانيه الولايات نفسها . ولذلك كان الويل كل الويل لمن يتحدى هذا المفهوم .

وعلى هذا فقد كان امتناع سليمان باشا الصغير في بغداد عن دفع المبالغ المترتبة عليه ، ومماطلته في تسديد ما بذمته الى الخزانة الامبراطورية . كافياً بحد ذاته ليثير نقمة السلطان محمود الثاني عليه ، وهو العاهل الشديد البأس

---

(١) كان من واجبات الولاة في الأيالات ، بموجب القوانين العثمانية ، ان يجبوا الضرائب ويكونون مسؤولين عن تسلمها. فاذا ما توفي أحدهم او نحي عن الحكم وبقي بذمته شيء منها كان من واجبات خلفه ان يسددها لخزانة الدولة من تركته ومخلفاته ، ولذلك كانت التركة تبقى محجوزة حتى يسوى ما بذمته من الدين . ولما كان سليمان الكبير قد حكم ٢٥ سنة ، وأعقبه علي باشا فحكم مدة لا تقل عن خمس سنوات فقد قدر ان كلا منهما كان بذمته خمسة آلاف كيس وكلف سليمان الصغير الذي جاء بعدهما باتخاذ ما يلزم لتقديمها الى الدولة فتعهد بذلك عند التعيين .

القوي الشكيمة . فكيف به وقد كان ينتمي أيضاً الى المماليك الذين كانت الدولة العلية تتربص بهم الفرص لتقصيهم عن الحكم ؟ وكيف به وقد أثار لها المشاكل مع الانكليز ، وسار في ركاب الوهابية التي استفحل أمرها في الجزيرة العربية ، ثم تجاوز حدود أيالته في حملاته وحروبه ؟

فانتدب السلطان رجلاً يعتمد عليه من رجاله القساة يدعى حالت محمد سعيد [1] وكلفه باستحصال حق الحكومة من هذا الوالي المتمرد ، على أن يقصيه عن الحكم ان امتنع عن الاذعان . كما كلفه بأن يغتنم الفرصة فيعين رجلاً من غير المماليك في مكانه وحينما وصل حالت أفندي الى بغداد لم يستطع اقناع سليمان القتيل بدفع ما بذمته الى خزينة السلطان ، واضطر الى أن يعود الى الموصل فيعمل فيها على اعداد قوة كافية يزحف بها على بغداد ويضع فيها ما يريد في موضع التنفيذ . وقد وجد في الموصل الجو مهيأ لمهمته هذه . فقد كان الجليليون مستعدون للتعاون انتقاماً من خصمهم الذي أذلهم وعمد الى تنحيتهم عن الحكم ، بعد أن كانوا يعتقدون بأنه وقف على أسرتهم من دون غيرها . وكان عبد الرحمن بابان في السليمانية على أتم استعداد للانضمـــام اليهم كذلك ليقتص من عدوه الباشا ويستغل الفرصة لتحقيق أطماعه في التربع على دست الباشوية الكبرى في بغداد . كما كانت جهات ساخطة أخرى وفئات ناقمة من المماليك وغيرهم راغبة في أن تدلي بدلوها وتجرب حظها في الفوز بشيء ما .

وقد سارت الحملة بقوات نظامية وعشائرية تبلغ عدتها خمسة عشر ألف مقاتل ، وتحدو قادتها آمال وأطماع متضاربة ، من دون أن يجمعهم الا جامع الانتقام من خصم ٍ ، حاول مخلصاً أن يؤدي واجبه باستقامة ٍ لا يحابي فيها أحداً ، ويخدم البلاد التي استوطن فيها وحكمها بكل ما أوتي من عزم ٍ وإيمان . فقرر سليمان باشا أن ينبري للجيش الزاحف عليه ، ويصمد أمام خصومه حتى النفس الأخير ، لاسيما وأنه كان يعتقد بأن الحركة لم تكن بأمرٍ من السلطان وانما كانت بتحريض ٍ من محمود باشا الجليلي ، متصرف الموصل ، ضده . ولذلك ارتأى

---

(١) راجع الصورة السابقة في الصفحة ٢٣٧ .

أن يرمي آخر سهم عنده من أجل الحل السلمي ودفع الشر عنه ، فأوفد إلى الباشا الجليلي . وهو في ميدان القتال وفداً يتألف من قاضي بغداد وصالح أغا الجليلي . الذي كان يقيم في بغداد منذ سنين . ليفاوضه بالمصالحة ويتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال لقاء عودة القوات عن بغداد وأيقاف القتال . لكن حالت افندي علم بالأمر فاستاء جد الاستياء . وعمد عبد الرحمن بابان الى اعتقال القاضي وإرجاع صالح أغا من دون أن يمس بشيء لقرابته من محمود . ثم بعثوا من يخبر سليمان القتيل بأنه مخطىء في ظنه . وان هذه القوات قد سيقت عليه بأمر من السلطان البادشاه .

وبعد مناوشات ومداورات عديدة جرت موقعة حامية الوطيس بين الفريقين بالقرب من شمال الأعظمية . صمد فيها سليمان صموداً رائعاً مع قواته ، وأنزل بخصومه خسائر فادحة في الأنفس لاسيما من الأكراد . فبانت تباشير النصر له [1] . غير أن حالت افندي استطاع تصديع الجبهة الداخلية فدبر حركةً جريئة في داخل بغداد كانت نتيجتها انفضاض عدد غير يسير من أتباع الوالي الصامد عنه قبل المعركة الأخيرة . وتمكن من إشاعة عزل سليمان باشا عن الوزارة بين جنوده ومقاتليه . فأخذوا ينسلون عنه بالتدريج . وما خيّم الليل بعد المعركة على جنوده المنتصرين . وهم ينتظرون بزوغ فجر اليوم التالي ليستأنفوا القتال . حتّى تفرقت جموعهم فاضطر فيض الله الكهية أن يترك سيده . وفي معيته عدد من الموالين والأمراء . ويهرب بهم إلى داخل بغداد فيغلق أبوابها وراءه . فوجد سليمان نفسه وليس معه سوى خمسة عشر نفراً من أغوات الداخل المخلصين فاضطر إلى أن يلوذ بأذيال الفرار [2] ويتجه نحو الجنوب . وفي نيته أن يلتجىء

(١) لكن قوات حالت أفندي استطاعت ان تأسر من أتباع الباشا القتيل بعض الأسرى ، وكان منهم عدد من الشخصيات المعروفة مثل سليمان باشا بن أحمد باشا بابان ، وسليمان بك فخري زادة ، ومحمد سعيد أفندي الدفتردار وابنه ، وتتار أغاسي بغداد . وقد سلبوا ثيابهم واسلحتهم وخيلهم وسيقوا الى عبد الرحمن بابان وهم عراة (غرائب الأثر) .

(٢) وفي رواية أخرى انه غادر ميدان القتال عائداً الى بغداد ، ليقاوم فيها حتّى النفس الأخير ، لكنه وجد الأبواب مقفلة في وجهه ولم يفتحها له أحد . وعند ذاك توجه نحو الجنوب فلاقى حتفه بصورة مؤلمة .

إلى حمود الثامر السعدون في المنتفك. لكنه ما عبر نهر ديالى وتجاوز منطقتها حتى لاقى حتفه بخيانة يندر وقوعها بين القبائل العربية ، فقد قتله أحد شيوخ الدفافعة وهو نائم في مضيفه وجاء برأسه في اليوم الثاني إلى حالت افندي . ومن أجل هذا سُمي « سليمان باشا القتيل».

أما حالت أفندي فقد سُر لهذه النتيجة سروراً متناهياً ، وبعد أن غسل الرأس وتأكد من كونه رأس سليمان باشا ، أكرم القاتل الأثيم وأنعم عليه، ثم أمر بأن يسلخ الرأس ويحشى ، وبعد أن طيف به في الدوائر والشوارع وضع في صندوق خاص وأرسل إلى الآستانة على عجل . ولأجل أن يبالغ في التشفي به تقصد حالت أفندي أن ينزل في بيت حرمه ويقيم فيه فيضع يده عليه ويصادر جميع ما كان فيه . وفيه طلب زوجة الباشا القتيل فسلم لها جثته الخالية من الرأس مع عظمة رأسه ، فدفنت في مقبرة الأمام الأعظم بالقرب من قبر أبيها علي باشا . بينما سكنت هي في دار أبيها مع ابنها الوحيد . ويروى أن محمود باشا الجليلي قضى نحبه في بغداد بعد هذا الحادث بأيام ، فطلبت زوجة الباشا القتيل أن يدفن إلى جانب زوجها شماتةً به .

هذا وقد حزن لموت سليمان سكان بغداد بأجمعهم وتألم لقتله المفجع حتى شانئوه من المؤرخين وغيرهم . فقد كتب عنه صاحب مطالع السعود يقول : فمذ قتله ذلك الدفاعي ، وأخبر بموته الناعي ، كثر عليه الأسف ، وذرف عليه كل طرف ووكف .. فأغصان الفضل بموته ذوابل ، وأجفان النعي عليه هواطل ، وأقمارُ العدل إذا أفل أوافل .. فبكى عليه أهل بغداد والبصرة ، وتزفروا لمصابه زفرة بعد زفرة ، لكونه في مكانٍ من الأنصاف ، وعلى سمتٍ لا يوصم بالانحراف ..

٢٩

حادي آغا[1]

شاءت الظروف ان يتولى باشوية بغداد في أوائل العقد الثاني من القرن التاسع عشر سعيد بك بن سليمان باشا الكبير ، بمساعدة من حمود الثامر شيخ المنتفك العظيم . وحينما دخل إلى بغداد في السادس عشر من أيار ١٨١٣ ، يصحبه حمود الثامر ، دخول الفاتح المظفر ، كان كل شيء فيها يبشر بالخير لأن كبار المماليك ورجال القوات المسلحة قد رحبوا به وانحازوا اليه اعترافاً بأفضال والده عليهم ، واستبشر بمقدمه الناس كبيرهم وصغيرهم في عاصمة الباشوية لأن هذا القدوم الميمون صار يذكرهم بأيام الهدوء والطمأنينة التي كانت تسود البلاد في أرجاء الأيالة على عهد أبيه الراحل .

لكن الباشا الجديد كان شاباً يافعاً ، في الثانية والعشرين من عمره ، لم تهذبه الخبرة والمران ولم تصقله الأيام ، فسلك سبيل الغواية ورفقة السوء وترك شؤون الباشوية والولاية الغارقة بالمشاكل والصعاب إلى أم معتمدة حمقاء وغلام جميل ، لطيف المعشر متحلل الخلق ، يدعى حمادي آغا أو «حادي» على سبيل التحبب . وكان حادي ، أو حمادي أغا ، شاباً متفسخاً من أغمار الناس ، نشأ من أسرة كردية فقيرة استوطنت بغداد وامتهن ربها مهنة «العلوجيّة» في زاوية منعزلة من زوايا الشورجة . وحينما كان الباشا اليافع منصرفاً بكليته إلى لهوه ومجونه ، وعاكفاً على معاقرة بنت الحان ، تعرف عليه وخلب لبه . فتعلق به واستحكمت الصلة بين الاثنين لدرجة صار سعيد باشا لا يستطيع مفارقة معشوقه أو الابتعاد عنه ، وتطورت تلك العلاقة فوصلت إلى تدخل حادي في شؤون الباشوية كلها وعبثه بمقدراتها .

---

(١) المراجع : المماليك في العراق ، دوحة الوزراء ، أربعة قرون من ، المماليك في العراق .

وقد حاول رجال الولاية وكبار موظفيها تنبيه سعيد باشا وتبصيره بمغبة أعماله الطائشة ، مصارحةً وتلميحاً . فلم يرتدع عما كان منغمساً فيه ، واستفحل أمر حمادي أغا فسلم الوالي اليه مقاليد الحكم في بغداد . فعينه مهرداراً . ثم زاد على ذلك وقلده خزندارية الولاية بعد أن ضيق على رفيق صباه ومعتمده الخزنة دار لطف الله أغا فأحال نفسه على التقاعد ولزم داره . وأخذ يعد العدة لتعيينه في أكبر منصب في الولاية وهو منصب الكهية ، أيضاً .

فأفلت بذلك زمام الأمور من يد الوالي الطائش . وصار حادي هو الأول والآخر في سراي بغداد . وأخذ الناس يروون قصصه وأخباره في مجالس بغداد ودواوينها ، ويندرون بأعماله في المقاهي والمحلات . فيطلقون عليه شتى النعوت والألقاب . ومن جملتها « ابن أبي عقلين» .

وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن تنحرف سفينة الولاية عن السير في مجراها الطبيعي الذي بدأت فيه . فقد كان وجود حمادي أغا في ديوان الولاية . وتدخله في الكثير من أمورها ، سبباً في انفضاض كبار رجال الباشوية من مماليك وغيرهم عنها . أو في إقصائهم ظلماً واعتداءً . بعد أن كانت تعتمد على ما عندهم من خبرة وحنكة في شتى دوائر الحكومة واختصاصاتها . واقترفت بتأثيره أغلاط فظيعة ، وأخطاء فاحشة . تدهورت بسببها ادارة الولاية وماليتها ، وساءت علاقتها بالباب العالي في استانبول ، وبالجارة التي كانت تتربص بالعراق الفرص .

فقد نُحي بتأثيرٍ من حمادي أغا . ونبي خانم والدة الباشا ، داود افندي افندي صهره وكهيته واعتزل الخدمة فقبع في داره يترقب سير الأحداث . وعزل السيد عليوي أغا آمر الحامية الانكشارية وعين غيره بترشيح من حمادي أغا نفسه . ثم عزل الحاج عبدالله أغا الكهية الجديد ، بعد أن جيء به لأنقاذ الموقف المتردي . لأنه لم تمتزج مع معشوق الباشا وخليله . وبأصرارٍ من حمادي بن أبي عقلين أصدر سعيد باشا أوامره بعزل محمود باشا بابان متصرف السليمانية ، بعد أن كان الاتفاق قد تم بين الولاية وايران على تنصيبه في مكانه حسماً للنزاع العائلي الذي كان متأزماً حينئذٍ بين البابانيين أنفسهم . واصطدم بحمادي أغا كذلك

أناس آخرون فأصابهم غضب الباشا وأقصوا عن مناصبهم . من مثل خليل أغا متسلم كركوك ورستم أغا متسلم البصرة .

على أن أفظع ما سببه حمادي أغا من مشاكل اصطدام سعيد باشا بالرئيس حالت افندي . أحد رجال المابين في استانبول . وتجاهل رغباته وهو المسؤول عن شؤون العراق في استانبول والمتحكم [1] بمقدراته . فقد رغب حالت أفندي في تعيين أحد المنسوبين إليه من يهود بغداد رئيساً للصرافين فيها . ورجا سعيد باشا أن يفعل ذلك لكن سعيداً عجز عن تنفيذ هذه الرغبة ، لأن حمادي أغا . ووالدة الباشا نبي خانم . كانا يلتزمان شخصاً آخر من اليهود وعينوه للمنصب نفسه . فاستاء حالت أفندي من سعيد وتبدل رأيه فيه . ثم أضمر له الشر وراح يعمل على عزله من منصبه ويحوك الدسائس للايقاع به .

وحينما تردت الحالة في بغداد على هذه الشاكلة ، وانحطت أحوالها إلى أسفل الدركات . غادرها الكهية المعزول داوود أفندي متوجهاً إلى الانحاء الشمالية من البلاد وفي صحبته مئة وخمسون رجلاً من اتباعه المماليك وغيرهم . وهناك رحب به محمود باشا بابان متصرف السليمانية . وكان قد ثار على أوامر حمادي أغا وسيده الباشا المخذول حينما صدرت بعزله . فبقي في مكانه ومنصبه بعد أن تغلب على القوة التي جردت لتأديبه من بغداد وكركوك . وكان تغلبه قد حصل بمؤازرة الحكومة الايرانية له حينما أمدته بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل . وهناك التحق بداوود جميع الناقمين والمعزولين فكوّن جيشاً قوياً منهم زحف به على كركوك ، واتصل منها بأولي الأمر في استانبول وعلى الأخص بصديقه القديم حالت أفندي . فطالب بالولاية لنفسه .

وكان من الطبيعي أن تتأزم الحالة في بغداد بظهور داوود على رأس هذه القوة المتكاثرة . وقد أحسّ سعيد باشا بالخطر . بعد أن صحا على نفسه بعض الوقت ، فراح يتخبط في أمره ويحاول تهدئة الخواطر بعد أن نفر منه الجميع بتأثير حمادي أغا . فعيّن درويش محمد أغا كهية بالأصالة ، ونصب يحيى أغا الميرآخور خزنه داراً في محل عشيقه حادي . ثم عزل عمر أغا الملي وعين في مكانه عبد الله الباش أغا السابق كهيةً للبوابين . علاوةً على تعيينات أخرى أجراها في عدة

---

(١) راجع الصورة المعنونة « حالت افندي » في الص ٢٣٧ .

مناصب غيرها . لكن هذا كله لم يجده نفعاً ، لأن حمادي أغا ظل يصول ويجول ، ويتحكّم ويتأمّر ، مستعيناً بأم الباشا ، ومعتمداً على الثقة الغالية التي كانت توليه إياها .

ولأجل أن يخرج نفسه من المأزق الحرج الذي زج نفسه فيه ، ويحافظ على وضعه المتقلقل في بغداد ضد القوة الزاحفة عليه ، لم يجد سعيد باشاً بداً من الاستعانة بحمود الثامر شيخ المنتفك الكبير عوداً على بدء ، وهو الذي بوّءه كرسي الوزارة في بداية الأمر فأخذ أجره لقاء ذلك على شكل هبات كثيرة ومقاطعات طويلة عريضة سجلت باسمه واسم اتباعه وأقاربه . فخف حمود إلى تلبية الطلب ، وأمد الوالي بألف وخمس مئة خيال وصل على رأسها في يوم ٢٣ ذي الحجة ١٢٣١ فخيّم في جانب الكرخ . وقد قوي جنان الباشا بوصول هذه القوة ، لاسيما وقد علم بتعاظم شأن داود افندي وقواته في كركوك وشاع خبر زحفه على بغداد . ثم وصلت إلى بغداد كذلك قوة خاصة من عبدالله باشا بابان خصم محمود باشا وخيّمت في باب المعظم . وكان قوامها خمس مئة محارب .

غير أنه لوحظ بعد أيام أن وصول هذه القوة إلى بغداد قد زاد في الطين بلّة ، لأن إعاشة هذا العدد الكبير من الناس لم تكن شيئا هينا . فقد كانت تحتاج إلى أموال وافرة تبلغ اثني عشر ألف قرش في اليوم ، وأقوات كثيرة تضيق بها ذرعاً مخازن بغداد الشحيحة وواردها الناضبة في تلك الأيام . فانتشرت المجاعة بين السكان ، وأخذ الكثيرون منهم يتركونها قاصدين القرى والأرياف ، أو يهربون منها للالتحاق بقوات داود التي كانت تزحف من الشمال ببطء وتوءدة ، حتى وصلت إلى قرية الجديدة القريبة من بغداد .

وقبيل أن يزحف داود زحفه الأخير عليها وصل من استانبول المهتر باش محمد أغا ، معتمد حالت أفندي ، يحمل اليه الخلعة السنية والفرمان بتعيينه للباشوية في مكان سعيد باشا . فعلم أهالي بغداد وموظفوها كلهم بذلك ، لكن سعيد باشا ظل يجهل الخبر لأن حمادي أغا لم يشأ أن يخبره به . وحينما اشتدت المجاعة في بغداد عجزت الحكومة عن تدبير أرزاق القوات العشائرية المنجدة ، لكن هجوم داود الأخير عليها قد تأخر ، ثم أشيع في البلد أن داود قد عدل عن مهاجمة بغداد ورجعت

قواته عائدةً إلى الشمال . فرحب سعيد بالشائعة وصدق بها ، ثم بادر الى ترخيص هذه القوات بالعودة إلى أماكنها لانتفاء الحاجة اليها .

على أن سعيد باشا سرعان ما وقف على جلية الأمر ، وتبلغ بالارادة السنية القاضية بعزله ونفيه إلى حلب ، فقرر الرضوخ للأمر بعد أن أعطي الأمان على حياته وعُين له محل إقامته . غير أن الأمر لم يرق لحمادي أغا وبطانته الفاسدة بطبيعة الحال . فمنعوه بالتهديد من مغادرة بغداد وأقنعوه بالبقاء ومقاومة أمر السلطان بالقوة . فعادت ثقته بنفسه بعض الشيء ورجع إلى الاعتماد على حمادي والعمل بنصحه الخاطىء .

وفي وسط هذه العاصفة الهوجاء أقنع حمادي سعيد باشا بأقصاء كهيته عن منصبه، وعزل البعض من كبار موظفي الولاية والقوات المسلحة لشكه في إخلاصهم. وكان من بين هؤلاء حبيب أغا الدركزلي وبعض وجهاء باب الشيخ. فهاجت هذه المحلة وأعلنت العصيان بعد أن علمت بعزل الباشا ومقاومته السلطة من رسل داود اليهم . وعمد أحد أبنائها إلى مهاجمة حمادي أغا وطعنه عدة طعنات بالسكين . فلم يكن من ذلك الفاسد المفسد الا أن يهرب إلى القلعة ويلوذ بها .

وما أن علم سعيد باشا بذلك حتى ارتج عليه وتقطعت أنياط قلبه هلعاً وحزناً على عشيقه ، فغادر السراي وترك شؤون الولاية فخف مسرعاً إلى القلعة هو بدوره ليلتحق بعشيقه وخليله ، وهناك نزلا في غرفةٍ واحدة . وعند ذاك أدرك داود أن الثمرة قد نضجت وحان قطافها ، فانقض على بغداد واحتلها بالقوة .

وقد ألقي القبض بطبيعة الحال على حمادي أغا وسجن عند الـ «باش اسكي» ، لكن محمد أغا المهتر باش ، معتمد حالت افندي ، جاء اليه في الحال وقتله جزاء ما صنعت يداه . غير أن روايات أخرى تقول أنه لم يقتل بهذه السرعة ، وانما قتل بعد أن عُذّب تعذيباً أليماً استغرق مدةً طويلة من الزمن حتى يمكن التوصل إلى معرفة المكان الذي خبأ فيه ثروته والأموال التي اختلسها من الحكومة على ما قيل، فلم يتم التوصل إلى شيء حتى بالتعذيب. فقد ظل حمادي أغا مدلل الباشا يضرب ضرباً مبرحاً ، ويقطع لحمه حياً بالسكين يوماً بعد يوم لعله يدلي بشيء ، وبلغ الألم به حداً أخذ يتهم فيه الناس على العميا ليتخلص من العذاب . فقال انه

خبأ أمواله عند تاجر لا يتذكر اسمه ، وجيء له بالتجار فخاف جميعهم وامتنعوا عن البوح بشيء . غير أنه أخذ يسب الوالي الجديد سباً مقذعاً بحضور الجميع ليغضب المسؤولين فيعجلون بقتله ويستريح . فلم يعبأ بما قاله أحد . ويقال كذلك أنه شاهد من شباك السجن محمود باشا بابان ماراً في الطريق فالتمس منه التوسط عند الوالي ليعجل بقتله فيريحه .

وأخيراً قتل واحتُز رأسه فوضع مع رأس سعيد باشا في صندوق واحد ، وأُرسلا الى الاستانة ، وبهذا انتهت صفحة مفجعة أخرى من صفحات التاريخ العراقي العجيب .

٣٠

أبو زوعـــة[١]

لقد تعرض العراق ، خلال الحكم العثماني الطويل فيه ، إلى الكثير من النكبات والأرزاء حتى آل به الأمر إلى تبدل أحواله وتغيّر الكثير من معالمه المعروفة . فقد تعرض الى حصارات عنيفة ومذابح مخيفة ، كما تعرض إلى مجاعات مفجعة وفيضانات مدمّرة ومواسم طويلة من الجدب والقحط . ومع هذا كله فقد تعوّد العراقيون في سالف الزمان على مثل هذه الكوارث . حتى أصبحت جزءاً من أحوالهم العامة وتأثرت بها طباعهم وعاداتهم إلى حدٍ غير يسير .

لكنهم مع جميع ما اكتسبوه من خبرة وتجربة في مثل هذا المعترك القاسي ، وما تمرسوا به من كفاح ونضال ، فأنهم كانوا يقفون عاجزين تجاه ما كان يداهمهم من أمراض وأوبئة بين حين وحين ، لانعدام وجود الرعاية الصحية وفقدان الخدمة الطبية للناس . فكثيراً ما كان يداهم الطاعون البلاد فيحصد النفوس فيها حصداً ، وينتشر في أرجائها عرضاً وطولاً ، فلا يفارقها إلا بعد أن يكون قد أتى على معالم الحياة العفية فيها وقضى على نسبة كبيرة من سكانها . وقد كان يضاهي الطاعون هذا في فتكه وضراوته الوباء الأصفر ، أو «أبو زوعة» كما كان يسميه العراقيون من قبل ، وهو مرض الهيضة الوبيل الذي ما زال العراق وما يجاوره من البلاد يصاب بوافدات خفيفة جداً من وافداته بين حين وحين .

والملاحظ في المدوّن من الأخبار التاريخية أن العراق قد تكررت وافدات الهيضة فيه خلال القرن التاسع عشر كله ، وفي العقدين الأولين من القرن الحالي على

---

(١) المراجع : مختصر مطالع السعود، تاريخ العراق بين احتلالين، مقال الدكتور جوزيف مالون بعنوان
Surgeon Colvile's Fight Against Plague & Cholera in Lraqe, 1868 - 1878.
المنشور في: American University of Beirut Festival Book (Beirut 1967).

الأخص . فقد عرفت الهيضة لأول مرة باسمها الحديث في العراق سنة ١٨٢٠ على عهد الوالي المشهور داود باشا ، ثم تكرر ظهورها بعد ذلك في فترات متقطعة . فظهرت في العقد الثالث من القرن في أيام الوالي علي رضا باشا الذي أسس الحجر الصحي في الدولة العثمانية على عهده (١٨٣٨)، وفي سنة ١٨٦٥ في ولاية نامق باشا الثانية ، وسنة ١٨٦٩ في أيام الوالي المصلح مدحت باشا ، وفي سنة ١٨٨٠ على عهد الوالي تقي الدين باشا ، وفي سنة ١٨٨٩ على عهد الوالي مصطفى عاصم باشا ، وفي سنة ١٨٩٣ حينما كان الحاج حسن باشا والياً في بغداد ، وفي ١٩١٠ على عهد الوالي المشهور حسين ناظم باشا ، وفي ١٩١١ على عهد الوالي جمال بك الذي عُرف بعد ذلك بجمال السفاح . ولا شك أن وقوع العراق في مفترق الطرق ، وقربه من الهند ، كان له دخل كبير في تفشي الطاعون والهيضة في أرجائه ، ولا سيما في تلك الأيام الخوالي التي لم تكن تعرف فيها تدابير الصحة العامة ولا شؤون الوقاية من الأمراض فضلاً عن علاجها .

وكثيراً ما كان يقترن تفشي هذا المرض الخبيث بالمآسي والويلات ، لأنه كان يقضي على عدد كبير من النفوس في أيام معدودة ، فيهز كيان البلاد هزاً ويهصر عناصر الحياة من أوصالها . وقد حدث هذا على الأخص حينما تفشت الهيضة في العراق على عهد داود باشا سنة ١٨٢٠ . فقد جاءت من الهند في تلك السنة ، وتفشت في البصرة ففتكت بأهلها فتكاً ذريعاً كاد يُقضى فيه على معظم سكانها ، لأن بيوتاً لا يحصى عددها قد مات أهلها عن بكرة أبيهم فأقفلت أبوابها بالخشبة على قول المؤرخ عثمان بن سند البصري . ثم انتشرت الجثث في الطرق والأزقة لأن الناس ذعروا من هول المصاب ولم يعودوا قادرين على عمل شيء ، وهرب الكثيرون منهم إلى البادية فخلت منهم الشوارع والبيوت . ويقول ابن سند أن علامات هذا المرض كانت القيء والاسهال ؛ وان صاحبه لا يبول فاذا بال سلم ، وتعتريه حرارة عظيمة ظاهراً وباطناً . وقد ألقى بعض المصابين به نفسه في الماء البارد فلم يفده شيئاً وقضى نحبه ، وتحيرت فيه الأطباء وما علموا له دواءً أصلاً ، كما أنهم لم يتحققوا من أسبابه [1] على اليقين . واستمر هذا الوباء مقيما في البصرة من آخر

---

(١) لم تكتشف باكتيريةالهيضة، المساة اليوم Vibrio comma ، الا في١٨٤٩وكان ذلك=

شوال إلى آخر ذي القعدة ، ثم خفت وطأته وانتقل إلى جهات البلاد الأخرى بعد أن خلف وراءه خمسة عشر الف ضحية فيها .

ثم انتشر في جهات سوق الشيوخ ، والعرجة ، والسماوة ، وانتقل بعد ذلك شمالاً فتفشى في منطقة الشامية وعشائرها . وبعد أن استوفى حقه من تلك الجهات سرت عدواه إلى الحلة وكربلاء فمات خلق كثير فيهما . وتفشى بعدها في بغداد فقضى على عدد كبير من أهلها ، وبعد خمسة عشر يوماً ظهر في كركوك فمات فيها حوالي ألف شخص من المصابين به . وانتقل من هناك إلى السليمانية وما حولها من القرى ففتك فتكاً ذريعاً فيها . وكان من المؤلم أن تقف حكومة تلك الأيام مكتوفة اليدين تجاه هذا الخطر الداهم ، عاجزةً عن عمل شيء لتخفيف المصاب . لكنها عمدت على ما يبدو الى الاستنجاد بطبيب المقيمية البريطانية في بغداد يومذاك لعله يستطيع إسعاف الناس بالأدوية وما شاكل ، فطُلبت من الخارج بواسطته غير أنها وصلت بعد فوات الأوان .

وقد دخلت الهيضة إلى العراق في ١٨٦٩ بواسطة الزوار الايرانيين القادمين اليه عن طريق خانقين . فقد استطاع عدد قليل منهم يحمل المرض أن يدخل إلى البلاد برغم تدابير الحجر الصحي الذي كان مفروضاً في خانقين . وسرعان ما ظهرت الهيضة في قزرباط (السعدية) ، وانتشرت فيها حتّى وصلت إلى بغداد . ثم حدث بعد ذلك ما أدى إلى التغاضي عن التدابير المذكورة وفتح باب الدخول على مصراعيها من أيران . إذ وصل بعد أيام موكب ناصر الدين شاه مع حاشيته المؤلفة من ستة آلاف شخص بدعوة من الوالي مدحت باشا ، فلم يمكن بطبيعة الحال تنفيذ تعليمات الحجر الصحي في هذه الحالة . ولهذا دخل بعدالموكب الشاهنشاهي الى العراق ما يقرب من عشرين ألف زائر . وقد كثُر تفشي الهيضة بهذه الواسطة في منطقة بغداد ومنها الى الفرات الأوسط والجنوبي . وبقيت تنتك بالناس لمدة شهرين من دون أن يمكن ايقاف انتشارها . والحقيقة أن فرض الحجر الصحي على الزوار الايرانيين ، وعلى الجثث التي كانت تنقل للدفن في العتبات

= على يد فيلكس بوشيه ، لكن البرهان على كون هذه الباكتيرية هي التي تسبب ما أصبح يسمى بالهيضة الآسيوية أو الهندية لم يتم الا في سنة ١٨٨٣ على يد العالم الألماني المعروف روبرت كوخ .

المقدسة ، كانا من النقاط الحساسة بالنسبة للعلاقات الديبلوماسية والسياسية بين البلدين . وكان البحث فيهما من جملة ما تم التداول فيه بين مدحت باشا والعاهل الايراني الضيف الذي استطال بقاؤه في العراق وامتد إلى ثلاثة أشهر .

على أننا نرى من جهة أخرى أن تدابير الحجر الصحي ، بالشكل الذي كانت تطبق فيه حينئذٍ كانت تدابير غير مجدية بالمرة ، لأنها لم تكن تطبق على الوجه المطلوب ولأن مستوى المشرفين عليها من الجند ورجال الأمن وغيرهم كان من شأنه أن يجعل الحجر الصحي شيئاً لا أهمية له من أساسه ، على ما يقول الدكتور كولفيل طبيب المقيمية البريطانية في بغداد وعضو «الهيئة الصحية المحلية» في الولاية .

وفي سنة ١٨٨٩ تفشت الهيضة في بغداد على عهد واليها مصطفى عاصم باشا ، فأثارت ضحاياها المتكاثرة يوماً بعد يوم الرعب في نفوس السكان ، وأخذ الكثيرون منهم يفدون إلى القرى والأرياف لينجوا بأنفسهم منها . وكان بين هؤلاء عدد كبير من المتنفذين ووجوه البلد ، ونفر من أبناء الطوائف غير المسلمة ولاسيما اليهود . وقد ظل الوباء يقضي على مئة وثلاثين ضحية يومياً خلال مدة تزيد على الشهر ، حتى أخذ عدد الضحايا بالتناقص . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتوقف الحركة في المدينة فتغلق الأسواق ، وتنقطع السابلة ، وتقل الأقوات والأرزاق .

وبينما كانت بغداد المرزءة تئن من ضربات الهيضة الموجعة ، ويدوّي في درابينها وأزقتها صوت الموت المرعب ، وقع حادث غريب بين يهود بغداد وواليها مصطفى عاصم باشا فأدى بعد تطوره إلى نقله للعمل في ولاية أخرى من ولايات الدولة . ففي ليلةٍ من ليالي السبت الواقعة في أيلول من تلك السنة توفي الحاخام عبدالله ابراهام سوميخ على إثر أصابته بالهيضة ، ونظراً لما عرف عنه من فضل وتقوى استرحم وجوه اليهود ورؤساؤهم الدينيون من الباشا أن يأذن لهم بدفنه في تربة النبي يوشع الواقعة في جانب الكرخ . فلم ير الباشا بدأً من الموافقة على ذلك بشرط أن يتم الدفن في مقبرة اليهود المحيطة بالمرقد وليس في داخله ، لأن قدسية الأنبياء لا تسمح بأن يدفن بقربهم الناس من مختلف الطبقات . وحينما وصلت جنازة الحاخام بموكبها الحافل الى تربة النبي يوشع في صباح يوم الأحد

أصرّ بعض اليهود المتحمسين على وجوب دفنه في داخل المرقد، واصطدموا بقيّمه المسلم وموظفي البلدية المسؤولين لأنهم عارضوا في ذلك وبادروا إلى تنفيذ أوامر الحكومة في هذا الشأن . لكن اليهود تغلبوا عليهم فكسروا باب التربة ودفنوا الجثمان في داخلها بعد أن ساعدهم في ذلك سعيد أغا الألاي بيگي (أمير الالواء) نكايةً بالباشا الوالي الذي كان على اختلاف بيّن مع القائد توفيق باشا . وقد أدى الحادث الى الاعتداء على عبدالله جلبي الزئبق رئيس البلدية ، وعدد من موظفيه . ثم اشتدت الأزمة في اليوم الثاني حينما عمد اليهود ثانيةً إلى دفن زوجة التاجر عاشير سالم في داخل سور المرقد .

فبادر الوالي الى القيام بسلسلة من الأعمال التأديبية القاسية للمحافظة على هيبة الحكومة وتنفيذ أوامرها . فأصدر أمراً بتوقيف الحاخام باشي أليشاع ومعظم أعضاء المجلس الجسماني الذين كان من بينهم يوسف شنطوب وصالح كاشي ، ثم استحصل موافقة السلطان عبد الحميد على إخراج جثة الحاخام وإعادة دفنها ليلاً في مقابر اليهود المعروفة في الجانب الشرقي من بغداد . وقد تم ذلك بعد مرور ثلاثة أشهر على دفنها الأول .

على أن هذه التدابير سرعان ما استغلها القائد توفيق باشا للمشاغبة على الوالي ، بالتعاون مع سكرتيره تحسين بك وبعض اليهود من أمثال يهودا زلوف وشاؤول داود والمعلم نسيم . فأرسلت المضابط والبرقيات إلى المسؤولين في الباب العالي ، واستنجد بعض الحاخامين بيهود فرنسة ودوائرها الاستعمارية التي كانت مستعدة للتدخل أبداً ودوماً في مثل هذه الأمور . هذا بالاضافة إلى تدخل أم السلطان الپادشاه ووقوفها بجانب اليهود بطريقة من الطرق . ومع أن رجال الطائفة المسؤولين لم يستطيعوا التنصل من مسؤولية ما أقدموا عليه في تلك الأيام ، فقد تكللت مساعيهم بالنجاح وصدرت الفرامين بعزل الوالي من بغداد ونقله الى آطنة ، وتحويل القائد توفيق باشا إلى جهة أخرى من جهات الامبراطورية ، وانتهت الأزمة بانتهاء وافدة الوباء .

وآخر ما يمكن ذكره هنا من حوادث الهيضة التاريخية في العراق تفشي هذا المرض المخطر في بغداد وغيرها من مدن العراق سنة ١٩١٧ ، ووفاة الجنرال مود

فاتح بغداد بسببها. فقد جلبت الجيوش البريطانية الفاتحة «أبا زوعة» معها من الهند ، وكانت قد نزلت إلى البر في الفاو يوم ٦ تشرين الثاني ١٩١٤ واستولت على بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ . وقد لوحظ انتشار الهيضة خلال الأشهر الستة الأخيرة من ١٩١٧ ، ومع جميع التدابير الوقائية الصحية التي اتخذتها سلطات الاحتلال العسكرية في مكافحة هذا المرض وحصر انتشاره بالتلقيح الذي كان يجري اجبارياً في الطرق وغيرها فقد ظل يفتك بالناس ويودي بحياة الكثير من الضحايا كل يوم . وكان من جملة من أصيب به ، وتوفي فيه ، فاتح بغداد الانكليزي الجنرال ستانلي مود ، فقد قضى نحبه في يوم ١٨ تشرين الثاني فابتلعته أرض العراق وغيبته بين طياتها كما ابتلعت كثيراً من الفاتحين من قبله ، ومنهم كبيرهم الاسكندر المقدوني الذي مات بالبرداء الخبيثة (الملاريا) على ما يُظن في منطقة عقرقوف القريبة من بغداد .

ومن المعتقد أن عدوى الهيضة قد سرت إلى الجنرال مود من حليبٍ تناوله مع القهوة في مدرسة الأليانس الإسرائيلية ببغداد حينما دُعي اليها لحضور حفلة أقامتها تكريماً له الطائفة الاسرائيلية مساء يوم ١٤ تشرين الثاني . ويذكر السر أرنولد ويلسون في كتابه « بين النهرين » ان الجنرال مود لم يشأ أن يلقح نفسه ضد الهيضة مع أنه كان يصر على تلقيح جنوده وأفراد قواته كلهم ، فضلاً عن تلقيح الأهالي . وكان يعتقد أنه متقدم في السن بحيث تكون مناعة خاصة في جسمه ضد المرض !

٣١

ثورة صادق بك[1]

كان الوالي سليمان باشا الكبير قد خلّف وراءه ، بعد أن انتقل إلى دار الخلود ، أبناءً ثلاثة هم سعيد وصادق وصالح ، ورهطاً كبيراً من مماليكه الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من حاشيته ويشغلون المناصب الكبرى والوظائف الحكومية المختلفة في كثير من أنحاء البلاد . وبدلاً من أن يتولى الوزارة من بعده أحد أنجاله هؤلاء ، كما كان من الممكن أن يحصل بالنسبة لظروف تلك الأيام وأحوالها المعروفة . فقد تولاها أناس من أبرز مماليكه نظراً لصغر سن الابناء وعدم تهيؤهم للحكم .

ولم يكد يتولى الحكم من هؤلاء المماليك عبدالله باشا التوتونجي ، على أثر القتلة المفجعة التي قتل بها الوالي سليمان الصغير ، حتى أخذت الأطماع تعتلج في نفس كبير الأبناء سعيد بك ، وصار على صغر سنه يطمع بتسنم منصب أبيه وقد توارثه من بعده ثلاثة من مماليكه الذين شبوا في خدمته ونشأوا في كنفه . وبعد ثورة استعان فيها سعيد بحمود الثامر شيخ المنتفك الكبير استطاع الوصول إلى بغيته فتولى باشوية بغداد وتربع على دست الحكم فيها . لكنه لم يلبث فيها سنوات معدودات حتى أضاعها بطيشه وسوء تصرفه ، فقد ثار عليه زوج اخته ومملوك أبيه داود واستولى على بغداد بمعونة من أبناء الشمال . فقتله في حضن أمه .

ومع أن داود باشا أخذ يرعى ابنَي سيده الآخرَين صادق وصالح رعاية تامة ، ويغدق عليهما بالألطاف والأنعام ، ليكفرّ عما فعله بأخيهما سعيد . منذ أن تقلد زمام الباشوية ، فقد صارت نفس صادق تحدثه هو الآخر باعتلاء الكرسي وتزين له الوثوب عليه بمعونة من أبناء العشائر العربية في الجنوب كما فعل

(١) المراجع : دوحة الوزراء ، أربعة قرون من .. ، تاريخ العراق بين احتلالين .

أخوه سعيد من قبل . وبعد محاولات عدة ومداولات سرية متصلة تسنى لصادق بك أن يثور على قاتل أخيه ويعلن العصيان والتمرد في أحرج الأوقات بمؤازرة فريق من القبائل العربية وإسناده . فقد استطاع أن يتسلل من بغداد تحت جنح الظلام (١٨١٧)، ويصل إلى مضارب زبيد فيلتجيء إلى شيخها المشهور شفلح الشلال، فآواه وخف إلى نجدته . وبينما كان داود باشا منشغلاً في قمع الثورات الكردية في الشمال ومنهمكاً في شؤون الدفاع عن البلاد ضد الهجمات الايرانية المنتظرة على الحدود، أعلن صادق بك وحليفه الشيخ شفلح الشلال ثورتهما العارمة فانضمت اليهما عشائر وقبائل كثيرة . وكانت من جملة هذه العشائر قبائل الخزاعل التي كان جاسم بك الشاوي قد التجأ اليها من قبل على أثر صدور الفرمان بقتله ، لأنه وقف الى جانب سعيد حينما تحدى أوامر البادشاه بالعزل . وتخلف عن داود عندما خرج من بغداد وأعلن الثورة على سعيد في الشمال (١٨١٦).

وقد أخذ هذا الحلف العشائري . وعلى رأسه صادق بك . يعبث بأمن البلاد ويثير القلاقل فيها . فقطعت الطرق النهرية ما بين بغداد والبصرة على الأخص . ونهبت القوافل في كل مكان . وظلت الحال على هذا المنوال ردحاً من الزمن . وازداد أتباع صادق بانضمام الناقمين والساخطين اليه . فنشأ عن ذلك وضع محرج في بغداد ، وصار داود يخشى من أن تتكرر حوادث سنة ١٨١٣ في عهده فتؤدي الى دخول ابن آخر من أبناء الباشا الكبير على أكتاف القبائل العربية الثائرة .

ولذلك قرر أن يضرب ضربته الحاسمة في الحال . ويجتث الخطر الداهم من أصله وأساسه . فعهد الى كهيته محمد أغا بأن يتولى الأمر بالسرعة الممكنة . وأمره بأن يؤجل توجهه الى كركوك لمعالجة الاضطرابات التي كانت تغذيها ايران عن طريق أبناء الأسرة البابانية الحاكمة . وكذلك أصدر أمره بعزل الشيخ شفلح وتنحيته عن مشيخة عشائر زبيد ، ثم نصب في مكانه خصمه علي البندر وشجع شبيباً الدرويش خصمه الآخر على مؤازرة الشيخ الجديد وجمع العشائر من حوله . وبذلك تألفت في وجه الثائرين قوة نظامية وعشائرية غير قليلة . وبعد أن سلّح داود خصوم شفلح بالسلاح اللازم وقدم لهم المعونات بأنواعها أخذوا يضايقون صادق بك وأتباعه ويتعقبونهم حتى تقابل الفريقان في مكان يقال له «خشيخشة» فجرت فيه معركة حامية الوطيس . وبنتيجة ذلك تغلبت قوات الحكومة التي كان ينضوي اليها علي البندر على شفلح الشلال ، فأنكسر صادق بك وحلفاؤه

شر كسرة ، ولاذ الجميع بالفرار فتوجهوا إلى جهات عفك والتجأوا الى شيوخها ، ثم تحصنوا في الأهوار المنيعة الكائنة في تلك الجهات .

على أن مشاغل داود ، وكثرة المشاكل التي كانت تحيط به من جراء الوضع المتأزم مع ايران أدت به إلى أن يكفّ عن ملاحقة صادق بك وأتباعه ، ويتركه محاصراً في الأهوار إلى أن يكون بوسعه التفرغ اليه في وقت لاحق . وقد استغرق ذلك عدة أشهر ظلت الأحوال تتفاقم خلالها وتزداد سوءً على سوء في منطقة الفرات الأوسط ، وبقي حبل الأمن مضطرباً والطرق مسدودة في تلك الجهات زمناً طويلاً .

وحينما تسنى لداود أن يتغلب على الأزمات الناجمة عن تناحر أبناء الأسر الكردية الحاكمة في الشمال ، ويسوي الأمور بدهائه وعزمه الحديدي مع الجارة المتحفزة للتدخل في شؤون العراق أبداً ودوماً ، عاد إلى صادق بك وثورته وبادر إلى إخمادها بالقوة مهما كلف الأمر .

فجرد لها عدداً كافياً من القطعات العسكرية بقيادة عبدالله أغا باوك باشي الخيالة ، ومقداراً غير يسير من القوات العشائرية الموالية برآسة عبدالله بك الشاوي كذلك . وحينما زحفت هذه القوات على صادق بك توقف زحفها عند حدود الأهوار التي كان يعتصم فيها الثوار ، لكنها اتخذت التدابير لمحاصرة الأهوار وتضييق الخناق على من كان فيها بجميع الوسائل والسبل . ولم تلبث سوى أيام معدودة وهي في تلك الحالة حتى طلب شفلح شيخ زبيد المعزول التسليم[1] ، والتخلي عن صادق بك وثورته ، بشرط أن يتم الصفح عنه ويعاد إلى المشيخة. فوافق الوالي داود باشا على ذلك ، وبعث له بالخلعة المعتادة مشفوعةً بأمر المشيخة ، وبهذا فارق جماعته وحلفاءه .

ولم يحصل ذلك حتى تضعضع وضع صادق بك بطبيعة الحال ، وانفض عنه الكثيرون لسوء تصرفه وسلوكه . وفارقه كذلك جاسم بك الشاوي مع نفر من أتباعه ومريديه . ثم تخلى شيوخ عفك أنفسهم عن تأييده ومؤازرته ، فلم يجد بداً من أن ياوذ بأذيال الفرار من جديد ويضرب في أرض الله الواسعة حتى وصل الى الحويزة ، ومنها التجأ إلى بني كعب في عربستان . وبعد أن أصبح طريداً شريداً بهذه الحالة بذلت المساعي للعفو عنه فشمله داود بعفوه ، وبهذا عاد من ثورته الطائشة بادي الوفاض خالي الأنضاض .

---

(١) تذهب بعض المراجع الى ان داود باشا هو الذي بعث الى شفلح من ينصحه ويسترضيه بهذا الشكل فوافق وأذعن ، فانتهى المشكل .



جامع الحيدرخانة (الداودية) من آثار داود باشا

٣٢

أمرٌ دُبِرَ بليل[١]

كان داود باشا آخر من حكم من الولاة المماليك في بغداد وأبعدهم صيتاً وشهرة . فقد قدر له أن يتربع على دست الحكم فيها مدةً تناهز السبع عشرةسنة . واستطاع في أثناء هذه المدة أن يثبّت أقدامه في الباشوية ويوفّر لنفسه أسباب الثروة والقوة بحيث صار بوسعه أن يصبح مستقلاً عن استانبول في جميع شؤونه تقريباً ، ويتحدى أوامر السلطان وغيره من أولي الأمر في الباب العالي في كثير من المناسبات . ولذلك كان المسؤولون في عاصمة الامبراطورية العثمانية يوجسون خيفةً منه ، ويحاذرون من أن تحدثه نفسه أن يسير في بغداد على المنوال الذي سار فيه محمد علي الخديوي في القاهرة ، فيصبح خطراً على الدولة ومصالحها وهو يحكم في موقعٍ حساس تجاوره فيه أيران خصيمة العثمانيين ومنافستهم في هذه الأصقاع .

ولعل داود كان يدرك دقة وضعه هذا ، ومصادر قوته وضعفه ، بالنسبة لظروف وجوده على رأس الحكم في بغداد ، فراح يبعث بما يترتب عليه من الأتاوى السنوية الى استانبول بكل انتظام خلال السنوات الأولى من سني حكمه في العراق ، مع أن أسلافه الولاة المماليك لم يكونوا يبعثون اليها منذ أيام سليمان الكبير الا بالقليل منها . لكنه اضطر الى التوقف عن بعث هذه الأموال حينما ألفى نفسه محاطاً بالمشاكل التي تستدعي توفر الأموال الطائلة ، ولا سيما ما كان يضطلع به من اعداد القوات المسلحة الكافية لمجابهة التهديدات الايرانية المتزايدة والثورات العشائرية المستمرة ، ومن إدخال الاصلاحات الكثيرة في البلاد التي كان لا بد لها

---

(١) المراجع : تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد ، المماليك في العراق ، أربعة قرون من .. ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ .

من أن تماشي التطورات العالمية وتقبل على التجديد . وحينما تورطت الدولة في حرب ضروس مع روسية ، بسبب تطور الثورة في بلاد المورة ، ارتأى المسؤولون ان تسهم أجزاء الامبراطورية كلها في المجهود الحربي بالمال أو بتقديم القوات المسلحة للقتال . وقد قُدر أن العراق يمكنه تقديم ستة آلاف كيس في السنة لهذا الغرض ، لأن الجهات المختصة في الباب العالي كانت تقدر دخله الصافي بمقدار ٢٤ ألف كيس في السنة ، غير أن داود لم يلب الطلب حينما طولب بهذه المبالغ ، وتأخر عن تقديم الأموال الى خزينة السلطان .

وقد كان من الطبيعي أزاء هذا التمنع أن يفكر السلطان محمود الثاني جدياً في أمره . ويضع حداً لهذا العصيان السافر الذي بدأ به في الحقيقة باشوات المماليك السابقين فتطوّر عبر السنين حتى توسع واستفحل أمره في أيام داود . وبعد تداول ونقاش مع رجال الدولة المسؤولين قرر السلطان تنحية داود عن الحكم ، وإرجاع العراق إلى حظيرة الامبراطورية التي كانت آخذة بالدخول في دور الاصلاح . فكانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل انه انتدب رجلاً ماهراً من رجاله المعروفين يدعى صادق أفندي الدفتري ، وكلفه بأن يشد الرحال إلى بغداد ويطلب من واليها المملوك أن يتخلى عن الحكم . ورغبةً في التحفظ وأتقان العمل أحيطت مهمة صادق افندي الحقيقية هذه بالكتمان ، وأشيع بأنه أوفد لجمع التبرعات من بغداد وغيرها للمجهود الحربي .

ومع أن مواكب القپوچيين الواردة كل سنة من استانبول إلى بغداد ، وهي تحمل الفرمان والخلعة ، كانت شيئاً مألوفاً فيها فان الغريزة قد أنذرت داود بأن موكب صادق أفندي في هذه المرة كان أكثر خطورة من المواكب الاعتيادية المألوفة . فأعد عدته وأحضر مبالغ جسيمة من المال ، وكان قد جمعه بجشعه المعروف على مدى السنين ، ليبتاع به سلامته عند اقتضاء الحال . ثم قرر أن يبالغ في الترحيب بالرسول الهمايوني ، فأرسل الى طوز خرما تو عربةً خاصة فخمة ذات أربعة أفراس ، وموظفاً كبيراً يحمل له هدايا الترحيب .

غير أن صادق أفندي ما أن وصل إلى الموصل حتى تلقاه واليها يحيى باشا الجليلي [1] فملأ أسماعه بأخبار القتل وسفك الدماء التي كانت تنسب إلى داود

(١) في رواية أخرى أن يحيى باشا الجليلي كان في ديار بكر حينما قابله .

باشا ، وبكل ما يشينه ويوغر صدر المبعوث عليه . فكان من الطبيعي لصادق أفندي أن يقابل المستقبلين ، وعلى رأسهم محمد افندي المصرف ، بجفاء وخشونة في طوز خرماتو . ولم يكتف بذلك فقط بل ذهب إلى النهاية في الكشف عن أوراقه ، وأبداء معنوياته ، حينما وصل الى بغداد نفسها . فقد خالف العرف الذي كان يتقيد به الواصلون إلى بغداد من استانبول عادة ، ولم يتوقف في الأعظمية للمبيت فيها وزيارة الأمام الأعظم قبل الدخول الى بغداد بصورة رسمية [1] . ثم تجاهل الاستقبال الفخم الذي أعدله في عاصمة الولاية . وتحاشى زيارة الوالي الذي كان ينتظره في السراي بكل فخفخة وأبّهة . فقرر بذلك مصيره ، وسعى فيه إلى حتفه بظلفه . والظاهر انه ، حينما عقد العزم على اتباع هذه الخطة ، كان يشعر بالخطر الذي يكتنف موقفه في مهمته هذه . ولذلك رفض أن تكون إقامته في السراي لئلا يصبح تحت رحمة داود باشا وتصرفه .

على أن داود باشا لم يقف مكتوف اليدين تجاه هذه الاهانات الصريحة ، ولم يستخذ تجاه هذا المبعوث الهمايوني المتعجرف . فعزم على العمل العاجل ، وارتأى بعد التداول مع أعوانه المخلصين أن يتغدى بالقپوچي قبل أن يتعشى به هو . ولكن بعد كشف أمره بشكل أدق . وليسهل ذلك على المتآمرين جُعلت إقامة صادق أفندي في دارٍ من دور محمد أفندي المصرف تقع في محلة الصابونجية المعروفة بنفس الأسم في يومنا هذا . وحينما زار صادق أفندي ديوان الوالي زيارته الأولى في صباح اليوم التالي — وكان من أيام السبت — استقبل استقبالاً فخماً يليق به ، لكن داود باشا نفسه أظهر فتوراً ملحوظاً في مقابلته وتعمد التثاقل في القيام له . ومع هذا فقد تبودلت التحيات الرسمية وقُدمت القهوة والحلويات والچبق [2] ، من دون أن تصدر في الحديث المتبادل ولا كلمة واحدة عن الغاية من قدوم صادق أفندي ووفادته . وكانت المقابلة التالية على النمط نفسه تقريباً ، ثم ذهب داود إلى أبعد من هذا فلم يرد الزيارة للمبعوث الذي ظل ينتظر ذلك منه دون جدوى . لكن مقابلةً حاسمة حصلت بعد ذلك بين الطرفين ، فكانت شيئاً عاصفاً في

---

(١) ظلت هذه العادة تتبع منذ أيام حسن باشا والد أحمد باشا .

(٢) الچبق هو الشطب المعد للتدخين . راجع قائمة الكلمات الأعجمية في آخر الكتاب .

الحقيقة . فقد أبان صادق أفندي في اللقاء الثالث جلية الأمر وفاتحه بالمهمة التي جاء من أجلها ، وهي عزله وتعيين شخص آخر في مكانه . فاستمهله داود إلى حين ورود الجواب من استانبول على أشياء كان قد كتب بها إلى المسؤولين فيها ، ورجاه أن يكتم الأمر مؤقتاً لكن المبعوث لم يلتفت اليه . وعند ذاك حلت في محل احتجاج الوالي واعتراضه المهذب المخاشنة المنطوية على التهديد والوعيد . وأصبح لا بد من وقوع حادث جلل قبل أن تنتهي مهمة القپوجي في بغداد .

وقد خرج القپوجي من هذه المقابلة مذعوراً حذراً ، وعاد الى مخدعه وهو ينوي معالجة داود قبل أن يفتك به . وبعث من هناك في طلب سليمان أغـــا الميرآخور ففاتحه بمهمته ، وأمره بالنيابة عن البادشاه في استانبول بوجوب قتل داود المتمرد على السلطان والتخلص من عبثه واستهتاره بشؤون الدولة والناس . ثم وعده بأن يكافئه على عمله بتقليده الوزارة نفسها . لكن الميرآخور ، على كونه من أصحاب المواهب والقابليات ، لم تتحمل أعصابه ذلك التكليف الخطير الذي كلف به على هـــذا المنوال فاستمهله حتى يرجع اليه بعد حين . ولم يكن صادق أفندي يعتقد أن سليمان أغا سيرفض مثل هذا العرض الذي يرتفع به الى منصب الوزارة بين عشية وضحاها ، وتصور أن شرعة المماليك ما زالت شرعة الغاب التي توفق فيها حالت افندي فقضى على سليمان باشا الصغير قبله . فقد كان الميرآخور سليمان أغا من عتقاء داود المخلصين له ، ولم يكن من السهل عليه على ما يبدو أن يخونه ويتآمر عليه .

ولهذا فما أن خرج سليمان أغا من بين يدي صادق افندي حتى خف مسرعاً الى سيده الباشا في السراي وأعلمه بما جرى . وعند ذاك عجّل داود في طلب معتمده محمد افندي المصرف ومستشاره اسحق الصراف للتداول معهما بحضور سليمان الميرآخور . ورسم خطة محكمة للخروج من المأزق الذي وجد نفسه متورطاً فيه . وبينما كان هذا « المجلس » الطارىء منعقداً للتداول بالأمر الخطير دخل وكيل النقيب على الوالي وأخبره بالنيابة عن النقيب نفسه أن صادق أفندي أخذ يفاوض بعض الشخصيات والرجال ويحثهم على التآمر ضد داود . ثم استؤنفت المذاكرة والمداولة ، وبعد ساعة وزنت خلالها المخاوف والمحاذير اتفق الجميع على

ضرورة التخلص من صادق افندي بطريقة تبعّد الشبهة عن داود . فدبرت طريقة لتوريطه في حركةٍ يقتل فيها قتلةً عرضية غير مقصودة وينتهي أمره ؛ لكنها لم تنجح . ولذلك تقرر اغتياله وقتله بدمٍ بارد . فدُبر من أجل هذا امرٌ بليل .

وفي مساء اليوم التاسع عشر من تشرين الأول ١٨٣٠ احتشدت بعد صلاة العشاء سريات الجيش النظامي بكل هدوء حول الدار التي كان يقيم فيها صادق افندي . وملئت غرفها بمن يعتمد عليه من رجال المماليك الأشداء وعلى رأسهم محمدافندي المصرف بنفسه. ثم عهد بمهمة القتل خنقاً إلى رمضان أغا الجوخدار وخالد أغا حاجب الباشا فدخلا غرفته من دون استئذان ، بعد أن كان قد آوى الى فراشه . ومعهما سليمان أغا الميرآخور ومحمد المصرف . فقابل الداخلين عليه بذعرٍ شديد وهلعٍ أخرجه من وقاره ، إذ علم من قدومهم بمثل تلك الحال بأنهم جاءوا للقضاء عليه . فوقع على أقدام سليمان أغا . وأخذ يتضرع اليه ويتوسل به للأبقاء على حياته ، وإمهاله حتى يتفاهم مع داود . لكن الجلاوزة ضايقوه وعاجلته يدا خالد أغا الضخمتان فأخمدتا أنفاسه ، وقطعتا عليه توسلاته فذهب مأسوفاً عليه .

وقد كان داود في أثناء تنفيذ المؤامرة ينتظر القتلة في المنزل المقابل للمنزل الذي وقع فيه الحادث . وهو على أحر من الجمر . وحينما أنهي اليه بأن كل شيء قد انتهى وقُضي الأمر ، جاء إلى جثة صادق الهامدة ليتأكد من موته بنفسه ، ثم أمر بأن يدفن في محل يقع تجاه الدار التي قتل فيها تحت «تپة» الصابونجية . ولعل هذه التپة أو هذه الرابية هي التي تعرف اليوم بأسم « تپة الكرد» في تلك الجهات .

ولأجل أن يموّه المتآمرون هذه الجريمة الشنعاء على الناس حاولوا كتمانها بكل الوسائل ، وظلوا يرسلون الى البيت الذي قتل فيه مبعوث السلطان طبيباً يتظاهر بمعالجة المريض الموهوم وشدّات من الورد والأزهار احتفاءً بمقامه ومداراةً له . ثم أطافوا بشخصٍ أريد به أن يمثل القتيل المسكين مرة أو مرتين في الشوارع بعد أن ألبسوه ملابسه الخاصة . لكن إشاعة قتله تمادى الناس في تصديقها حتى وصلت إلى كل مكان . وعرف بها القنصل البريطاني على الأخص . وقيل كذلك أن خبرها وصل إلى حلب في صبيحة اليوم الثاني .

وبهذا نفذ داود ما يريد ، وتحمل تبعات ما فعل ، واعتبر عمله اعلاناً للثورة والعصيان على الپادشاه .

٣٣

شهامة عربية[١]

غضبت الدولة العثمانية على داود باشا آخر الولاة المماليك في بغداد لأنه سخر منها، ولم يحترم سلطانها . فامتنع عن تقديم الأموال لها واغتال موفدها الخاص ، فلم يعد مرتبطاً بالباب العالي الا بأوهى الارتباطات . وقد قرر أولياء الأمر فيها تنحيته عن الحكم ، وتصفية عهد المماليك كله في العراق لأن بقاءهم فيه لم يعد يأتلف مع روح العصر وموجة الاصلاح التي أخذت تكتسح مختلف انحاء الامبراطورية . بدافع من عزيمة السلطان محمود الثاني ورغبته في التجديد .

وقد صدرت الأوامر الهمايونية بتجريد حملة عسكرية لتنفيذ ذلك . وسوق القطعات النظامية وغير النظامية الى بغداد لهذا الغرض . ووقع اختيار المسؤولين على الحاج علي رضا باشا اللاظ . والي حلب . ليرأس هذه الحملة التأديبية ويتولى الحكم في بغداد بعد ان يعيدها الى حظيرة الامبراطورية . ولم يقع الاختيار على الباشا الحاج الا بعد ان رفض غيره الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة ما لم يزود بقوات كبيرة وأموال وفيرة . بينما اشترط هو ان يزود بستة آلاف كيس من المال ولواء من الجند لا غير .

ومع ان الاستيلاء على بغداد لم يكن أمراً هيناً بالنسبة لما كان عليه داود باشا من القوة والمنعة ، ولما كان عنده من المال والرجال . فقد شاءت المقادير ان يكتب لعلي باشا بالفوز في مهمته والنجاح في إزالة حكم المماليك في بغداد

---

(١) المراجع : مرآة الزوراء ، [illegible] ، تاريخ العراق بين احتلالين ، تقرير من تقارير الاستخبارات الانكليزية يومذاك بعنوان : Intelligence from Baghdad Contained in Report from Wood .

من الوجود الى الأبد . لأن بغداد . في الوقت الذي كانت تستعد فيه للوقوف في وجه القوات الزاحفة عليها . داهمها الطاعون الوبيل ففتك فتكاً ذريعاً فيها ولم تتخلص من شره الا بعد ان امتص معين الحياة منها . وبينما كانت في أوج محنتها هذه طغت عليها مياه دجلة فأغرقت قسماً كبيراً منها . وهدّمت القسم الأعظم من بيوتها فصيرتها أكواماً مبعثرة من الانقاض . وعند ذاك هاجمها علي رضا باشا فاستولى عليها . وبعث بداود باشا أسيراً الى استانبول .

وما استتب له الأمر في بغداد وما يرتبط بها من انحاء حتى عمد الى تنفيذ الشق الثاني من مهمته . وهو القضاء على المماليك واستئصال شأفتهم من هذه الديار . وبمكيدة من المكائد التي كانت تشيع في تلك الأيام دبّر لهم مجزرة تقشعر لهولها الأبدان . فقضى فيها على معظم ما فيهم من رجال . ولم يستثن منهم حتى الذين تعاونوا منهم معه وجاءوا غازين في حملته .

وقد كان من جملة ما تلقاه علي رضا باشا من أوامر وتعليمات ان يقوم بوضع اليد على ممتلكات المماليك وثرواتهم . بقصد استصفائها وتحويل ما يتجمع منها الى استانبول فيدخل واردات لخزينة السلطان . ولذلك انتدب لمساعدته في هذا الشأن خبير بالشؤون الحسابية والمالية من الأستانة يدعى عارف افندي الدفتري . فوصل الى بغداد على عجل واستقبل فيها بحفاوة وتقدير . وكان من المؤمل ان تتجمع من ثروة داود التي كان يسيل لها لعاب الجميع . وثروة سائر المماليك التي جمعوها وكدسوها خلال مدة حكمهم في العراق الممتدة الى ثمانين عاماً . مبالغ طائلة ينتفخ بها الجيب الهمايوني ويستعين ببعضها علي رضا باشا على حل مشاكله بغير انه ما كل ما يتمنى المرء يدركه (١) . فقد وجد بالتدقيق ان الدفاتر المختصة قد احترقت خلال الفتنة . وثروة داود باشا قد نهبت وسلبت معظمها في أثناء الفوضوية التي حصلت قبيل دخول علي باشا الى بغداد . فبيع ما أمكن جمعه في المزاد . وحولت المبالغ التي أمكن الحصول عليها الى الاستانة

الا غير ان علي باشا ظل يواجه صعوبات كثيرة ومشاكل جمة في تمشية شؤون الادارة والصرف عليها . حتى انه كان يجد نفسه عاجزاً عن إعاشة الجيش

وتسديد رواتب الموظفين . فلم يجد بداً من الالتجاء الى تغريم الناس ومصادرة الأملاك والأموال . ولذلك بقي مدة من الزمن يطارد أقارب المماليك وعوائلهم على الأخص . ويضيّق الخناق عليهم بالضرب والتعذيب ليسلموا اليه ثرواتهم المخبأة وذهبهم المدفون . ولم يتورع الجلاوزه الذين انتدبهم لهذا العمل ، من أمثال الملا علي الخصي كاتب مقاطعة الخالص وحمدي بك المهردار صهر الوالي ومعتمده ومحمد الليلاني ، عن تعذيب النساء المخدرات وإهانة الأسر المصونة لهذا الغرض .

وكان من بين من قتل من المماليك المعروفين في بغداد رجل محترم يقال له رضوان أغا . فشملت هذه النقمة أسرته المنكوبة بفقده ، فجُمعت نساؤه وبناته في مكان واحد وربطت أرجلهن فراح الظالمون يجلدونهن ويذيقونهن أنواع الأذى من ضرب بالعصي وكي بالسياخ المحمية بالنار بصورة تشمئز منها الابدان . ثم عذبت زوجته تعذيباً ما بعده من مزيد ، فضُربت ضرباً مبرحاً وكُوي جسمها بالسياخ الملتهبة لتخرج ما عندها من مال ، فأخرجت على ما يقال « مشارب » ملأى بالذهب بعد هذا التعذيب . لكنها تمكنت قبل ان تصيبها هذه الكارثة أن تَسلّم على ابنها الصغير عبد الوهاب . وكان لا يتجاوز في عمره الست سنوات . باخفائه في دار مفتي بغداد ، ورجلها الفذ يومذاك . عبد الغني جميل بعد ان استجارت به وطلبت حمايته[1] .

غير ان هذه السلسلة من المظالم والمجازر كان لا بد لها من ان تنتهي وتقف عند حد من الحدود ، لا سيما بعد ان نفد صبر الناس وضاق جمهور البغداديين ذرعاً بها . فثار على الوالي وزبانيته المفتي عبد الغني جميل ، وثارت معه على هذا الظلم محلات بغداد . وفي مقدمتها محلة باب الشيخ المعروفة ، ومحلة قنبر علي وهي محلة المفتي نفسه ومقر اسرته وعائلته ، وكان ذلك في يوم ٢٩ مايس

---

(١) كانت زوجة رضوان أغا امرأة من أسرة نقيب مندلي المعروفة اليوم أيضاً ، وتدعى نائلة خاتون . اما ابنها عبد الوهاب فقد قدر له بعد زوال هذه النكبة والعفو عن المماليك ان يعيش في بغداد فيصبح بعد مر السنين رجلا معروفاً في المجتمع يعرف باسم الحاج عبد الوهاب . ثم أعقب اولاداً وخلف ذرية ما زال بعضهم موجوداً حتى اليوم .

١٨٣٢ (٢٧ ذي الحجة ١٢٤٧) . وقد أشهر أبناء هذه المحلات السلاح في وجه الحكومة فزحفوا على السراي وقتلوا عدداً من رجال القوات المسلحة الذين وقفوا يدافعون عن دوائرها . ثم هاجموا بيت الوالي نفسه وحاولوا إخراجه منه لكنهم لم يتوفقوا في ذلك . اما الوالي فقد قابل هذا الهياج بالحكمة وبرودة الدم ، وأوعز الى ثلة من الجيش بالنزول الى الشوارع للقضاء على الفتنة وتشتيت شمل الثوار . فصدع الجيش بالأمر وتوزعت حظائره على الحواري والمحلات ، ثم قصفت محلة قنبر علي بالمدافع واشتعلت فيها النيران لانها بقيت تقاوم حتى الأخير . وكان من جملة ما التهمته النيران بيت المفتي البطل عبد الغني جميل ، فاحترقت من بين ما احترق فيه مكتبته العامرة وكتبه الثمينة . وحينئذ لم يجد المفتي مناصاً من التسليم ، فسلم للحكومة وأخمدت الثورة .

وكان المفتي المقدام ، على ما يبدو ، قد اتصل قبل القيام بحركته هذه بالعشائر العربية المحيطة ببغداد كذلك ، فلبت نداءه وتحركت لضرب نطاق من الحصار حول بغداد ومساعدة الحركة الثورية التي نشبت في داخلها . لكن الوكيل البريطاني روبرت تايلور علم بالأمر ، فهاله ما يمكن ان يحدث فيها من جراء هذه الحركة ، فاتصل برؤساء هذه العشائر وأقنعهم بالكف عن التدخل والتحلي بضبط النفس . وقد أشار عليهم كذلك ، وعلى من يتصل بهم ، بأن يقدموا شكوى خاصة ضد الوالي الى الجهات المختصة في الباب العالي ووعدهم بأن يوصلها الى هناك عن طريق السفير البريطاني في استانبول . كما وعدهم بأن يبذل مساعيه في عزل علي رضا باشا وتعيين بكر بك الكركوكلي ، متسلم البصرة ، في مكانه وهو الشخص الذي كانوا يتنادون بترشيحه للباشوية .

وقد اضطر عبد الغني المفتي الى ان يسلم الى الحكومة بعد ان وعد بالأمان . وفي رواية أنه استطاع ان يتوارى عن أنظار الحكومة ويهرب بعد أيام الى جهات عانه ، ثم يتوجه منها الى دمشق الشام . وقد يكون سلّم الى الحكومة ودخل في أمانها ، لكنه فضل الهجرة وآثر النزوح الى الخارج فقصد الشام وظل فيها ردحاً من الزمن . وهناك نظم قصائد ومقطوعات ملأى بالحنين الى بغداد وبالتذمر من عدم وفاء سكانها ، ومن حكم الاجنبي الغريب فيها . وكان عبد

الغني قد نشأ نشأةً دينية في أسرة عربية عريقة جاءت الى بغداد في بداية عهد المماليك فأقامت فيها حتى يومنا هذا . ثم اصبحت له ، بعد ان درس وتفقه في الدين ، منزلة دينية واجتماعية مرموقة حتى صار من الشخصيات التي يشار اليها بالبنان في أيام داود باشا . وحينما تولى علي رضا اللاظ الوزارة في بغداد عرف منزلته فاستدعاه من الشام ، وكان فيها يومذاك . وأسند اليه منصب الافتاء . ومع ان الوالي قد قدّره وأحسن اليه بعمله هذا فانه لم يستطع السكوت على الظلم الذي كان يصدر منه . ومن رجاله . تجاه الناس والأهلين . فثار عليه وامتشق الحسام في وجهه .

والحق انه قد أبدى في ثورته هذه شهامةً قلما يبدي مثلها الرجال . فخلدت وقفته المقدامة قصائد الشعراء وصفحات التاريخ . فقد هب لاغاثة امرأة ملهوفة استجارت به ، وجازف في حركته هذه بحياته وأهله ، وبثروته ومركزه ومنصبه ، ليثأر للحق والفضيلة ويدافع عن القيم العربية والأخلاق المجيدية وقد أهينت من أجل عرض زائل ، فضرب بذلك مثلاً للرجال .

٣٤

عبد القادر الكمركجي[١]

غضبت الدولة العثمانية على والي بغداد داود باشا لأنه شق عصا الطاعة على السلطان محمود الثاني، ولم يعد ينفذ له أمراً أو ينصاع للتعليمات التي كانت تصدر اليه. واتخذت ذلك ذريعة لتنحيته عن الحكم وابعاد ابناء جلدته المماليك بأجمعهم عن ولاية بغداد والتحكم بها. فقررت في سنة ثلاثين وثمان مئة وألف أن تسوق جيشاً لجباً يضطلع بهذه المهمة الخطيرة. وعهدت بقيادته الى والي حلب علي رضا باشا اللاظ فزحف على بغداد وكتب له النصر والتوفيق في مهمته (سنة ١٨٣١).. بعد ان حالفته الأقدار فسلطت على داود وعاصمته وجيشه نكبات الطاعون وأهوال الغرق.

وقد كانت التعليمات التي تلقاها علي رضا باشا من أولي الأمر في الباب العالي أن يقضي على المماليك بكل شدة ويستصفي أموالهم وثرواتهم فيبعث بما يتجمع عن ذلك الى الخزانة الامبراطورية في استانبول لأنها كانت تنوء بعجز كبير تجاه نفقاتها الباهظة. وكان المسؤولون في عاصمة الامبراطورية يعلقون آمالاً جساماً على هذه الثروة التي بولغ في جسامتها مبالغة تخرج عن حدود المعقول. لكن علي رضا باشا حينما تسنى له ان يضطلع بمهمته على أحسن وجه، ويقضي على من بقي حياً من المماليك بعد الاستيلاء على بغداد، لم يتوفق في جمع ما كان يأمل الحصول عليه من تلك الثروة. لأن الفوضى التي نشأت على أثر تفشي الطاعون في المدينة، والاختلال الذي رافق دخوله

---

(١) المراجع: غرائب الاغتراب، مخطوطة تاريخية عن هذا العصر لمؤلف مجهول، نقل عنها صاحب تاريخ العراق بين احتلالين.

اليها بعد الغرق قد أديا الى إرباك الوضع وضياع المسؤولية فضلاً عن إتلاف السجلات . فأصيب بالكثير من الاخفاق وخيبة الأمل . ولما كان قد تعهد لأولي الأمر في الباب العالي بان يبعث بالمبالغ الجسيمة والأموال الطائلة . فقد وجد نفسه مضطراً الى ارتكاب الكثير من القسوة وأنواع التعذيب . والى ابتداع الوسائل المختلفة لابتزاز الثروة المطلوبة . وانتدب لهذه المهمة الكريهة اناساً عرفوا بالقسوة وموت الضمير . وألفوا تعذيب الناس والفتك بهم .

وقد اشتهر في تلك الفترة الرهيبة عددٌ من مثل هؤلاء الجلاوزة الذين وزعهم علي رضا على دوائر الحكومة المختلفة ومرافقها التي يمكن أن تدر الأرباح وتأتي بالاسلاب والغنائم . وكان من بين هؤلاء رجلٌ يدعى عبد القادر ابن زيادة . أو عبد القادر الكمركجي لأن الباشا عينه مديراً للكمرك وأطلق يده في ظلم الناس وابتزاز الأموال من عندهم . وكان عبد القادر هذا قد جاء مع علي رضا باشا في الحملة من حلب وصحبه خلال الزحف الطويل على بغداد . فأصبح معتمده وموضع أسراره . ولذلك عهد اليه بتيسير مهمته المعهودة . فكان عند حسن ظنه فيها لأنه كان مجبولاً على الظلم والقسوة . متقناً لأساليب النهب والاختلاس . وقد بدأ عمله في دائرته المهمة . وهي دائرة الكمرك . فأخذ يستغلها تمام الاستغلال . وأصبح يتعاطى التجارة وهو مسؤول عن أسرارها وتعليماتها في البلد . وصار يراسل التجار في الشام وحلب وغيرهما من البلاد ويعين الوكلاء والعمال فيها لقضاء مصالحه في تصدير الأموال واستيرادها عن طريقهم . فيحتكر بذلك معظم الأعمال التجارية التي كان يتعمد عدم افساح المجال لغيره فيها . وراح يشارك الكثيرين من التجار في الداخل والخارج فيستأثر بالأرباح أكثرها لنفسه من دون ان يخشى رقيباً في ذلك أو يحاذر أحداً في سوء تصرفه . وقد بقي على ديدنه هذا ردحاً طويلاً من الزمن حتى تعسرت أحوال التجار وتوقفت أعمالهم . وارتفعت أسعار البضائع المستوردة في الأسواق لأنه كان يتلاعب بتجارتها بفرض القيود عليها كما يشاء ويهوى .

ولم يقتصر تلاعب عبد القادر الكمركجي وسوء تصرفه على شؤون الكمرك

وحدها . بل كان يتعداها الى ميادين ومجالات أخرى . فقد شاع أمره بين طبقات الناس معظمها فأصبح موئلاً للتحايل والاستغلال وواسطة لكل رشوة وارتكاب . وصار الناس يأكل بعضهم أموال بعض فيأتون اليه لمساعدتهم في إحقاق الباطل وإبطال الحق لقاء أجور معينة ونسب معلومة . وأخذ الناس يقصدونه في قضاء حوائجهم عند الوالي وتمشية معاملاتهم في دوائر الحكومة . فيدفعون له الأجور المطلوبة لقاء أتعابه وتعقيباته . فقصده الأمراء . ورؤساء القبائل . والبيكات . والمزارعون . والملاكون . والتجار . وغيرهم ليتوسط لهم عند الباشا الوالي ويعمل على استحصال ما يريدون ولو كان في هذا غبن للناس وظلم للمتضررين . وبذلك كان يعين من يريد للمناصب الكبيرة والصغيرة فيصبح المتعينون طوع بنانه . ويمنح الالتزامات لمن يبذل المزيد من الرشوة والمال الحرام فيغدو عميلاً من عملائه .

ولا يخفى ان رجلاً في مثل هذه الحطة وانعدام الضمير لا بد من ان يكون على جانب كبير من الخسة وسوء الخلق . وهكذا كان الكمركجي . فقد أرخى العنان لغرائزه الخسيسة . وأفسح المجال لطباعه المنحطة . وراح يعب من ضروب الأنس والملذات عباً ويغرف منها شمالاً ويميناً . ولذلك كان ينهمك في شرب الخمر ويأتي الفاحشة واللواط بمعرفة من الناس جميعهم . ولم يكن يتكلف في ذلك الا القليل من النفقات والتكاليف . فقد كان المعروف في بغداد يومذاك أنه كان يخرج الى البساتين بوليمة كبيرة في كل سبت ومعه عدد غير يسير من جلسائه . فيشربون ويفسقون مجاهرة . اما المصرف الباهظ لذلك فقد كان يتحمله المدعوون بالتناوب حتى ولو كانوا غير راغبين في المشاركة بطبيعة الحال . وكان الكمركجي فوق ذلك كله شرس الطباع مستهتراً بأرواح الناس . حتى أنه أمر أتباعه في يوم من الأيام فجاءوا برجل من أهل بغداد الى مربط خيله فقتله ظلماً وعدواناً بحجة تعرضه بأحد غلمانه . ولم يخشى أحداً في فعلته النكراء هذه لا من الحكومة ولا من أولياء القتيل .

ويبدو أن جميع ما كان عبد القادر يفعله في بغداد ويرتكبه من مثل هذا لم يكن كافياً لا شباع نهمه . وايقاف جشعه المسنون عند حده . ولذلك عمد الى تسخير أقاربه وأخوانه أيضاً فتوسط الى علي رضا باشا بتعيين أخيه صالح

والياً على البصرة . وأخيه الثاني والياً على الحلة . فصار الأخوان يحملان الأموال اليه ويجبيان الواردات لخزائنه . فيضيفان الى ثروته القليل والكثير على سواء . ومع جميع ما تكدس لديه من ثروة ومال فانه كان بخيلاً غاية البخل . ولم يعرف عنه أنه تصدق على أحد أو أحسن الى بعض الناس في يوم من الأيام . أو أجاز شاعراً من الشعراء كما كان يفعل الموسرون في تلك السنين .

غير ان دوام الحال من المحال . فقد غضب الوالي علي رضا باشا على الكمركجي هـذا . ولعله تحقق أنه لم يكن مخلصاً له وانـه كان يغشه ولا يقدم له مبالغ تتناسب مع ما كان يبتزه ويجبيه . فبعث اليـه ذات يوم باثنين من رجاله الأشداء وسحبـاه من بيته فجاءا يجرجران به ويدفعانه حافياً مهـاناً حتى أوصلاه الى السراي . وهناك أنّبه وأهانه ثم زجه في غياهب السجن . بعد أن قرر تغريمه بثلاثة عشر ألف كيس لا غير . فلم يشأ دفعها.

وبينما كان الكمركجي في أول عهده بالسجن صدر الفرمان الهمايوني في الأستانة بنقل علي رضا باشا الى الشام فانشغل عنه . لكنه تذكره قبيل سفره الى مقر وظيفته الجديد فأخرجه من السجن . وتم التفـاهم بينهما على ما يبـدو ؛ فاستصحبه معه من جديد الى الشام وجعله كهية له فيها هذه المرة . وبعد سنين ثلاث توفي علي رضا باشا في الشام فاستُدعي عبد القادر الكمركجي الى استانبول . وعُين من هناك حاكماً في أزمير . والغريب في الأمر ان الدولة على ما يُروى كانت على علم بارتكابه وسوء تصرفه الشنيع . ولذلك عينته في منصبه هذا وقررت ن تكلفه بدفع ضعف ما كان يُجبى في العادة من هذه الوحدة الادارية . لأجل ان يتسنى لها استيفاء ما كان قد ارتكبه خلال الاحدى عشرة سنة التي قضاها في بغداد من قبل . لانها لم تستطع تجريمه رسمياً عن جميع ما فعله بالنظر لما شمل المجرمين من إعفاء عند أول تسنم السلطان عبد المجيد خان عرش السلطنة في دار السعادة . والأغرب من ذلك ما رواه الأستاذ ابو الثناء الألوسي من انه وجده . في سفرته الى استانبول . وهو يتمتع هناك بمنزلة محترمة بين الناس الذين « كانوا يحلونه أعلى محل ويجلونه غاية الاجلال[1] » . وهو يقول عنه انه كاد ان يعين والياً في بغداد . ولكن الله تعالى لم يشأ ذلك .

---

(١) الص ٢٠١ غرائب الاغتراب .

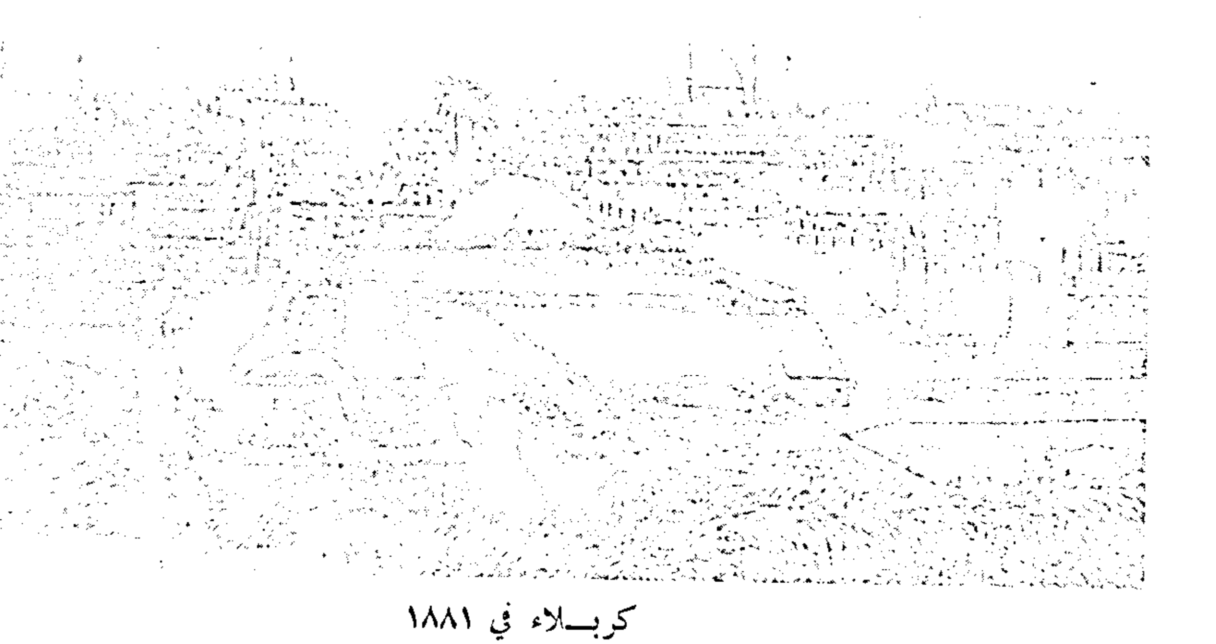
٣٥
وقعة نجيب باشا في كربلا[1]

في سنة اثنتين واربعين وثمان مئة وألف صدر الفرمان من السلطان العثماني في الاستانة بنقل علي رضا باشا والي بغداد ، وتعيين محمد نجيب باشا في مكانه ؛ فتنفس أهالي بغداد الصعداء واستبشروا بقدوم واليهم الجديد لما عُرف عنه من قوة في الشخصية وحزم في تدبير الأمور . ولأن الوالي السابق طال أمده في الحكم فكثرت سوءاته وازدادت أغلاطه . غير أن السنة لم تنقض على الوالي الجديد في ولايته الخطيرة حتى علم العراقيون في جميع انحاء الولاية ان الحزم الذي عُرف به لم يكن سوى قسوة متناهية في تدبير شؤون البلاد وظلم صارخ في معاملة الناس والجور عليهم . فقد حدثت في أيامه حوادث عدة لم يبرهن في كيفية حلها ، وأصول معالجتها ، على شذوذه عن غيره من ولاة الأتراك في تلك الأيام ، حين كانت القوة عندهم خير وسيلة في حل مشاكل الناس ومعالجة شؤونهم .

وكان أشهر ما وقع من هذا القبيل في أيام نجيب باشا حادثة هجومه على كربلا ، واستباحته لحرمتها وقدسيتها ، وإعمال السلب والنهب فيها . فقد كانت كربلا وما زالت ، مثل غيرها من المدن والبقاع المقدسة ، ذات مركز مرموق خاص في العالم الاسلامي وحرمة يقدرها الجميع على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم . وكانت بمقتضى مركزها هذا كثيراً ما تكون ملاذاً للشقاة والهاربين وملجأ للعصاة والخارجين على قوانين الحكومة وتعقيباتها الجائرة وغير الجائرة

---

(١) المراجع : بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ، تاريخ العراق بين احتلالين ، تراث كربلا ، مجلة العرفان مجلد ٥٣ ، ج ١٠ سنة ١٩٦٩ مقال مفصل للسيد صالح الشهرستاني .



كربــلاء في ١٨٨١

نقلا عن رحلة مدام ديولافوا

لأنها تعصمهم عن الأذى وتنجيهم مما قد يصيبهم من طائلة العقاب. وقد ظلت في وضعها هذا ردحاً طويلاً من الزمن ، حتى استفحل أمرها واستعصت على الولاة العثمانيين معظمهم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد أدى ضعف الحكومة تجاهها ، وسوء تصرفها في معالجة شؤون البلاد وأحوالها . الى ان تتكون فيها عصابات «اليرماز [1]» القوية التي كانت تتألف أكثريتها من الشقاة والخارجين على النظام أو الهاربين من التعقيبات الحكومية في جهات البلاد الأخرى .

وقد بلغ بعصابات اليرماز هذه انها صارت تعتدي حتى على أهالي كربلا أنفسهم ، صغيرهم وكبيرهم ، فقيههم وتاجرهم . وأخذت تبتز الأموال وتصادر الأملاك لمصلحة رؤسائها . وتعتدي على الأعراض فتنتهك الحرمات من دون ان يمنعها مانع أو يزعها وازع . فقد تجرأوا في يوم من الأيام على المجتهد المعروف يومذاك السيد ابراهيم القزويني وهاجموا داره في الليل فاختطفوه ولم يطلقوا سراحه الا بعد أن أدى لهم مبلغاً كبيراً من المال يناهز الأربعة آلاف قران ايراني من سكة محمد شاه القاجاري .

وتجاوز شرها هذا الحد حتى وصل الى اضطهاد الزوار الايرانيين وابتزاز الأموال منهم او الاعتداء على حرماتهم ، فأدى هذا الى توريط الولاية وباشويتها مع الدولة الايرانية . فقد حدث في أيام داود باشا ان اعتدت عصابة من عصابات اليرماز هذه على بنت من بنات شاهزادات الأسرة القاجارية المالكة . فاختطفتها من موكبها الخاص المتوجه الى الزيارة وحاولت التعرض بها . وتطور أمرها فوصل الى حد التوتر ما بين الدولتين ، فاضطرت حكومة داود باشا الى تجريد قوة خاصة للاقتصاص من العصاة المعتدين وإرجاع الأمور الى نصابها بعد ان تحدوا إنذارها لهم ومطالبتهم بتسليم الفاعلين المجرمين . وكان داود باشا قد اتخذ هذا الحادث وسيلة لسوق الجيوش على كربلا وتأديب عصابات اليرماز فيها . لأنها كانت ممتنعة عن تسليم الضرائب المعتادة كذلك بعد ان قويت شوكتها وبلغ مجموع أتباعها عشرة آلاف مقاتل .

---

(١) اليرماز كلمة تركية تعني السفيه الذي لا يصلح لشيء .

على ان هذا التأديب لم يكن له الا آثار وقتية وتأثيرات محدودة . فقد ظل أمر اليرماز مستفحلاً في أيام علي رضا باشا اللاظ الذي جاء من بعده كذلك . من دون ان يتعظوا بصروف الدهر ونكبات الأيام التي تعرضت لها الولاية بأسرها قبيل دخول علي رضا باشا اليها. ولذلك اضطر هو أيضاً الى سوق الجيوش اليها من جديد ومحاصرتها بشدة وعنف . ولم يرجع عنها حتى خرج اليه سادات البلد وعلماؤها الأعلام وتعهدوا له بالطاعة . وتأدية الضرائب المطلوبة بعد ان ضاعفها عليهم فوصلت الى سبعين ألف قران في السنة ، وكان هذا كل ما يريده . ويبتغيه على ما يظهر .

وقد استقام نفوذ اليرماز في كربلا الى ما بعد الاثنتي عشرة سنة التي قضاها علي رضا في الحكم . وحينما تبوء محمد نجيب باشا منصب الوزارة من بعد وجد رؤساء هذه الفئات العاصية يصولون ويجولون في البلدة وما جاورها ، ويزدرون بشراذم الجند النظامي وغيرها من قوات الحكومة . وبدلاً من ان يستعين بالروية والعقل ، ويعمد الى دراسة الأحوال السيئة ومسبباتها ، فيعمل على معالجتها بالتي هي أحسن ، بادر الى استخدام القوة في الحال ليبرهن على ما جُبل عليه من قسوة وبطش خاليين من الرحمة والتورع . فقد جرد على المدينة المقدسة جيشاً[1] عرمرماً مزوداً بأحسن المدافع والعدد وحاصرها لمدة خمسة وعشرين يوماً ، وضيق عليها الحصار حتى رُزء به اليرماز العصاة والأهالي الأبرياء ، الذين وقعوا بين نارين في الحقيقة . وقد اتصل الأهلون بنجيب باشا في خلال هذه المدة طالبين الاستسلام ومقدمين الطاعة والخضوع لكنه لم يلتفت اليهم ولم يقبل خضوعهم إلا بأصعب الشروط وأكثرها إرهاقاً وشدةً . وعند ذاك اتفقت جميع الفئات على مقاومته . والاستبسال في الذب عن البلدة المقدسة حتى الرمق الأخير . وقد انضم اليهم حتى « البرطاسية » ، وكانوا يؤلفون القوة المحاربة الخاصة التي كان قد دبّر إبقاءها محمد شاه القاجاري في كربلا

---

(١) كانت القوات تتألف من جنود السباه الحكومية ، وقوات العشائر الكردية بقيادة أحمد باشا بابان بن سليمان باشا ، وبعض العشائر العربية الموالية للحكومة والعاملة في خدمتها مثل العبيد وما أشبه .

للمحافظة على الرعايا الايرانيين ومصالحهم فيها .

ولذلك لم يجد القائد التركي سعد الله[1] باشا . أو كرد محمد باشا في رواية أخرى . بدأً من تسليط نيران مدافعه على البلدة وسورها على الأخص من جهة باب النجف حتى أحدثت ثغرة واسعة فيه . وعند ذلك تدفقت من هذه الثلمة جموع المدافعين الى الخارج والتحمت مع الجيش التركي المهاجم بمعركة حامية الوطيس اشتركت فيها . الى جانب الكربلائيين . قوة منجدة من عشائر الفتلة واليسار والمعدان . ولم تنته المعركة الا بعد أيام عدة . حين تغلبت قوات الأتراك النظامية ودخلت البلدة في اليوم الثاني من أيام العيد الأضحى المبارك سنة ١٢٥٨ .

فالتجأ قسم من الناس والمقاتلين الى صحن الامام العباس عليه السلام وحضرته المطهرة . غير ان القوات التركية تتبعتهم الى هناك كذلك ولم تتورع عن قتل المئات من اللائذين بهذا المرقد المقدس بكل وحشية وقسوة . مع أنها أمّنت اللاجئين الى بيوت الشيخية وبيت السيد كاظم الرشتي . رئيس الكشفية . على أنفسهم وأموالهم ولم تتعرض لهم بأي سوء . والمقول في إحدى الروايات ان نجيب باشا نفسه انتهك حرمة المكان المقدس ودخل اليه وهو يمتطي صهوة جواده إمعاناً في التشفي والاذلال . ثم أبيحت المدينة الى الجند والقوات المهاجمة ومن كان يتبعها من العشائر الموالية للحكومة مدة يوم كامل ، فنهبت البيوت والمخازن وارتكبت الموبقات بكل وحشية ودناءة . وبعد ذلك نادى المنادي بالأمان وأوعز الى القوات الحكومية بالعودة الى مقراتها .

وتقدر الروايات المعتدلة ان عدد القتلى بلغ أربعة آلاف نسمة من أهالي المدينة المقدسة . وخمس مئة نفر من الجيش المهاجم . على ان رواية أخرى

---

(١) كان سعد الله باشا هذا يعمل والياً في أنقرة قبل مجيئه الى العراق . وقد أمره نجيب باشا بمعالجة قضية كربلا بعد ان خاب في قمع عصيان أهالي الهندية وعشائرها ، وبعد ان فشل في تسخير عشائر تلك الجهات في سد بثوق سدة الهندية وكسراتها التي كانت تؤلف مشكلة المشاكل في تلك الأيام . وقد أدى قصف المدفعية الى إصابة قبة الأمام الحسين وتهدم أعلاها . (من رسالة مخطوطة بعث بها الشيخ عبد المحسن العباسي السهروردي الى داود باشا حينما كان مقيماً في الخارج بعد عزله) .

تقول ان القتال بين الجيش والأهلين استطال أمده واحداً وعشرين يوماً . وان عدد القتلى من الطرفين بلغ ثمانية عشر الف قتيل[1] .

وعلى إثر ذلك قبض على السيد ابراهيم الزعفراني « رئيس العصاة » وجيء به الى بغداد . وفيها بقي أياماً معدودة ثم تمرض وقضى نحبه . وطورد السيد عبد الوهاب آل طعمة سادن الروضتين حتى عفي عنه بشفاعة نقيب بغداد السيد علي الكيلاني وسلم نفسه . ثم قبض على الكثيرين من أشراف كربلا الآخرين بتهمة التحريض على هذه الحركة الهوجاء . مثل السيد صالح الداماد وعلي كشمش وطعمة العبد وبعض السادة من آل نصر الله والنقيب .

وبهذه الطريقة الفظة . والاسلوب الأهوج . أعيد نفوذ الحكومة الى المدينة المقدسة وعُين لها حاكم ترتضي به . وعاد محمد نجيب باشا الوالي الى عاصمة ملكه مكللاً بأكليل النصر الزائف .

---

(١) تختلف المراجع كثيراً في تقدير عدد الضحايا التي أزهقت أرواحها في هذه المجزرة الفظيعة . فيذكر صاحب (روضات الجنات) بالاضافة الى ما ذكر ان عدد القتلى بلغ عشرة آلاف من الزوار والأهالي والمجاورين . كما يذكر الحجة المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في (العبقات العنبرية) ان القتلى بلغ عددهم ما يزيد على عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، وان الدفن كان يتم بوضع أربعة او خمسة الى العشرة قتلى في القبر الواحد ويهال عليهم التراب بلا غسل ولا كفن . وجاء في « رسالة كربلا » ان سعد الله باشا لم يساعده الحظ في فتح كربلا لأن سورها كان منيعاً جداً وقلاعهـا محكمة لا يمكن للقائد الدنو منها ، وانه حينما أعيته الحيل الحربية التجأ الى الخدعة فأعطى الأمان للمدافعين فأخلوا القلاع وجاءوه طائعين فقبض عليهم وسلط المدافع على الجهة الشرقية فهدم السور وأصلى المدينـة ناراً حامية ففتحها وارتكب فيها كل فظاعة وشناعة ، ودخل بجيشه الى صحن العباس وقتل من لاذ بالقبر الشريف ..

٣٦

ملا علي الخصي[١]

كانت بغداد قد تهيأت لها الظروف في ١٨٣١ لأن تقلب صفحة جديدة من تاريخها الحافل بالمآسي والملمات . وتبدأ بعهدٍ جديد تودع فيه الماضي المملوء بالعظات والعبر وتنظر من خلاله الى المستقبل المفعم بالأماني والأحلام . فقد تسنى لعلي رضا باشا اللاظ أن ينتزعها من أيدي المماليك فيعيدها الى تابعية السلطان ، ويتم فتحها على يده فيتجه بها وجهة أخرى . ولم يكن من الممكن له ان يفعل ذلك لو لم تخف الى نجدته الأقدار ، فيداهمها الطاعون ويقضي على الآلاف المؤلفة من سكانها وهو واقف على أبوابها بجيوشه . وتغضب عليها الطبيعة فيكتسحها دجلة الجبار بلججه المتلاطمة ويصيّر مرابعها خراباً بلقعاً .

وحينما قيّض الله له النصر على هذه الشاكلة ألفى فيها سراياً مهدّماً وخزينة خاوية على عروشها . وفوضى تضرب أطنابها في البلاد . ووجد نفسه غارقاً في بحرٍ خضم من المشاكل والصعوبات . فلا مال يستعين به على تلافي نفقات الحكومة ودوائرها ولا رجال ينهض فيهم بأعباء الحكم وتصريف شؤونه . ووجد نفسه فوق ذلك كله مجبراً على تدبير مبالغ طائلة من المال ليسد بها الأفواه الفاغرة في استانبول ويشبع عن طريقها جشعه المسنون . فاضطر الى التشبث بمختلف الوسائل والطرق لابتزاز الأموال . واعتصارها من البلاد المنكوبة أو حلبها من السكان المرزءين . ولم يجد ضيراً من الاستعانة لهذا الغرض بأتفه الناس وأحطهم شأناً ، فانتقى اناساً ماتت ضمائرهم وتجردوا من كل ما يمت

---

(١) المراجع : رحلة لوفتس المسماة : Travels & Researches in Chaldaea & Susiana (London 1857) ، وتاريخ العراق بين احتلالين .



الملا علي الخصي

نقلا عن لوفتس

الى الرحمة او الانسانية بصلة . وجلاوزةً قست قلوبهم وتبلدت مشاعرهم فأرخى لهم العنان وترك لهم الحبل على الغارب . فراحوا يظلمون الناس ويصادرون أموالهم . ويبتدعون الوسائل المختلفة والضرائب التي لم يألفها أحد لابتزاز ما يمتلكونه من ثروة أو عقار .

وقد عُرف في ذلك العهد عدد من هؤلاء الزبانية . ممن تخلدت اسماؤهم في صفحات التاريخ بأحرف الخزي والعار . من مثل ملا علي الخصي . ومحمد الليلاني . وعلي أغا اليسرجي . وحمدي بك المهردار . والحاج أسعد النائب . وعثمان سيفي بك . فقد صار لكل هؤلاء سجل حافل بأعمال الظلم والتعسف . ووسائل الارهاب والتعذيب . واشتهروا على الأخص حينما عُهد اليهم باستصفاء أموال المماليك والاستيلاء على ما كانوا قد جمعوه من ثروة وممتلكات خلال السنين التي تولوا مقاليد الحكم فيها . وقد أدى تمادي هؤلاء وتطرفهم في ظلم الناس وملاحقتهم الى نشوب ثورة مفتي بغداد عبد الغني جميل وقيامه مع أهالي بغداد ومحلاتها في وجه علي رضا باشا سنة ١٨٣٢ على أثر ما فعله هؤلاء بأسرة رضوان أغا .

على أن أبغض هؤلاء الزبانية . وأبعدهم صيتاً وشهرةً . كان ملا علي الخصي كاتب ناحية الخالص . فقد كان الملا علي كاتباً صغيراً من أصلٍ حقير يمت بصلة واهية الى عشيرة السورمرية الغيلية في لواء ديالى . وكان دميم الخلقة قميء الشكل . قبيح المنظر . تبدو في نظراته وقسماته المنفّرة مخائل القسوة وإمارات المكر . فتسنى له في غفلةٍ من الزمن ان يكون معتمد الوالي علي رضا وموضع ثقته . فقدمه على غيره وعهد اليه بمهمة ابتزاز أموال الناس وجباية الضرائب الغريبة منهم . بعد أن جربه في ملاحقة المماليك واستصفاء ثرواتهم . وبقي على وضعه هذا طوال أيام علي رضا في بغداد . ثم استطاع ان يستولي على الوالي نجيب باشا من بعده ويقدم له نفس الخدمات حتى ضج الناس من ظلمه وجوره في العراق كله فنقل منه وعُين عبدي باشا (عبد الكريم نادر) من بعده . ومع جميع ما عُرف به عبدي باشا من جدية في العمل وميل الى الخير والانصاف . فقد تمكن علي الخصي من ان يستولي عليه بخدماته الخاصة

كذلك فيصبح معتمده وموضع ثقته أيضاً . وقد لفت وضعه الغريب هذا ، وتنفذه في الولاية أنظار السوّاح الأجانب اليه ، إذ وجده المستر ويليام لوفتس المنقب الآثاري ، والرحالة الانكليزي الذي اشترك في « لجنة تخطيط الحدود الدولية » بين العراق وايران سنة ١٨٤٩ [1] . قد حظي بثقة هذا الباشا وراح يتحكم بمقدرات الناس ومصائرهم عن هذا الطريق . فوصفه وصفاً حياً حينما اضطر لمواجهته وهو في ركاب عبدي باشا في الديوانية ، فهو يقول فيه :

... وبعد ان اخبرنا الباشا بوصولنا عبرنا النهر لمواجهته ، فاستقبلنا عند نزولنا الى الشاطىء ضابط كان في انتظارنا . على أنه بدلاً من ان يقودنا الى حضور الباشا أخذنا — وربما ارتشى فتعل ذلك — الى خيمة الملا علي الخصي . وكنت قد تحدثت عنه من قبل بكونه قد حظي بثقة الوالي الغالية . وكان مقصد الملا علي من هذا ان يطمن نفسه بلا شك عن أغراض رحلتنا ، وسبب زيارتنا للباشا .

وكان الملا علي في الأصل مملوكاً من مماليك أحد الباشوات السابقين ، لكن تهريجاته وهزلياته كان لها فعلها بحيث استطاع ان يحصل بواسطتها على حريته ، ثم ارتفع شأنه ومقامه بعد ذلك الى حيث تمكن من الحصول على عطف علي باشا ونجيب باشا عليه والحظوة عندهما . ولم يكن من الممكن لنا ان نقدر عمره حينما شاهدناه وهو منطوٍ في جلوسه على السجادة ، وملتف بفروة كبيرة ، تعلوها من فوق رأسه عمامة ضخمة عميقة الخضرة في لونها ؛ فكان بذلك اشد ما يمكن ان تقع عليه العين من المخلوقات تنفيراً . وكان وجهه أكثر شبهاً بأوجه القرود من أي شيء آخر يمكنني أن أتصوره ، كما كان فمه يمتد في فتحته من الأذن الى الأذن تقريباً ، وتنتصب أذناه من الجهتين كما تنتصب أذنا الحمار من فوق رأسه . اما الأسنان فلم يكن لديه شيء منها ، ولذلك تجد لسانه يتدلى الى الخارج وكأنه أكبر من أن يستوعبه فمه الكريه . فيعطيه منظر البليد الأبله . وكان وجهه الخنيف يتغضن من الجهتين بآلاف الغضون

---

(١) راجع « بغداد في منتصف القرن التاسع عشر » في النص ٣١٩ .

والتجعدات ، كما كانت العظام تبرز ناتئةً من وراء جلده الشبيه بجلد الحذاء بلونه وقوامه . وقد تجمعت تقاسيمه كلها على هذه الشاكلة لتعبر بمجموعها عن المكر المنحط ، والجشع ، والقسوة ، والتلهف للسطو على الأشياء ، مما لا يمكن لأي امرء ان يلاحظها من دون ان يصاب برجفة او قشعريرة . ولم يكن مخبره بأحسن من مظهره هذا .

وقد كان نموذج القبح والقساوة هذا يستقبل زواره من دون ان ينهض لهم ، إذ أشّر لنا فقط بالجلوس فوق السجادة الى جنبه . وسرعان ما انتهى من التحيات والمجاملات وانبرى فجأةً يوجه لنا السؤال الآتي بنفسٍ واحد : من أين أتينا ، والى أين نحن ذاهبون ، وماذا نريد ؟؟ والظاهر ان جوابنا قد سره للغاية ، لأنه انفجر بنوبةٍ جامحة من الضحك والصخب الذي شاركه فيه مصاحبوه ، وقد تجمعوا وراء سيدهم ليتأكدوا من موضوع حديث اليوم في تلك الجهات . فنادراً ما كانت تُرى جماعة من مثلنا يقدم أفرادها على سفرة خطرة مثل سفرتنا . وقد ضحك الجميع بملء أشداقهم تقليداً لما فعله سيدهم ، على مجرد التفكير بأن انكليزيين يمران ببلاد المعدان ، وهي التي لم يجرأ أي تركي حتى الآن على المرور بها ، لأنها تقع في خارج نفوذ الباشا ومجال سلطته . واصفرّ لون الملا علي لانفعاله حتى من امكانية نجاح مثل هذه المحاولة ، وللاحتمال الزائد فيها بأن نكون طعمة لرماح الأعراب . ثم روى لنا قصصاً فظيعة عن قسوة عشائر المعدان وتوحشهم ، لكنها كانت مخالفة لطبيعة الأشياء التي عرفتها بحيث اعتبرتها من حوادث وحشيته هو . وحينما وجدنا غير ميالين الى تصديق جميع ما قاله راح يحاول تسلية مجلسه على حسابنا بالتفاته الى الحاضرين وهو يقول : كم يلذ لي أن أسمع بان الأعراب قد جعلوا منهم حميراً ! ! لكن جوابنا له كان : اذا كان الأعراب سيفعلون هذا فعليه هو ان لا يفعل ذلك ، فسكت وتركناه متلفلفاً بفروته وخرجنا ...

ويلاحظ ان هذا المسخ كان يتفنن في المهمة التي عُهدت اليه ، وهي مهمة جمع الأموال وجبايتها من الناس كما يريد ويشتهي . فصار يغشى البيوت مع جمعٍ من أمثاله فيعتدي على النساء المخدرات ويسومونهن أنواع القسوة

وضروب التعذيب ، كما فعل في بيت رضوان أغا القتيل في جزيرة المماليك . فقد ضرب الزوجة المفجوعة بالفلقة . وراح يكويها بالسياخ المحمية بالنار لاستخراج ما كانت تخبؤه من ثروة ومال .

ثم جعل علي باشا ميري العشائر بيده حتى صار رجلاً مخيفاً يحسب له الحساب في مجالس بغداد وغيرها . وأخذ البعض من الوجهاء يوقرونه ويتزلفون له ترضيةً للباشا الوالي . وميري العشائر هذا هو الذي كان يسمى « الخانة » أو الضريبة على البيوت والأكواخ ، التي كانت تفرض على كل فرد فيها مسانهةً بمقدار خمسة عشر قرشاً للشخص الواحد . لكن الملا الخصي ضاعف هذه الضريبة حين تولى أمرها أضعافاً مضاعفة ، وجعلها تتراوح بين (٣٠٠) قرش و (١٥٠٠) بموجب ما يريد ويهوى .

ولذلك كثيراً ما كان الفلاحون وغيرهم من رجال العشائر يمتنعون عن دفع هذه الضريبة المرهقة فيعمد الملا علي الى مقابلتهم بأشد من ذلك ظلماً وقسوة . فقد كان يخرج اليهم ويغصب ممتلكاتهم بالقوة من دون تورع . ويصادر أغنامهم وسائر حيواناتهم ودوابهم فيبيعها بيعاً إجبارياً في المـدن والقرى بأضعاف أثمانها وقيمتها . وكثيراً ما كان يبيع الأغنام بهذه الكيفية على جزاري بغداد وقصابيها ، ويرمي بالبقر على أهل البساتين فيفرض بيعها عليهم عنوةً . وقد يتجاوز هذا الحد فيجبر أصحاب الدكاكين في أسواق بغداد على شراء البقر والجاموس المصادر باضعاف قيمته من دون ان تكون لهم حاجة به . أو ان يكونوا قادرين على ايجاد المأوى اللازم له في بيوتهم أو غيرها . ولهذا فغالباً ما كان يشاهد هؤلاء وهم حائرون ببيعه أو إطعامه وعاجزون عن التخلص من أعبائه وتبعاته .

وحينما كان يعجز الملا علي عن ايجاد شيء يستحق المصادرة من الناس كان يعمد الى حبسهم في بيته وضربهم ضرباً مبرحاً . ولا يطلق سراحهم حتى يدبرون له المال المطلوب ببيع ما يملكون ، او بالاستدانة الصعبة وهم في سجنهم. ولم يكن يكتفي بذلك فقط ، وانما كان يقصد ساحة « الميدان » المعروفة في بغداد ، ويدور في الطرق والأزقة ، حتى اذا ما وجد فرساً جميلة أو مهراً

أصيلاً صادره من صاحبه عنوةً وأخذه منه . وقد اغتصب بهذه الطريقة عدداً غير يسير من الخيول التي كانت تعود الى بعض شيوخ القبائل وسراة الناس . من دون ان يكونوا قادرين على الاعتراض .

ولم يكن الملاعلي ليتورع في أعماله هذه عن اقتراف أية جريمة أو اعتداء على القانون . اذا كان يوجد يومئذٍ ما يصح ان يسمى قانوناً . ولم يشمل باعفائه جميع من كان يستحق الاعفاء . فقد أدخل السادة الهاشميين . وكانوا معفويين من الضرائب عادةً . في قلم الميري كذلك وصار يتقاضى ضريبة « الخانة » منهم أيضاً . وبلغ به الطغيان انه أخذ يعتدي بالضرب على من يشاء في الأزقة والطرقات . حتى انه ضرب في يومٍ من الأيام امرأةً بعصاه كانت تعترض طريقه وهو يهم بعبور الجسر فأصاب منها مقتلاً وماتت في الحال . من دون ان يعاقب على جريمته . لأن الباشا كان قد اطلق له العنان وترك حبله على غاربه.

على ان أغرب ما يدل على السادية المتغلغلة في أعماق الملا علي ، ومركب النقص المنطوي في جسمه المسخ . هو طريقة التعذيب التي كان يعذب بهـــا ضحاياه البؤساء في عهد عبدي باشا . مما يصفه لوفتس المشار اليه قبل هذا . فهو يقول :

.. وكان الحصول على المال هو الهدف الوحيد لما يقترفه الملا علي من أعمال فظيعة . ويستخرجه من ضحاياه دون رحمةٍ أو شفقة . وحينما كان يعجز عن ذلك بالطرق الاعتيادية كان يجرب التعذيب بشتى الطرق لأنه كان يبتهج جداً حين يرى الناس . الذين يسوقهم سوء طالعهم اليه ، يتعذبون على مرأى منه ويكابدون أنواع الألم ، كما كان يفعل نيرون وكاليغولا . وكانت وسيلة العقاب المفضلة عنده ان يدفن « المذنب » بصورة عمودية في الأرض ، وقد شدت يداه . بحيث لا يبقى فوقها سوى رأسه المحلوق كله ، وان يطلى هذا الرأس بالدبس أو العسل ليجتذب الحشرات والزواحف اليه . ثم يتركه على مثل هذا الحال ويأتي للتفرج عليه والتمتع بمنظره المؤلم بين حين وآخر ، فيسخر به ويضحك عليه بعد ان تكون الشمس المحرقة والحشرات المتراكمة قد أخذت منه مأخذها ، لكن الضحية المسكين سرعان ما كان يموت وهو بهذه الحالة

فيتخلص من عذابه الذي لا يطاق .

ولا ريب ان تقديم باشوات ثلاثة لمسخ يتصف بالسادية ومركب النقص مثل الملا علي الخصي . وتسليطه على رقاب الناس من مختلف الطبقات . كان سببه الرئيسي تمكنه من جمع الأموال الطائلة لهم . فقد كان علي رضا باشا يحتاج الى هذه الأموال[1] حاجةً ماسة . لأنه كان رجلاً مبذراً الى أقصى الحدود ، وكان المسؤولون في الباب العالي يلحّون عليه بتحويل الأموال والبدر اليهم بالآلاف كل سنة . كما كانت الولاية تتطلب أموالاً طائلة لرواتب الموظفين ورجال القوات المسلحة . ومبالغ جسيمة لتعمير البلاد وإزالة آثار النكبة التي حلت ببغداد قبيل مجيئه . وكان محمد نجيب باشا . وقد جاء بعده . طماعاً جشعاً جمع ثروة طائلة من وظيفته فكدسها في خزائنه وظلم الناس ليبتز منهم ما يريد . ولذلك كان يهمه جداً ان يتهيأ له رجل مثل الملا علي يأخذ على عاتقه جمع المال المطلوب ويتحمل مسؤولية النهب والابتزاز بكل رغبة ولذة . اما عبدي باشا فقد كان يتخذه مسلياً ونديماً على ما يبدو . ويغض النظر عن تصرفه المشين وسلوكه المهين . لكن هذه الحجة لوحدها يصعب على المرء ان يقتنع بها . ولذلك نجد المستر لوفتس يعجب لوضعه هذا مع الملا علي . فهو يقول انه من الصعب على المرء ان يدرك كيف ان رجلاً انسانياً رحيماً مثل عبدي باشا يرضى بمصاحبة مخلوق بمثل هذه الخسة والحقارة ودناءة النفس . فيأخذه في معيته اينما يحل ويذهب . او يستشيره في كل عملٍ حكومي ينوي القيام به . ثم يصف تسلط الملا علي عليه بنكاته وهزلياته ويقول أنها كانت تجعل الباشا الرزين الرصين ينطلق في الضحك حتى حينما يكون منغمساً في أكثر الأعمال جديةً وأهمية . وان تهريجاته وحركاته المضحكة كانت تؤدي بالباشا الى الانفجار بضحكه الأجش في جميع الأوقات . وهو

---

(١) يذكر الرحالة الانكليزي فريزر ان علي رضا كان يلتجىء كذلك الى المتعاطين بالسيمياء ، اي الكيمياء القديمة ، لعلهم يستطيعون استخراج الذهب له من المعادن الخسيسة فيحصل على المال بهذه الطريقة أيضاً . لكنه صرف مبالغ كثيرة في هذا الشأن ولم يحصل على شيء لقاءها بطبيعة الحال .

يتذكر انه رأى عبدي باشا يضحك بملء فيه حينما عمد ملا علي . وكأنه ضمدع كبير . الى البصق علناً في وجه أحد الأوربيين . غير انه يقول في الوقت نفسه ان هذا كله لا يمكن ان يعتبر عذراً لتقدير مخلوقٍ أضاع جميع العواطف . وفقد كل حس إنساني .

ومن الغريب في رجلٍ برع في فنون الظلم والقسوة . وتفنن في أساليب الجور والتعذيب . مثل ملا علي هذا . ان تجد الرحمة طريقاً الى قلبه في بعض الأحيان فيتصدق على الفقراء والمعوزين من الناس ويمدهم بشيء من المال . ولا ريب انه كان بهذا كمن يجمع بين النقيضين في صعيدٍ واحد . ويأتي بالشتاء والصيف الى سطح واحد .

بغداد في منتصف القرن التاسع عشر

نقلا عن لوفتس

٣٧

بغداد في منتصف القرن التاسع عشر [١]

كانت الحالة في سنة تسع وأربعين وثمان مئة وألف قد تأزمت بين الدولتين العثمانية والايرانية ، بسبب الحدود الفاصلة بين الولايات العثمانية والبلاد الايرانية ، بحيث كان من المنتظر ان يحدث اصطدام مسلح بين الفريقين في كل لحظة . وقد ارتأت الدولتان البريطانية والروسية يومذاك ، بدافع من رغبتهما في إصلاح ذات البين في الظاهر ، ومن أطماعهما التقليدية في هذه البلاد حقيقة ، ان تتوسطا في الأمر وتعملان على حل الخلاف بالطرق الديبلوماسية المألوفة . فتقرر في مؤتمر عُقد في أرضروم [٢] ان تعين لجنة [٢] دولية متكونة من الفرقاء الأربعة ، لتقوم باجراء مسح عام للحدود وتعيين خط واضح المعالم لها بموجب ذلك .

---

(١) Loftus, W. K - Travels & Researches in Chaldaea & Susiana (London 1857).

(٢) كان يمثل الدولة العثمانية في لجنة الحدود هذه درويش باشا وسكرتيره عزت بك ، ولدرويش باشا تقرير معروف بالتركية عن الحدود نشرت ترجمته الى العربية وزارة الخارجية العراقية سنة ١٩٥٣ . وقد عقدت معاهدة أرضروم هذه في ١٨٤٧ (١٣ جمادى الآخرة ١٢٦٣) في أيام السلطان عبد المجيد ومحمد شاه القاجاري . وكانت تستند الى معاهدة أخرى عقدت قبلها في أرضروم ايضاً سنة ١٨٢٣ (١٩ ذي القعدة ١٢٣٨) على عهد السلطان محمود الثاني وفتح علي شاه القاجاري . وقد كانت النقاط المهمة المنطوية في معاهدة ١٨٢٣ موجودة في الاتفاق الذي تم التوصل اليه سنة ١٧٤٦ في أيام نادرشاه . وهذه بدورها كانت تستند الى ما كان يسمى بحدود السلطان مراد الرابع التي تعينت مع ايران سنة ١٦٤٠ . لكن المعاهدة الأخيرة (١٨٤٧) هي التي أدت الى تسليم المحمرة وميناءها الى ايران ، مع جزيرة الخضر (لنكركاه) وسواحل شط العرب الشرقية الممتدة من المحمرة (خرم شهر) الى المصب في البحر ، فجعلت بهذا جميع هذه الأراضي وخيراتها وعشائرها العربية ، مع أمارتها العربية المعروفة باسم إمارة عربستان ، تحت رحمة ايران . لكنها جعلت في مقابل ذلك منطقة زهاو والسليمانية من حصة العراق. وكانت بريطانية هي التي سعت في هذا الترتيب تطميناً لمصالحها المعروفة وأطماعها الاستعمارية.

وحينما تجمع الأعضاء والموظفون والمكلفون بأعمال هذه اللجنة في بغداد ، كان من بينهم رجل انكليزي مختص بطبقات الأرض يدعى ويليام لوفتس . وقد قُدر لهذا الرجل بعد أن أنهى مهمته في لجنة الحدود أن يعود الى هذه البلاد مرات أخرى فيتجول كثيراً في أنحاء العراق الجنوبية وايران ، بقصد التنقيب عن آثارها في وركا وأريخ نمرود وشوش الايرانية . وتجمعت لديه من كل ذلك معلومات تاريخية وآثارية قيّمة أودعها في كتابٍ خاص تم نشره في لندن سنة سبع وخمسين وثمان مئة وألف .

وكان من جملة ما كتبه في الكتاب وصفه للحالة العامة في بغداد وسائر أنحاء العراق الجنوبية على الأخص حينما وصل إليها في اليوم الخامس من أيار سنة تسع وأربعين وثمان مئة وألف . فهو يقول أن بغداد كانت تنتابها في يوم وصوله حالة عامة من الذعر والتوتر بسبب ارتفاع المياه في دجلة الى أكثر من الحد المألوف في كل سنة ، وتهديدها للمدينة من جميع الجهات . إذ كانت الحرارة قد ارتفعت درجاتها فجأة قبل أيام فأدت الى ذوبان سريع في ثلوج الجبال الشمالية ، وتدفقت المياه الطاغية بسبب ذلك في الرافدين بكميات هائلة . وبنتيجة تدفق مياه الفرات في الصقلاوية تدفقاً غير معهود وصل ارتفاع المياه في دجلة الى اثنين وعشرين قدماً ونصف ، وهو حدٌ لم يسبق له مثيل من قبل الا قليلاً . فقد كان هذا الارتفاع يزيد بمقدار خمسة أقدام في مستواه على المستوى الاعتيادي الذي كانت تصل اليه المياه في دجلة في أقصى ارتفاعها سابقاً ، وتجاوز مستواها المرتفع هذا حتى الحد الذي كانت قد وصلت اليه سنة إحدى وثلاثين وثمان مئة وألف حينما طغت المياه وفاضت فتدفقت في طرق بغداد وأزقتها فهدمت سبعة آلاف بيت في ليلة واحدة ، بينما كان الطاعون[1] يعيث فساداً في أرجائها ويحصد النفوس حصداً من بين سكانها .

---

(١) وهو الطاعون الذي ساعد على إنزال داود باشا من عليائه ، وقد كان آخر باشوات المماليك ، قبيل ان تحاصره جيوش السلطان بقيادة علي رضا باشا اللاظ وتستولي على بغداد فتقضي على حكم المماليك فيها .

وكان الوالي نجيب باشا قد جمع الناس قبل ذلك بالمئات وبادر الى إنشاء سدة قوية عالية تحيط بالأسوار كلها من الخارج . وربط البواري والحصران بها لتعمل على رص التراب وتحول دون تأثير المياه عليه . وبذلك حيل دون دخول الماء الى المدينة . والتدفق في طرقها وأزقتها . على ان ذلك لم يمنع الماء بطبيعة الحال من الترشح خلال التربة الرسوبية الناعمة الى السراديب والبقع الواطئة من البيوت فيتراكم فيها بعمق عدة أقدام . اما من جهة الشط فقد حالت البيوت دون تدفق المياه عن طريقها . بعد ان بلغ مستواها حداً ينخفض عن سطح السدة بقدمين . برغم قدم البعض من هذه البيوت وبعد عهدها بالترميم والتعمير . وظلت الخطورة والتوتر يسودان بغداد عدة أيام . فعُين المراقبون للاشراف على الحواجز والسدود في الليل والنهار . ولو قُدر لتلك التدابير ان تفشل لانغسلت بغداد كلها وانمسحت من الوجود على حد تعبير اوفتس . لكن الله كان رؤوفاً بالعباد . فقد صمدت الأسس وما فوقها . وأمكن تفادي النكبة بالغرق .

وقد ظلت البلاد المحيطة ببغداد مغمورة بالمياه لعدة أميال من جميع الجهات . بحيث لم يكن من الممكن لأحد ان يتعدى السدود الى الخارج مطلقاً الا بالزوارق التي جيء بها في أماكن عديدة للاحتفاظ بالمواصلات عبر المسافات المغمورة بالمياه . وبذلك أصبحت بغداد خلال مدة طويلة من الزمن جزيرة في وسط بحر داخلي مترامي الأطراف منها . ولم يستطع الناس الركوب الى ما وراء الأسوار الا بعد مرور شهر كامل على هذا المنوال .

على ان الحالة القلقة ما أن هدأت في نفوس البغداديين يومذاك . وزايلهم الخوف من الهلاك بالموت الأزرق كما يقولون . حتى تجدد الخطر من مصدر آخر . فقد أخذ البعوض بتقدم الموسم الدافىء يتكاثر وتفقس أنقافه في المياه الراكدة وداهمت البرداء (الملاريا) السكان الفزعين فأنشبت أظفارها بين ظهرانيهم . فقد كانت من النوع الخبيث على ما يبدو . وكانت عدواها شديدة بحيث قضت حماها على اثني عشر ألف نسمة من مجموع سكان بغداد البالغ عددهم حينئذ حوالي سبعين ألف نسمة . لأن الوفيات كانت قد وصلت الى

حد المئة والعشرين في اليوم الواحد . ولم يكن شيء مثل هذا مستغرباً بالنسبة لفقدان التدابير الصحية ، وانحطاط الأحوال الطبية والعلاجية في تلك الأيام . لأن المصاب كان يترك لنصيبه في الحياة وتلاعب الأقدار به . وكل ماكان يمكن ان يتناوله المريض تجاه هذا المرض الوبيل . لو وجد شيئاً من العناية . جرعة كبيرة من عصير الحصرم على ما يروي المستر لوفتس .

ولذلك غدا منظر الشوارع والأزقة شيئاً مريعاً مفجعاً في مدينة السلام . لما كان يلاحظ فيها من ضروب التعاسة وأنواع المعاناة . فقد كان المرضى يشاهدون ممدين في كل زاوية من زواياها . في أبواب البيوت وتفرعات الأسواق وفي وسط الفضوات والميادين . بينما كان الذين بدأت بهم الحمى وما يزال فيهم رمق من القوة والهمة . او الذين هاجمتهم الحمى فسلموا منها بشق الأنفس . يترنحون في سيرهم ويتمايلون متعكزين بالجدران أو الأعواد . وقد امتلأت مداخل المدينة وأبواب الأسوار بالنعوش والتوابيت ، وكان قسمٌ منها يُحمل الى المقابر القريبة على الأكتاف والقسم الآخر يؤخذ الى كربلا والنجف على ظهور البغال .

ومع ان جماعة المستر لوفتس كانت تقيم في قصرٍ مشيد في إحدى بساتين گرارة ، الكائنة على بعد ساعة عن المدينة ، فانها لم تسلم من شر هذا المرض وأوضاره . فقد دارت الدائرة عليهم ايضاً وأصيبوا واحداً بعد آخر . ومر عليهم وقت كان يندر فيه وجود خادم يقف في خدمة المرضى بينهم ، أو العناية بهم .

اما شؤون الباشوية الأخرى فيقول المستر لوفتس انها لم تكن مُرضية بأي حال من الأحوال . لأن الأساليب القاسية التي ظل يتبعها نجيب باشا في جباية الضرائب خلال السنوات العديدة التي حكم فيها قد بدأت تأتي أُكُلَها . فقد عم العصيان وشاع التذمر في كل مكان ، وقام العرب من بني لام بثورة علنية على طول دجلة السفلى لأن الباشا أناط حكمهم بعهدة خصومهم الألداء شيوخ المنتفك وسجن ابني شيخهم مذكور بعد أن كانا رهينتين في بغداد لكونه كان

مديوناً للحكومة بضرائب عدد من السنين . وأول ما عمد اليه بنو لام في ثورتهم هذه انهم وضعوا ايديهم على جميع البواخر غير الأجنبية التي كانت تمر من دجلة صعوداً ونزولاً ، فتوقفت المواصلات بين بغداد والبصرة . ثم تصدى الثوار للقوافل البرية وأخذوا يجزّون وَبَر إبلها الذي كان قد حان موسم جزّه . لكن العرب كان عندهم شيء من العدالة على الأقل . كما يقول لوفتس ، لأن البضائع المحملة بالبواخر والوبر المجزوز من الأباعر قد حفظ جانباً ليعاد بشرف الى أصحابه حالما يكون من الممكن ان تسوى الأمور بشكلٍ من الأشكال . امـــا الممتلكات البريطانية فقد بقيت محترمة ولم يتعرض لها أحد .

يضاف الى ذلك ان الخزاعل ، النازلين في أهوار الفرات الأوسط ، قد كسروا السدود وغمروا البلاد بالمياه الى مسافات شاسعة بحيث أصبحوا في نجوةٍ من تسلط الحكومة التركية عليهم بالمرة مدة من الزمن . وحذت حذوهم عشائر المعدان في الجنوب فشرعت تقلد جيرانها فيما فعلوه وأقدموا عليه . ثم تسربت روحية العصيان الى العشائر البدوية فاستغلت الفوضى التي أخذت تضرب أطنابها في كل مكان . وراحت تنهب القوافل والقرى من دون تمييز أو تفريق . وبذلك تعقدت الأمور على الأتراك وأصبح موقفهم مدروكاً في الأصقاع الجنوبية من البلاد .

غير ان العرائض والشكاوى أخذت تترى على الجهات المختصة في الباب العالي . وكثر التذمر من جور نجيب باشا وتعسفه . فتقرر عزله وعُين السر عسكر عبدي باشا «عبد الكريم نادر» في مكانه[1]. وبعد أيامٍ معدودة غادر نجيب البلاد الى استانبول حاملاً معه مبالغ جسيمة وأموالاً طائلة مما كان قد ابتزه

---

(١) كان تاريخ عزله يوم الجمعة ٢٢ شعبان ١٢٦٥ . ويقول سليمان فائق بك في « مرآة الزوراء » عن نجيب باشا : وبعد عزل الوالي المذكور (اي علي رضا باشا) تولى منصب الولاية في بغداد والي الشام محمد نجيب باشا فراح هذا يفرض أوامره بالقوة والتهديد ، وأذاق أهل البلاد شتى أنواع الظلم واضطرهم الى رفع الشكوى ضده وعم التذمر والاستياء من حكمه . ولما علمت المقامات العليا بما وصلت اليه البلاد وبعجز هذا الوالي وتقصيره ، وعدم الاستفادة من وجوده هذا المنصب ، عزلوه وعينوا بمكانه عبدي باشا .

وحصل عليه خلال مدة حكمه الطويلة في ولاية بغداد . ومع هذا فقد خلّف وراءه ديوناً كثيرة كانت بذمته . ومبالغ كبيرة استقرضها من الناس فلم يشأ تسديدها لأصحابها .

وقد قوبل عزله بارتياح عام في أرجاء الولاية كلها . فعادت المياه الى مجاريها الطبيعية بالتدريج . وكان الوالي الجديد عبدي باشا قد أبدى كثيراً من الحكمة والتعقل في معاملة الناس حينما اشتغل سر عسكر في معية نجيب وحصل من أجل ذلك على سمعة طيبة بين العشائر وسكان المدن . ولذلك وُجد أنه كان خير من يخلف ذلك الباشا القاسي غليظ القلب. على أنه سرعان ما تبين بعد تسنمه الباشويه انه كان يعوزه الكثير من صفات الوالي الناجح على ما يقول اوفتس لأنه تخلى عن صرامته العسكرية بالكلية حالما تقلد منصبه المدني السامي . وانصرف الى الملذات والترف الملازم لوظيفته الجديدة . فسلم قياده الى خصيّ مفضل عنده ومهرّج من مهرجي الباشوات السابقين . متفنن في تعذيب الناس وابتزاز الأموال منهم ، يدعى ملا علي[1] . ولم يمض وقت طويل على العرب العقلاء على ما يقول لوفتس . حتى اكتشفوا أنهم يمكنهم ان يفعلوا ما يريدون في عهده كذلك . فلم يتقاعسوا عن استغلال الموقف في الحال وعادت الأحوال الى ما كانت عليه من الفوضى والاضطراب .

(١) انه ملا علي الخصي الذي اشتهر منذ أيام علي رضا باشا اللاظ ، راجع الصورة الخاصة عنه بهذا العنوان ، في الص ٣٠٩ من هذا الكتاب .

٣٨

الوالي «أبو المناظر»[١]

كانت الجهات المسؤولة في الباب العالي قد اضطرت في سنة ١٨٥١ الى تعيين نامق باشا الكبير ، مشير فيلق العراق والحجاز ، والياً في بغداد لأن الوالي وجيهي باشا لم يستطع تدبير الأمور في الولايات العراقية المتعبة . فشمّر الباشا الجديد عن ساعد الجد وراح يسعى حثيثاً لاصلاح الأوضاع وتسوية الأمور بحزمٍ وقوة ، غير ان جو العراق القاسي وكثرة ما اضطلع به من وجائب ومهمات قد أثّرا في صحته تأثيراً سيئاً فاعترته العلل والأمراض وأعاقته عن متابعة العمل . وبينما كان منصرفاً الى العناية بنفسه ومنشغلاً في معالجة ما ألم به من أوجاع أفلت الزمام من يده فنشبت الفتن والاضطرابات في كثير من أنحاء البلاد وباتت الحكومة في وضعٍ محرج . وحينما ترامى ذلك الى المسؤولين في الاستانة بادروا الى عزله ، وعمدوا الى تعيين المشير المدفعي محمد رشيد باشا الكوزلكلي في مكانه .

وكان الوالي الكوزلكي ، أو الوالي « أبو المناظر » كما كان يسميه البغداديون قد نشأ نشأةً عصامية في استانبول . فقد وُلد مسيحياً في بلاد الكرج ، وحينما بلغ التاسعة من عمره خطفه الأتراك من أهله وبلاده وجيء به الى استانبول فأصبح بعد مدة من مماليك حسن باشا . وأظهر قابليةً وبراعة فيما عُهد اليه فأُدخل الكلية العسكرية وتخرج فيها ضابطاً لامعاً يشار اليه بالبنان ، والذلك أُوفد لاكمال تحصيله في فرنسة وبقي فيها عدة سنين تخصص خلالها بفنون المدفعية .

---

(١) المراجع : مرآة الزوراء ، تاريخ العراق بين احتلالين ، رحلة بيترمان الملخصة في (بغداد كما وصفها السواح الأجانب) ، مباحث عراقية القسم الثاني .

وبعد ان اجتاز امتحاناته بتفوق ظفر برتبة (يوزباشي) وعاد الى دار السعادة فعُهد إليه بتنظيم هذا الصنف الحيوي من الصنوف العسكريـــة في الجيش الامبراطوري . ثم تقلب في عدد من المناصب الكبيرة في الدولة فأنيطت به ولاية خربوط ، وهناك انتُدب لتأديب الأكراد وقمع تمردهم المستمر فنجح في ذلك وألقى القبض على زعيمهم بدرخان نفسه . وقد كُلف بعد ذلك بالاشتغال في عدد من الولايات الأخرى لكنه رفض الاشتغال فيها . وفضل العمل والياً في بغداد لأن الاشتغال فيها كان أنفع اليه . إذ كان راتبه يبلغ فيها اثني عشر ألف غرشاً في الشهر (٧٥٠٠ تالر ألماني) ، وكان ما يتقاضاه علاوةً على ذلك من المخصصات الأضافية والمصروفات السرية يُقدر بمبالغ لا يستهان بها . أضف الى هذ أن بغداد كانت تعتبر بعيدة عن دسائس رجال البلاط العثماني وغيرهم ، وانه كان يمكنه ان يعمل فيها بكل حرية واطمئنان .

ولذلك عُين في سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة وألف (٢١ أيلول) والياً في بغداد ومشيراً لفيلق العراق والحجاز . وقد لوحظ خلال مدة حكمه في العراق ان الناس لم يكونوا يطمئنون الى عقيدته ويشكون في إسلامه لأنه كان قد عاش عدة سنين في فرنسة . والحقيقة أنه نشأ نشاةً مسيحية منذ أول عهده بالحياة ، لكنه أُكره على اعتناق الإسلام حينما أصبح مملوكاً في استانبول ، على ما يقول الرحالة الألماني بيترمان ، ومع هذا ظل يقرأ الكتاب المقدس (العهد الجديد) على الدوام . ولأجل ان يبعّد عن نفسه الشكوك في هذا الشأن عمد الى تعمير مسجد باسمه في بغداد من ماله الخالص ، ثم اشترى مكتبة المفتي ، وكانت مكتبه غنية بالكتب ، فأوقفها على المسجد . اما فيما عدا ذلك فقد كان والياً مثقفاً واسع الاطلاع ، كثير القراءة والمطالعة ، يتكلم الفرنسية بطلاقة . كما كان جماعـــاً للكتب مقدراً لأهميتها ، ولذلك أهدى الرحالة الألماني بيترمان حينما وُجد في بغداد واتصل اتصالاً وثيقاً به ، كتباً مختلفة من جملتها « ألبوم » فني ملون من مقتنيات أمراء الفرس رسم قبل قرنين . وقد ألمّ بشؤون الأكراد حينما اشتغل في خربوط ، واطلع اطلاعاً جيداً على تاريخهم ، ولذلك كان يقول للرحالة بيترمان ان الأكراد يتألفون من طوائف ثلاث في نظره : طائفة أكراد الزازه

(أو الزازوك) الذين يعتبرهم من أحفاد الأباطرة القدماء وقد استوطنوا منطقة تمتد من جبال طوروس الى أواسط آسية ، وطائفة الأكراد المقيمين على حدود ايران وقد تأثرت لغتهم بالعربية والفارسية معاً ، وطائفة القبائل القفقاسية التي التي تمتد أماكن إقامتها من أرضروم الى خربوط وتتشابه ملامحهم مع ملامح الكرج ، وقد اختلط هؤلاء بالأرمن إختلاطاً غير يسير .

وكان الكوزلكلي في الوقت الذي اتصل به بيترمان يضيق ذرعاً بالأكراد المتمردين ، ويعمل على تأديبهم وقمع حركاتهم بقسوة كما فعل مع القبائل العربية من قبل . فقد جرّد على عشائر الهندية ألفي مقاتل وانهال عليها قتلاً وتشريداً حتى شفى غليله منها ، لأنها كانت لا تخضع لتصرفات وادي الشفلح شيخ زبيد . وكانت بعهدته مهمة التزام الضرائب وجبايتها . على أنه كان على وئام مع منصور باشا السعدون شيخ المنتفك على ما يبدو ، ولذلك كان يستضعفه ويجور عليه . فقد أقنعه باقتطاع السماوة بعشائرها من ديرة المنتفك ، ثم جاء يقنعه من جديد باقتطاع سوق الشيوخ وتشييد قلعة فيها لجند الحكومة . أضف الى ذلك ان منصوراً جاء الى بغداد في سنة ١٨٥٤ وجلب معه مبالغ جسيمة من الضرائب تقدر بثمانين ألف شامي (٤٠ ألف تالر) بعد ان جمعها بشق النفس . مع عدد من الجياد الأصيلة ، فبرهن بذلك على تجديد ولائه وطاعته للوالي .

ويلاحظ مما دُوّن عن « ابي المناظر » انه كان نسيج وحده ، وكان يكاد يجمع المتناقضات في شخصه . فقد قُدر له أن يطول أمد حكمه في العراق فيمتد الى خمس سنوات ، وهي مدة تكاد تكون طويلة بالنسبة لعمر الباشوات الآخرين في الحكم يومذاك . وكان من المحتمل ان تطول مدته أكثر من هذا لو لم تعاجله المنية ، فيقضي نحبه وهو ما يزال متربعاً في دست الحكم . واستطاع خلال هذه المدة كلها أن يقوم بأعمال إصلاحية كثيرة عادت على العراق وأهله بالخير والفائدة . لكنه اقترف في الوقت نفسه مخالفات كثيرة ، وصدرت منه تصرفات مريبة ، كان يستهدف من وراء الكثير منها جر المغانم لنفسه وابتزاز الأموال بطريقة أو أخرى.

فقد شرع منذ أول يوم تسلم فيه مقاليد الباشوية في إصلاح جهاز الضرائب

والرسوم . وتخفيفها عن كاهل الناس . فألغى رسوم الشكرخانة والمولاخانة والمصبغة وما أشبه . وعوّض الخزينة عن ذلك بزيادة رسوم الكمرك والرفتية . حتى أمكنه تسديد الديون المتراكمة على الحكومة من رواتب وغيرها وقسم منها كان منذ أيام علي رضا باشا . ثم التفت الى النواحي الزراعية وأصلح شأنها . وعمل على إسكان بعض العشائر فأقطعها الأراضي الكافية لاستثمارها . وكان من جملة إصلاحاته في هذا الشأن أنه حفر عدداً من الأنهر . وما زال قسم منها معروفاً حتى اليوم . وأمر بكري وتنظيف أنهر كثيرة أخرى واحياء ما اندرس منها . فحفر نهري الهارونية والمشيرية في لواء ديالى . وقد سُمي الأخير باسمه ، كما حفر نهر السرية في لواء الرمادي فسمي باسم قائمقام الدليم سري أفندي . واتخذ ما يلزم لكري الدجيل وتنظيفه . وكري عدد غير يسير من أنهر الحلة المعروفة مثل النيل والغلامية والشوملي والخربوعية وغيرها. هذا فضلاً عن أنه أنشأ سدة الصقلاوية ، وحفر نهراً جديداً في مجرى الكنعانية المندرس فغرس في جانبيه أشجار التوت لتربية دود القز . وكان هذا النهر يصل الى ما يقرب من بغداد.

يضاف الى ذلك ان رشيد باشا كان أول من اتخذ التدابير الناجعة لشراء المراكب وتسييرها في دجلة لنقل البضائع والسلع التجارية ما بين بغداد والبصرة ، فضلاً عن الركّاب . وقد أشرك التجار والمتمولين في هذا المشروع المفيد ، فاستدعاهم وأسس شركة وطنية من بينهم لهذا الغرض . فأقدمت الشركة على شراء باخرتين من المعامل البلجيكية ، أطلق على احداهما اسم « بغداد » وعلى الأخرى « البصرة » . لكنهما لم تصلا الى العراق الا بعد ان كان قد قضى نحبه .

غير انه مع جميع ما قام به من أعمال نافعة ومشاريع مفيدة ، كان حريصاً على جمع الثروة والمال . قديراً في ابتداع الوسائل العملية لابتزاز المبالغ الطائلة والدخول في مداخل شتى من أجلها . فقد حدث في أيامه مثلاً ان دخلت الدولة العثمانية في حربٍ ضروس مع روسية الطامعة في ممتلكاتها ، وطالت الحرب فكلفت الدولة مبالغ باهظة فاضطرت الى جمع التبرعات لتلافي نفقات الحرب من أجزاء الامبراطورية كلها . وتنفيذاً لذلك انبرى الكوزلكلي باشا الى القيام بواجبه في هذا الشأن ، فجمع أعيان البلد ووجوهه، وعلى رأسهم

العلامتان صبغة الله الحيدري ، ومحمود شكري الألوسي . ورسم بالاشتراك معهم خطة خاصة لجمع المال. ففرضوا على المقتدرين من الناس ما لا يقل عن ألف قرش صاغ من كلٍ منهم ، وعلى المتوسطين في اقتدارهم مئة قرش ، والفقراء خمسة وعشرين . ثم فرضوا إعانة مقطوعة على كل بيت في مختلف الحواري والمحلات . إلا محلة باب الشيخ التي ادعى أهلها على لسان النقيب أنهم فقراء أكثرهم .

وحينما لاحظ الباشا أبو المناظر ان مشروعه هذا قد اقترن بشيء غير يسير من النجاح جعل عملية جمع التبرعات عادةً مستديمة له يكررها في كل سنة ، ويبتدع لها مختلف الوسائل والحجج . فقد جمع في سنةٍ من السنين أيضاً ثلاثة أضعاف ما كانت تحتاجه عملية ترميم المسناة المحاذية لشاطئٍء دجلة في الاعظمية ، مع ان هذه المسناة ، وهي ترجع في قدمها الى أيام العباسيين ، كان يصرف على ترميمها سنوياً من أوقاف الامام أبي حنيفة او مال السلطان . ولذلك تكاثـــر الهمس بين الناس عن سوء تصرف الباشا واختلاساته ، وصارت تروى في أوساط بغداد وأنديتها يومذاك مختلف القصص والاشاعات في هذا الشأن .

ولم يكتف الكوزلكلي بذلك حسب وانما تناول في أطماعه ميادين التجارة والزراعة أيضاً . فقد أخذ يتعاطى البيع والشراء ، ويشارك أناساً مختلفين في جلب المواشي والاغنام من القرى والأرياف لبيعها في المدن بقصد الربح والفائدة ، ووصل به الأمر في هذا الشأن الى حد مراقبة التجار شخصياً ، وفحص دفاترهم لاستيفاء نسب معينة من أرباحهم لنفسه. وكثيراً ما كان يجبر الموسرين وأصحاب الثروة والاقتدار على التزام الأنهر والمقاطعات من الحكومة بأضعاف ما كانت تستحقه ، فيدخل الفرق في كيسه الخاص .

ومن طريف ما يروى عن الباشا ابي المناظر بالنسبة لاستثماراته الخاصة وتشبثاته في ميادين العمل الزراعي انه كان يحتكر زراعة الرز في مقاطعات خاصة وجهات معلومة ، ويشارك أصحابها في الربح الفاحش المتأتي عن منع زراعته رسمياً في الجهات الأخرى لأن هذا المنع كان يؤدي الى ارتفاع أسعاره في الاسواق بطبيعة الحال . ولم يكتف بهذا فقط بل كان يعمد أيضاً الى شراء حاصلات الرز والحنطة والشعير ، مما كان يزرع في العراق الأوسط ، كلها

بالاتفاق مع شركائه المقربين من التجار اليهود في الغالب مثل صالح دانيل واخوته فيحتكر بيعها معهم ويتحكمون في أسعارها . ولذلك كان المعروف في عهد هذا الباشا ارتفاع أسعار الخبز وسائر أنواع المأكولات في كثير من أشهر السنة .

وكان من المعروف في تلك الأيام ان الكوزلكلي كان على اتصال وثيق جداً بآل دانيل المذكورين ، حتى عظمت منزلتهم وامتزجوا معه امتزاج الماء بالخمر على قول بعض المؤرخين ، وكان لا بد من ان تؤدي هذه العلاقة الوثيقة الى انتفاع هذه الأسرة المشهورة في عالم المال ، وثرائها ثراءاً فاحشاً ما يزال أثره معروفاً حتى اليوم . فمع ان الباشا الوالي كان يستفيد منهم استفادة مادية غير يسيرة بموجب هذه الصلة النفعية المفضوحة ، فأنهم كانوا يستغلونها استغلالاً متطرفاً الى آخر حد ممكن ولا سيما في شؤون الجباية والالتزام التي كانوا يخفون الكثير من تفاصيلها عنه . وقد كانوا يتفننون في طرق جمع المال واستغلال هذه الصلة الأثيمة ، فيجبون ضرائب خاصة ويفرضون ما يشبه الأتاوى لمنفعتهم ولكن باسم الحكومة . ومن ذلك ما ابتدعوه في مقاطعة تقع في منطقة الهندية بلواء الحلة ، تسمى « ابو بغال » . حيث كانوا يجبرون ملتزم هذه المقاطعة على أن يضمن جباية المرورية منها لهم بثمن بخس لقاء كفالتهم له عند الحكومة ، نظراً لعدم وجود كفلاء متنفذين غيرهم في تلك الجهات . وكانوا يدفعون له لقاء ذلك مبلغاً لا يزيد على ثلاثين ألف قران في السنة ، بينما كان واردهم من جباية المرورية في هذه المقاطعة وحدها يبلغ حوالي (٣٢٠,٠٠٠) قران في السنة . لأنهم ضاعفوا رسوم المرورية فأوصلوها الى خمسة عشر قرشاً أو عشرين عن الشخص الواحد او الحمل الواحد المحمل فوق الدابة ، أو في القارب .

غير ان جميع ما كدسه الكوزلكلي باشا من ثروة ومال على هذه الشاكلة وغيرها ، ومعظم ما اتصف به من مقدرة في شؤون الحكم والادارة ، لم يغنه نفعاً او يجديه فتيلاً . فقد اغتالته يد المنون وهو في عنفوان أيامه ، وداهمه هادم اللذات ومفرق الصفوف فارتحل عن هذه الدنيا الفانية في صيف سنة سبع وخمسين وثمان مئة وألف (١٠ آب) ليقف بين يدي العزيز الديان ويقدم الحساب .

٣٩

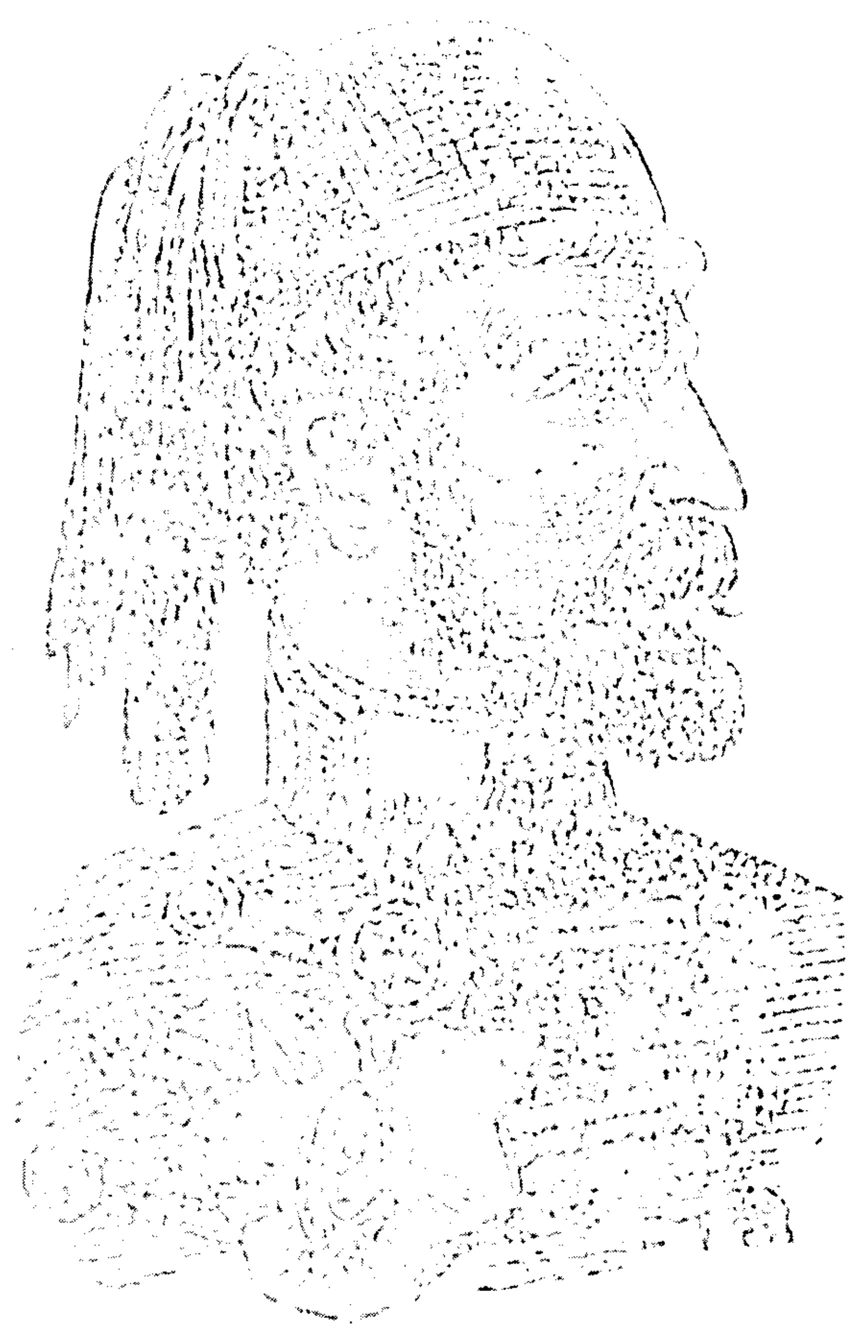
السردار الأكرم[١]

كانت الدولة العثمانية في استانبول قد أصدرت سنة ثمان وأربعين وثمان مئة وألف بياناً للقرعة العسكرية تنظم به شؤون التجنيد في أنحاء الامبراطورية كافه . وتتوخى منه تعزيز الجيش النظامي الحديث والعمل على رفع مستواه من جميع الوجوه . حتى يمكن لها ان تستعيض بقطعاتـــه المتكاثرة عن وحدات الجيوش غير النظامية . التي لم يتم التخلص منها خلال مدة تناهز العشرين سنة حين أقدم السلطان محمود الثاني على تنظيم جيوشه بموجب الأسس الحديثة . وقد أخذت الدولة بعد صدور هذا البيان تتحين الفرص وتغتنم المناسبات لتضعه موضع التنفيذ في كل قطرٍ من الأقطار التابعة لها . وتنتدب الرجال الأكفـــاء للاضطلاع بمهام هذا المشروع الحيوي الشاق .

وحينما انتقل والي بغداد محمد رشيد باشا الكوزلكي الى دار البقاء سنة سبع وخمسين وثمان مئة وألف اغتنمت الدولة العثمانية هذه الفرصة وقررت ان يخلفه في الولاية رجلٌ عسكري صلب يقوم بادارة الولاية الكبرى كلها مـــن دياربكر الى البصرة ، ويشغل مشيرية العراق والحجاز جميعها . فوقع اختيارها على السردار الأكرم عمر باشا لما عُرف عنه من حزمٍ واتزان . وصلابة في معالجة الأمور . وكان من أصلٍ مجري غير مسلم فجاء الى استانبول في مقتبل حياته ، واعتنق الاسلام فانخرط في سلك الجندية ، وصارت له مكانـــة في الجيش النظامي الجديد ومنزلة مرموقة بين ضباطه وقادته .

---

(١) المراجع : مرآة الزوراء ، تاريخ العراق بين احتلالين .



السر دار الأكرم عمر باشا

وحينما انتُدب لهذه المهمة في العراق توجه اليه عن طريق حلب وفي معيته قطعة كبيرة من الجيش النظامي تزيد على أربعة آلاف جندي من الجنود الخيالة والمشاة . وعلى رأسهم عدد من الضباط البولونيين في أصلهم الذين كان أبرزهم قائد الفرقة اسكندر باشا . وقد مر وهو في طريقه الى بغداد بعانـــه وهيت والصقلاوية . ودخل عاصمة ملكه من باب علاوي الحلة في اليوم الثامن عشر من شباط سنة ثمان وخمسين وثمان مئة وألف .

وقد طفق السردار الأكرم منذ أول يوم وصل فيه يعد العدة لانجاز المهمة التي اضطلع بها وتنفيذ الأوامر التي صدرت اليه بشأن التجنيد . وبدلاً من ان يبادر الى دراسة أحوال الولاية وشؤون سكانها عن كثب ، ويجمع المعلومات التي تعينه في وضع الخطة اللازمة لانجاح مهمته . أوعز في يومه الثالث بهدم القلاع والتحصينات التي كان قد أنشأها أسلافه في جهات الديوانية والهندية وغيرهما . وتسريح قوات الهايتة غـــير النظامية من دون تريث. ثم طالب الأهلين في المدن والمناطق العشائرية بتجنيد أبنائهـــم وسوقهم الى الثكنات والمعسكرات ، فانتشر بذلك الذعر بينهم وتسرب الرعب والخوف في أنحاء البلاد . ولهذا لم يكن من المستغرب ان تتململ العشائر وتستعد للمقاومة . وتتهيأ الفئات المشاكسة في المدن للعصيان . سيّما وقد شاهد الجميع بأعينهم تسريح جموع الهايتة وزوال ظلهم الثقيل عن الناس .

ولأجل أن يمهد السردار الأكرم الأمور ويهيء الأفكار والجو الملائم لانجاح المهمة في بغداد والمراكز الأخرى . وجد من المناسب ان يحل عقدة كيسه ويوزع المنح والاكراميات للموظفين ووجوه البلد . فوزع مبلغاً يزيد على ستين ألف قرش صاغ لهذا الغرض . فقد أنعم على القاضي والمفتي بمبلغ عشرة آلاف قرش صاغ لكلٍ منهما . وأكرم كلاً من النقيب والسيد احمد الوالي مبلغ سبعة آلاف وخمس مئة قرش . ووهب لكل من أعضاء مجلس الولاية ومنهم عضو مسيحي وآخر يهودي مبلغ خمسة آلاف قرش . على ان الغرض من هــــذه السماحة والجود اللذين أبداهما السردار الأكرم سرعان ما اهتدى اليه البغداديون وهم الذين كانوا وما زالوا يقرأون « الممحي » على ما يقال . فقد كان هدفه في

ذلك تسهيل الحصول على المضابط المطلوبة عند الحاجة ، وإرسالها الى الدولة العلية في الباب العالي ، إشعاراً بنجاحه وإثباتاً لمقدرته وكفاءته .

وقد اقترنت هذه الخطة بنجاحٍ غير يسير في بغداد على ما يظهر ، فما أن أمر عمر باشا بفتح باب التجنيد وقرىء الفرمان اللازم بذلك ، حتى خف الكثيرون من وجوه بغداد ورؤسائها اليه وجاءوا بأولادهم الى السراي لتسجيلهم . وكان في مقدمتهم المفتي محمد افندي الزهاوي . فقد جاء بابنه شخصياً وسجله في سجل « النظام » . ولم تنقض أيام معدودة حتى وصل عدد المسجلين في بغداد وحدها إلى خمس مئة . ثم حذت الضواحي والقرى المجاورة حذوها فسارعت بارسال أبنائها الى التجنيد ، أو دفع البدلات المالية عنهم .

غـير ان الأمر كان على عكس هذا في الخارج . فقد أدى إعلان المباشرة بالتجنيد الى توقف الكثير من الاعمال الاعتيادية بين الناس . وترك الكثيرون من سكان المدن والعشائر مزارعهم وقراهم فهاجروا الى مواطن غير مواطنهم. وقد لوحظ ذلك على الأخص في منطقة ديالى معظمها وجهات الحلة والهندية وكربلا والديوانية والشامية وغيرها من أنحاء الجنوب . لكن السردار الأكرم لم يثنه عن عزمه شيء ، وجرياً على القاعدة التي كان يتبعها الولاة في تلك الأيام قرر معالجة الوضع بالقوة والعنف وفرض الجندية على الناس بسوق الجيوش وقوة السلاح . واضطره الأمر الى أن يسير في النهاية على رأس القوات التأديبية بنفسه .

فقد توجه الى الحلة وفي معيته الكهية ، ومحمد أمين العمري كاتب العربية ، وصالح دانيل من وجهاء اليهود وتجارهـم ، وبندر السعدون شيخ المنتفك المعزول . وهناك أصرّ على أن يقدم أهاليها خمسين مجنداً ولو بدفع البدلات عنهم ، لكنهم هرعوا يصرخون في وجهه ويستغيثون به في الطرق والأسواق وهم يحملون العرائض والاستنكارات . لكنه أصرّ على ما يريد ، وأمر بالقبض على من جاء يصخب اليه فقبض على عدد كبير من الناس . ثم جند خمسين نفراً منهم وأطلق سراح الباقين .

وفرض تقديم خمسين مجنداً على أهالي كربلا كذلك لكنهم ثاروا غاضبين

في وجهه وقتلوا اثنين من جنوده النظاميين ، واستفحلت حركة العصيان فكادت تتطور الى ثورة عارمة . غير انه ساق اليها العساكر والجيوش فصارت تأخذ من تصادفه من الناس في الطرق بالعنف والاكراه . وجيء بنتيجة ذلك الى بغداد بثلاثين نفراً متيدين بالأغلال فسجلوا في سجل « النظام » .

اما النجف التي طولبت بتقديم ثلاثين جندياً من بين أبنائها فقد لبت الطلب طائعة مختارة . بعد ان علمت بما حصل في كربلا والحلة من ضروب القسوة والأجبار . وجيء بالعدد المطلوب من أبنائها الى بغداد من دون حادث يُذكر. على ان اساليب القسوة والعنف التي استعان بها عمر باشا في فرض التجنيد النظامي على المدن لم تجده نفعاً حينما حاول ان يستعين بها في فرض التجنيد على أبناء العشائر . فقد طالب عشائر الهندية بتقديم تسعين جندياً ، وعشائر الشامية والديوانية بتقديم مئة وثمانين ، فامتنعت كلها عن ذلك في الحال وامتشقت الحسام فأخذت تغير على المراكز الحكومية وتنهب القوافل والمسافرين في الطرق . وكان أبرز قادة هذه الحركة مطلق بن كريدي شيخ الخزاعل .

فسيق لتأديبها جيش عرعرم يقوده شبلي باشا ، ثم عُزز هذا الجيش بجيش ثانٍ يقوده اسكندر باشا البولوني ، لكن هذين الجيشين لم يتوفقا في قمع الحركة التي اتسع نطاقها واندلع لهيبها في جميع الجهات . وترتب على السردار الأكرم ان يعززهما بدفعات أربع من القوات المنجدة على اختلاف أنواعها لينقذ الموقف ويحافظ على هيبة الحكومة . وقد نازلت العشائر الثلاثة ، وهي تعتصم بالقلاع والأهوار . هذه الجيوش في معارك وواقعات رهيبة جُرح في إحداها اسكندر باشا نفسه من دون ان تنكسر أمامها . ولذلك اقترح شبلي باشا على الوالي التمائد ان يعقد الصلح بصورة من الصور . لكن السردار الأكرم ركب رأسه ورفض فكرة الصلح . وقرر أن يخف بنفسه مع جيش آخر الى ميدان المعركة . فنجح في دفع الكثير من العشائر الثائرة الى جهات السماوة من دون قتال . وحينما غمايقتها هناك وقعت موقعة حامية بين الفريقين دام أمدها ست ساعات متوالية لاح النصر في نهايتها للعشائر نفسها بعد أن قتل ما يناهز الخمس مئة قتيل من أفراد الجيش التركي ، فاضطر السردار الى الانسحاب السريع في اليوم الثاني بجميع جيوشه . غير ان العشائر ظلت تلاحقه وتعقبه الى أطراف الحلة.

ولاجل ان يتستر السردار على فشله المريع في القتال أعلن للناس في الحلة عن عزمه على سد فرع الهندية من الفرات لينتقم من العشائر . ويحول دون تدفق الماء الى الأهوار التي تحميهم . غير انه لم يستطع القيام بمثل هذا العمل الخطير . فعاد يجرر أذيال الفشل الى بغداد .

ولا شك ان الشروع في تطبيق مشروع التجنيد على العشائر في تلك الظروف والأحوال لم يكن من الأمور السهلة . وقد بقيت هذه المهمة من أصعب المهمات في العراق الى ما بعد تشكيل الحكم الوطني الحديث . ومع هذا فقد بذل السردار الأكرم جهده في التطبيق بكل جرأة وشجاعة . لكنه فشل في ذلك ولا تقع تبعة الفشل عليه كلها لأن الدولة هي التي طلبت اليه تطبيق ما كانت تطبقه على سكان الولايات المتقدمة في مضمار الحضارة والمدنية في الولايات العراقية التي تتألف ثلاثة أرباع سكانها من أبناء العشائر .

وقد حدث قبل عزل السردار الأكرم من بغداد بأشهر ان اقترب ناصر الدين شاه الايراني بجيش كبير عدته عشرون ألف مقاتل من الحدود العراقية . من جهات سنة في كردستان الايرانية فاضطربت أحوال العشائر العراقية القريبة من الحدود وخشيت ان يكون الشاه عازماً على اختراق الحدود والتحرش بالبلاد العراقية . فاضطر السردار الى ان يخف الى تلك الجهات بما تيسر له من القوات ووصل الى السليمانية . لكن الشاه تراجع عن الحدود عندما سمع بذلك فانتهى الأمر بسلام . واغتنم الوالي فرصة وجوده في تلك الجهات فنفذ ما تقتضيه شؤون التجنيد فيها وجند عدداً من أهالي لواء شهريزور . لكنه تورط هناك بتأديب الهماوند . وكانوا قد قاموا بالكثير من حوادث السلب والنهب . وقطع الطرق . ومضايقة المزارعين والأهلين ما بين السليمانية وكركوك كما كان ديدنهم . فقد نكل بهم وقبض على عدد من رؤسائهم فأعدمهم الحياة . وقد فعل ذلك من دون استئذان الجهات المسؤولة في الباب العالي . فغضبت عليه لأنها كان من خطتها ان تداري هذه القبيلة وتعاملها بالحسنى لكونها من القبائل التي تتنقل بين العراق وايران . ولأن مضايقتها والضغط عليها قد تؤدي الى قيام ايران باستغلال الوضع وجلبهم اليها . ولذلك بادرت الى عزل السردار الأكرم . وصدر الفرمان بذلك في ٢٥ أيلول ١٨٥٩ . من دون ان تأخذ بنظر الاعتبار اخلاصه في العمل . مع نزاهته والخبرة التي حصل عليها . فضلاً عن الشجاعة التي لم تعوزه في كل أعماله .

٤٠

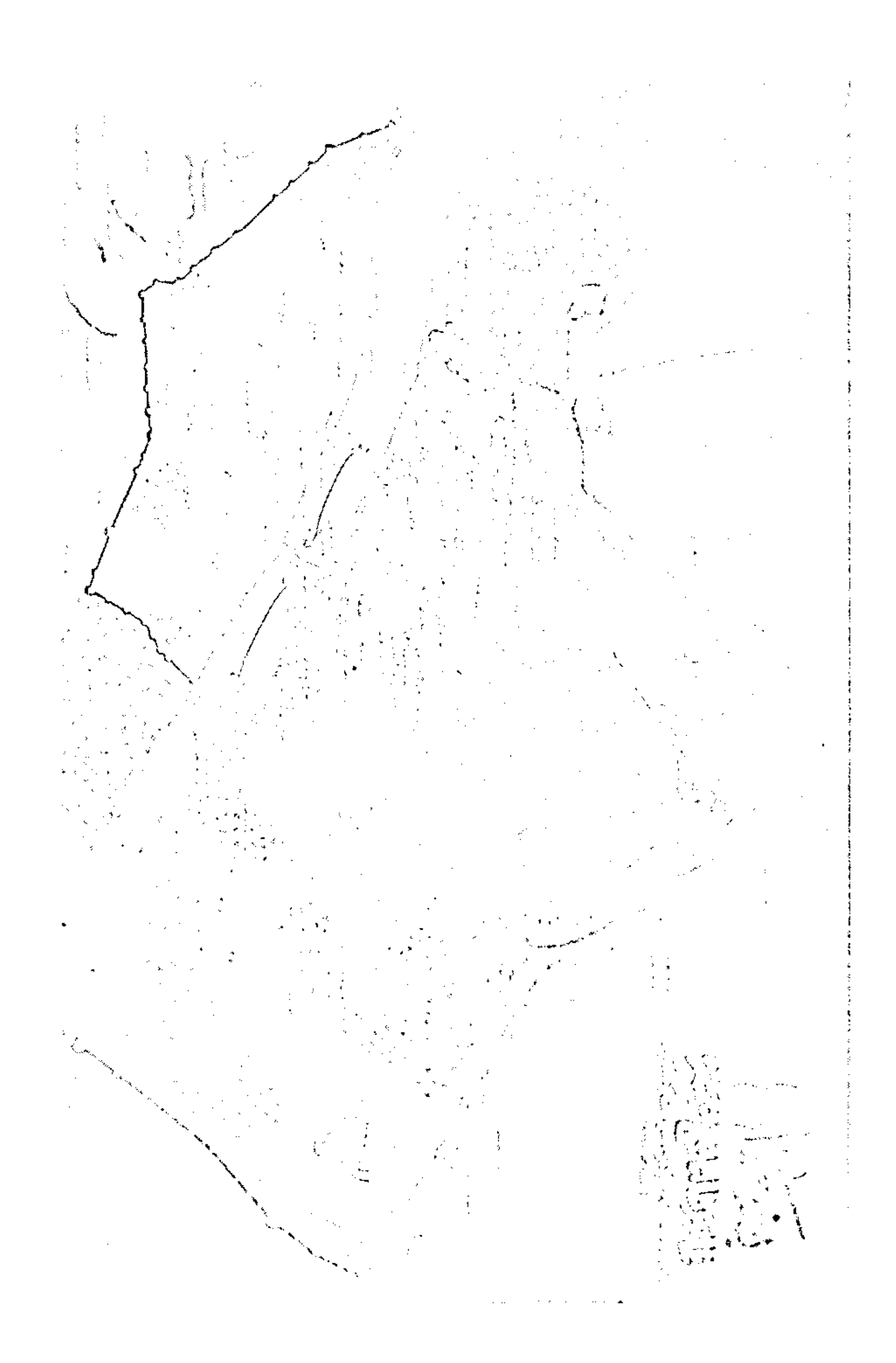
كاتب السر[1]

في سنة تسع وخمسين وثمان مئة وألف ارتأت الدوائر المختصة في الباب العالي عزل السردار الأكرم عمر باشا عن ولاية بغداد وتنحيته عن الحكم فيها . بعد ان كانت قد اعتمدت عليه وندبته لتأسيس الجيش النظامي في العراق وتنفيذ بيان القرعة العسكرية من أجله . والمفهوم من المراجع المتيسرة عن تلك الفترة أن أولياء الأمور في استانبول قد أدركوا بأنه لم يحسن التصرف فيما عهد إليه : فأثار العشائر العربية واستفزها بحيث أدى فشله في مقاتلتها الى ضياع هيبة الحكومة وهدر كرامتها في البلاد : فضلاً عن تفويت الفرصة عليها في وضع شؤون التجنيد على أسس قويمة . ولم يفعل هذا فقط بل خالف رغبات المراجع المختصة في الباب العالي كذلك : ولم يأخذ رأيها في البطش بعشيرة الهماوند في الشمال وشنق عدد من رؤسائها والمتنفذين من رجالها . فقد كانت حركته تجاههم منافية للسياسة التي كانت تسير عليها الدولة العثمانية مع العشائر الكردية في تلك الأيام . حيث أنها كانت تؤمن بمداراة هذه العشائر وعدم الضغط عليها خوفاً من أن تؤدي بها الشدة والعنف الى الارتماء في أحضان الايرانيين الذين كانوا يرمقون الحدود العراقية بأعين الشراهة والطمع ويتحينون الفرص للاستفادة من كل ما يحدث أو يقع فيها او بالقرب منها .

وبدلاً من ان تبادر الجهات المسؤولة في الباب العالي الى انتقاء رجل يعتمد عليه في تمشية شؤون العراق المضطربة ومعالجة الأمور فيه بمفاهيم الدراية والتعقل ، وقع اختيارها على رجل بعيد كل البعد عن هذه الصفات . فقد صدر الفرمان الهمايوني في دار السعادة بتعيين مصطفى نوري باشا والياً على بغداد . ومشيراً لقيادة الجيش الامبراطوري في العراق والحجاز .

---

(١) المراجع : مرآة الزوراء ، تاريخ العراق بين احتلالين .



وكان هذا الوالي بمقتضى نشأته وتدرجه في الوظائف أمياً لا يحسن القراءة والكتابة ، ولا يستطيع حتى كتابة اسمه الكريم . ومع هـــذا فقد كان يسمى «كاتب السر » لأنه أشغل في يوم ٍ من الأيام وظيفةً بهذا العنوان حينما كان ينتمي الى ادارة الخزينة السلطانية . فقد كان أبوه حسن آغا رجلاً من بسطاء الناس في قنديللي . وشاءت الظروف ان يفقد أبويه منذ نعومة أظفاره ويصبح يتيماً في هذه الدنيا الصاخبة . غير ان زوج جدته ، الذي كان حارساً في أحد القصور الملكية ، اضطر الى ان يتكفله ويرعاه ويغدق من عطفه عليه . فتوسط له بأن يستخدم في احدى مأموريات البلاط الداخلي ، وهناك دخل في دائرة الخزينة السلطانية ونشأ فيها . ثم تدرج في الوظائف من بعد ذلك حتى أصبح كاتباً للسر مدةً من الزمن بحيث أصبح يلقب بعنوان هذه الوظيفة مدى الحياة .

وتولى بعد هذا مناصب مختلفة وولايات عدة ، حتى اختير لولاية بغداد وفيلقها العسكري الكبير في الخامس والعشرين من أيلول سنة تسع وخمسين وثمان مئة وألف .

وقد عرفت مدة حكم «كاتب السر » أو الباشا الأمي في بغداد . وهي لا تتجاوز الأحد عشر شهراً من الزمن ، بأمور مهمة ثلاثة . فقد اهتم اهتماماً خاصاً بتنفيذ سياسة الدولة في عدم تعيين العراقيين في الوظائف التابعة لدوائرها ودواوينها على قدر الامكان . ولعل هذه الخطة كانت قد وضعت على أثـــر استئثار المماليك في الحكم واستقلالهم عن الباب العالي في جميع الأشياء عدا الشكليات ، خلال مدة طويلة من الزمن .

أضف الى ذلك انه سلم مقاليد الأمور الى دفتر داره مخلص باشا ، وانقاد له تمام الانقياد في شؤون العشائر على الأخص ، ولذلك ارتكب كثيراً من الأغلاط الفظيعة وأساء التصرف في تعامله معهم . فقد نقض جميع ما كان قد اتخذه الوالي الأسبق محمد رشيد باشا من ترتيبات تجاه المنتفك . ونقل مقر الجيش من سوق الشيوخ الى مكان آخر بحجة وخامة المكان وعفونة الهواء فيه . وبذلك شجع شيوخ تلك الجهات على تحدي الحكومة والمماطلة في دفع الضرائب لها ، ثم استفز قبائل البومحمد في العمارة وضغط عليها من دون مبرر . فأدى ذلك الى

عصيان رئيسها فيصل الخليفة واعلانه الثورة في وجه الحكومة . وقد شجع فيصلاً الخليفة على هذا العمل الأهوج اتصاله بالايرانيين القريبين من حدوده ومساعدتهم له بالمدافع والسلاح .

ولم يجد مصطفى نوري باشا بداً من تجريد حملة قوية من الجيش النظامي والهايته . بقيادة محمد باشا الدياربكري ، لتأديب البومحمد والتنكيل بهم كالعادة. وحينما سار إليهم بجيشه ومدافعه وجدهم متجمعين في محل اتصال دجلة بالكحلاء فوجه نيران مدافعه الحامية نحو جموعهم الغفيرة هنـــاك حتى فرّقهم وشتت شملهم . وعند ذاك تمكن من انزال قواته في مكانه الذي أسس فيه معسكره الثابت ومقره الدائم . ومنذ ذلك الحين أصبح يطلق على المنطقة اسم «الأوردي» أي المعسكر . وهي المنطقة التي أنشئت فيهـــا بلدة العمارة[1] بعد ذلك .

وقد اضطر فيصل الخليفة في أثر هذا الى الفرار مع قبائله ومحاربيه الى قلب الأهوار والاعتصام في مكان يدعى « الزبر » . غير ان القوات الحكومية تعقبته الى مأمنه هناك وحاصرته في قلعته الحصينة الكائنة في أهوار الكحلاء (الچحلة). وبعد أيام تغلبت عليه واستولت على غنائم كثيرة جاءت بها الى بغداد ، ومن جملتها المدافع الايرانية التي كانت في حوزته .

على أن أهم ما يروى عن أيام مصطفى نوري باشا تفشي الرشوة والفساد في دوائر الولاية ، وتطرف الباشا نفسه والمتصلين به من موظفي الولاية الكبـــار والصغار في اختلاس الأموال والتذرع بمختلف الوسائل للحصول عليها في كل فرصة أو مناسبة . فقد اتخذ قراراً خاصاً لنفسه يتقاضى من خزانة الولاية بموجبه مبلغاً سنوياً من المال يبلغ حوالي الألفي كيس بحجة تـــلافي مصاريف السفر والنثرية والتجوال علاوةً على الراتب الشهري المعروف . وبذلك اضر مالية الدولة خلال مدة حكمه القصيرة بمبلغ يقارب الثلاثين ألف كيس على رأي بعض المؤرخين[2] .

---

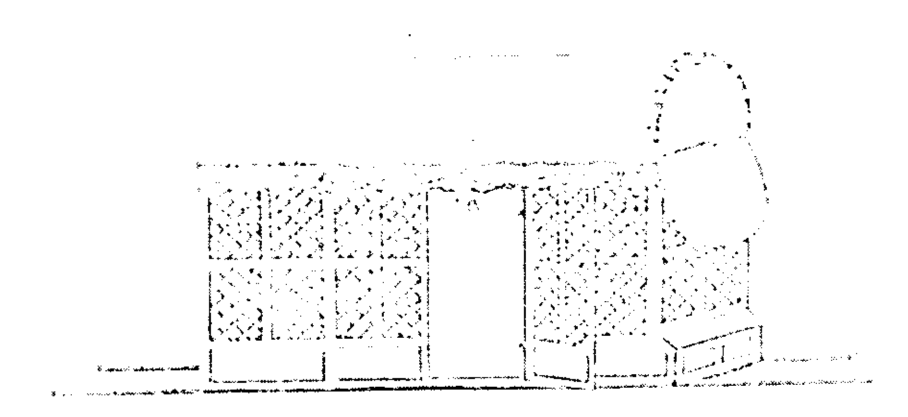
(١) وكان اسم « العمارة » يطلق على هذه المنطقة قبل هذا العهد بمدة طويلة من الزمن .

(١) جاء في مرآة الزوراء قول المؤلف : وبعد ان تولى المومأ اليه السلطة انصرفت همته الى الأكل والشرب ، ولم يمارس شيئاً من الاعمال المفيدة. ومن الأضرار المادية التي أوقعها بالخزينة تبذير ما يقدر =

واطلق يد كهيته وصهره محمد باشا الميرميران في الرشوة ، والتفريط في أموال الدولة ، بحيث صار الصغير والكبير في الولاية يتحدث بكونه واسطة الرشوة للباشا الوالي نفسه . وقد كان من المعروف عنه في هذا الشأن انه كان لا يتورع عن أخذ كل شيء يستطيع أخذه أو وضع اليد عليه من المجيدي الفضة الى مئات الأكياس من الدراهم كما يروى في أحد المراجع . وبذلك أصبح قدوةً لسائر الموظفين في الرشوة والاختلاس . ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ان يجد المحققون الذين أوفدوا من استانبول برآسة عطا بك بأن الكهية المذكور قد بلغ ما تقاضاه من شيوخ القبائل والموظفين والأهلين شيئاً يناهز الستة عشر ألف كيس . ومن الطريف أن يذكر في هذه المناسبة ان الوالي التالي أحمد توفيق باشا قد عمد الى حبس الكهية المختلس في غرفته التي كان يباشر فيها أعماله الرسمية ، وبقي كذلك مدةً تقارب الثمانية أشهر ريثما يجري التحقيق بشأنه .

وثبت في التحقيق كذلك ان الوالي الأمي ، أو كاتب السر ، كان على علم تام بمعظم الرشاوى والاختلاسات التي كان يقترفها صهره وكهيته هذا ، وأنَّ الكهية كان يأخذ كل شيء جهراً من دون خوف أو وجل . والغريب في الأمر ان الجهات المسؤولة في الباب العالي ، مع جميع ما ثبت لديها في هذه الارتكابات والأعمال المخجلة ، لم تفعل شيئاً بالنسبة للكهية سوى ان تطلب الى السلطان عبد المجيد عزله واعادته سالماً غانماً الى بلده . ولم تشأ أن تسجل شيئاً مخلاً في سجلها الرسمي بالنسبة للوالي مصطفى نوري باشا نفسه ، برغم اقدامها على عزله واقصائه عن الخدمة . فقد ذكر عنه في السجل العثماني ، بعد تعداد الوظائف والمناصب التي تسنمها ، أنه دخل في عداد الأعيان الكرام بعد العزل ، وأنه كان مستقيماً .

= بثلاثين ألف بدرة من النقود بدون مبالغة وذلك خلال مدة حكمه.. وحصل عن طريق الرشوة هو وكتخداه المير ميران محمد باشا حوالي الفي بدرة من النقود المجيدية البيضاء .



ال « تخت روان » وكان يستعمل في السفر البعيد

نقلا عن رحلة الدكتور آيفز

٤١

الكهية الشاعر[١]

كان الحكم العثماني في العراق يتــولاه في الأعم الأغلب أنــاسٌ غير عراقيين ، يؤتى بهم من البلاد التركية ، أو من سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية. وقد بلغ أوجه في هذا الشأن على عهد المماليك الذين كانت تتولى الحكم في أيامهم طبقة خاصة من الناس كان يتلقى أفرادها المستجلبون من الخارج تدريباً خاصاً ، ثم يوزعون على المناصب المدنية والعسكرية المهمة ، وحتى غير المهمة في بعض الأحيان . وقد استفحل هذا الأمر خلال مدة تناهز الثمانين عاماً بحيث كانت الدولة العثمانية نفسها عاجزةً عن انتزاع الحكم من أيدي هذه العصبة المستحكمة ، على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلتها في شتى المناسبات .

غير ان هذا التقليد وان ظل قاعدة عامة يتحكم بها الغرباء في هذا البلد الرازح تحت وطأة الحكم الأجنبي الغريب مدة من الزمن ، فقد كان يصادف في بعض الأحيان أن تشذ فيه الأمور فتخرج عن نصابها قليلاً فيتسنم بعض الوظائف المهمة بين حين وحين أناسٌ من صميم أبنائه وأسره المعروفة . وكان ممن ينطبق عليهم هذا القول رجلٌ نشأ في أسرة عربية نابهة ، وقفز قفزةً واحدة الى منصب الكتخدائية ، او الكهية ، بفضل ما كان يتمتع به من مواهب وقابليات .

فقد نشأ عبد الباقي العمري ، الملقب بالفاروقي أيضاً ، في كنف الأسرة العمرية في الموصل ، وترعرع في محيط يعبق بأريج العلم والأدب ويزخــر بمظاهر الفضل والمكرمات . وظل يرتضع أفاويق المعرفة والخلق الرصين حتى

---

(١) المراجع : ديوان عبد الباقي العمري ، المسمى «الترياق الفاروقي» ، ط ٢ (النجف ١٩٦٤) ، المماليك في العراق .

اكتملت شخصيته ونضجت قابلياته ؛ ثم نبه ذكره في وقت مبكر . فاختير لمنصب الكهية في باشوية الموصل وهو في العشرين من عمره وأصبح كهيةً لامعاً يشار اليه بالبنان ، ويُندب للملمات .

وقد حدث في أثناء توليه هذا المنصب الرفيع أن شغر منصب الباشوية في الموصل واقتضى الأمر ترشيح شخص لائق يتربع على دست الحكم فيه فتقر قرار أعيان الموصل والطبقة الحاكمة فيها ان يرشح للمنصب السامي يحيى باشا بن الحاج نعمان الجليلي . وتطلب الأمر الى ان يوفد الى بغداد وفدٌ خاص يعرض القضية فيها على الوالي داود باشا ويقنعه باستحصال الفرمان الهمايوني لذلك من السدة العلية في الاستانة . غير ان هذا الأمر كان دونه خرط القتاد ؛ لأن الناس في جميع أنحاء الولاية كانوا يتهيبون من مقابلة داود ويتحاشون المثول بين يديه . وكان حتى وجوه بغداد لا يستطيعون مقابلته الا في يوم الجمعة ولا يجسرون على التدخين ، أو شرب القهوة ؛ بحضوره لما هو عليه من هيبة ووقار. ومع هذا فقد أُعطي القوس باريها وانتُدب لمرافقة الوفد الموصلي الكهية عبد الباقي العمري نفسه لما عُرف عنه من ذكاء وجرأة أدبية ؛ ولما اشتهر به من سرعة في البديهة والخاطر بحيث كان يُلقب بالفوري لأنه كثيراً ما كان يرتجل الشعر على الفور ويتفوق على غيره في المناسبات الحرجة عفو الخاطر . وحينما قصد الوفد بغداد دار السلام . وحظي بالمثول بين يدي الباشا الخطير ، أُعجب داود بالكهية الشاعر ونال عنده منزلةً لم ينلها أعيانها أنفسهم . وقد سأله عن حاجته وأمنيته فأجابه بالبيتين التاليين :

يا مليك البلاد أمنيتي حـــا شاك مثلي يعود منك كسيرا

انت هارون وقته ورجائي ان أرى في حماك يحيى وزيرا

ولما كان داود باشا من الولاة المثقفين الـــذين يتذوقون الشعر والأدب ، ويقدرون العلم وأهله ؛ فقد وقع هذا الجواب المنطوي على التورية المحببة موقعاً حسناً من نفسه ونزل عند رغبة الوفد الموصلي في الحال فعرض مطلبه على أولياء الأمر في الباب العالي وخلع على الكهية الشاعر خلعة نفيسة . فكان ذلك أول نصر يحققه الاداري الناشىء في منصبه الجديد ؛ واستأهل ان يهنئه عليه الكثيرون

من أدباء بغداد وسراتها لنجاح مسعاه ، والتوفيق الذي صادفه في حُظوته لدى عاهل بغداد وسيدها المهيب .

ثم دارت الأيام دورتها المعتادة ، وتطورت الأحوال فيها ، فشق داود عصا الطاعة على السلطان وقرر أولو الأمر في الباب العالي ان يُنحّى عن منصبه بأي ثمن ، بعد أن صاروا يحاذرون من أن يكون شأنه في بغداد شأن محمد علي الخديوي في مصر . وقد انتُدب لهذه المهمة الخطيرة علي رضا باشا اللاظ والي حلب . وصدرت الأوامر بتخويله سلطات مطلقة في ذلك وتزويده بالقوات والأموال اللازمة . وحينما وصل علي رضا الى الموصل الحدباء في طريقه الى بغداد تريث فيها ، وارتأى ان يبعث قبله بقاسم باشا العمري متصرف الموصل حينئذٍ على رأس ثلة من قواته العسكرية والعشائرية ، وكان من رؤسائها صفوك الياور شيخ مشايخ شمر وسليمان غنام العقيلي . وكان عبد الباقي العمري من أشقاء قاسم باشا هذا . فاستصحبه معه في حملته التي لم تكن حملة عسكرية فقط وانما كانت في الدرجة الأولى حملة تفاوض ومناقشة تحتاج الى مواهب الكيفية الشاعر في الذكاء وسرعة الخاطر .

غير ان قاسم باشا لم يكن يملك مواهب أخيه الشاعر على ما يبدو . ولذلك أظهر في مهمته كثيراً من الغل وعدم التسامح ، ولم يسمُ فوق الأحقاد والضغائن . بل سار على سياسة الانتقام من خصمه داود باشا والتنكيل بأتباعه . وذهب الى أبعد من هذا بحيث أضمر في نفسه الاستئثار بحكم بغداد دون القائد المنتدب علي رضا باشا . ولذلك باءت خطته بالفشل ، إذ تعقدت الأمور بسوء تصرفه فأدت الى انتقاض أهالي بغداد المتعلقين بداود عليه فقتل خلال الفوضى التي نشأت عن ذلك . وتشتت شمل أتباعه ، فقفلت شرذمة منهم عائدة الى الموصل بمعية أخيه عبد الباقي العمري نفسه .

وقد تناهت أخبار هذا الفشل الى علي رضا وهو في منتصف الطريق بين بغداد والموصل ، لأنه كان زحف بجيشه على العاصمة عندما علم بدخول قاسم اليها من قبل . فكتم النبأ حرصاً على معنويات جنوده واستأنف السير ، وبعد أن تم له الاستيلاء على بغداد وأزال حكم المماليك عنها الى الأبد استدعى عبد

الباقي اليها فعهد اه بكتخدائية بغداد ليستفيد من مواهبه ويستعين بشخصيته . فازداد شأنه وعظمت منزلته ، وظل الى جنب علي رضا باشا طوال مدة حكمه البالغة حوالي أربعة عشر سنة . وكان خلال تلك المدة كلها يمحضه الرأي والمشورة ويذب عنه بلسانه الذرب وقصائده العصماء .

وقد كان بقاء عبد الباقي العمري في بغداد سبباً في نباهة ذكره واشتهار صيته ، لأن شخصيته بدأت تتكامل فيها بالتدريج ، وأخذت شاعريته تتفتح فتجد لها آفاقاً أوسع خلال ذلك فتبدع يوماً بعد يوم . فساجل الشعراء وكاتب الأدباء ، واختلط بأهـــل العلم والأدب الى جنب اختلاطه بالساسة ورجال الطبقـــة الحاكمة بحكم وظيفته ومنزلته ، فأصبح بذلك محوراً لحركة أدبية بارزة في وسط ذلك الخضم المتلاطم من العجمة والرطانة التي كانت تسود يومذاك . ولهذا كانت قصائده ومقطوعاته تتناقلها الأندية والأوساط فتحفظهـــا ، أو تخمسها ، او تعارضها فتنظم على منوالها . وكان وهو في وضعه هذا حلقة وصل ترتبط بها جهات وأوساط مختلفة تمتد من الموصل الى النجف والحلة وبغداد والبصرة ، وحتى الى ايران واستانبول ، فتتفاعل ويتكون منها نوع من الأدب العراقي الموحد في تلك الفترة . وهكذا امتزجت عنده السياسة بالأدب وتقدم شـــأن الأدب لدرجةٍ ما بفضل السياسة وفن الحكم . وقد استطاع كهيتنا الشاعر . بعد ان أصبح في منزلةٍ مثل هذه ، ان يستقيم مدةً طويلة في وظيفته ويعمـــر طويلاً في منصبه المرموق برغم تبدل الولاة وتعاقبهم على كرسي الولاية .

ولا ريب ان جل ما كان يملكه الكهية العمري في وضعه هذا أنه كان ذا مقول صارم وأنف حمي ، وان شاعريته الثرة كانت أمضى سلاح عنده ، كما كانت رأس ماله الوحيد في ذلك المعترك الحامي . فبشعره نال الحظوة عند داود ، وبشعره أصبح كهية يشار اليه بالبنان في ولاية بغداد الجسيمة ، وبشعره كـــان يحافظ على حقوقه ويصول على خصومه ومنافسيه ، أو يعالج الأمور ويحـــل المشاكل . وقد استطاع بفضل هذه الشاعرية كذلك ان يحافظ على وظيفته المرموقة بعد انتقال علي رضا باشا ويبقى كهيةً في الولاية حتى في أيام نجيب باشا من بعده والكوزلكلي رشيد باشا والسردار الأكرم عمر باشا ونامق باشا وأحمد توفيق

ومصطفى نوري . ولا شك أنه كان يمدح كلاً منهم ويهنئوه ، او يثني عليه ، أو يهجو أعداءه في كل فرصة ومناسبة . وكان يفعل ذلك بحيث يتجاوز احياناً الحدود فيصل الى حد المداهنة والمدح الرخيص ، ويبالغ بالأمور الى حد تنطمس فيه الحقيقة الناصعة والواقع الأليم في بعض الأحيان .

وكثيراً ما كان ينتدب عبد الباقي للمهمات الرسمية فيتولاها بروح طيبة ويعالجها بالحسنى . فقد حدث في أيام نامق باشا ان اقتتل فريقا الزكرت والشمرت في النجف الأشرف واتسعت الفتنة بينهما حتى أصبحت خطراً على الأمن في المنطقة . فانتُدب الكهية الشاعر لاطفاء الفتنة بالقوة ، وزوّد بالجيش اللازم والصلاحيات المطلوبة . لكنه حينما توجه الى النجف آلى على نفسه ان لا يريق الدماء فحمل على العصاة وأخافهم بالتهديد والوعيد حتى أطفأ نار الفتنة باصلاح ذات البين ، لا سيما وقد كان أحد الفريقين يمالىء الحكومة ويواليها . وقد نظم بعض الأبيات بالمناسبة ، ومنها :

عجبت لسكان الغـري بظل الوصي استظلوا وناموا
فهم فتية الكهف من بعد مـا أقاموا زماناً بـه واستقاموا
رأوا شمس قبتـه كوّرت فظنوا القيـامة قامت فقاموا

وقد اتفق حينما كان عبد الباقي العمري كهيةً على عهد عمر باشا السردار الأكرم سنة ١٨٥٨ أن طغى دفتري الولاية مخلص باشا وتجاوز حدود وظيفته وأعماله ، فأخذ يتولى أعمال الكهية وغيره وهي ليست من اختصاصه بحيث استاء منه الكهية العمري. فلم يكن منه وهو الشاعر إلا أن ينظم بيتين اثنين ويبعث بهما الى الوالي نفسه ، فكان ذلك كافياً لجلب رضاه وإصدار أمره بايقاف مخلص عند حده . والبيتان هما :

انا سيف جردتني من قرابـي بيدٍ قـد توقفت عن ضرابي
فأعدني الى قرابي وإلا هزني هـزةً لتعرف ما بي

على أن أبرز ما يعرف عن الكهية العمري ، وشاعريته المتدفقة ، هو حبه الشديد لآل البيت ، واندفاعه في مدحهم وتقديسهم . ولذلك نجد ديوانه زاخراً بعشرات القصائد والمقطوعات في مدح النبي وآله وتعظيم الامام الوصي وأبنائه.

وقد تخلد البعض من هذه القصائد والمقطوعات ، فخلد معه ذكر الكهية الشاعر الى الأبد ، وشاع على الألسن فصار معروفاً على مدى السنين والأيام . والظاهر انه بلغ بذلك حداً جعل بعض الناس يأخذون عليه هذا التطرف ، ويلومونه على عدم مدحه لجده الفاروق بمثل هذه الحماسة والاندفاع ، فنظم في ذلك البيتين الآتيين :

يقولون لم لا تمتدح جدك الذي　　أعزه به الاسلام مولاه فاعتزا
فقلت كفاه الفخر ان الذي بـــه　　حوى شرف الاسلام نال به العزا

لكننا مع كل اندفاع الكهية الشاعر في مدح آل البيت ، وجميع قصائده الرنانة التي نظمها في الاشادة بذكرهم والتنويه بحقهم ، نجده قد نظم قصائد أخرى تنافي بروحيتهـــا ودوافعهاروحية هذه القصائـــد ، الأمر الذي يقلل من قيمتهـــا في نظر البعض عـــلى نفاستهـــا ، ويلقي أضواء من الشك في اخلاص ناظمها واعتقاده بما تنطوي عليه من معانٍ . غير اننا لا نذهب الى هذا البعد ، وانما نعتقد ان تطرف عبد الباقي العمري في مدح بعض الولاة الأتراك ، الذين لا يعتبر سجل عملهم في العراق شيئاً مشرفاً . يعتـــبر من شطحاته كشاعر ألف نظم هـــذا اللون من القصيد جرياً على ما كان يفعله غيره من شعراء ذلك العصر . ونعتقد كذلك أن مجرد نظمه لمثل هذا العدد من القصائد في آل بيت المصطفى يكفي ليغفر له جميع زلاته وشطحاته . ولا ريب ان المبالغة في مدح علي رضا باشا ، ومحمد نجيب باشا ، والكوزلكلي لدرجةٍ ما ، كان من قبيل مداراة « الخبزة » والتشبث بالابقاء على الجاه والمنصب على حساب بعض القيم .

فقد مدح عبد الباقي العمري الوالي علي رضاباشا بقصائد عدة في مناسبات عديدة ، وأشاد به وبأعماله ، ولم يكن فيما فعل ما يؤاخذ عليه لا سيما اذا علمنا انه هو الذي جاء به من الموصل وجعله كهيةً في سراي بغداد . لكنـــه يؤاخذ على تطرفه في مدحه ، ومقارنته بالامام علي ولو على سبيل التورية أحياناً لتشابه الاسمين ، وهو الباشا السكير الفاسق . وقد مدحه كذلك لنجاحه في تدمير المحمرة ، والتنكيل بقبائل كعب العربية التي تحيط بها في نفس الوقت الذي يمدح فيه قواته التركية (الرومية) . وكان ذلك على أثر الحملة التي شنها

على المحمرة وشيخها الحاج جابر سنة ١٨٣٧ ، ومبادرته الى نهبها وتهديمها ، بقصيدة طويلة يقول فيها :

فتحنا بحمد الله حصن المحمرة — فأضحت بتسخير الأله مدمره
بسيف علي ذي الفقار الذي لنا — لقد أخلصت صقلاً يدالله جوهره
وجابر أورثناه كسراً بكعبه — وليس لعظم قد كسرناه مجبره
على ساقها قامت لكعب قيامة — فزلت بهم أقدامهم متعثره
ومن جثث القتلى اذا شاء معبراً — عليها جميع الجيش مهد معبره
فكارون يحكي النهروان وهذه الخوارج والغازي الغضنفر حيدره
سقى الرفض ساقي الحوض كأس منية — غداة وردنا بالمسرات كوثره
ودارت على كعب دوائر نعيهم — فلا بوركت تلك الكعاب المدورة
فواعجباً من شيعة كيف تدعي — ولاء علي وهي منه منفره
وأمست بنو النصار والرفض دينها — على ما دهاها من علي منكره
قطعنا من الدربند حبل وريدهم — بلى وأصبنا من طلى الرفض منحره
وفرسان روم ما تروم سوى اللقا — لهم كأسود الغاب في الحرب زمجره
أبادوا بني الغضبان في خدمة الرضا — بوقع سيوف للوطيس مسعره
وبالبيض سقنا السود والسمر دفعة — وسوق النجاشي روج السبي متجره

ثم مدح كنهيتنا الشاعر محمد نجيب باشا مدحاً مفرطاً في مناسبات وأحوال كثيرة ، وأشاد بعدله ومروءته ، وهو ذلك التركي القاسي المتعصب الذي حكم العراق بالجور والظلم والفساد حتى ضجت منه الناس بالشكوى فعُزل ، على ما يذكر سليمان فائق بك في مرآة الزوراء . واعتدى على حرمة المدينة المقدسة كربلا فهاجمها ، وقصفها بالمدافع فأُصيبت قبة الامام الحسين وانهد من القصف أعلاها ، ثم قتل أهلها ودنّس مقام العباس فدخل فيه بحصانه . ومع كل هذا يهنؤه كنهيتنا الشاعر على هذا الانتصار الباهر بقصيدة منها :

بلك العراق أحرز الأمانيا — لما تقررت عليه واليا
قلدك السلطان سيف حكمه — فقمت فيه آمراً ناهيا
للعدل في الزوراء رحت ناشراً — مطارفاً للجور فيها طاويا
مهدت بالهندي يوم كربلا — هندية فاندرست مجاريا

وقد تركت الرفض فيها ضفدعاً جفت سواقيه فمات صاديا
وما رميت إذ رميت مدفعـاً لكن عنك الله كان راميـا

ويستخذي فيقول من النثر والنظم حينما انتدبه علي رضاباشا لمهمـةٍ في النجف :

.. وبعد فيقول العبد المفتقر الى اللطف الخفي من مولاه الكبير العلي عبد الباقي الفاروقي الموصلي . هذه مقطوعة بمحض القبول إنشاء الله تعالى موصولة وبالأنظار العلية العلوية مشمولة . نظمت فرائدها حين وقوفي وقيامي بخدمة أعتاب باب مدينة العلم النبوي ويااه من موقف مرتضوي ، وذلك حين صدور أمر وإرادة ولي نعم هذه الأمم ملاذي الأعظم وعياذي الأقوم رفيع القباب سامي الأطناب علي الجناب سميّ حضرة أبي تراب الوزير الخطير والدستور المشير أفندينا علي رضا باشا ..

بنا من بنـات الكوفة الغـرا سبوحٌ سرت ليلاً فسبحان من أسرى
تمد جناحاً من قوادمـه الصبا تدوم بأكناف الغري لها وكـرا
تؤم ضريحاً ما الضراح وان علا بأرفع منـه لا وساكنه قـدرا
حوى المرتضى سيف القضا اسد الشرى عليّ الذرى بل زوج فاطمة الزهرا
مقام علي كـرم الله وجهه مقام علاً رد عين العلا حسرى
أحطنا بـه وهو المحيط حقيقةً بنا فتعـالى ان نحيط به خبـرا
تطوف من الأملاك طائفة بـه فتسجد في محـراب جامعه شكرا
وحزب من العالين يهتف بالثنـا عليه بوحـي كدت أسمعه جهرا
جدير بأن يـأوى الحجيج لبابه ويلمس من أركان كعبته الجـدرا

هذا وقد قُدر لعبد الباقي العمري ، الكهية الشاعر ، أن يرحل عن هذه الدنيا الفانية وهو ما يزال في المنصب أثناء ولاية نامق باشا الثانية في بغداد ، بعد ان خلد ذكراً حسناً لا تمحوه الأيام . في حادثٍ مؤسف وقع له سنة اثنتين وستين وثمان مئة وألف . فقد خرج يريد التضوء لصلاة العشاء في يومٍ من أيام تشرين الأول ، فسقط من طارمة الحرم وقضى نحبه وهو في السبعين من عمره . وقد دُفن بالقرب من قبة الشيخ الكَيلاني .

٤٢

ذبحة المتصرف[1]

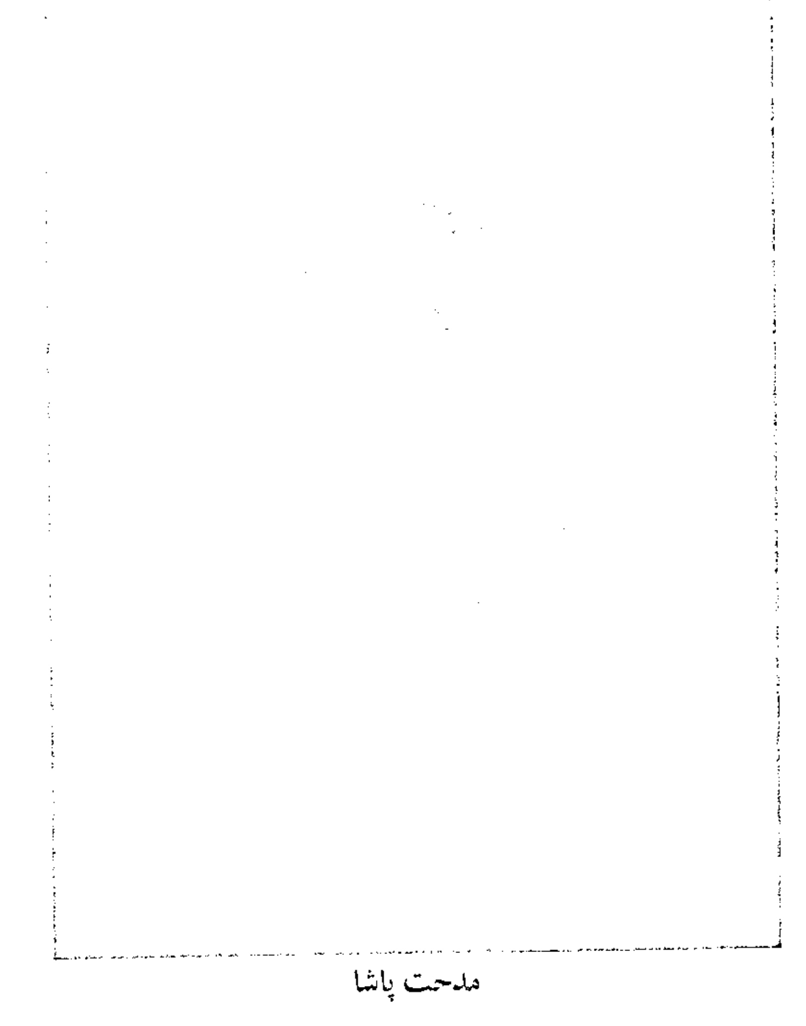
في سنة تسع وستين وثمان مئة وألف عُين لولاية بغداد أبو الأحرار مدحت باشا ، فافتتح بوصوله اليها عهداً جديداً من عهود الحكم العثماني المتقلب في هذه البلاد . وقد رحب الأهلون بمقدمه في طول البلاد وعرضها ، وتفاءلوا بالحكم الجليل الصالح ، لما عرف عن مدحت من روح إصلاحية حقة وعزمٍ أكيد في القيام بالواجب والدعوة الى التجديد .

ولم يكن خافياً على هذا الوالي المصلح ان الولاية التي تشبث بمختلف الوسائل والذرائع للحصول على كرسي الوزارة فيها كانت ولاية تختلف عن غيرها من الولايات العثمانية الأخرى في كثير من الأشياء ، وتنفرد عن غيرها بمشاكلها الخاصة . فقد كانت برغم تاريخها العربي الزاهر ، وحضاراتها العريقة في مختلف العهود ، وشهرتها التي سارت بذكرها الركبان . بلاداً تقادم فيها عهد الخراب فبات يسود فيها الجهل والاهمال ، وتنتشر فيها الفوضى والتسيب . وكانت برغم ثروتها الكامنة وكنوزها الدفينة تتحكم في القسم الكبير منها عشائر قوية الشكيمة خارجة عن الطوق . يصعب استغلال الثروات المهملة بوجودها ما لم ترسم خطط حكيمة صائبة لها . ولذلك كان لا بد للحاكم المصلح فيها من ان يتحلى بالحكمة والسداد . ويتوخى الخير وبسط المعدلة بين الناس .

ومع جميع الجهود التي بذلها مدحت باشا في اصلاح أحوال هذه البلاد ، وإدخال التجديد في هذه الولاية النائية من ولايات الامبراطورية الكبيرة ، فانه لم يخل من نقاط الضعف الأساسية التي كانت تعيق الكثيرين من الولاة العثمانيين

---

(١) المراجع : تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً ، للحاج وداي العطيه ، وكذلك العراق بين احتلالين .



مدحت پاشا

عن الحكم الصالح والعمل لخير البلاد وسكانها . فبدلاً من ان يتحلى بالصبر المتناهي وطول الأناة حينما حاول ان يدخل اصلاحاته المزعومة في المناطق العشائرية ، وجد نفسه متسرعاً في كثير من الأشياء ، ومجبراً على استعمال القسوة والعنف . والفتك البعيد عن الرحمة والعطف . ومع جميع ما حصل من تبدّل في الزمن وتطور في الأحوال العامة . فقد عمد الى سوق الجيوش وتجريد الحملات على العشائر كما كان يفعل أسلافه من ولاة المماليك وغيرهم . ومن جملة ما حصل من هذا القبيل ما فعله لمعالجة قضايا العشائر واستحصال الضرائب منها في منطقة عفج والدغارة ، وكانت تابعة الى لواء الحلة في أيامه .

فقد كان من جملة الاصلاحات التي اضطلع بها مدحت باشا قبل أي شيء آخر إقدامه على إصلاح الجهاز الاداري في البلاد ، وإدخال عناصر جديدة من الناس فيه . وكان ممن عينهم في هذه الأثناء ابن اخته توفيق بك ، الذي صدر الفرمان بتعيينه متصرفاً في لواء الحلة خلفاً لشبلي[1] باشا الدرزي .

غير ان توفيق بك كان شاباً مغروراً لا يحسب حساباً للعواقب ، ولذلك كانت أيامه معدودة في منصبه هذا . فقد حدث في الأشهر الأولى من توليه المتصرفية ان امتنعت عشائر عفج والدغارة عن دفع الضرائب المتراكمة عليها . وظلت تماطل في دفعها وتتهرب من تسليمها بحجة ان مزارعها ظلت تغمرها الميـــاه الفائضة من نهر الدغارة سنةً بعد أخرى خلال مدة طويلة من الزمن . ولم تستطع ان تحصل بسبب ذلك على ما يمكن تسديد طلبات الحكومة منه للضرائب المستحقة . وقد نتج هذا من جراء الخلل الحاصل في توزيع مياه الفرات (فرع الحلة) التي كان المجرى الوحيد لها في تلك الأيام شط الدغارة . ومع جميع ما كانت تعرفه السلطات المسؤولة في الولاية عن الأضرار التي كانت تسببها المياه الفائضة في كل سنة . وبرغم العرائض العديدة والشكاوى التي كانت تقدمها العشائر الى المسؤولين في بغداد واستانبول يومذاك ، فان الجهات المسؤولة لم

(١) لقد عاد شبلي باشا هذا واشتغل متصرفاً في الحلة مرة ثانية ، وقتل في ظروف غامضة فدفن في جامع الحلة الكبير بعد ان ظل متربعاً في دست المتصرفية مدة تزيد على عشر سنوات . وفي رواية تنسب الى ابنته فطم خان ، وقد تزوجها رجل من بيت الداعوق في لبنان ، انه مات مسموماً .

تبادر الى حل المشكل بطريقة من الطرق ، ولم تخف إلى مساعدة الناس على درء الاخطار التي كانت تنجم عن هذا الاهمال . وانما كانت تفعل بعكس ما كان يتطلبه الواجب منها تجاه رعاياها ، فقد كانت تريد جباية الضرائب في جميع الظروف والأحوال ، وتشدد النكير على العشائر بصرف النظر عن كل ما يحصل أو يحدث . وكان الناس من عشائر وغيرهم يأملون خيراً في مجيء مدحت باشا ، ويعتقدون بأنه لا بد من أن يقدر الظروف حق قدرها وهو المعروف بروحه الاصلاحية ، واتجاهه الحديث في شؤون الحكم . لكنه خيّب أملهم فازدادت أحوالهم سوءً على سوء .

وجرياً على مثل هذه القاعدة ، فقد خف توفيق بك الى منطقة عفج على رأس قوة تقدر بثلاثة آلاف جندي لاستحصال الضرائب المتراكمة عند عشائرها ونصب معسكره في الجانب الأيمن من الدغارة . وبعث من هناك يستقدم الشيوخ والرؤساء اليه ، بعد ان استفزهم قدومه بهذه الحالة الى هناك ، وكان من جملتهم ونان رئيس عفج وبدوي رئيس الدغارة ، اللذين كان بذمتهما على الأخص مبالغ كبيرة الى الحكومة. غير ان الشيوخ لم يحضر منهم سوى الحاج طرفة الغانم[1] . وفي مجلس حافل برجال الجيش وشيوخ بعض القبائل المتزلفين مثل الشيخ خلخال بن حجيل آل مشكور[2] رئيس جليحة أخذ المتصرف الأخرق يعنف الحاج طرفة بشدة وخشونة ، ولم يستمع الى أعذاره وتوسلاته . ولم يكتف بذلك فقط ، بل لطمه على عينيه لطمةً شديدة بكفه أيضاً . غير ان الشيخ الحاج استطاع ان يسيطر على أعصابه برغم ما لحقه من إهانة . وسكت على مضض حتى أقنع المتصرف بأن يسمح له بالعودة الى مقره فيحضر باقي الشيوخ اليه . ثم انصرف من عنده فاستقل قفةً يعبر بها الى الجانب الآخر من النهر ، وما توسطه حتى أمر المتصرف بارجاعه عاجلاً لأنه شعر بالخطأ الذي ارتكبه باطلاق سراحه ، لا سيما بعد ان لفت نظره جليسه الشيخ خلخال الى وجه الخطأ في

---

(١) الحاج طرفة آل أحمد آل حسين آل غانم .

(٢) كان معروفاً بين القبائل ان العداوة كانت مستحكمة بين آل غانم وآل مشكور منذ القرن الثاني عشر الهجري .

ذلك وأبان له انه كان من الأفضل له ان يحتفظ بالحاج طرفة عنده ويزجه في السجن حتى يحضر سائر الشيوخ والرؤساء .

على ان الجند لم يستطيعوا إرجاع الحاج طرفه حتى بعد أن اطلقوا النار عليه وهو في منتصف النهر . فقد استطاع صاحب القفة تعبيره بسرعة لأنه كان من أفراد عشيرته . فتلقاه رجاله وأصحابه في الجانب الثاني بتلهف ، ولما كانت عشيرته تقف على أهبة الاستعداد وهي تنتظر عودته من عند المتصرف فقد هرع رجالها الى السلاح في الحال وهوّس مهوسهم بمحو العار والاقتصاص للاهانة التي لحقت برئيسهم . وسرعان ما عبرت القبيلة كلها فأحاطت بالمتصرف الأخرق ومعسكره ، وتبعتها القبائل الأخرى على اثر ذلك. وقد استمر الحصار والمناوشات بين الفريقين ثلاثة أيام متوالية كانت نتيجتها ان قتل المتصرف وكبار ضباطه ، مع عدد كبير من أفراد الجيش ، وتفرقت القوة شذر مذر بعد أن أصاب الجيش العطش بنتيجة الحصار المفروض ونفد عتاده الحربي . ولذلك أُطلق على هذه الواقعة اسم « ذبحة المتصرف »[1] .

ولا شك ان وقعةً مثل هذه كان لها أثرها السيء في طبقات الناس . وتأثيرها المهين في الحكومة وسمعتها . على ان أسوأ ما حدث من تأثيرات هو ان جميع القبائل الأخرى في تلك الجهات بادرت الى إعلان العصيان والثورة ، وأقدمت على قطع الخطوط التلغرافية التي كانت توصل بين بغداد والبصرة والهند .

وقد كان من الطبيعي ان يقوم مدحت باشا للحادث ويقعد عدة مرات ، ويحرق الأرم لا لأن المتصرف القتيل كان ابن اخته فقط بل لأن الحادث بذاته كان يعتبر تحدياً صريحاً للحكومة ووسيلة معرقلة في طريق الاصلاحات التي كان يعتزم تطبيقها . ولذلك بادر في الحال الى تجهيز الفريق سامح باشا بجيش عدته بضعة أفواج ، وإلحاق عدد غير يسير من قوات القبائل الموالية به ، مثل عنزة التي كان يرأسها عبد المحسن آل حميدي الذال ، وربيعة بقيادة نصيف بن درويش آل مذكور . والمنتفك وعلى رأسها فهد الثامر السعدون ، وبني زريج

---

(١) سميت « واقعة الدغارة » كذلك ، وقد قدر عدد المهاجمين من العشائر بثمانية آلاف .

بقيادة فرهود آل عساف وغيرهم . والتحق بالقوة كذلك متصرف المنتفك ناصر باشا السعدون وفي معيته أربعة آلاف خيّال . وهكذا احتشد في الديوانية جيش عرمرم يقوده الفريق سامح باشا بقصد ان يثأر لهيبة الحكومة المتورطة بحماقة موظفيها ، وكان يتألف من سبعة أفواج مشاة . وكتيبة نظامية من الخيالة وأربعة آلاف خيال عشائري منتفكي . وأكثر من (١٥٠٠) من خيالة الكرد والچچان ، مع المدافع والعتاد والمعدات اللازمة الأخرى .

على ان هذا الجيش الجرار بقي في الديوانية شهراً كاملاً من دون ان يظهر منه أي نشاط أو حركة ، فأغرى وضعه المستصعف هذا العشائر به . فقد شجعها هدوؤه فهاجمته في معاقله ، ثم حاصرت الديوانية نفسها بما فيها من القوات العسكرية ، وقد فعلت ذلك على الأخص قبائل الخزاعل وبني حچيم والجبور والبوسلطان . ولم يكتفوا بالحصار وحده بل صاروا أيضاً ينهبون المعدات والمؤن التي كانت تشحن الى قطعات الجيش من الحلة بطريق الفرات نفسه . وانقطعت من جراء ذلك أخبار الجيش عن بغداد والحلة وغيرهما ، لأن العشائر كانت قد دمرت الخطوط التلغرافية كذلك . وبات الوضع ينذر بالخطر ، لأن بغداد لم تبقَ فيها قوة عسكرية يؤبه بها ولم يكن بوسعها إمداد الجيش المحاصر بالمدد المطلوب .

وعلى هذا وجد مدحت باشا نفسه في مأزقٍ حرج ، فقرر تولي الأمر بنفسه وسار الى الديوانية على رأس قوة صغيرة قوامها (٣٠٠) مقاتل . غير انــه توقف في الحلة فرسم خطة للعمل فيها . تنطوي على سد نهر الدغارة وقطع مياهه عن العشائر . ثم سار الى صدر الدغارة فوافاه قسم من الجيش الى هناك بعد ان شق طريقه اليه بالقوة ، وأخذ ينفذ الخطة المرسومة تحت وابل من نيران القبائل المحيطة به . لكن مدفعية القوات الحكومية كانت كافية لحماية العمل وانهائه [1] .

---

(١) لقد تم العمل خلال ثلاثة عشر يوماً . هذا ويعتقد البعض ان عملية سد نهر الدغارة هي التي أدت الى ان يجف فرع الحلة من الفرات بعد مدة ، لأن مياه هذا الفرع كانت تجري كلها في نهر الدغارة ولم يكن يذهب منها الا شيء قليل الى الفرع الذي ينحدر الى الرميثة لكونه لم يكن يستوعب شيئاً كثيراً منها بسبب الترسبات المتراكمة فيه . أضف الى ذلك ان فرع الهندية أخذ يتوسع توسعاً مفرطاً =

وبعد ذلك خفت من بغداد قبائل شمر يقودها عبد الكريم الفارس لامداد الباشا وإخراجه من محنته عند الحاجة ، فتسنى للوالي التغلب على القبائل بعد معارك عدة . لكن الذي عجّل في تغلبه وإنهاء الفتنة التي استدامت أكثر من شهرين ، أن مياه الاهوار أخذت تقل بعد سد نهر الدغارة ، وصارت الأراضي المحيطة بها تجف يوماً بعد يوم . وعند ذاك أُلقي القبض على بعض الشيوخ ، وعلى الأخص ونان وبدوي ، فشنق قسم منهم على جسر الديوانية وكان من بينهم ونان وبدوي ونُفي الباقون الى روم ايلي . وبذلك انتهت أخطر موقعة وقعت خلال الحكم العثماني في العراق ، فلم يحدث في غيرها ان اجتمعت القبائل العربية المستبسلة مثل هذا الاجتماع[1] ضد الحكومة التركية . وكان سببها بطبيعة الحال تعجرف الموظفين العثمانيين وسوء تصرفهم .

= منذ سنة ١٨٤٢ وصار يأخذ معظم مياه الفرات ، فاستعصى أمره حتى استطاعت الحكومة ان تنشىء سدة الهندية باشراف المهندس البريطاني السر وليام ويلكوكس في ١٩١٣ ، فانتظم توزيع مياه الفرات عند ذاك .

(١) لقد اشتركت عشائر المنطقة كلها عدا عشائر الهندية .

أيضاح المصطلحات وبعض الاسماء[1]

١ – أغا – كلمة تركية الأصل تعني السيد أو الموظف من الدرجة الوسطى (العالية احياناً)، وقد يكون عسكرياً أو ملكياً أو مستخدماً (في بيت عظيم الشأن).

٢ – أغا الانكشارية – رئيس الانكشارية. أو ينيچيري أغاسي، وهو قائد الحامية الانكشارية.

٣ – أفندي – تركية من أصل يوناني، وتعني السيد. وتطلق على ما يسمى بالعربية الأديب الفاضل، وكان يستعملها العثمانيون مقابلاً لأغا أو بك. وأغا أو بك يستعملان لمن يدخل في سلك المحاربين أو الجند.

٤ – إيالة – كلمة عربية الأصل، تعني أكبر وحدة ادارية في الامبراطورية التركية.

٥ – أيج أغاسي – أغا الداخل، أي الأغا الذي يسمح له بالدخول الى البيت أو التردد عليه. وكان ال «أيج أغالري» يستخدمون وقت السلم في شؤون الاحتفالات والتشريفات.

٦ – باش أسكي – كلمة تركية تطلق على صاحب القِدم في الجندية، أي أقدم جندي في الفوج (أورطة). وكانت للباش أسكي منزلة محترمة تخوله قيادة الحرس (قرەقول). ولذلك كان يسمى أيضاً «باش قرەقولچي».

٧ – باش أغا – تطلق على قائد الانكشارية أو ما يسمى بأغا بغداد، وهو الـ «ينيچري أغاسي».

---

(١) رجعنا في هذه القائمة الى: (١) كتاب يعقوب سركيس (مباحث عراقية) و (٢) الأب أنستاس الكرملي في «تذكره الشعراء..» و (٣) لونكريك في أربعة قرون. والمعول في هذا الشأن على كتابين تركيين هما: (١) معجم شمس الدين سامي و (٢) «تشكيلات وقيافت عسكرية» لمحمود شوكت باشا.

٨ – باش جوقه دار – الچوقه دار هو موظف الولاة لدى الباب العالي ، ورئيس الچوقدارية هو الباش چوقدار .

٩ – باليوز – كلمة محرفة عن بايلوس Bylos الايطالية ، وتعني قنصل دولـة أوربية ، ولا سيما المقيم البريطاني في بغداد .

١٠ – براطلي (براتلي) – كلمة تركية كانت تطلق على طائفة خاصة من الجند لهم امتيازات معينة ، وهم مشاة يجندون محلياً . ويقول يعقوب سركيس استناداً الى ما وجده في التاريخ العثماني لأحمد راسم أن الكلمة مشتقة من « براطه‌لي » اي صاحب البراطة ، والبراطة نوع من لباس الرأس . اما أنستاس الكرملي فيقول ان براطلي هي تصحيف براتلي الكركية ، ومعناها المزود بالبراءة السلطانية .

١١ – برنوطي – كلمة تركية مشتقة من « برون أوتي » أي حشيشة الأنف ، وهو دقيق التبغ الذي يستعمله بعض الناس نشوقاً في أنوفهم ، وقد سماه البعض « أنفية » .

١٢ – بك – معناها الكبير والغني والقدير ، وتطلق على كل أمير أو كل ذي منصب عالٍ .

١٣ – بگلربگي – بك البكات ، وهي رتبة فوق أمير الأمراء ، مع أن الكلمة تؤدي نفس المعنى . ويلقب بها الباشا من أعلى درجة وحاكم الولاية .

١٤ – بلوك باشي – آمر كتيبة الخيالة .

١٥ – بيورلدي – كلمة تركية معناها أمر بالمجهول . وقد خصت ببعض الأوامر التي يصدرها الصدر الأعظم والوزراء والولاة وما أشبه ، وبما يشرحه ويعلق به هؤلاء على العرائض وسائر المخابرات التي ترفع اليهم .

---

(١) Luke H. C, - Mosul & Its Minorities. (London 1925).

(٢) كان من واجبات جلبي قونية في الدولة العثمانية ان يقلد السلطان عند تسنمه عرش آل عثمان سيف عثمان . وكان آخر من تقلد هذا السيف بهذه الطريقة في ١٩٠٩ السلطان محمد الخامس أو محمد رشاد . اما السلطان محمد السادس ، وحيد الدين ، فقد قلده هذا السيف في ١٩١٨ سيدي أحمد السنوسي بالنظر لظروف الحرب العظمى وأحوالها .

١٦ — تفنكچي — جندي من حملة البنادق التابعين لأفواج الجند النظامي المحلي.
١٧ — تفنكچي باشي — رئيس التفنكچية .
١٨ — تيمار — كلمة ايرانية الأصل تطلق على الأقطاع أو الالتزام الوراثي الذي لا تقل قيمته عن عشرين ألف آقچة .
١٩ — تيماري — صاحب التيمار الملزم بالخدمة العسكرية في أمرة السنجق بكي .
٢٠ — چاووش باشي — من ضباط الانكشاريه ، وله قيافة خاصة .
٢١ — جبه‌چي (جيبه‌جي) — الجندي المكلف بالاسلحة ومهمات الجيش الحربية والمحافظة عليها . وتكون بعهدة الجبيه‌جية عادةً المدفعية ومخازن الأسلحة.
٢٢ — چبوق — شطب ، « سبيل » للتدخين .
٢٣ — چبوقجي — صانع الشطب . وكذلك الموظف بشؤون التبغ والتدخين في ديوان الوالي .
وكان في بغداد سوق خاص للچبوقچية ، هو الآن جزء من سوق السراي
٢٤ — چوربه‌چي (جورباجي) — من الشوربه ، من أسماء الرتب القديمة لضباط الانكشارية العثمانيين . وتقابل « يوزباشي » أي مقدم .
٢٥ — خزنه‌دار — جمعها خزنه‌دارية ، وهو الأمين الموكل بخزانة الدولة أو صندوق المال . وقد يكون هناك في بيوت الأغنياء رجل بهذا الاسم يتولى حفظ الدراهم والحلي الثمينة وغيرها من الأموال .
٢٦ — دزدار — كلمة فارسية بمعنى صاحب القلعة ، أو ضابط الحصن ، أو حافظ البلد .
٢٧ — دفتردار — كلمة فارسية تركية مركبة من دفتر (أو سجل) المعروفة ، ودار اي صاحب أو حامل ، ويراد بالدفتردار المسؤول عن الحسابات ، ويكون الدفتردارية على ثلاث درجات : الدفتردار الأكبر أو الأول وكان وزير المالية نفسه ، والدفتردار الثاني وهو الأوسط وكان يراقب شؤون الضرائب واستيفائها بموجب النظام الجديد الذي استحدث في أيام السلطان سليم الثالث ، والدفتردار الأصغر او الثالث وكان يتولى إطعام دار السلطنة . اما في الولاية فهو رئيس موظفي الواردات والخزينة .

٢٨ – دلي‌باشي – أي رئيس الأدلاء ، والدلية صنف من قوات الخيالة موكل بحماية الحدود يرأسه الدلي‌باشي . وقد يلقب بهذا النفر الواحد منهم فيقال دلي‌فتحي ودلي‌عباس وما أشبه .

٢٩ – دويدار (دوايتدار) – لقب طبقة من أصحاب المناصب المدنية العليا على عهد المماليك ، وفي أيام السلاطين العثمانيين القدماء . وتتركب من كلمة دوي جمع دواة ، ودار اي حامل أو صاحب ، فيكون معناها حامل الدواة .

٣٠ – ديوان أفنديسي – تعبير تركي بمعنى كاتب الديوان .

٣١ – رئيس‌أفندي – مختصرة عن رئيس الكتاب ، وهو الوزير العثماني المختص بالشؤون الخارجية ، حتى القرن التاسع عشر .

٣٢ – زغرجي باشي – أي رئيس الزغرجية ، والزغرجي هو الموكل بحفظ كلاب الصيد والعناية بهم في الأصل . لكنها أصبحت رتبة من رتب الجند الانكشاري دون كتخدا الانكشارية .

٣٣ – سپاه – جند خيالة ، يقدمهم الاقطاعيون لخدمة موقتة . وقد أصبحوا بعد ذلك من جنود الخيالة النظامية في الامبراطورية ولهم قيافة خاصة . وكان السپاه يستخدم في وقت السلم لجباية الضرائب والمحافظة على الأمن .

٣٤ – سردار – كلمة تركية تعني القائد العام .

٣٥ – سرعسكر – قائد الجيوش .

٣٦ – سكمان – جندي درك (جندرمة) ، والكلمة محرفة عن سگبان (صگبان) التي كانت تطلق على نوع من الجند الأهلي المشاة .

٣٧ – سلحدار – كلمة عربية فارسية تعني حامل السلاح أو صاحبه . والسلحدار أغا هو ناقل سيف السلطان ورئيس حراسه ، اما السلحدار فهو من حراسه . وكان السلحدارية بمقام جند الحرس الملكي الخيالة .

٣٨ – سلحشور – كلمة عربية فارسية تعني حرفياً المتمرن على السلاح . والسلحشورية هم الرجال المسلحون بالبنادق من نبلاء الخارج (خارج استانبول) الذين يعملون في خدمة السلطان .

٣٩ — سنجق — لواء .

٤٠ — صوباشي — كلمة تركية كان يقصد بها في الأصل الموظف المكلف بتوزيع الماء وجباية الضريبة ، واصبحت تعني بعد ذلك الضابط العسكري الموكل بأعمال الشرطة ومهمات البلدية في المدن . لكنه كان يقوم بواجبه العسكري في أيام الحرب ، وله كسوته الخاصة .

٤١ — صولاق — لقب يلقب به أفراد الحرس الملكي في البلاط ، ويطلق أيضاً على حرس الوالي في الولاية الكبيرة .

٤٢ — الضبطية (الزابطية) — هي القوة التي نظمها مدحت باشا لتحل محل « الهايتة » في القيام بالاعمال التي تقوم بها الشرطة في يومنا هذا . وكان يقودهم ضباط برتب مختلفة مثل بلوكباشي ، ويوزباشي ، وسركردة . وقد اشتهرت هذه القوة خلال عهدها الأخير بأعمالها الكيفية ، وظلم الناس ، او الاعتداء عليهم .

٤٣ — ططر — محرفة عن تتر او تتار ، وهو ساعي البريد الذي يكون من العنصر التتري في الغالب .

٤٤ — طوبجي — كانت تعني في الأصل جندياً من الجنود غير المحاربة المرتبطة بالجيبهجيه ، وصارت تعني بعد ذلك الجند الخفيف المجند محلياً .

٤٥ — طوغ (توغ) — ينقل الاستاذ يعقوب سركيس ماتأتي ترجمته لهذه الكلمة عن تاريخ أحمد راسم : التوغ علامة شبيهة بالشعر المنتشر ، وهو شعر مصبوغ يتخذ من ذنب الفرس كان يوضع في السابق على راية كبيرة في الممالك الشرقية مثل بلاد الترك والصين والهند ، وكان يطلق عليها اسم « حاليش » . ثم أبدل شكل التوغ فكان يوضع في رأس عود بضع كرات من الشعر الأبيض والأسود فوق شعر منثور ، مصبوغ بالأحمر . وبعد هذا صارت التوغات تمنح في حكومتنا لأصحاب المناصب العالية ، لتكون علامة مميزة لهم . فكان يعطى أمير اللواء والبلك والسنجق طوغاً واحداً ، والميرميران والبكلربكي توغين ، والوزراء ثلاثة ، والصدر الأعظم خمسة . وكانت تحمل مع ركب السلطان في أثناء الحرب سبعة توغات .

٤٦ — عرب قاپيسي — وتعني « باب العرب » ، وهو الموظف العربي الذي يعين

في ديوان الباشا لتراجعه القبائل العربية في شؤونها مع الوالي . وقد كانت له منزلة كبيرة لأن الوالي كان يستشيره في مناسبات كثيرة . ويذكر ان هذه الوظيفة كانت موجودة في مصر أيضاً على عهد الخديوي محمد علي .

٤٧ — عزب — صنف من الجيش الأهلي المشاة كان يشترط في أفراده أن يكونوا عزاباً غير متزوجين .

٤٨ — فرمان — كلمة فارسية الأصل يراد بها الأمر أو الارادة الملكية التي يصدرها السلطان العثماني بتعيين أحد أو منح شيء ما . وكان الأمر اذا وجه الى ولايات الدولة زُيّن بالطغراء ، واذا كان برسم استانبول فيسمى بيورلدي ، ويكون مزيناً بتوقيع الصدر الأعظم أو غيره كالولاة .

٤٩ — قيوجيلركهيه‌سي — اي كهية البوابين في الأصل ، من الموظفين الكبار في الولاية .

٥٠ — قوناق (قوناغ) — كلمة تركية يراد بها المنزل الكبير ، والقصر ، ومقام ذي منصب عال . أو وال ، أو قنصل ، أو ما أشبه .

٥١ — كهيه (كهيا) — مخففة عن الكلمة الفارسية كتخذا التي تعني المعتمد او المعاون . وتعني بوجهٍ عام الأمين والموظف الكبير ، ثم أصبحت تعني الوزير الأول (لكل شيء) في حكومة الولاية التي يحكمها باشا من الباشوات .

٥٢ — كوله — كلمة تركية جمعها «كوله‌من » ، وقد تجمع «كولات » ، وتعني المملوك أو العبد المعتق (من أصل جركسي) .

٥٣ — لاوند (لوند) — جند نصف نظامي ، كان يتكون في العراق من الأكراد واللر في الغالب . ويستند يعقوب سركيس على كتابي هوار وأحمد راسم في تاريخ بغداد والتاريخ العثماني فيقول أن اللاوند من الجنود المتطوعة في دولة المماليك ، وكان يقال لرئيسهم « شهلوند » . ويتحتم على الجندي منهم ان يشتري لنفسه حصاناً ويطعمه على حسابه . ولم يكن اللاوند يتقنون استعمال الأسلحة لأنهم يجندون دون تدريب ، ولذلك كانوا يعتبرون من عساكر الدرجة الثانية . والمعتقد أن اللفظة محرفة عن كلمة ليفانت Levant الايطالية ، وتعني المشرق . اما مؤلف « تشكيلات وقيافت عسكرية » وهو محمود شوكت باشا فيقول ان اللاوند كانت لهم بزة

عسكرية خاصة ، وانهم يعدون من القوات البحرية في الأصل ، لكنهم صاروا يستخدمون بعد ذلك ضمن قوات الخيالة في الولايات المختلفة . وقد ألغيت تشكيلاتهم هذه في ١١٨٦ هـ لكنها بقيت في بغداد وغيرها من الولايات النائية .

٥٤ — متسلم — نائب الحاكم في السنجق أو الأيالة عندما تكون عدة أيالات في عهدة باشا واحد . ويطلق هذا الاسم كذلك على من ينوب عن الوالي الى حين تسلمه منصبه .

٥٥ — مطرجي — نوع من الجند .

٥٦ — مهردار — حامل ختم الباشا الوالي ، والمنصب من المناصب الكبيرة في الولاية .

٥٧ — ميرآخور — كلمة فارسية معناها رئيس الخيلية أو أمير الاصطبل .

٥٨ — ميرميران — أمير الأمراء ، وهي درجة من درجات الباشوات تقع تحت درجة الوزير وبك البكات .

٥٩ — ولاية — آخر شكل من أشكال الأيالة في التقسيمات الادارية للبلاد .

٦٠ — ويوودة (ويوضه) — كلمة تركية من أصل بلغاري كان يقصد بها في أول الأمر الآغا أو مدير الشرطة ، ثم صارت تعني الحاكم . وهذا اصطلاح كان شائعاً في الولايات العثمانية الأوربية وفي ماردين ، ويوازي درجة متسلم .

٦١ — هايته (حيطه) — كلمة تركية تطلق على قوة الجندرمة غير النظامية او الجنود المحليين الذين كان يستخدمهم الحاكم المحلي عادةً لقاء أجور ، وكانوا من العنصر الألباني غالباً . ومعنى الكلمة في الأصل العاصي ، وقد ألغى مدحت باشا هذه التشكيلات فاستعاض عنها بالضبطية . ثم ألغيت الضبطية واستحدثت الجندرمة في مكانها ، ويقوم بعمل هؤلاء في يومنا هذا الشرطة . وكانت قوات الهايتة ، على ما هو معروف ، تخـــرج لاستحصال الضرائب فتظلم الناس وتقسو عليهم من دون أن يقيد أفرادها بشيء أو أن يردعهم رادع . ولذلك صار العراقيون يقولون «صارت الدنيا هايته » أي لم يعد يردع الناس رادع ، او يقولون « الأمور مهيّتة » أي مسيّبة .

٦٢ — يرماز — كلمة تركية تعني السفيه الذي لا يصلح لشيء .

المراجع العربية

١ – الأعظمي ، علي ظريف – مختصر تاريخ بغداد ، بغداد ١٩٢٦ .

٢ – ابن سند . عثمان – مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، اختصره الشيخ امين الحلواني المدني ، القاهرة ١٣٧١ هـ .

٣ – ابو طالب خان ، عبد اللطيف – رحلته الى العراق وأوربة في ١٧٩٩ ، ترجمة الدكتور مصطفى جواد ، بغداد غير مؤرخ .

٤ – آل طعمة . السيد عبد الحسين الكليدار – بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ، بغداد ١٩٦٦ .

٥ – البدليسي . الأمير شرف خان – الشرفنامة في تاريخ الدول والأمارات الكردية ، ترجمه عن الفارسية ملا جميل روزبياني . بغداد ١٩٥٣ .

٦ – تافيرنييه ، جان باتيست – العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٤٤) .

٧ – جاكسون ، ج – مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي .

٨ – الخال ، محمد – تاريخ الامارة الافراسيابية أو حلقة مفقودة من تاريخ البصرة . منشورات المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٦١ .

٩ – ريج . كلوديوس – رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، نقلها الى العربية بهاء الدين نوري . بغداد ١٩٥١ .

١٠ – سركس . يعقوب – مباحث عراقية ، القسم الأول ١٩٤٨ . القسم الثاني ١٩٥٥ بغداد .

١١ – السويدي . الشيخ عبد الرحمن – حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، مخطوطة .

١٢ — شبر ، جاسم حسن — تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم . بغداد ١٩٦٥.

١٣ — الشرقي ، علي — ذكرى السعدون . بغداد ١٩٢٩ .

١٤ — الشهابي ، الأمير حيدر — لبنان في عهد الأمراء الشهابيين . بيروت ١٩٣٣

١٥ — الصايغ ، الخوري سليمان — تاريخ الموصل ، ٣ أجزاء ، الموصل ١٩٢٣

١٦ — الصوفي ، أحمد — المماليك في العراق . الموصل ١٩٥٢ .

١٧ — الطعمة ، سلمان هادي — تراث كربلا ، النجف ١٩٦٤ .

١٨ — العزاوي ، عباس — تاريخ العراق بين احتلالين ، المجلد ٤ — ٨ ، بغداد ١٩٤٩ — ١٩٥٦ .

١٩ — العزاوي ، عباس — تاريخ الضرائب العراقية .

٢٠ — العزاوي ، عباس — مجموعة عبد الغفار الأخرس في شعر الأستاذ عبد الغني جميل . بغداد ١٩٤٩ .

٢١ — العطية ، الحاج وداي — تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً . النجف ١٩٥٤ .

٢٢ — العمري ، سعاد هادي — بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الاخيرة . بغداد ١٩٥٤ .

٢٣ — العمري ، عبد الباقي — الترياق الفاروقي ، ط ٢ . النجف ١٩٦٤ .

٢٤ — العمري ، ياسين خير الله — غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر ، عني بطبعه الدكتور محمد صديق الجليلي . الموصل ١٩٤٠ .

٢٥ — فريزر ، جيمس بيلي — رحلته الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط بغداد ١٩٦٤ .

٢٦ — فائق بك ، سليمان — تاريخ المماليك الكوله‌مند في بغداد ، ترجمة محمد نجيب الارمنازي . بغدالا١٩٦١ .

٢٧ — فائق بك ، سليمان — تاريخ المنتفق ، ترجمة محمد خلوصي الناصري . بغداد ١٩٦١ .

٢٨ — فائق بك ، سليمان — مرآة الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نوري باسم « تاريخ بغداد » . بغداد ١٩٦٢ .

٢٩ — الكعبي ، عبد علي — السيرة المرضية في شرح الفرضية .

٣٠ – الكركوكي ، رسول حاوي – دوحة الوزراء ، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس – بيروت غير مؤرخ .
٣١ – الكعبي ، عبد علي – السيرة المرضية في شرح الفرضية .
٣٢ – الكعبي ، فتح الله بن علوان – زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر ، عني بتصحيحها خلف شوقي الداودي . مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٤ .
٣٣ – لانزا ، دومينيكو – الموصل في القرن الثامن عشر ، عربه عن النص الايطالي القس روفائيل بيداويد ، الطبعة الثانية . الموصل ١٩٥٣ .
٣٤ – لونكريك . ستيفن هيمسلي – أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط ٤ . ١٩٦٨ .
محمد امين زكي – السليمانية وانحائها ، ترجمه عن الكردية الملا جميل روزبياني بغداد ١٩٥١ .
٣٦ – محمد امين . الدكتور عبد الأمير – القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر بغداد ١٩٦٦ .
٣٧ – نظمي زاده ، مرتضى – كلشن خلفا ، مخطوطة تركية
٣٨ – نيبور . كارستن – رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمها عن الألمانية الدكتور محمود الأمين . بغداد ١٩٦٥ .

* * *

مجلة العرفان ، مجلد ٥٣ ، ج ١٠ ، صيدا ١٩٦٩ .
مجلة لغة العرب ، المجلد الرابع . بغداد ١٩١٤ .
مخطوطة مجهولة المؤلف استقى منها مؤلف تاريخ العراق بين احتلالين .

المراجع الاجنبية

1. Alexander, Constance — Baghdad in Bygone Days. London 1928.
2. American University of Beirut Festival Book. Beirut 1967.
3. Brydges, Sir H. J. — Transactions of His Majesty's Mission to the Court of Persia.
4. Capper, J. — Observations on the Passage to India — London 1785.
5. Emin, Joseph — Life & Adventures. (Original published London 1792). Reprinted & Edited by Amy Apcar, Calcutta, 1918.
6. Fraser, J.B. — Travels in Kurdistan & Mesopotamia. London 1810.
7. Heude, W. — A Voyage up the Persian Gulf... London 1819.
8. Irwin, Eyles — A Series of Adventures in the Course of a Voyage... London 1787.
9. Ives, Dr. E. — A Journey from Persia to England. London 1773.
10. Encyclopedia of Islam.
11. Jackson, J. — A Journey from India towards England in 1797. London 1799.
12. Loftus, W.K. — Travel & Researches in Chalaca & Lusiana London 1857.
13. Longrigg, S.H. — Four Centuries of Modern Iraq. London 1925.
14. Nicodeme, J. — Une écrite à S.E. Mons. le Marquis de Villeneuve 1733. (in von Hammer 14 & 13) French physician to Topal 'Uthman.
15. Olivier, G.A. — Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte, et la Perse, Vol. IV, Paris 1791.
16. Parsons, A. — Travels in Asia & Africa, 1774. London 1808.
17. Rich, C.J. — Narrative of a Residence in Koordistan. London 1836.
18. Saleh, Zaki — Origins of British Influence in Mesopotamia. New York 1941.
19. Tavernier, J.B. — The Six Voyages through Turkey into Asia 1638. (Made into English by J.P. London 1678).
20. Thévnot — Suite de Voyage de... Amsterdam 1727.

فهرس المحتويات

فهرست الاعلام

ش

ص ، ض

ط ، ظ

ع ، غ

ن

فهرس الاماكن والبقاع والانهر

ع ، غ

ف ، ق

ك ، ل

فهرس بأسماء العشائر والاسر

فهرس الاقوام والاسماء الاخرى

مطبعة دار الكتب
بيروت - لبنان